دراسات وبحوث
(٢)

جمعية العلماء والطرق الصوفية وتاريخ العلاقة بينهما

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

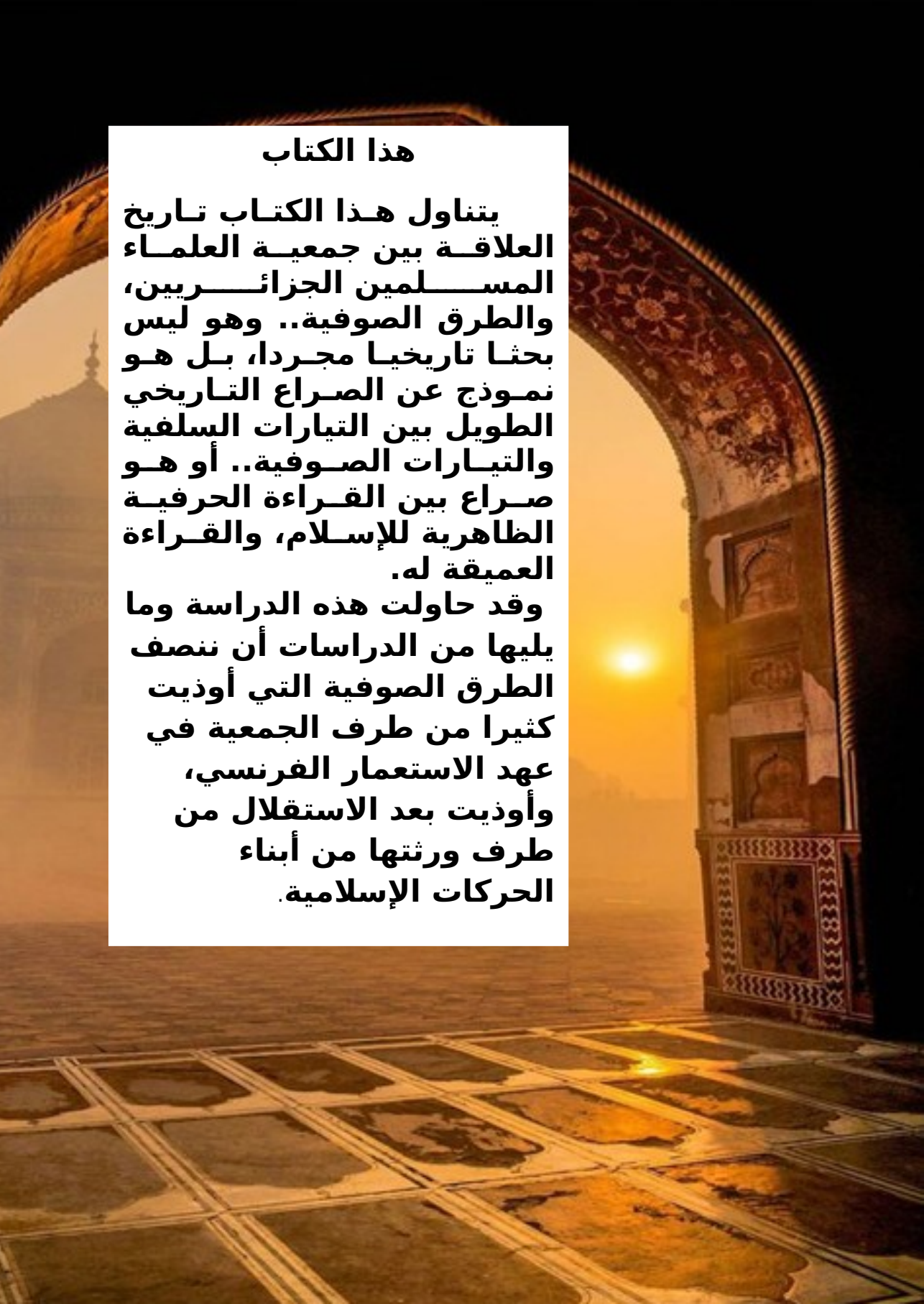

هذا الكتاب

يتناول هـذا الكتـاب تـاريخ العلاقــة بين جمعيــة العلمــاء المســـــلمين الجزائـــــريين، والطرق الصوفية.. وهو ليس بحثـا تاريخيـا مجـردا، بـل هـو نمـوذج عن الصـراع التـاريخي الطويل بين التيارات السلفية والتيــارات الصــوفية.. أو هــو صــراع بين القــراءة الحرفيــة الظاهرية للإسـلام، والقــراءة العميقة له.

وقد حاولت هذه الدراسة وما يليها من الدراسات أن ننصف الطرق الصوفية التي أوذيت كثيرا من طرف الجمعية في عهد الاستعمار الفرنسي، وأوذيت بعد الاستقلال من طرف ورثتها من أبناء الحركات الإسلامية.

دراسات وبحوث

(2)

جمعية العلماء المسلمين والطرق الصوفية

وتاريخ العلاقة بينهما

دراسة علمية

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1437 هـ -2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

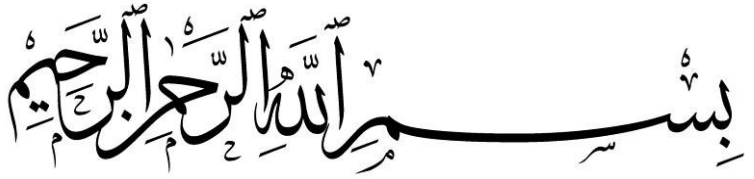
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

مقدمة 13
المنهج: 17
أهم مصادر البحث ومراجعه: 17
أولا ـ المصادر: 18
ثانيا ـ المراجع: 20
الفصل الأول: 24
نبذة تاريخية عن جمعية العلماء والطرق الصوفية 24
المبحث الأول 25
نبـــذة تاريخيـــة عن جمعيـــة العلمـــاء المســـلمين الجزائريين 25
المطلب الأول: المرحلة التأسيسية للجمعية 26
أولا ــ مؤسس الجمعية: 27
1 ــ أحمد توفيق المدني: 28
2 ــ عبد الحميد بن باديس: 31
3 ــ الطيب العقبي: 35
ثانيا ــ جلسات التأسيس: 40
ثالثا ــ قانون الجمعية: 42
المطلب الثـاني: جمعيـة العلمـاء في عهـد ابن باديس وأهم منجزاتها: 44
أولا ــ استبعاد المحافظين من الجمعية: 47
ثانيا ــ حضور المؤتمر الإسلامي: 50
ثالثا ــ رفض برقية التأييد لفرنسا: 57
المطلب الثـــالث: جمعيـــة العلمـــاء في عهـــد الإبراهيمي: 59
المرحلة الأولى (1939- 1944): 60
المرحلة الثانية (1944-1956): 62
المطلب الرابع: دور الشيخ العربي التبسـي في جمعيـة العلماء 65
1 ــ قبل تأسيس الجمعية: 66
2 ــ عند تأسيس الجمعية: 67
3 ــ مرحلـة العضـوية في المجلس الإداري لجمعيـة العلماء 67
4 ــ مرحلة الرئاسة الفعلية لجمعية العلماء: 69

المبحث الثاني 72
نبذة تاريخية عن الطرق الصوفية المعاصرة لجمعيــة العلماء 72
المطلب الأول: الطريقة القادرية 75
أولا ــ مؤسس الطريقة القادرية: 76
ثانيا ــ شيوخ الطريقة في الجزائر: 76
1 ـــ الشيخ محمد الهاشمي بن إبراهيم: 77
2 ـــ الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي: 77
القاضي شعيب بن علي: 81
المطلب الثاني: الطريقة الرحمانية 82
أولا ــ مؤسس الطريقة: 83
ثانيا ــ شيوخ الطريقة الرحمانية وأعلامها: 86
الشيخ عبد الرحمن باش تارزي: 86
الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن بــاش تارزي: 87
الشيخ محمّد بن أبي القاسم: 90
الســـــيدة زينب بن محمـــــد بن أبي القاسم: 91
الشيخ محمـد بن الحـاج محمـد بن أبي القاسم: 91
الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي: 92
الشيخ أبو القاسم الحفناوي: 93
محمد بن عزوز البرجي: 93
الشيخ محمد المكي بن عزوز: 95
الشيخ عبد الكريم بن التارزي: 99
الشيخ الطاهر العبيدي: 100
المطلب الثالث: الطريقة التيجانية 102
أولا ــ مؤسس الطريقة: 102
ثانيا ــ مشايخ الطريقة التيجانية: 105
الشيخ أحمد سكيرج العياشي : 105
الشيخ محمد الحافظ التيجاني: 106

المطلب الرابع: الطريقة العلاوية 108
أولا ــ مؤسس الطريقة: 108
ثانيا ــ مشايخ الطريقة العلاوية: 110
الحاج عدة بن تونس: 110
الشيخ محمد بن خليفة المدنى: 111
خاتمة الفصل 114
الفصل الثاني 116
العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين والطـرق الصوفية 116
المبحث الأول: العلاقــة الرســمية بين جمعيــة العلمــاء والطرق الصوفية 117
المطلب الأول: مرحلة التوافق وأسبابها: 118
أولا ــ بداية التوافق ومدته: 119
ثانيا ــ أسباب التوافق: 122
1 ـــ مصالح الجمعية المتعلقة بالتوافق: 122
2 ـــ مصــالح الطــرق الصــوفية المتعلقــة بالتوافق: 124
3 ــ مصالح الجزائر المتعلقة بالتوافق: 125
المطلب الثاني: مرحلة الخلاف وأسبابها: 131
أولا ـــ الأحــداث الســابقة على تأســيس الجمعية: 141
ثانيا ــ الأهداف الداعية للتأسيس: 147
ثالثا ــ التنافر بين الاتجاهات الفكرية: 150
رابعا ــ الأسباب النفسية: 150
خامسا ــ المؤامرة الاستعمارية: 153
المطلب الثــالث: نتــائج الخلاف بين الجمعيــة والطرق الصوفية 158
أولا ــ زيادة شدة الخلاف: 158
ثانيا ــ تضييع المكاسب والطاقات: 161
تضييع المكاسب: 161
تضييع الطاقات: 162
ثالثا ــ تأسيس جمعية علماء السنة : 163
المبحث الثاني 170
العلاقة الشخصية بين الجمعية والطرق الصوفية 170

المطلب الأول: الموقف المعتدل: 175
الشيخ عبد الحميد بن باديس: 176
الشيخ أبو يعلى الزواوي: 192
المطلب الثاني: الموقف المتشدد: 195
الشيخ الطيب العقبي: 197
الشيخ مبارك الميلي: 198
الشيخ محمد السعيد الزاهري: 200
الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: 204
خاتمة الفصل 213
الفصل الثالث 216
وسائل التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية 216
المبحث الأول: وسائل تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية 217
المطلب الأول: التنقلات والتجمعات 218
أولا ــ التنقلات: 219
1 ــ تنقلات عامة: 219
النموذج الأول: 221
النموذج الثاني: 225
النموذج الثالث: 229
2 ــ تنقلات مناسباتية: 231
الخطبة الأولى: 233
الخطبة الثانية: 234
ثانيا ــ التجمعات: 236
المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة 238
1 ــ المنتقد: 240
2 ــ الشهاب 244
3 ــ الجزائر: 247
4 ــ صدى الصحراء: 249
5 ــ الإصلاح: 249
6 ــ البرق 249
7 ــ السنة المحمدية: 251
8 ــ الشريعة المحمدية: 252
9 ــ الصراط السوي: 253
10 ــ الجحيم 254

11 ــ البــصائر: 256
المطلب الثالث: الكتب والرسائل 258
جواب سؤال عن سوء مقال: 258
رسالة بدعة الطرائق في الإسلام: 260
رسالة الشرك ومظاهره: 261
الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير: 263
المبحث الثاني: وسائل تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية 265
المطلب الأول: التنقلات والتجمعات 265
المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة 267
1 ــ جريدة النجاح: 268
2 ــ صحيفة لسان الدين: 273
3 ــ صحيفة البلاغ الجزائري: 274
المطلب الثالث: الكتب والرسائل 275
رسالة القـول المعـروف في الـرد على من أنكـر التصوف: 275
رســالة الناصــر معــروف في الــذب عن مجــد التصوف: 277
رســالة القــول المعتمــد في مشــروعية الــذكر بالإسم المفرد : 278
الشهائد والفتاوى: 279
أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل 280
تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء: 280
وقاية الذاكرين من غواية الغافلين 281
الدرة البهية في أوراد وسند الطريقة العلاوية 281
خاتمة الفصل 282
الفصل الرابع 285
أساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية 285
المبحث الأول: أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية 286
المطلب الأول: المواجهة العلمية 286
أولا ــ مصادر الجمعية في الرد على الطـرق الصوفية: 287

ثانيا ــ خصائص المواجهة العلمية: 291
1 ــ عدم الاعتراف بالآخر: 291
2 ــ الانتقائيــة في التعامــل مــع القضــايا العلمية: 302
3 ــ ترجيح الفتوى على الحوار العلمي: 310
4 ــ عدم المناقشة العلمية الهادفة: 315
5 ـــ الرجـوع في المناقشـات إلى العامــة بـدل العلماء 319
المطلب الثاني: المواجهة الأدبية 326
أولا ــ الخطابة: 328
ثانيا ــ الشعر: 329
1 ــ الزاهري: 330
2 ــ الطيب العقبي: 332
3 ــ الإبراهيمي 339
ثالثا ــ القصة: 341
رابعا ـ المقالة الأدبية: 346
المطلب الثالث: المواجهة العاطفية 352
النموذج الأول: الاعتداء على ابن باديس 352
النموذج الثاني: الاعتداء على الزاهري 358
النموذج الثالث: طلب المباهلة 363
المبحث الثــاني: أســاليب تعامــل الطــرق الصــوفية مــع الجمعية 365
أولا ــ الاعتماد على المصادر الـتي ألفت في الـرد على الوهابية: 366
ثانيا ــ ضعفها في علوم الحديث: 372
ثالثا ــ تسامحها مع المخالف: 377

مقدمة

لا شـك أن البـاحث في الواقـع الـديني والثقـافي والاجتمـاعي للجزائــر في عهــد الاســتعمار الفرنســي، يجــد فصــيلين مهمين متميزين كان لكيلهما أثره في الحياة الجزائرية:

أما **الأول**: فيمثله مشايخ الطرق الصوفية ومريدوهم وزواياهم وأوقافهم التي لم تكن تخلو منها مدينة ولا قرية في جميع القطر الجزائـري، وهم – لـذلك- متغلغلـون في جميـع الحيـاة الجزائريـة اجتماعية كانت أو تربوية أو ثقافية أو حتى ما ارتبط منها بالجــانب السياسي والعسكري.

وأمـا **الثـاني**: فهم العلمـاء أو طلبـة العلم الـذين تبنـوا الفكـر الإصلاحي التنويري أو الوهابي الـذي كـان في ذلـك الحين في أوج نشاطه في المشـرق العـربي، وقـد تسـنى لهـذا الفريـق أيضـا أن يقيم بعض المؤسسات التربوية والإعلامية الـتي ينشـر من خلالهـا آراءه ومشــاريعه الإصــلاحية، وقــد تجلى هــذا الفصــيل في أجلى صوره في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

ومن الطبيعي أن يحصل بين فصيلين كبـيرين كهـذين الفصـيلين أنواع من العلاقة والتعامل المبنية على أساس التوجهـات الفكريـة المختلفـة، وعلى أسـاس المشـاريع الإصـلاحية الـتي قـد تختلـف التصورات حولها.

بنـاء على هـذا، وبنـاء على أهميـة مـا حصـل في تلـك الفـترة الخطيرة من التاريخ الجزائري، والتي انبنى عليها الواقع الجزائري بعد الاستقلال تثار إشكالات كثيرة يمكن صياغتها كما يلي:

الأول: لقد كان كلا التيارين يحملان أفكارا مختلفة، تصل أحيانا إلى درجة التناقص، وكان لهما في نفس الوقت مشاريع يشـتركان فيها كبغض الاسـتعمار وحب التخلص منـه، والحـرص على الهويـة العربيـة الإسـلامية، والحـرص على تحقيـق العدالـة والتخلص من الجور والتمييز العنصري الذي فرضه الاستعمار.

وهذا يستدعي التساؤل عن تعامـل هـذين الفصـيلين مـع هـذين الجــانبين، وهــل غلب كلاهمــا الاتجــاه الفكــري، ومــا يفــرزه من اختلافات تصل إلى حد التناقض، أم أنهما ترفعـا على هـذا، وعلمـا

أن الواقع الجزائري لا يسمح بطرح تلك الخلافات، وأن الأولى هـو العمل في المتفق عليه، وترك الخلاف لمحله.

الثاني: هـو أنـه من المتفـق عليـه، بـل من البـديهي أن التيـار الإصلاحي في الجزائر، كما هو في العالم الإسلامي أجمـع، ينطلـق من خلافه التام مع التيار التقليدي المحافـظ المتمثـل في الطـرق الصوفية ومؤسساتها، بل إنه لم يسم إصلاحيا إلا لثورته على التيار التقليدي، وهـذا يسـتدعي التسـاؤل عن الأسـباب المحركـة لـذلك الخلاف، ومـدى أهميتهـا، وموضـوعيتها.. وهـل كـان مـا حـدث من خلاف خطأ استراتيجيا وقع فيـه كلا الطـرفين المختلفين حين غفلا عن القضـايا الكـبرى الـتي كـان يمكن أن يتوجهـا لهـا.. أم أن مـا حصل كان ضرورة لابد منها، ولم يكن هناك بـد من إعلان الحـرب على المخالف، فالجسم المريض لا يمكنه أن يتحرر خارجيـا إلا إذا تحرر داخليا؟

الثـالث: وهـو بعـد إقرارنـا بوجـود الخلاف الفكـري بين كلا الفصـيلين، وهـو ممـا لا يجـادل فيـه أحـد، هـل كـان هنـاك فـرص لتخفيف بعض مظاهر الخلاف، أو الحد منـه نهائيـا، أم أنـه لم يكن لهما مناص من ذلك.. أي أن ما حصل هو ما ينبغي أن يحصل، فلم يكن أمام الجمعيـة، ولا أمـام الطـرق الصـوفية إلا تلـك الأسـاليب والوسائل التي استعملاها؟

الرابع: هو عن آثار ذلك التعامل، وما حصـل فيـه من وفـاق أو خلاف، هل بقي محصورا في المحال التي كان فيها، أم أنه تعـداها إلى نواح أخرى كالسياسة والمجتمع والثقافة والدين وغيرها؟

وفي هـذه الحالـة، هـل يمكن أن نسـتفيد من الأخطـاء الـتي وقعت، ونتدارك ما لم يمكن تداركه في المرحلـة السـابقة، أم أن ذلك كله مستحيل؟

وهل تستفيد التيارات العلمانية المختلفة ممـا يحـدث اليـوم من خلاف بين التجديديين أو الحركيين أو السلفيين، وبين الطرقيين أو المحافظين؟

وهل استغلت الحكومـات المتعاقبـة على الجزائـر ذلـك الخلاف القديم، والذي اكتسى كل حين ثيابا جديدة، في صرف الإسـلاميين عن التأثير الاجتماعي، وعن المناصب السياسية؟

هذه الأسئلة وغيرها نحاول الإجابة عنهـا في هـذه السلسـلة من

الدراسات التي نتقدم بها للباحثين وطلبة العلم لإعادة قراءة التاريخ بدقة وموضوعية بعيدا عن أي مؤثرات، وقد عنونا السلسلة بـ (دراسات حول جمعية العلماء والطرق الصوفية في الجزائر)

وقد دفعنا إلى اختيار البحث في هذا الموضوع دوافع كثيرة يمكن حصرها في:

دافع علمي: وهو أني رأيت أكثر الباحثين في هذا الموضوع يقفون مع أحد طرفي التعامل، بل نراهم في أحيان كثيرة يعتبرون الطرف الآخر هو أساس المشكلة وسببها.. وهذا يؤثر كثيرا على المنهج العلمي، فهو يتطلب التعامل مع الطرفين من زاوية موضوعية واحدة.

وكمثال على ذلك كتاب (صراع بين السنة والبدعة) للشيخ أحمد حماني - رحمه الله – فهو مع أهميته البالغة في الموضوع إلا أن مؤلفه يمثل فيه طرفا من أطراف النزاع، وبالتالي صار أقرب إلى الوثيقة أو المصدر منه إلى البحث الموضوعي.

وهكذا نجد الكثير من المراجع في هذا الباب تنظر من زاوية واحدة لهذا الموضوع الخطير، وبالتالي تعلن حربها على الطرف الآخر، لتصبح هي الأخرى فردا من أفراد الخلاف.. ولهذا رأينا الحاجة إلى استعمال الحيدة المطلقة حتى نصل إلى الحقيقة من بابها الصحيح.

دافع عملي: وهو ناشئ من اعتقادنا أن الحاضر صدى للماضي، وما يحصل اليوم ربما يكون قد حصل مثله من قبل، والعاقل هو الذي يستفيد من صواب غيره وخطئه، حتى لا يفوته الصواب، وحتى لا يكرر الخطأ.

والدعوة الإسلامية خصوصا بحاجة إلى الكثير من التجارب في هذا المجال، فهي تخوض كما خاض سلفها حروبا عديدة مع تيارات مختلفة، وهي تحتاج إلى نوع من النضج في هذا الباب لتستفيد من حسنات التجارب السابقة، وتعتبر بسيئاتها.

وللأسف نجد الكثير من الدعاة في الجزائر على إلمام مفصل وواسع بكثير من الحركات الإسلامية الشرقية، وأنواع التعامل التي حصلت لها مع مختلف التيارات، بينما تغيب عنهم الحركة الإسلامية الجزائرية، بل يعتبرونها من تاريخ المواجهة للاستعمار، وكأنها لم يكن لها هدف إلا مواجهة الاستعمار، وبما أن الاستعمار

قد ذهب، فقد انتهى دورها.

دافع شخصي: وهـو أنـه أتيح لي أن أطلـع عن كثب على من يمثل جمعية العلماء والطرق الصوفية في واقعنا المعاصر.

فقد صحبت بعض الطرق الصـوفية، وتتلمـذت في بعض الزوايـا التي كان لها علاقة بمشائخ الجمعية، ودرَّسـت فيهـا، وقـد أتيح لي أن أتعرف على مواقفها المختلفة سواء من جمعية العلماء كرجال يمثلونهـا، أو على الأفكـار الـتي بثتهـا جمعيـة العلمـاء، أو لا يـزال ورثتها يبثونها.

ومثلمـا صـحبت هـذه الطـرق انخـرطت في بعض الحركـات الإسـلامية، ورأيت مواقفهـا المختلفـة، بـل والمتناقضـة أحيانـا من التصوف، ومن الطرق الصوفية.

وقد كان لكلا الأمرين أثـره في نفسـي: فقـد شـعرت بنـوع من الصراع بين ذلك الانتماء المحافظ، وبين ذلك التجديد الذي أتت به جمعية العلماء، والذي مثله بعد ذلك ورثتها.. وقد كنت أتساءل كل حين بيني وبين نفسي عن إمكانية التوفيق بين كلا التيارين: التيـار التقليدي المحافظ المتسغرق في محافظته، وبين التيار التجديـدي أو السلفي الذي مثلته الجمعية، ومثله بعد ذلك ورثتها.

وقد آلمني أكثر من ذلك أن الحركات الإسلامية مع ما أثبتته من قدرة على اختراق كثير من المواقـع إلا أنهـا لم تفكـر في اخـتراق الطرق والزوايا، فتركتها ساحة مباحة لغيرهـا يتحكمـون فيهـا، بـل قد تدبر لهم المكايد من خلالها.

وقد رأيت أن سر ذلك الخوف من التقدم لتلك الجهات لتوجيهها التوجيه الصحيح هو النظرة التي لا تزال وليدة الماضي، والتي هي أثر من آثـار خلاف جمعيـة العلمـاء مـع هـذه المحـال، وهي تحتـاج لذلك إلى جرأة في البحث بعيدة عن كـل تعصـب، وهـو مـا نفتقـر إلى كثير منه للأسف.

ولهذا، فأنا أحاول من خلال هذه الرسالة أن أكون جسرا واصـلا بين الحركـات الإسـلامية الـتي تمثـل في حقيقتهـا ودورهـا جميعـة العلماء، وبين الزوايا والطرق الصوفية.. ليعملا جميعـا في المتفـق عليه، وما أكثر المتفق عليه.

أما المختلف فيه، وهو في أكثره فروع من المسـائل الاعتقاديـة والسلوكية، فله نظيره في العالم الإسلامي أجمـع، بـل لـه نظـيره في الكتب المتداولـة.. فيمكن البحث فيـه على طـاولات البحث.. لتخفيف آثار الخلاف إلى أقل حدودها الممكنة.

المنهج:

بناء على موضوع هذه السلسلة، فإننا نعتمد المناهج التالية:

المنهج الوصفي التاريخي: وهو منهج ضروري لوصف واستعراض الأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية.. فللبحث كما هو – ظاهر – علاقته بالتاريخ السياسي والحضاري.

المنهج التحليلي النقدي: ونحاول من خلاله دراسة الأسباب والظواهر والآثار، ومناقشتها، وربط بعضها ببعض، واستنباط الأحكام منها جزئية كانت أو كلية، نسبية كانت أو نهائية، مع الدراسة النقدية للوثائق والنصوص لاستخلاص الحقائق من مصادرها الأولى، وبكل موضوعية.

المنهج المقارن: فالدراسة مقارنة بين جهتين، وأسلوبهما في إدارة التعامل، وذلك يحتاج منا إلى عقد المقارنات المختلفة، بالإضافة إلى أنا نحتاج إلى هذا المنهج في بعض الأحيان لمقارنة هذا التعامل المحلي بأنواع أخرى من التعامل حصلت في نواح أخرى من العالم.

أهم مصادر البحث ومراجعه:

أولا ـ المصادر:

وهي كثيرة يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

1 ـ **الصحف الصادرة من كلا الطرفين**:

أما الطرف الأول، وهو جمعية العلماء، فمن صحفها التي نعتبرها مصادر أساسية (المنتقد)، و(الشهاب)، و(الإصلاح)، و(البرق)، و(صدى الصحراء) و(السنّة)، و(الشريعة)، و(الصراط)، و(البصائر)

وتعتبر (الشهاب)، و(البصائر) من أهم المصادر، حيث استمرتا بالصدور مدة طويلة، بينما توقفت الجرائد الأخرى بعد صدور كل منها بفترة قليلة.

أما صحف الطرق الصوفية، فأهمها جريدة (البلاغ الجزائري)، ومجلة (المرشد) التي كانت تصدرهما الطريقة العليوية، وقد كانت هذه الطريقة من أهم أطراف الخلاف مع الجمعية.

2 ـ التقارير والمنشورات الصادرة من كلا الطرفين:

باعتبارها وثائق رسمية، وقد حاولنا الرجوع لمنشورات كلا

الطرفين في المسائل المختلفة:
فمن التقـارير الصـادرة عن جمعيـة العلمـاء (سـجل مـؤتمر الجمعية) المنعقـد عـام 1935 في العاصـمة الجزائريـة والمتـألف من 238 صفحة، ويشـتمل على تقريـر أعـده البشـير الإبـراهيمي نائب رئيس الجمعية، وفيه يـبين منجـزات الجمعيـة منـذ تأسيسـها حتى عام 1935، كما يحدد الخطـط المسـتقبلية للجمعيـة، ويضـم أيضـا كلمـات وقصـائد لبعض أعضـاء الجمعيـة، ويعتـبر تقريـر الإبراهيمي أهم ما في هذا السجل.
ومنها (القانون الأساسي لجمعية العلماء الجزائريين)
أما المنشورات المرتبطة بالطرق الصوفية، فأكثرها مـذكور في جرائـدها ومجلاتهـا المختلفـة كجريـدة (البلاغ الجزائـري)، ومجلـة (المرشد)
3 ـ **الكتب والرسائل**:
فمن الكتب الخاصـة الـتي ألفت لتأييـد خـط الجمعيـة (رسـالة الشرك ومظاهره)، للشـيخ مبـارك الميلي، و(بدعـة الطرائـق في الإسـلام) للشـيخ العـربي التبسي، و(الصـراع بين السـنة والبدعة) للشيخ أحمد حماني.
بالإضافة إلى مجموعـة أعمـال ابن بـاديس في تفسـير القـرآن والموضـوعات العامـة، وقـد جمعت هـذه الأعمـال من قبـل بعض تلاميذ ابن باديس في مصنفين يتعلـق الأول بتفسـير القـرآن نشـر عـام 1964، ويعتـبر الثـاني أشـمل وأعم من الأول لأنـه يتضـمن كامل آثار ابن باديس التي عثر عليها جامعهـا، وضـمنها كتابـه (ابن باديس حياته وآثاره)
ومنهـا مجموعـة مقـالات البشـير الإبـراهيمي الـتي كتبهـا في افتتاحيات جريدة البصائر، في سلسلتها الثانيـة، وقـد جمعت أيضـا بعد وفاته.
ومنها الكتـاب الجـامع لآثـار الشـيخ العـربي التبسي، من تـأليف تلميذه الأستاذ أحمد الرفاعي الشـرفي، والـذي عنوانـه: (مقـالات في الــدعوة إلى النهضــة الإســلامية في الجزائر بقســميه الأول والثاني)
بالإضافة إلى كتب الـدكتور أحمـد عيسـاوي الكثـيرة المرتبطـة بالجمعيـة عمومـا، وبالشـيخ العـربي التبسي وأعلام مدينـة تبسـة خصوصا.
ومن الكتب الــتي ألفت لتأييــد خــط الطــرق الصــوفية كتب

ورسائل (أحمد بن مصطفى بن عليوة المستغانمي)، وهو من أكبر من توجه له النقد من طرف رجال الجمعية، ومن تلك الكتب والرسائل (رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوّف)، وهي رسالة للرد على الفقيه الشيخ عثمان بن مكي صاحب (المرآة لإظهار الضلالات)

ومنها (مظهر البينات في التمهيد بالمقدمات)، و(القول المقبول فيما تتوصل إليه العقول)، و(القول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد)، و(البحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور)، و(المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية)، و(المنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية)، و(ديوان الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي)، و(الأبحاث العلوية في الفلسفة الإسلامية)، و(رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف)، و(أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل).. وغيرها، وهي في جلها مناقشات علمية لما كان يطرح في ذلك الحين من مسائل في المحال المختلفة.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن بعض المصادر المرتبطة بالطريقة العلاوية تكاد تكون مفقودة، ولهذا فقد رجعت فيما يخصها إلى مرجعين:

الأول: كتاب (صفحات مطويّة في التصوّف الإسلاميّ) لشيخ الطريقة الدرقاوية في الأردن الشيخ أحمد حسن شحاذة الردايدة والذي نقل جزءا كبيرا من كتب الشيخ ابن عليوة في كتابه هذا، وخاصة أهم كتاب من كتب الشيخ وهو(أعذب المناهل) الذي صار في حكم المفقود، لأني لم أجده بعد البحث الطويل، ولهذا فإني في التوثيق أنقل من هذا الكتاب مع الإشارة إلى المصدر الأصلي.

الثاني: رسالة علمية جادة بعنوان (الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1909 – 1934) للباحثة غزالة بوغانم، وهي رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة منتوري بقسنطينة، قسم التاريخ والآثار، وميزة هذه الرسالة أن صاحبتها قامت بإجراء مقابلات مع شخصيات مهمة في الطريقة العلاوية لم يتسن لي اللقاء معها، بالإضافة إلى اطلاعها على بعض الكتب التي صارت في حكم المفقود.

ثانيا ـ المراجع:

وهي كثيرة جدا:

منها ما يرجع لدراسة الواقع الجزائري إبان الاستعمار، وخاصة في تلك الفترة التي تأسست فيها الجمعية ومارست فيها نشاطاتها، وهي كثيرة لعل أهمها كتابات أبي القاسم سعد الله حول الحركة الوطنية الجزائرية، وحول التاريخ الثقافي الجزائري.

ومنها مؤلفات أحمد توفيق المدني كـ (كتاب الجزائر)، و(هذه هي الجزائر) و(حياة كفاح) باعتبار مؤلفها عاصر الحركة، فكان لسانا معبرا عنها وعن مواقفها في هذا المجال.

ومنها كتابات يحي بوعزيز، وخاصة منها كتابه (كفاح الجزائر من خلال الوثائق)

ومنها الكتابات التي تؤرخ للجمعية أو الطرق الصوفية وتحلل نشاطاتها، ومنها كتاب (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر) لأحمد الخطيب.

ومنها ما يرجع إلى دراسة الشخصيات التي تمثل الجمعية أو تمثل رجال الطرق الصوفية:

وأهمها – بالنسبة للتأريخ لرجال الجمعية - مؤلفات الدكتور تركي رابح عمامرة الكثيرة في هذا المجال، وخاصة كتابه (الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ محمد بن عبد الوهاب في طريق الإصلاح والسلفية، دراسة مقارنة)، وكتابه (الشيخ عبد الحميد بن بايس فلسفته وجهوده في التعليم)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح الإسلامي والتربية في الجزائر)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة)، و(الشيخ عبد الحميد بن باديس شيخ المربين وشيخ المصلحين في الجزائر)، و(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية 1931 – 1956 ورؤساؤها الثلاثة : ابن باديس – والإبراهيمي – والشهيد الشيخ العربي التبسي)

ومنها كتاب (الإمام عبد الحميد بن باديس: الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية) للدكتور محمود قاسم، وكتاب (ابن باديس وعروبة الجزائر) لمحمد الميلي، وكتاب (عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية) لبسام العسلي.. وغيرها كثير.

أما الكتب التي تؤرخ لرجال الطرق الصوفية، فمن أهمها كتاب

(الروضة السنية في ذكر المآثر العلوية) للشيخ عدة بن تونس، ويتناول فيه حياة الشيخ العلوي بالتفصيل، والخلاف الذي جرى بينه وبين رجال جمعية العلماء، ويذكر أهم مريديه في القطر الجزائري وخارجه، ويعتبر الكتاب من أهم الوثائق التي تتناول شخصية الشيخ.

ومنها (ذكريات الدكتور مارسيل كاريه)، وهي ذكريات أو مذكرات طبيب فرنسي كان قد باشر معالجة الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي في السنوات الأخيرة من حياته، وقد نشرها في طنجة سنة 1942، وهي تكتسي أهمية كبرى باعتبارها شهادات حية من مصادر أجنبية على سيرتهم، وخصوصا الجانب التفصيلي فيها.

الثالث: كتب اهتمت بدراسة الخلاف بين المدرستين اللتين تمثلان الجمعية والطرق الصوفية، وهي المدرسة السلفية والمدرسة الصوفية، وهي كتب كثيرة جدا، منها كتاب (جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية)، للدكتور محمد بن أحمد بن علي الجوير، وأصل الكتاب رسالة علمية تقدم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراة في العقيدة والمذاهب المعاصرة، ومنها كتاب (الردود العلمية في دحض حجج وأباطيل الصوفية: ردود طائفة من علماء القرن السادس) للكاتب السابق، وكتاب (جهود علماء الحنفية في دحض عقائد القبورية) للشيخ العلامة شمس الدين السلفي، وكتاب (الطريقة الشاذلية: عرض ونقد)، وهو رسالة علمية من تأليف الدكتور خالد بن ناصر العتيبي، وكتاب (عقيدة الصوفية وحدة الوجود الخفية) للدكتور أحمد بن عبدالعزيز القصير، وغيرها كثير.

بالإضافة إلى كتب الطرق الصوفية الكثيرة في هذا المجال.

وأخيرا، من الصعوبات التي واجهتني أثناء القيام بالبحث هو المواجهة مع من ينظرون إلى التاريخ الجزائري ورجاله بنوع من التقديس الذي يحول بينهم وبين النظرة العلمية الموضوعية.

والحمد لله، فهذه النظرة التقديسية ربما تكون في مصيرها إلى الزوال، وخاصة بين الباحثين والأكاديميين الصادقين الذين يجعلون من الماضي موضع عبرة لا موضع تقليد.

والثانية هي ذلك الخوف من الذين يتصورون أن كل بحث له

علاقــة بـالطرق الصـوفية لا يعـدو أن يكـون تشـجيعا للخرافـة أو الشعوذة أو الدجل.. وهذه النظرة القاصـرة للأسـف لازلنـا نعـاني منهـا، وهي الـتي تحـول بيننـا وبين اسـتثمار كثـير من الطاقـات الإسلامية، بل وتصرف جهودنا إلى كثير من الجزئيات التي تشـتت جهودنا، وتترك الفرصة للمغرضين ليندسوا إلينا من خلالها.

وأما الثالثة، فإنـا مـع محاولتنـا أن نكـون موضـوعيين في بحثنـا ووجهنا بفقد بعض ما نحتاجه من وثائق، وقد اضطرنا هذا إلى نـوع من التحليـل الـذي قـد يفتقـد الموضـوعية العلميـة.. فلـذلك نحن نستغفر الله مسبقا لأي خطـأ يمنعنـا من التحقيـق العلمي الجـاد.. والحمد لله أولا وأخيرا.

الفصل الأول
نبذة تاريخية عن جمعية العلماء والطرق الصوفية

مـع الشـهرة الـتي حظيت بهـا جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين ومثلها الطرق الصـوفية، ومـع كـثرة البحـوث المعرفـة بهمـا والمؤرخـة لهمـا إلا أن المنهج العلمي يتطلب منـا التقـديم بالتعريف بكليهما، وذلك لسببين:

الأول: أن هذا من ضروريات المنهج العلمي، فالتصديقات فرع عن التصورات، والحكم على الشيء فرع عن تصوره.

الثاني: أن التعاريف والتواريخ المرتبطة بالجمعيـة قـد تختلـف من جهـة إلى أخـرى، وقـد تتـدخل في بعضـها الذاتيـة والأحكـام الجزافية، وهذا يقتضي منـا التحقيـق للوصـول إلى الحقيقـة بعيـدا عن التقليد.

وبناء على هذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: نبـذة تاريخيـة عن جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين.

المبحث الثاني: نبذة تاريخية عن الطرق الصوفية المعاصـرة لجمعية العلماء.

المبحث الأول
نبذة تاريخية عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

تعتبر جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين من أكـثر الجمعيـات الدينيـة والثقافيـة الجزائريـة شـهرة، ذلـك أن سـمعتها في تـاريخ الإصلاح والثقافة تعدت الجزائر لتشمل العالم كله.

ولذلك أسباب كثيرة لعل أهمها هو اجتمـاع الكثـير من العمالقـة الكبـار في الفكـر والأدب والنشـاط في وقت واحـد، وفي جمعيـة واحدة.

ومنهـا الأهـداف الكثـيرة الـتي حملتهـا الجمعيـة في ظـل واقـع استعماري مليء بأصناف المعوقات والمثبطات.

ومنهـا الأعمـال الكثـيرة الـتي اسـتطاعت أن تقـوم بهـا - بغض النظر عن المواقـف حولهـا - إلا أنـه لا يمكن لأحـد من النـاس أن ينكرهـا، وكيـف ينكرهـا، ونحن لا نـزال نـرى آثارهـا في الواقـع الجزائري إلى الآن.

وأسباب كثيرة أخرى جعلت من جمعية العلمـاء عنـد الكثـير من الباحثين أكبر حركة إصلاحية عرفتها الجزائر في تاريخها الحديث.

انطلاقا من هذا نحاول في هذا المبحث أن نتعرف على تاريخها، والعوامل المؤثرة فيـه، والـتي أتـاحت لهـا كـل ذلـك التـأثير، وقـد قسمنا المبحث إلى ثلاثة مطالب بحسب المراحل التي مرت بها:

المطلب الأول: المرحلة التأسيسية للجمعية

المطلب الثاني: جمعيـة العلمـاء في عهـد ابن بـاديس وأهم منجزاتها

المطلب الثالث: جمعيـة العلمـاء في عهـد الإبـراهيمي وأهم منجزاتها

المطلب الرابع: دور الشــيخ العــربي التبســي في جمعيــة العلماء

أما ما يرتبط بتوجهها الفكري، ومشاريعها الإصـلاحية، ووسـائلها في تحقيقها، فسنتحدث عنها بتفصيل في فصـل خـاص في البـاب الثاني من هذه الرسالة.

المطلب الأول: المرحلة التأسيسية للجمعية

تعتبر المرحلة التأسيسية لجمعية العلماء المسلمين الجزائـريين من أدق مراحلها التاريخية حساسية، باعتبار الظروف الاستعمارية

التي كانت تمر بها الجزائر حينئذ، وباعتبار الواقع الديني الذي كان يشكل فيه المحافظون نسبة أكبر بكثير من نسبة الإصلاحين، وباعتبارات أخرى كثيرة.

ومع ذلك، فلم يكن تأسيسها عجيبا، فقد كانت هناك عوامل كثيرة خففت من وطأة تلك الظروف القاسية، وقد أشار إلى بعض تلك العوامل الشيخ الإبراهيمي، الذي عزاها إلى أربعة عوامل[1]:

أولها: آثار دعوة الإمام محمد عبده التي تأثر بها المصلحون الجزائريون، وكذا مؤلفات تلميذه الشيخ رشيد رضا التي كان لها الأثر القوي في إذكاء الحركة الإصلاحية في الجزائر، ومن ثم توحيد جهودهم تحت جمعية واحدة.

ثانيها: الثورة التعليمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد ابن باديس بدروسه حيث كون عقولهم وشحذ عزائمهم وربى نفوسهم على وجه تتشوف به إلى كل دعوة تغيير في المستقبل بقائد الدين وشعار الإصلاح.

ثالثها: التطور الفكري الذي طرأ على عقول الناس من مخلفات وآثار الحرب العالمية الأولى.

رابعها: رجوع طائفة من المثقفين الجزائريين الذين كانوا يعيشون في المشرق العربي ولا سيما في الحجاز والشام والذين من أبرزهم الإبراهيمي والعقبي.

وقد وقعت في التأريخ لهذه الفترة خصوصا كثير من الخلافات بين المؤرخين للجمعية سواء كانوا من الموالين لها، أو من المناوئين، وهي مهمة جدا من حيث دورها في إعطائنا الصورة للوضع حينذاك، وخاصة ما يرتبط منه بالتعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

وانطلاقا من هذا، فسنبحث في هذه الفترة خصوصا انطلاقا من وجهات النظر المختلفة محترمين لها جميعا، تاركين الحكم بعد ذلك للقارئ، أو للباحث المنصف لمزيد من البحث للاطلاع على

---

[1]) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المنعقد بمركزها العام، نادي الترقي بالجزائر، دار الكتب، 1982 ، ص46، وما بعدها، وانظر: آثار الإبراهيمي: 1/181.

الحقيقة من جميع جوانبها.

ونحب أن ننبه هنا إلى أننا لن نطرق في هذا المطلب الخلاف الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية في مرحلتها التأسيسية لأننا سنذكره بتفصيل من وجهات النظر المختلفة مع نتائجه وأسبابه في الفصل التالي لهذا الفصل.

ولهذا سنكتفي بالحديث عن ثلاثة أمور:

الأول: المؤسس الحقيقي للجمعية

الثاني: جلسات التأسيس، وكيف تمت.

الثالث: قانون الجمعية.

أولا ــ مؤسس الجمعية:

اختلف المؤرخون للجمعية حول البداية الحقيقية للتفكير في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وبناء على ذلك اختلفوا في المؤسس الحقيقي لها[1]، ونحب أن نطرح هنا هذا الخلاف، لغايتين:

الأولى: ما نراه من ضرورة مراجعة الأحداث التاريخية، وعدم التسليم لكل ما يذكره المؤرخون، وكأنه حقيقة مقدسة لا يجوز المساس بها، وخاصة إذا استلم زمام كتابة التاريخ طرف واحد له صلة بالجهة التي يكتب عنها.

ثانيا: ــ أن الحكم على ما حصل بين الجمعية والطرق الصوفية من أحداث وتأثير يرجع بدرجة كبيرة إلى البداية التأسيسية للجمعية، ولهذا فإنه من المهم التعرف على المؤسس الحقيقي ودوافعه.

انطلاقا من هذا نذكر أهم الشخصيات التي دار الجدل حول كونها مؤسسة للجمعية، وهي – كما نرى – أربع شخصيات، كل شخصية منها تمثل توجها فكريا وإصلاحيا خاصا، سنعرفه في في هذه الرسالة عند عرض التوجهات الفكرية لجمعية العلماء.

---

[1]) لعل من أسباب الخلاف في هذا أن النداء الذي نشرته الشهاب في شهر فيفري 1931 (إلى كافة الشعب الجزائري)، والذي جاء فيه : (هل من حازم يوفق لتأسيس جمعية العلماء فينال جائزة مالية مع تخليد اسمه)، لم يذكر فيه اسم الداعي، بل اكتفت جريدة الشهاب بقولها (والداعي إلى إعادة بحث هذا الموضوع الهام هو أحد الفضلاء الممتازين)

1 ــ أحمد توفيق المدني:

يعتبر (أحمـد توفيـق المـدني) [1] من الشخصـيات المهمـة الـتي ظهرت إبان تأسيس جمعية العلماء، وكان لها دور بارز فيهـا، وهـو يمثل شخصية الإداري المحنك الناجح الذي يستطيع أن يتـأقلم مـع كل التوجهات، ولذلك اعتبره البعض مؤسسا حقيقيا للجمعيـة، بـل كان هو نفسه يقول بذلك، ويرى أنه صاحب الفكرة[2].

ويرجع تاريخ نشأة الجمعية على حسب هذا المصـدر إلى التقـاء مجموعة من العلماء[3] بنادي الترقي لمناقشـة الأوضـاع الـتي آلت إليها الجزائر خاصة بعد الاحتفالات المئوية، وكذلك دراسة موضوع تأسيس حركة تمثل الشعب الجزائـري، ولكن لا تكـون في الإطـار السياسي، فاهتدوا في الأخـير إلى تكـوين جمعيـة إسـلامية تجمـع شمل العلماء، وغايتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكـانت مبادرة العاصمي بأن يطلق عليها اسم (جمعية العلماء المسـلمين الجزائريين) [4]

وقامت هذه الجماعة بتشكيل لجنـة تحضـيرية لتأسـيس جمعيـة العلمــاء، وكــان منهم - على حســب روايــة المــدني: محمــد بن المرابط، ومحمــود بن ونيش، ومحمــد الزمــيرلي، والحــاج مامــاد المانصالي، ومحمد بن الباي، ومحمد علي عباس الـتركي، وقـدور بن مراد الرودوسي، ومحمد بن الحفاف، بالإضافة إلى العاصــمي، وعمر إسماعيل، وعبابسة، والمدني، وخرجوا بالقرارات التالية :

---

[1] أحمد توفيق المـدني (1899ـ 1984) من مواليـد مدينـة تـونس وهـو من عائلـة جزائرية، زعيم سياسي قدير درس بالزيتونـة وشـارك في النضـال الوطـني بتـونس ضمن الحزب الدستوري، سجن عدة مـرات، لـه عـدة مؤلفـات منهـا كتـاب الجزائـر 1931، وكتاب هذه هي الجزائر 1957، وكتاب حيـاة كفـاح في ثلاثـة أجـزاء ،عـرف بنشاطه السياسي والصـحافي انظـر في ترجمتـه: محمـد الطـاهر العـدواني، مجلـة التاريخ، العدد 18(م.و.ف. م، الجزائر،1985) ص169.

[2] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، ج 2،، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائـر، 1977، ص 174.175.

[3] وهم: محمد العاصمي ومحمد عبابسة وعمر إسماعيل.

[4] المدني، حياة كفاح، ج2، ص ص.175. 176.

• السير إلى الأمام دون تردد وتواني إلى أن تجتمع هذه الجمعية.
• أن النادي سيكون مقرها الرسمي إلى أن تقيم الجمعية لنفسها مقرا خاصا.
• أن رجال النادي وراء الفكرة أدبيا وماديا وقانونيا[1].

ويذكر المدني بأن الأعضاء المجتمعين كلفوه بتحضير (قانون أساسي للجمعية)، وأنه تمكن خلال ثلاثة أيام من إعداد مشروع القانون فوافق عليه أعضاء النادي[2].

وبعد مراسلة أعضاء النادي الاجتماع كان أول إجتماع يوم 05 ماي 1931م في نادي الترقي.

ولعل ما يؤيد هذا الرأي أن نادي الترقي الذي كان الحاضن الأكبر لجمعية العلماء بدأ نشاطه، بل تأسس عند عودة أحمد توفيق المدني إلى الجزائر أثناء صيف سنة 1926.

وقد وصف أحمد توفيق المدني كيفية التأسيس، فذكر أنه أثناء حفل عشاء أقيم بمنزل السيد محمد بن المرابط -أكبر التجار الجزائريين- على شرفه بعودته إلى الجزائر، وضم هذا الحفل 32 رجلا من أعيان الجزائر وفضلائها، وأخذ الحديث مجراه حول وضعية الجزائر وحول حاضرها ومستقبلها، وقام السيد الحاج ماماد المانصالي، وشكر المدني بخطبه الواعظة الهادفة في حفل التكريم، وكذا جمعية الشبيبة وما أثاره في نفوس الجزائريين، واقترح على المدني بأن يكمل عمله بإنشاء جمعية أو ناد على أن يعينوه ويؤيدوه، وصادق جمع كبير على ماقاله المانصالي، فاقترح المدني إنشاء ناد ضخم كبير يقع في أحسن حي، ويؤثث أحسن تأثيث يلم الشمل، وفيه يجمع الناس كل يوم، وفي هذا النادي تتكون الأفكار وتظهر الآراء وتناقش المشاريع وتبدو الحركات الصالحة، فمن أراد النهضة الاقتصادية وجد حوله رجال الاقتصاد، ومن أراد الإصلاح الاجتماعي وجد من يبحث في الإصلاح، إلى غير ذلك من مواضيع النهضة والحياة.

فرد عليه السيد يوسف بن المرابط بأن الفكرة حسنة جدا

---

[1] المدني، حياة كفاح، ج2، ص 177.

[2] أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 107.

لكنها مثل كل الأفكار تطفو على السطح حينا ثم ترسب ولا يبقى لها من أثر فما كان على المدني إلا أن قال : (إن الفكرة سهلة التنفيذ وقريبة الإدراك، ويلزمها ثلاثة أمور: المال وعندكم والحمد لله، والرجال وأنتم عصبة قوية من الرجال، والعزيمة وفيكم العزيمة الصادقة، فلو أردتم ولو عزمتم لكان لكم النادي في أقرب وقت)

وهنا أخذ الحاضرون يتناقشون وطال الحديث وتشعبت وتشاكست الآراء وتصادمت الغايات إلى أن هدأت الثائرة وخفت الحدة بعد ساعة فقال المدني : (الآن حسب رأيي عليكم أن تجربوا ليتكلف ثلاثة منكم بالبحث عن محل لائق محترم وفسيح وليتعهد جماعة منكم أو كلكم ببذل المال الكافي من أجل الإيجار والتأثيث ودفع التكاليف الأولى ثم لتعينّ لجنة لتحرير قانون أساسي يعرض على الاجتماع العام عند عقده)[1]

وهكذا تأسس النادي، وكان خير مثال على الإصلاح الشامل الذي استطاع أن يجمع الجزائريين بمختلف مشاربهم وتوجهاتهم الفكرية، ولو أن الأمر استمر على ذلك النهج لكان واقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مختلفا كثيرا عن الواقع الذي آلت إليه، والذي أدخلها في صراعات داخلية كثيرة شغلتها عن دورها الإصلاحي الأساسي الذي هو الحفاظ على الهوية، والوقوف في وجه المستعمر.

2 ــ عبد الحميد بن باديس:

لاشك في اعتبار الشيخ عبد الحميد بن باديس هو صاحب الفكرة الحقيقي عند أكثر المؤرخين، وخاصة من الموالين للجمعية، أو من الذين اقتصروا في مصادرهم على ما تورده الجمعية متلقين له تلقي المسلّم.

ولعل خير من دافع عن هذا الرأي وأكده (محمد خير الدين)، وهو من أشد المقربين إلى الشيخين عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي[2]، فهو ينفي بقوة أن تكون فكرة تأسيس

---

[1] أحمد توفيق المدني، مذكرات حياة كفاح 1925/1954م، ج2 (ش. و. ن. ت، الجزائر 1977) ص111.

[2] لقد كان الإمام ابن باديس يعتز كثيرا بالشيخ خير الدين، فأثناء تجديد المجلس الإداري عام 1938 م، وأثناء التعريف بأعضائها قال: (و ثالثهم الشيخ محمد خير

الجمعية لغير عبد الحميد بن باديس حيث يذكر أنه هو والشيخ مبارك الميلي كانا حاضرين حين دعا ابن باديس محمد عبابسة بقسنطينة، وأوكل إليه مهمة الدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين بالعاصمة مع مراعاة العناصر التي لا تثير أسماؤها الشبهات والشكوك لدى الإدارة الفرنسية أو مخاوف أصحاب الزوايا، وأن يوجه الدعوات إلى العلماء بنادي الترقي مع الحرص أن يكون ذلك سرا حتى يكتب للموضوع النجاح.

وحسب خير الدين فإن محمد عبابسة وجه الدعوة لكل من عمر بن إسماعيل الدلسي والشيخ محمد العاصمي، وأحمد توفيق المدني الذي كان صديقا لمبارك الميلي.

كما يذكر أن ابن باديس أفضى لهم بالسر وطلب كتمانه، كما أخبرهم بأنه لن يحضر الاجتماع في يومه الأول حتى يستدعى رسميا لحضور الاجتماع العام، وكان هدفه تجنب ردود فعل الإدارة وأصحاب الزوايا الذين يتحرجون بكل عمل يقوم به عبد الحميد ابن باديس[1].

بل يذكر محمد خير الدين التحضيرات التي قام بها عبد الحميد بن باديس قبل التأسيس، وأهمها الاجتماع الذي دعا إليه عام 1928، وكانت الدعوة موجهه إلى العلماء والطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي الذين تفرس فيهم الشيخ المؤهلات العلمية والعملية والقدرة القوية والاستعداد التام للعمل في إنجاز هذا المشروع.

الدين عميد الحركة الإصلاحية في بسكرة وضواحيها وهو- من بين إخوانه - ممتاز بحسن التدبير التجاري والفلاحي، الذي قلّ أن لا يعود عليه بالأرباح لكنه كثيرا ما ترك ذلك في سبيل خدمة الجمعية بذلك التدبير، وهو مراقب الجمعية العام) (محمد خير الدين، المذكرات،ص 294. أنظر أيضا: عبد الحميد بن باديس: (المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ،جريدة البصائر، العدد 28 ،137 أكتوبر 1938 ،ص2)، ومثله الشيخ الإبراهيمي الرجل الثاني، فقد كان يعتمد عليه كثيرا، وكان ينشد دائما قوله:

الدين خير كله وأنا أرى =من خير هذا الدين (خير الدين)

(محمد خير الدين:المصدر نفسه، ص 231)

[1]) رابح تركي، المرجع السابق : ص 66 - 67.

وكـان الاجتمـاع - كمـا يرويـه الشـيخ محمـد خـير الـدين[1] - في مكتب ابن بـاديس المجـاور لمسـجد الأربعين شـريفا بقسـنطينة، حيث سـاد الحمـاس الفيـاض والعزيمـة الصـادقة في العلمـاء والطلاب، وأبدوا فيه الاستعداد لبداية عهد التضحية في سبيل اللـه ودينه والنهوض بالوطن، وافتتح ابن باديس الجلسة بخطبـة عـرض فيها على وجه الإجمال والإيجـاز، خطـوات فرنسـا في طمس دين ولغة وهوية وقومية وشخصية الجزائريين، وذكرهم بتلـك القـوانين الجائرة التي تدرج المستعمر الفرنسـي في إصـدارها، حنكـة منـه في طور التغيير واقتلاع الجذور، وامتصاصا لردود الفعل المنتظرة من جراء كل قـانون ابتـداءًا من قـانون تقسـيم الجزائـر وإلحاقهـا بالعمالات الفرنسية.. وذكر الشيخ العلماء بتلك المجاعة والجفـاف التي عانت الجزائر منها سنة 1879 واستغلتها فرنسا في استمالة وتحويل المسلمين عن دينهم إلى الديانة النصرانية بقيـادة الـزعيم الروحي للمبشرين (الكاردينال لافيجري)

ويـذكر خـير الـدين أن العلمـاء أجـابوا كلهم باسـتعدادهم التـام وشوقهم للتضحية في سبيل دينهم ووطنهم، وعـرض الـرئيس في الاجتماع خطة العمل الإدارية والعمليـة مسـلطا الضـوء فيهـا على وسـائل وجبهـات التضـحية الـتي تفرضـها الظـروف والأحـوال في الغالب، ونص على الدروس والوعظ لعامة المسلمين والكتابة في الصحف والمجلات للتوعية، وإنشـاء النـوادي للاجتماعـات، وإلقـاء الخطب والمحاضرات والاعتمـاد على الكشـافة الإسـلامية لعنصـر الشباب، وتنمية روح النضال في الجزائـريين، وهـذه الوسـائل هي عين الوسائل المعلن عنها بعد تأسـيس الجمعيـة رسـميا مـا يؤكـد قدم فكرة التأسيس للجمعية قبل موعدها الرسمي[2].

ومن المؤيدين لهذا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بل إنه ذكر تاريخا أسبق من التاريخ الذي ذكره محمد خير الدين، ولا بـأس أن ننقل بتصرف بعض ما ذكره هنا لنرى من خلاله الـدوافع الحقيقيـة لتأسيس الجمعية، قال: (كنا نؤدّي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلـة

---

[1] مذكرات الشيخ محمد خير الدين: 1/83.

[2] مذكرات الشيخ محمد خير الدين: 1/83.

في المسجد النبوي، ونخـرج إلى مـنزلي، فنسـمر مـع الشـيخ ابن باديس، منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفـترق إلى الليلـة الثانيـة، إلى نهايـة ثلاثـة الأشـهر الـتي أقامهـا بالمدينـة المنـوّرة.. كـانت هـذه الأسـمار المتواصلة كلهـا تـدبيرًا للوسـائل الـتي تنهض بهـا الجزائـر، ووضـع البرامج المفصّلة لتلك النهضات الشـاملة الـتي كـانت كلهـا صـورًا ذهنية تتراءى في مخيلتينا، وصحبها من حسن النيّة وتوفيق الله ما حقّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد اللـه على أن تلـك الليـالي من سـنة 1913 ميلاديـة هي الـتي وضـعت فيهـا الأسـس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجـود إلا في سنة 1931)[1]

ثم يذكر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي كيف رجع الشـيخ عبـد الحميد بن باديس إلى الجزائر، والخطوات التي قام بها لتنفيـذ مـا اتفقا عليه، فقـال: (وشـرع الشـيخ بعـد رجوعـه من أول يـوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفقنا عليـه، ففتح صـفوفًا لتعليم العلم، واحتكر مسجدًا جامعًا من مسـاجد قسـنطينة لإلقـاء دروس التفسير، وكان إمامًا فيه، دقيق الفهم لأسـرار كتـاب اللـه، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع الناس به حتى انهال عليـه طلاب العلم من الجبـال والسـهول إلى أن ضـاقت بهم المدينـة، وأعانـه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعـام المحـاويج منهم جماعـة من أهـل الخير ومحبّي العلم، فقويت بهم عزيمته) [2]

ثم يذكر الثمار التي جناها الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس بعـد سـنوات من ذلـك الجهـد التعليمي والـتربوي، والـذي كـان نـواة لتحقيق ما اتفقا عليـه، فقـال: (ورأيت بعيـني النتـائج الـتي حصـل عليهـا أبنـاء الشـعب الجزائـري في بضـع سـنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركـة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسدّدة الـتي خطاهـا ابن بـاديس هي حجـر الأسـاس في نهضـة عربيـة في الجزائـر، وأن هـذه

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/278.

[2] آثار الإبراهيمي: (5/279)

المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر، ولمست بيدي آثار الإخلاص في أعمال الرجال، ورأيت شبانًا ممن تخرّجوا على يد هذا الرجل وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حرّ، ومعان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمّة، وأوصاف رائعة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيت جماعة أخرى من أولئك التلامذة وقد أصبحوا يحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشرق العربي، وآخرون يعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثّر، والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ)[1]

ثم يذكر مؤازرته لابن باديس في التحضير لتأسيس الجمعية، فقال: (وحللت بلدي وبدأت من أول يوم في العمل الذي يؤازر عمل أخي ابن باديس... بدأت أولًا بعقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس الدينية للجماعات القليلة، فلما تهيّأت الفرصة انتقلت إلى إلقاء الدروس المنظّمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرّجت لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الآهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الديني كل جمعة في بلد، ثم لما تمّ استعداد الجمهور الذي هزّته صيحاتي إلى العلم، أسّست مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشبان نشأة خاصة وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم) [2]

بهذا التأريخ الذي ذكره الإبراهيمي يتبين لنا أن التاريخ الحقيقي لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين انطلق من الفترة التي كان فيها ابن باديس والإبراهيمي بأرض الحجاز، وكان للفكرة ما بعدها من الجهد العام والخاص لتوفير الأرضية الصالحة لاستقبال الجمعية ورعايتها.

وهذا لا يعني أننا نرجح أن ابن باديس والإبراهيمي هما المؤسسان الحقيقيان للجمعية، وإنما نرجح أن هناك شعورا بين

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/279)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/279)

طبقـات من المثقفين الجزائـريين من أصـحاب الاتجـاه الإسـلامي بضــرورة تنظيم أنفســهم مثلمــا حصــل بين تيــارات أخــرى في الجزائر.. أو مثلما حصل خارج الجزائر من تنظيمات إسلامية.

3 ــ الطيب العقبي:

يعتـبر الطيب العقـبي من أكـثر الأعضـاء البـارزين في الجمعيـة قبل تأسيسها، بما كان يملكه من قدرات خطابية عالية، وبما كــان يملكه من شخصـية قويـة اسـتطاع بهـا أن يقتحم محـال كـان من الصعب على العلماء اقتحامها، وهو يمثل – كما سنرى في محله – شخصية الداعية النجدي الوهابي، بكل ما تحملـه هـذه الكلمـة من معان، في مقابـل ابن بـاديس الـذي كـان يمثـل دور محمـد عبـده ورشيد رضا وغيرهم من أصحاب المدرسة التنويرية.

وقد أشار إلى هذا مالـك بن نـبي عنـدما ذكـر عن نفسـه تـأثره الشديد بالشيخ العقبي وتفضيله عليه في شـبابه على الشـيخ عبـد الحميد بن باديس، فقـال: (كـان الشـيخ العقـبي يبـدو في نـاظري بدويا بينمـا يبـدو الشـيخ ابن بـاديس بلـديا، وحين بـدأت فيمـا بعـد معركــة الإصــلاح وكنت أحــد المشــتركين فيهــا، بقيت أحمــل في أعماقي شيئا من التحفـظ تجـاه ابن بـاديس وبعض الأسـى لكـون الشيخ العقبي لا يقود تلك الحركة ولا يرأس جمعية العلماء)[1]

وإلى اعتبــار الطيب العقــبي هــو المؤســس الحقيقي للجمعيــة ذهب بعض الباحثين في تاريخ الجمعية[2]، ولعل ما يدل لهذا الــرأى الوجيه الدور الكبير الذي لعبه الشيخ العقبي في نادي الترقي قبل تأسيس الجمعية.

فقد ذكر المؤرخون للنادي وللجمعية التغيير الذي أحدثـه الطيب العقبي للنادي بعد انتقاله إليه بدعوة من أعضاء هيئة النـادي الـتي أعجبت بفصاحته الراقية في اللغة العربيــة على اثـر تأبينيــة ناصــر

---

[1]) مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق، سورية، 1984، 132.

[2]) انظــر: أحمــد مريــوش ;الشــيخ الطيب العقــبي ودوره في الحركــة الوطنيــة الجزائرية، مطبعة دار هومة الجزائر،2007، ص 143.

الدين ديني[1] ببوسعادة[2].

بعد هذا التف أعيان الجزائر المصلحون حوله وأكرموه وجعلوا له مرتبا من صندوق النادي يكفيه، ثم اشتروا له دارا حسنة في حي (سانتوجين)[3]

في هذه الأجواء بدأ العقبي نشاطه بنادي الترقي، وقد قدرت محاضراته الأسبوعية فيه بأكثر من خمس محاضرات، هذا علاوة عن الحلقات والندوات التي كان يعقدها من حين لآخر مع جماعة النادي وبعض الأعيان من مختلف الولايات الأخرى وكلها تعالج الطرح الجديد للإصلاح [4].

وقد لقيت دعوة العقبي الإصلاحية الإقبال الكبير وعمرت دروسه بالمؤمنين بها، كما استقطبت حركته عنصر الشباب وكذلك عمال الميناء الذين واضبوا على الاستماع إليه وأصبحوا الجند الواقي لحركته حتى أسماهم العقبي بـ (الجيش الأزرق)[5]

---

[1] إتيان دينيه (1861/1929) ولد بباريس، والداه محاميان، وهو رسام فرنسي مشهور أعلن إسلامه بالجزائر وأتخذ اسم ناصر الدين سنة 1927م برع في التصوير وله لوحات معروفة، ألف بالفرنسية كتاب محمد بالاشتراك مع سليمان الجزائري وحلاه برسوم من ريشته، له بالفرنسية : حياة الصحراء ،أشعة من نور الإسلام، توفي بفرنسا بنوبة قلبية وأوصى بنقل جثمانه إلى بوسعادة للمزيد أنظر : سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج8، ص 415.

[2] مريوش، الطيب العقبي، ص.ص.124. 125.

[3]) محمد علي دبوز، نهضة الجزائر وثورتها المباركة، ج2،ط1(المطبعة العربية، الجزائر، 1971) ص 115.

[4] مريوش، الطيب العقبي، ص.ص 129. 130.

[5] عرف محمد الطاهر فضلاء هذا الجيش بأنه: منظمة تشبه الفدائيين مكونة من الشباب المصلحين المتأثرين بالحركة الإصلاحية الجديدة والمبهورين بشخصية الطيب العقبي، تأثروا بدروسه ومحاضراته واهتدوا إلى الإقلاع عن الدنايا والتكفير عن السيئات بالرجوع إلى الله والاهتداء بهديه، ثم استعمال العنف أحيانا للدفاع عن الحركة الإصلاحية ومحركها الشيخ الطيب العقبي وكانوا حرسا له أينما كان وحيثما حل. انظر: محمد الطاهر فضلاء، الطيب العقبي رائد الإصلاح الديني بالجزائر (م.

بل حتى الحركة الكشفية استطاع العقبي أن يستقطبها من خلال تدعيمه وتوجيهاته لها، ومن خلال توافد شبابها على نادي الترقي، وقد ذكر محمد بوراس زعيم الكشافة الإسلامية أنه كانت له علاقة بالعقبي، وكان من مناصريه سواء بالنادي أو بالخارج، واتضح ذلك في حضور بوراس لنشاطات العقبي سنة 1936م أثناء تحضيراته للمؤتمر الإسلامي[1].

وقد ذكر مالك بن نبي تأثير العقبي على العاصمة، فقال: (... حتى وصلنا تحت لافتة (نادي الترقي) وربما كانت أول لافتة بالخط العربي في العاصمة كما قال له الدليل أنه من مريدي العقبي في هذا النادي حيث يعطي درسه كل مساء... ولم تكن ظاهرة التغير التي شهدتها العاصمة على وجه رجل الشارع وفي هيئته وكلامه وفي هذه اللافتة المكتوبة بالخط العريض، لم تكن تعني لي إلا شيئا واحدا هو أن موجة الإصلاح قد وصلت إلى هنا)[2]

4 ــ عمر إسماعيل:

قد يستغرب البعض طرح اسم (عمر إسماعيل)[3]هنا، خاصة وهو اسم غير معروف للكثير، ولكنا مع ذلك نطرحه باعتبارين:

الأول: أنه - مع كونه محسوبا على الجناح الصوفي – تولى مناصب حساسة في إدارة الجمعية في أول تأسيسها، فقد ترأس اللجنة التأسيسية، وترأس لجنة العمل الدائم في السنة الأولى من تأسيس الجمعية، وكان يمكن لو استمر في هذه الوظائف الخطيرة أن يحمي الجمعية من كثير من التقلبات التي حصلت فيها، فقد كان يجمع بين التوجه الصوفي والتوجه الإصلاحي،

و. ف. م، الجزائر، 1985) ص57، وقد ذكر لي الدكتور أحمد عيساوي أن هذا غير صحيح.

[1]) انظر : مريوش، الطيب العقبي، ص132.

[2]) بن نبي، مذكرات شاهد للقرن – الطالب – ص256.

[3]) عمر إسماعيل : أحد أعيان العاصمة وأثريائها قام بدور كبير في تأسيس نادي الترقي ماديا، تولى رئاسة اللجنة الدائمة التي وضعت لتأسيس الجمعية وساعده في ذلك محمد المهدي (كاتب)، وآيت سي أحمد عبد العزيز (أمين المال)، ومحمد الزمرلي والحاج عمر العنق (عضوان) (انظر: مريوش، الطيب العقبي، ص 144)

وبالتالي كان أكثر أعضاء الجمعية قدرة على استيعاب كل أطياف التوجهات الفكرية الجزائرية.

الثاني: أن هناك من الباحثين المحترمين وشهود العيان من أخبر بهذا، بل صار يطالب به، فقد نشرت جريدة ليبرتي (Liberté) الصادرة باللغة الفرنسية، في عدديها الصادرين يومي الجمعة 4 والسبت 5 ماي 2012، وكذلك يومي الجمعة 11 والسبت 12 ماي 2012، مقالا في حلقتين من تأليف الكاتب (عبد الحكيم مزياني)، الذي يشغل منصب نائب رئيس مؤسسة القصبة.

والمقال عبارة عن تغطية للنشاط الذي نظمه المقهى الأدبي لمؤسسة قصبة الجزائر، الذي عقد بمناسبة إحياء الذكرى الواحدة والثمانين لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد كان عنوان المقال (تكريم القصبة لجمعية العلماء ومؤسسها الشيخ عمر إسماعيل)

ولم يكن هذا العنوان خطأ من الكاتب أو الناشر، وإنما هو عنوان مقصود، وقد ذكر فيه إجماع الشهود من أصدقاء وأقارب (عمر إسماعيل)على أن فكرة تأسيس الجمعية تعود لعمر إسماعيل مشددين على ضرورة استعادة حقوقه التاريخية.

وقد ذهب الكاتب إلى أكثر من ذلك حين ذكر أن الإدارة الاستعمارية تعمدت إبعاد العناصر الصوفية، وقربت الإصلاحيين من ذوي التوجه السلفي لتمنحهم تسيير مراكز العبادة تطبيقا لقانون 1905 الذي يفصل بين الدين والدولة، منحازة بذلك لجانب الجناح الإصلاحي على حساب الجناح الصوفي في الجمعية.

ونحن مع احترامنا لهذا الرأي إلا أنا لا نرى ما ذكره من الأدلة كافيا، بل القضية تحتاج إلى المزيد من البحث والأدلة بعيدا عن التحيز والتعصب.

ونأسف في نفس الوقت كثيرا لما قوبل به هذا الرأي المحترم الوجيه من طرف جمعية العلماء الجديدة، فقد حملت في موقعها على الإنترنت حملة شنيعة على الكاتب وعلى الجمعية، وعنونت حملتها بعنوان (ماذا وراء محاولة اختطاف جمعية العلماء؟!)[1] وهو

[1]) انظر: الموقع الرسمي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على الرابط التالي (/http://www.oulama.dz)

ناشئ للأسف من النظرة التقديسية للتاريخ، والتي لا تتيح لنا مراجعة الحقائق بعيدا عن كل تعصب.

وكل ما ذكره الكاتب من أدلة هو مجموعة خطابات تعودنا عليها لا تحمل أي طابع علمي، فهو ينتقل ـــ مثلا ـــ من مناقشة الفكرة إلى الحديث عن صاحبها، فيقول: (الاستغراب يأتي من كون أن الحقيقة التي يعرفها العرب والعجم، ويعتقد بصحتها جل المؤرخين لحركة الإصلاح الوطني وتاريخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، هي أن الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس – عليه رحمة الله- هو مؤسس جمعية العلماء المسلمين، فهل يكفي مقال لكاتب لامع وصحفي مخضرم ومقتدر في القضايا الثقافية ينصب اهتمامه -حسب ما قرأنا له- على شؤون الفن والسينما، والقضايا الأدبية أن يقلب حقائق معروفة وموثقة منذ 80 سنة؟!)

وهو - ثانيا- يرجع في مصادره إلى المصادر التي لا يمكن الاعتماد عليها وحدها، باعتبارها طرفا من الأطراف، فهو يذكر مثلا (الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الرئيس الثاني لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ومذكرات الشيخ محمد خير الدين، أحد مؤسسي جمعية العلماء وأعضائها القياديين، والدكتور أبو القاسم سعد الله، المؤرخ الجزائري المعروف، وكل هؤلاء مشهود لهم باستقامتهم الدينية، وأمانتهم العلمية، وسعة إطلاعهم على قضايا وخفايا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)

ونحن لا ننكر هنا ما ذكره هذا الكاتب، وما ذكرته تلك المصادر، ولكنا في نفس الوقت لا نستطيع أن ننكر ما ذكره غيرهم، ولذلك نرى أن المنهج العلمي يجعلنا نحترم كل الآراء، ولا نقدس أحدا منها مهما كان، ولا نعتبر من خالفنا مختطفا مهما كانت صفته، ما دام يعتمد في ذلك على المنهج العلمي.

ثانيا ــ جلسات التأسيس:

بغض النظر عن صاحب الفكرة فإنه بعد أقل من سنة على مرور الاحتفالات المئوية للاستعمار الفرنسي، والتي كانت بمثابة الشرارة التي ساعدت في إخراج الفكرة إلى الوجود[1]، عقدت الجلسة التمهيدية لوضع أسس وهيئات الجمعية صبيحة يوم الثلاثاء

---

[1]) الشهاب ،ج 5، م7، المطبعة الجزائرية الإسلامية قسنطينة، محرم 1350هـ، ص 341.

على الساعة الثامنة صباحا الموافق لـ 5 مـاي 1931 م.

وقد حضر حفل التأسيس 702 عالما وطـالب علم من مختلـف أنحاء القطر الجزائري بدعوة من اللجنة التأسيسية، وعلى رأســها عمر إسماعيل، وكان الاجتماع يهدف إلى وضع القـانون الأساسـي للجمعية، فعينوا للرئاسة المؤقتة أبا يعلي الزواوي، وللكتابة محمد الأمين العمودي الذي تلى القانون فأقرته الجمعية بالإجماع.

وفي المسـاء من نفس اليـوم أعيـد الاجتمـاع لانتخـاب الهيئـات الإداريــة، طبقــا للقســم الثــالث والفصــل الســابع من القــانون الأساسي وقد اعتمدت طريقة الاقتراع لاختيار الأعضـاء وهم: عبـد الحميد بن باديس، ومحمـد البشـير الإبـراهيمي، والطيب العقـبي، ومحمد الأمين العمودي، ومبارك الميلي، وابراهيم بيوض، ومولــود الحــافظي، ومــولاي بن شــريف، والطيب المهــاجي، والســعيد الياجوري، وحسـن الطرابلسـي، وعبـد القـادر القاسـمي، ومحمـد الفضيل الورتيلاني، وحددت لهؤلاء مهمة اختيار المهام فيما بينهم.

وتم سن القـانون الأساسـي للجمعيـة وانتخـاب الهيئـة الإداريـة وانتخب ابن باديس غيابيا[1] للرئاسة والإبراهيمي نائب لـه وللكتابـة العامة محمد الأمين العمودي ولمساعدته العقبي والأمانـة الماليـة للميلي والأستاذ إبراهيم بيوض مساعد له[2].

وقد ضمت الجمعية في عضويتها اتجاهات مختلفـة كـان بعضـها

---

[1]) يفسر المؤرخـون للجمعيـة سـر تغيب ابن بـاديس عن الاجتمـاع هـو أنـه رأى في غيابـه حكمـة لتـدعيم الجمعيـة وأن غيابـه كـان بـأمر من المجتمعين حـتى لا تتفطن الإدارة لأبعاد جمعيـة العلمـاء (مريـوش، الطيب العقـبي، ص 145)، وهـذا مـا أكـده محمد بن خير الدين الذي يذكر أن ابن باديس ذكر له أنـه لن يلـبي دعـوة الاجتمـاع، ولن يحضر في يومه الأول حتى يقرر المجتمعون اسـتدعاءه بصـفة رسـمية، فيكـون بـذلك مـدعوا لا داعيـا، وبـذلك يتجنب مـا يكـون من ردود فعـل تقـوم بهـا السـلطة الفرنسـية في البلاد وأصـحاب الزوايـا ومن سـار في ركابهـا، وبهـذا الـرأي السـديد نجحت الخطة (محمد خير الدين، مـذكرات، ج1، ط1(مؤسسـة الضـحى، الجزائـر ، 2002) ص89)

[2]) عبـد الكـريم بـو صفصـاف، جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين وعلاقاتهـا بالحركات الجزائرية الأخرى (1931 ـ 1945)، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر، ص101-102.

إصلاحيا مجددا، وكان البعض الآخر يمثل المحافظين (كـان رؤسـاء زوايـا 06 طـرق صـوفية هامــة في البلاد أعضــاء مســاعدين في المجلس الإداري للجمعية)

يقول الإبـراهيمي: (فـانتخب المجلس الإداري من رجـال أكفـاء جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة)[1]

وفي اليوم الثاني الموافق لـ 06 مـــاي 1931م عقـدت الهيئـة الإداريـــة أول جلســـة بنـــادي الـــترقي برئاســـة محمـــد البشـــير الإبراهيمي، وقد حضر الاجتماع كل الأعضاء ما عدا الأستاذين، عبد الحميد بن باديس، وحسن الطرابلسـي، وتم خلال الجلسـة إعـادة النظر في القانون الأساسي، وأقر بالإجمـاع، وقـرر ترجمتـه للغـة الفرنسـية للمصـادقة عليه[2]، وفي اليـوم الثـالث عقـدت الهيئـة الإداريـة بحضـور عبـد الحميـد بن بـاديس، وعرضـت عليـه لائحـة الأعمال السابقة[3].

ثالثا ــ قانون الجمعية:

لقد ذكرنا أن هناك اختلافـا في واضـع قـانون الجمعيـة، فـالكثير يذكر أنّه من انجـاز الإبـراهيمي بطلب من ابن بـاديس، أمـا أحمـد

---

[1]) آثار الإبراهيمي، ج5، ص281.

[2]) وأهم ما جاء فيه في القسم الأول والفصل الأول: (أنه تأسست بـالجزائر جمعيـة ثقافيـة تحت اسـم (جمعيـة العلمـاء المسـلمين)، مركزهـا نـادي الـترقي. كمـا نص القانون في نفس الفصل، وفي الفصـل الثـالث أنـه لا يسـوغ للجمعيـة الخـوض في المسـائل السياسـية، وكـان هـذا المبـدأ كضـمان أول وشـرط أساسـي لكي توافـق الحكومة الاستعمارية لقيام هذه الجمعيـة (الفضيل الـورتيلاني، الجزائـر الثـائرة، دار الهدى- عين مليلة، الجزائر، ص149)، كما حدد القانون أهداف الجمعية في الفصـل الرابع، ولكي تباشر الجمعية في أعمالها وتحقق مقاصدها، كان لا بد لها من ترخيص من طرف الإدارة الفرنسية، وتم تقديم طلب الموافقة على تأسيس الجمعيـة نظـرا لضمها أعضاء مصلحين ورجال دين، وبفضل هذه المرونة والتكتيـك سـارعت الإدارة الفرنسية للاعتراف بهـا والموافقـة على قادتهـا في مـدة وجـيزة لا تتعـدى 15 يومـا (أبوالقاسم سعد الله: الحركة الوطنية 1930-1945 ،ط2، الشركة الوطنيـة للنشـر والتوزيع، الجزائر، ج3 ،ص83)

[3]) الشهاب ،ص341..

توفيق المدني فيذكر في مذكراته بأنّه هو من كّلف شخصيا بوضع هذا القانون، وبطلب من أعضاء نادي الترقي، ويقول في ذلك: (كلفتني الجماعة بإيجاد قانون أساسي بسيط للجمعية، أعرضه عليهم بعد أيام)، ثم يضيف: (أما أنا، فقد اعتكفت في مكتبتي ثلاثة أيام سطرت فيها للجمعية قانونها الأساسي بما لا يخرج عن نطاق القوانين المعروفة الأخرى)[1]

بغض النظر عمن كتب القانون، فقد تمت صياغته تبعًا لنظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بأول جويلية سنة 1901 م، وقد كان مقسما إلى 5 أقسام و23 فصلا، حدّد في القسم الأول اسم الجمعية ومقرها، أما القسم الثاني فحدّدت مقاصد هذه الجمعية وغاياتها وأهدافها، والقسم الثالث تطرق إلى أعضاء الجمعية، والقسم الرابع تطرق إلى مالية الجمعية وكيفية إدارتها، أما القسم الأخير فوضّح فيه الاجتماعات الإدارية والعامة، وكيفية تسييرها[2].

وقد وصف الشيخ الإبراهيمي هذا القانون، وكيف سهر على إنجازه وتأثيره على أعضاء الجمعية وغيرهم بعد تقديمه لهم، فقال: (كلّفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أول جلسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية نشرح أعمالها كما هي في أذهاننا لا كما تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلّلون منا، فانتبذت ناحية ووصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءت في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات من أربعة أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم، وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثّرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال:

---

[1] انظر : أحمد توفيق المدني :حياة كفاح، مذكرات، في الجزائر 1954-1925)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص177-178.

[2] انظر : علي حشلاف، المرجع السابق، ص12.

عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار. ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية)[1]

المطلب الثاني: جمعية العلمـاء في عهـد ابن بـاديس وأهم منجزاتها:

يذكر تلميذ ابن باديس الشيخ محمـد الطـاهر فضـلاء محـاولات الاستعمار الفرنسي الساعية لـنزع الرئاسـة عن ابن بـاديس، ومـا قام به في هذا الصديد من إغراءات، وكيف قـاوم ابن بـاديس كـل تلك الإغراءات بقوة وشـجاعة[2]، فـذكر أنـه بعـد تأسـيس الجمعيـة رسمياً، وبروز خطها الإصـلاحي الجهـادي، اسـتدعى الـوالي العـام (مـيرانت) بقسـنطينة الشـيخ ابن بـاديس ووالـده مصـطفى بن باديس، وعرض على الشيخ أن يختار لنفسه أية وظيفة يرغب فيها (مفتي أكبر.. أو قاضي قضاة مثلا) على شرط واحد هـو أن يتخلى عن رئاسة جمعية العلماء، قائلا له : (يا شيخ اترك عنك هـذا العارـ اخرج من هذه الحشومة، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو فرنسا بالنـادي، فليس هـؤلاء الرجـال رجالـك، وليسـت هـذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتسـاب لهم، أو أن يكـون رئيسًا عليهم) وأمام هذا الاقتراح تأجج شعور الإمـام ضـد الـوالي، وحاول الرد عليه، لولا وقوف والـده وبكائـه وإلحاحـه عليـه بقبـول العرض بسبب أن الأسـرة مقبلـة على الإفلاس وأنـه بقبولـه تعلن الحكومـة الفرنسـية اسـتعدادها لعمليـة الإنقـاذ، بإضـافة مسـاعدة مالية قصد تحسين الأوضاع الفلاحية والاقتصادية.

واقتضـت حكمـة الإمـام ابن بـاديس، أن طلب فرصـة قصـيرة للتفكير والاستخارة حتى الصباح الموالي.. وخرج الإمام دار الولاية العامة، متأثرًا منفعلاً باكيًا مدركًا السر الإلهي في يتم الرسـول ﷺ منذ صباه الأول، يقول: (اليوم فقط عـرفت السـر، وعـرفت معـه كيف يكون الابتلاء بالنعمة وبالنقمة معًا، وبالخير والشر معًا وصدق الله القائل: (وَنَبلُوكُم بِالشَرِّ والخَيرِ فِتْنَة وَإِلَيْنَا تُرجَعُونَ)

---

[1] آثار الإبراهيمي: 5/281.

[2] انظر: محمد الطاهر فضلاء : دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر 1968 م، ص : 102-104.

وفي اليوم الموال كتب ابن باديس جوابه إلى ميرانت قال له فيه : (اقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري! اقتل يا ميرانت مصطفى بن باديس، واقتل معه عبد الحميد بن باديس، واقض على كل أسرة ابن باديس، إن منحك الله هذه القدرة، ولكنك لن تصل ابدًا إلى قتل جمعية العلماء بيدي، لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، وإنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة، وما أنا فيها إلا واحد، أتصرف باسم الأمة كلها. ومحال أن أتصرف تصرفًا أو أقف موقفًا يكون فيه قتل الجمعية على يدي. أقول هذا، وحسبي الله ونعم الوكيل)[3]

ونحن لا ننكر هذه الرواية، ولكنا في نفس الوقت نرى أن الاستعمار الذي أباد ملايين الجزائريين، واستطاع بحيله ومكره أن يغتال من يشاء وكيف يشاء لم يكن محتاجا إلى أي إغراء ليحقق مقاصده ما دامت لديه تلك الأسلحة التي أباد بها الملايين.

بالإضافة إلى هذا، فإن جمعية العلماء كانت بحاجة إلى رجال أقوياء لتولي تلك المناصب الرفيعة، وكان يمكن حينها من باب الحنكة والسياسة أن يقبل بها ابن باديس، ثم يفوض رئاسة الجمعية لأي عضو من أعضاء الجمعية المقتدرين وما أكثرهم، وبالتالي تكسب الجمعية طابعا رسميا بالإضافة إلى طابعها الحر.

لكن مع ذلك، فإن الرواية التي ذكرها فضلاء ترسم صورة لشخصية ابن باديس القوية، والتي استطاعت أن تجعل من الجمعية في فترة رئاسته لها جمعية لها سمعتها في الجزائر جميعا، بل وصلت سمعتها إلى غيرها من البلاد العربية.

بالإضافة إلى هذه الصورة الممتلئة بالقوة نجد صورة أخرى ممتلئة بالتسامح وضحها في خطبة له قالها بعد انتخابه رئيسا للجمعية، ومما جاء فيها: (إخواني، كنت أعد نفسي ملكاً للجزائر أما اليوم فقد زدتم في عنقي ملكية أخرى، فاللهَ أسأل أن يقدرني على القيام بالحق الواجب.. إخواني إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي، وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا : الأول إنني قَصَرْتُ وقتي على التعليم فلا شغل لي سواه فأردتم

---

[3] محمد الطاهر فضلاء : دعائم النهضة الوطنية الجزائرية، ص 102-104.

أن ترمـزوا إلى تكـريم التعليم إظهـاراً لمقصـد من أعظم مقاصـد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهده، الثاني: أن هذا العبد له فكرة معروفة، وهو لن يحيد عنها ولكنها يبلغهـا بـالتي هي أحسـن، فمن قبلهـا فهـو أخ في اللـه، ومن ردهـا فهـو أخ في الله، فالأخوّة في الله فوق ما يقبـل ومـا يـرد، فـأردتم أن ترمـزوا بانتخابي إلى هذا الأصل، وهـو أن الاختلاف في الشـيء الخـاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام)[1]

انطلاقا من هاتين الصفتين في شخصية ابن بـاديس نحـاول في هذا المطلب أن نـذكر ثلاث مواقـف مهمـة للجمعيـة في عهـده[2]، كنمـــــــــــــــــــاذج عن أنـــــــــــــــواع الحركـة الـتي كـانت تتحـرك بهـا الجمعية[3]، باعتبـار أن الكثـير من المـؤرخين

---

[1]) الشهاب : ج6، م7، غرة صفر 1350هـ جوان 1931.

[2]) من أهم ما يذكره المؤرخون للجمعية عند ذكرهم لمنجزات الجمعية في عهد ابن باديس:

- دوره في إخمـاد نـار الفتنـة بين اليهـود والمسـلمين (فاجعـة قسـنطينة) صـيف 1934 م.
- الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامي والمساهمة فيه شهر جوان 1936 م.
- مشاركته ضمن وفد المؤتمر إلى باريس في شهر جويلية 1936 م.
- موقفه السّياسيّ من وعود حكومة فرنسا.
- محاورة لجنة البحث في البرلمان الفرنسي في شهر أبريل 1937 م.
- دعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية في شهر أوت عام 1937 م.
- نداءه لمقاطعة الاحتفالات القرنية لاحتلال مدينة قسنطينة خريف 1937 م.
- موقفه من قانون 8 مارس 1938 م.
- موقفه من إرسال برقية التضامن مع فرنسا ضد التهديد الألماني.
- مقاومة سياسة الاندماج والتجنيس.
- الوقوف في وجه المحاولات الهادفة إلى زعزعة الوحدة الوطنية.

[3]) وهذا لا يعني اختزال المنجزات في هـذا، فالجمعيـة في هـذه الفـترة كـانت في أنشط عهودها، فقد قامت بـالتعريف بمبادئهـا من خلال صـحفها، وتأسـيس عـدد من المـدارس والمسـاجد، كمـا قـامت بإنجـاز ثقـافي امتـد إلى فرنسـا من خلال جهـود الفضيل الورثلاني للجالية العمالية الجزائرية بتلقين أبنائهـا مبـادئ القـراءة، والكتابـة

يعرضها باعتبارات من الإنجـازات الكـبرى إمـا للجمعيـة جميعـا، أو لابن باديس خصوصـا، ونحب أن نعرضـها هنـا كمـا هي، وبوجهـات النظر المختلفة:

أما أولهما، فيتعلق بعلاقة الجمعية مع الطرق الصوفية.

وأمـا الثـاني، فيتعلـق بالمطـالب السياسـية للجزائـريين، وهي تتعامل في هذا الحالة مع المستعمر الفرنسي.

وأما الثالث، فيتعلق برفض الجمعية لبرقيـة التأييـد لفرنسـا في حربها مع ألمانيا.

وسنذكر الكثير من المنجزات والمواقـف الأخـرى في الميـادين المختلفـة عنـد الحـديث عن مشـروع جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين الإصلاحي في الباب الثاني من هذه الرسالة.

أولا ــ استبعاد المحافظين من الجمعية:

لقد كان من أولى منجـزات الفـترة الـتي ولي فيهـا ابن بـاديس قيادة جمعيـة العلمـاء اسـتبعاد المحـافظين من الجمعيـة، والـذين يشـملون خصوصـا على رجـال الطـرق الصـوفية، والـذين كـانوا يشكلون جزءا مهما من الجمعية عند تأسيسها.

وبمـا أنـا سـنذكر هـذا الموقـف ونتائجـه وأسـبابه بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل عند ذكر العلاقة الرسـمية بين الجمعيـة والطرق الصـوفية، فإنـا سـنكتفي هنـا بسـرد الحادثـة كمـا ذكرهـا محمد الصـالح آيت علجت فقـد ذكـر مختصـرا مـا حـدث في ذلـك اليوم وأسبابه، فقال: (كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين تضـــم اتجـــاهين في تشـــكيلتها: المحـــافظون والإصـــلاحيون، فالمحافظون هم المنتمون إلى شيوخ الزوايا والمرابطين والعلماء الذين لم يتأثروا بالحركـة النجديـة الوهابيـة الـتي كـان للكثـير من علمـاء الاتجـاه الإصـلاحي اتصـالٌ بهـا حين وجـودهم في الحجـاز كالشيوخ السادة: ابن باديس والعقبي والإبراهيمي، زعمـاء حركـة التجديد الذي لم يقبله العلماء المحافظون، فكـانت بين الاتجـاهين

بالعربية، ومبادئ الدين الإسلامي، وتاريخ الإسـلام، وجغرافيـة الجزائـر، حـتى يرتبـط الصـغار الجزائريـون في المهجـر بالحضـارة العربيـة الإسـلامية، وبـوطنهم الأصـلي الجزائر.. وغيرها كثير.

.

هجومات متبادلة عبر التجمعات والندوات وفي الصحف. وبإنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931، التزم الفريقان بالكف عن النزاع والمجادلة في المسائل الخلافية وإحلال الوئام والصفاء اللذان لم يستمرا أكثر من سنة لتعود تلك الصراعات المذهبية والخوض في الجزئيات والبحث عن الأسباب المثيرة للجدل بين الفريقين، ما جعل الخلاف بينهما يستفحل، ويليه استدعاء الشيخ عبد الحميد بن باديس للشرطة للتدخل على أثر الانقسام العلني الذي حدث في جلسة الجمعية بتاريخ 24 ـ 05 - 1932، ليخرج المحافظون (الطرقيون) على أثر هذا الاجتماع من الجمعية)[1]

وقد اعتبر الشيخ الإبراهيمي بأن هذا الانشقاق الذي حصل في أوساط الجمعية تمحيصا لها من رجال الطرق الصوفية الذين أرادوا اختراقها، فقال: (ولما جاء أجل الانتخاب للدورة الثانية هجم العليويون ومن شايعهم على ضلالهم تلك الهجمة الفاشلة بعد مكائد دبروها، وغايتهم استخلاص الجمعية من أيدي المصلحين، وجعلها طرقية عليوية واستخدامهم هذا الاسم الجليل في مقاصدهم الخاطئة كما هي عادتهم في إلباس باطلهم لباس الحق، ووقف المصلحون لتلك الهجمة وقفة حازمة أنقذت الجمعية من السقوط ومحصتها من كل مذبذب الرأي مضطرب المبدأ، وتألف المجلس الإداري من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره، ورأى الناس عجيب صنع الله في نصر الحق على الباطل)[2]

وقد كان لهذه الحادثة تأثيرها الكبير على العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية - كما سنرى ذلك في الفصل الثالث من هذا الباب - ومما زاد في آثارها سوءا استدعاء ابن باديس للشرطة عند وقوع الهرج في نادي الترقي للمحافظة على الأمن، وقد انتقد في ذلك نقدا لاذعا وليم على استدعاء الشرطة (الفرنسية

---

[1]) آيت علجت، محمد الصالح : الشيخ المولود الحافظي حياته وآثاره، تقديم الدكتور محمد الشريف قاهر، الجزائر، منشورات دار الكتب، 1998، ص 63-75.

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 188)

طبعـا) لفض تنـازع العلمـاء، لكن ابن بـاديس دافـع عن الشـرطة بحرارة[1].

وكان من ضمن مـا قـال في دفاعـه: (ارتبـاط الجزائـر بفرنسـا اليـوم صـار من الأمـور الضـرورية عنـد جميـع الطبقـات فلا يفكـر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية، ولا يعلقـون آمـالهم إلا على فرنسا مثل سائر أبنائها ورغبتهم الوحيدة كلهم هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات، وهم إلى هذا كله يشعرون بمـا يـأتيهم من دولتهم ممـا يشـكرونه، ومما قد ينتقدونه، وقد كنا نؤكد لهم هذا التعلق ونبين لهم فوائــده ونـبين لهم في المناسـبات أن فرنسـا العظيمـة لا بـد أن تعطيهم يوما- ولا يكون بعيداً- جميع مـا لهم من حقـوق وكنـا لا نـرى منهم لهذا إلا قبولا حسنا وآمالاً طيبة)[2]

وقد دافع سعد الله عن هذا الموقف الحرج الـذي وقـع فيـه ابن باديس والجمعيـة، فقـال: (ومن هنـا يتضـح أن موقـف العلمـاء لم يكن سـهلا، فقـد كـانوا يمشـون على الـبيض كمـا يقـول المثـل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأيـة وسـيلة مشـروعة، ومن جهـة أخـرى كـانوا واقعين تحت طائلـة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلـك اصـطدموا مـرات بالإدارة)[3]

ولسنا ندري ما هي الضرورة الداعية لاسـتعداء المسـتعمر على علمـاء أو طلبـة علم وقـع الخلاف بينهم، وكـان يمكن أن يرفعـوه بالحكمـة واللين من غـير أن يشـوهوا سـمعتهم بتـدخل الشـرطة الاستعمارية، بل بدعوتها للتدخل؟

---

[1] انظـر: الشـهاب: ج 8، م 8، ص 401 -ـ 409 غـرة ربيـع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

[2] الشـهاب: ج 8، م 8، ص 401 -ـ 409 غـرة ربيـع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

[3] سعد الله، الحركة الوطنية: 3/93.

هذا بعض ما حصل في ذلك اليـوم التـاريخي الـذي صـارت فيـه الجمعيـة شـيئا واحـدا، وتمثـل طرفـا واحـدا بعـد أن كـانت تمثـل الجزائر جميعا، وسنعود إلى تفاصيل الحادثة كمـا يراهـا الطرفـان، وخلفياتها ونتائجها في الفصل التالي لهذا الفصـل باعتبارهـا حادثـة مفصلية في تاريخ العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية.

ثانيا ــ حضور المؤتمر الإسلامي:

يعتبر حضور الجمعية في عهد ابن باديس للمؤتمر الإسلامي في شهر جـوان 1936 من أهم الأنشـطة السياسـية الـتي قـامت بهـا الجمعيـة، والـتي لقيت في نفس الـوقت جـدلا في مـدى جـدواها وتأثيرها.

وقصــة هــذا المــؤتمر – باختصــار – هي أنــه في عــام 1936م لوّحت فرنسا للجزائريين بمشروع (بلـوم- فيـوليت)[1] الـذي ينتقـد السياسـة الفرنسـية السـابقة، وفي مقترحـات المشـروع: إصـلاح مســتوى التعليم، تــأمين نفس الحقــوق الــتي للفرنســيين لبعض الجزائريين، إلغاء المحاكم الخاصة بالجزائريين.

وقــد وقــف الجزائريــون مواقــف مختلفــة متباينــة من هــذا المشروع:

فبينما عارض المستوطنون معارضة شديدة هذه الإصلاحات، بل رفضوا مجرد التفكير في منح الشعب الجزائـري أبسـط الحقـوق، ذهب أعضاء النخبة الجزائرية في اتجـاه المطالبـة بالمسـاواة في بعض الحقوق (كالتمثيل والانتخاب)

وفي مقابـل هـؤلاء تحفـظ أعضـاء حـزب النجم على سياسـة الجبهــة الشــعبية، وأبــدوا مخــاوفهم من نتائجهــا على مســتقبل الجزائر[2].

بين هذه المواقف رأت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تقف موقفا وسـطا، فلم تجـار السـلطة في مزاعمهـا، وفي نفس الوقت لم ترفض التعامل معهـا، وبنـاء على هـذا دعت إلى انعقـاد

---

[1]) بلوم هو رئيس الوزراء في حكومة الجبهة الشعبية و(فيوليت) كان حاكمًا للجزائر في العشرينات، وقد عين في هذه الحكومة مختصًا بالشؤون الجزائرية.

[2]) ينظر ابن باديس حياته وآثاره 3 : 370..

هذا المؤتمر[1]، لجمع كلمة الأمة وتوحيد صفوفها حول المسألة الوطنية، والتصدي لما يخطط له المحتلون، ويقوم به بعض الجزائريين تنفيذا لمخططات السلطة من ترويج لسياسة التغريب، ونشر أفكار الاندماج، والتساهل في شأن الذاتية[2].

بعد هذا عقد المؤتمر الإسلامي بباريس، واجتمع هناك العلماء (الإبراهيمي، ابن باديس، والطيب العقبي) برجال دولة فرنسا، وبالصحافة الفرنسية، وبرجال نجم شمال إفريقيا، وكانت هذه فرصة للعلماء لإطلاع الساسة الفرنسيين على ما يجري بالجزائر.

وكان غالبية من حضر المؤتمر من دعاة الاندماج وأنصار مشروع (بلوم فيوليت)، ولذلك رأى المناصرون لحضور الجمعية لهذا المؤتمر أنه كان له أثر فعال في تعطيل الاندماج وإبراز الذاتية الإسلامية العربية الجزائرية، حيث جاء في مطالب المؤتمر ما يلي[3]:

1 ــ رفع جميع الأوضاع الخاصة مثل المتصرفيات ومجالس (الكريمينال)[4] والمعاملات الخاصة مثل الانديجينه وأعطيات الجندية وزيادة مدة الخدمة العسكرية، والبرنامج الخاص بالتعلّم في المكاتب الابتدائية وغيرها، وحرمان عمّال الجزائر من كثير مما يتمتع به العمّال الفرنسيون.

2 ــ تسوية نواب الجزائريين بالنّواب الفرنسيين في جميع المجالس، مع توحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين بحيث يشارك في انتخاب النوّاب البرلمانيين مشاركة فعلية جميع سكّان

---

[1]) وقد ذكر أحمد ابن ذياب وحمزة بوكوشة أن صاحب الفكرة في الأصل هو الأمين العمودي الذي أشار بها على ابن باديس، وطلب منه أن تكون الدعوة صادرة باسمه انظر: أحمد ابن ذياب (جوانب نضالية من حياة الشهيد محمد الأمين العمودي)، مجلة الثقافة، السنة الخامسة عشر، عدد 86، مارس أفريل 1985، ص 235، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة، عدد 06، جانفي 1972، ص 59.

[2]) انظر: آثار الإمام 4 : 118..

[3]) آثار الإبراهيمي: (1/256) وما بعدها، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة، عدد 06، جانفي 1972، ص 59.

[4]) كلمة فرنسية معناها الجرائم، الجنايات.

الجزائر على اختلاف أجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسـلمين على جميع ذاتياتهم الإسلامية.

3 ـ اعتبار اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتكتب بها مـع الفرنسـية جميـع المناشـير الرسـمية، وتعامـل صـحافتها مثـل الصـحافة الفرنسـية، وتعطى الحريـة في تعليمهـا في المـدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية.

4- تسـليم المسـاجد للمسـلمين مـع تعـيين مقـدار من ميزانيـة الجزائـر لهـا يتناسـب مـع أوقافهـا. وتتـولّى أمرهـا جمعيـات دينيـة مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

5 ـ تأسيس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخـريج مـوظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرسين ومؤذنين وقيّمين وغيرهم.

6 ـ تنظيم القضـاء بوضـع مجلـة أحكـام شـرعية على يـد هيئـة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشـراف الجمعيـات الدينيـة، وإدخـال إصلاحات على المـدارس الـتي يتخـرّج منهـا رجـال القضـاء، منهـا تدريس تلك المجلة والتحقق بـالعلوم الشـرعية الإسـلامية، وطبـع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

وقـد ذكـر حمـزة بوكوشة أنـه عنـد مقابلـة ابن بـاديس لـوزير الحربية الفرنسي آنذاك، وتصريحه له بأنه لا يمكنه أن يوافق على إعطاء المسلمين الجزائريين النيابة في البرلمـان مـع محـافظتهم على الشريعة الإسـلامية في الحقـوق الشخصـية، وقـال لهم: (إن فرنسا معها مدافع)، فقال له عبد الحميد: (والجزائر معها الله)[1]

وكتب عبـد الحميـد حينهـا مقـالاً في الشـهاب وصـف فيـه تلـك المقابلات ختمه بذكر أهم نتيجتين تمخض عنها، وهي:

1 – أن الوفـد أدى مطـالب مـؤتمر الأمـة الجزائريـة المسـلمة بصدق وأمانة وشرف.

2 – أن فرنسـا بحكومتهـا وأحزابهـا وصـحافتها عـرفت أن وراء البحر أمة جزائرية إسلامية تطالب فرنسا بحقوقها وتحافـظ تمـام المحافظة على شخصيتها ومقومات شخصيتها[2].

رغم عـدم نجـاح المـؤتمر في تحقيـق مطالبـه إلا أنّ الجمعيـة

---

[1]) مع ذكر ابن باديس للقائه مع وزير الحربية إلا أنه لم يذكر هـذا (انظـر: آثـار ابن باديس: 3/340)، وانظر: حمزة بوكوشة : مجلـة الثقافـة، عـدد 06، جـانفي 1972، ص 61.

ظلت حريصة عليه، وقد كان من أوائل ما أصيبت بـه الجمعيـة من الخيبة بعد الخيبة التي رجعت بهـا من المـؤتمر هـو ذلـك الموقـف الذي وقفه (ابن جلول) بسبب حادثة مقتل مفتي الجزائر (محمـود بن دالي)[1]، المعروف بكحول، الذي كان ضـمن وفـد المـؤتمر إلى فرنسا، وقد اتهم في قتله الشيخ الطيب العقبي.

ولم يكتف ابن جلول بخروجه من المـؤتمر، بـل ذهب بعيـدا في خصومته للجمعيـة، إذ التجـأ إلى الطـرق الصـوفية وأقـام لهم في قسنطينة حفلا كبيرا.

ولمـا جـاءت سـنة 1937م كـان المـؤتمر الإسـلامي مـا زال

---

[2]) آثار ابن باديس: 3/340.

[1]) وقد أثـرت هـذه الحادثـة كثـيرا في مسـيرة الجمعيـة، ولعلهـا من الآثـار السـلبية لدخول المؤتمر، وقصتها هي أن رجلا معروفا بالإجرام يقال له عكاشة، نفـذ جريمتـه يوم 2أوت 1936م بقتل المفتي في الـوقت الـذي كـان فيـه العقـبي وسـائر ممثلي المؤتمر مجتمعين بـالملعب البلـدي[20أوت حاليـا] يشـرحون للأمـة المطـالب الـتي تقدموا بها إلى الحكومة الفرنسية، فلما ألقي عليـه القبض ادعى الجـاني أنـه تسـلم من العقبي خنجرا من صنع بوسعادة ومبلغ 30000فرنكا، فاعتقل العقبي ورفيق لـه وزج بهمـا في السـجن، وأغلـق نـادي الـترقي، وضـيق على أعضـاء الجمعيـة في العاصمة، واحتشدت الجماهير وتجمعت تلقائيا احتجاجا على اعتقال الشـيخ وصـاحبه فكادت تحدث فتنة عمياء لـولا أن توجـه إليهم ابن بـاديس والإبـراهيمي بـأن يقـابلوا الصدمة بالصبر والتزام الهدوء والسكينة، فقضى الشيخ في السجن سـبعة أيـام، ثم تراجع عكاشة عن تصريحاته بعد ذلك وأنكـر أن تكـون لـه علاقـة بـالعقبي وصـاحبه، فأفرج عنهما بصفة مؤقتة، ووضعا تحت المراقبة مع إمكانية التوقيف عند الضـرورة، ثم لم يُفصل في القضـية إلا بعـد ثلاث سـنوات، حيث حكم بـبراءة العقـبي وصـاحبه بتـاريخ 28 جـوان 1939، ويـرى البعض أن الحادثـة قـد أثـرت كثـيرا على العقـبي ومواقفه، ولعلها من أسباب استقالته بعد ذلك من الجمعيـة، لكن الإبـراهيمي يـذهب إلى عكس ذلك، فيقول في (الآثار (1/279): (ومن آثـار هـذه الحادثـة على الأسـتاذ العقبي أنها طارت باسـمه كـل مطـار ووسـعت لـه دائـرة الشـهرة حـتى فيمـا وراء البحار، وكان يوم اعتقاله يوما اجتمعت فيه القلوب على الألم والامتعاض، وكان يوم خروجه يوما اجتمعت فيه النفوس على الابتهاج والسـرور) (انظـر: الحادثـة بتفصـيل في: أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ج2، ص177)

متماسكا، رغم الحملة التي شنّت عليه من طرف ابن جلول ومن معه، وبقيت مطالب المؤتمر الأولى كما هي لم تتغيّر، وأضيف إليها مطالب أخرى، ولكنّ شيئا من هذا كلّه لم يتحقّق، فعقد اجتماع اللجنة التنفيذية للمؤتمر سنة 1937م، وتمخّض هذا الاجتماع عن قرارات مهمة منها: استقالة جميع النواب المسلمين وعدم مشاركتهم في المجالس المنتخبة اعتبارا من تاريخ الاجتماع، كما جدّدت اللجنة مطالبتها بحرية تعليم اللغة العربية وإيجاد المدارس الكافية للتعليم العام، والحرية المطلقة للوعظ والإرشاد، والتعليم في سائر المساجد.

وتكوّن وفد ضمّ الشيخ ابن باديس وفرحات عباس للذهاب إلى فرنسا، لعرض هذه المطالب على الحكومة الفرنسية، لكن فرنسا أجابت بالرفض، عندها أضربت الجمعية وصحفها عن الاهتمام بهذا المؤتمر، حيث لم تحقق من ورائه أي شيء.

وقد كانت هذه الأحداث محل مناقشة كثيرة بين مؤيد لهذا العمل الذي قامت به الجمعية، ورافض له يعتبر أن آثاره السلبية أخطر بكثير من آثاره الإيجابية، ولغل خير من يمثل هذا التوجه هو الأستاذ الكبير مالك بن نبي، الذي انتقد بشدة ما آلت إليه الأمور في المؤتمر الجزائري، وانتقد سير الجمعية مع القافلة السياسية.

ومهمة هذا النقد هو ما أبرزه من تصوير للواقع الجزائري في تلك الفترة، والذي صار (أكثر جدباً وأفشى قحطاً، لم تبق فيه تلك الرابطة التي كان المرء يشعر بها بين القلوب والعقول المجتمعة حول قضية في جو يضفي عليها القداسة... بل هذه القضية نفسها أصبحت كأنها ذابت وتبخرت في طوفان من كلام، إذ أصبح كل مقهى سوق عكاظ، وكل مائدة فيها أصبحت منصة يخطب من حولها بما شاء ولمن شاء وكيفما شاء)[1]

ويعزو ابن نبي سبب هذا التحول إلى تسليم (القيادة (المعمَّمة) زمام الأمر للقيادة (المطربشة[2]، حتى على رأس المؤتمر الجزائري الإسلامي، الذي ذهب أول ضحية لهذا التسليم، وبدأ

[1] مذكرات شاهد القرن، ص 384.

[2] (المطربشة) كناية عن الزعماء السياسيين خريجي الجامعات، وهذه المصطلحات كانت قد ظهرت في مصر أثناء الصراع بين قيادات الأخوان المسلمين أصحاب العمائم الأزهريين وبين خريجي الجامعات من (الأفندية) كما كانوا يسمون.

ظهور (الجبهة الشعبية) بفرنسا يضيف مفعوله الخاص إلى الانهيار الذي حدث بالجزائر، فأصبح كل جزائري ذا اهتمـام سياسـي يعلن عضويته في الحزب الاشتراكي الفرنسي، حـتى بعض هيئـة أركـان حزب الإصلاح) [1]

ويذكر بقاء تأثير هـذا الحـدث على الجزائـريين لعقـود، فيقـول: (وإنني لأرى، وأنا أحرر هذه السطور بعـد مضـي ثلث قـرن، نتـائج هذا الانحراف في المظاهرة الطلابية الـتي تمـر هـذه اللحظـة في الشارع تحت نافذتي، منادية بسقوط شخصية عربية أعلنت اليـوم استقالتها من الحكم بعـد الهزيمـة النكـراء، بينمـا لم أر همـة هـذا الشباب تتحرك قبل أسبوع لينـادي بسـقوط (موشـي دايـان).. إن هـذا الظـرف يكشـف عن ظـاهرة الفـرار من الـواجب بالتظـاهر والمظاهرات، تلك الظاهرة التي لم تكن بعـد نتائجهـا واضـحة في الميدان السياسي ولكنها أصـبحت في منتهى الوضـوح في الحقـل النفسي)[2]

ويذكر مالك بن نبي أن الشيخ العربي التبسي، وهـو من شـيوخ الجمعية، كان يدافع عن ابن جلـول باعتبـاره زعيمـاً سياسـياً لا بـد منه (وكان الرجل (بن جلول) يقوم علانيـة بـدور من ينقض الغـزل كلما غزله الشعب منذ ربع قرن)[3]

والخلاصة الـتي يصـل إليهـا مالـك هي أن العلمـاء وهم الأمنـاء على مصلحة الشعب سلموا الأمانة لغيرهم، سـلموها لمن يضـعها تحت قدميه لتكون سلماً يصعد عليه للمناصب السياسية، سـلموها للجناح القومي البرجوازي (فرحـات عبـاس وأمثالـه) الـذي تقبلهـا منهم بكل سرور!

ويعتقد مالك أن العلمـاء لم يكن في اسـتطاعتهم مواجهـة هـذا

---

[1] مذكرات شاهد القرن، ص 384.

[2] مذكرات شاهد القرن، ص 384.

[3] مـذكرات (386)، وانظـر: د. محمـد العبـدة، مالـك بن نـبي وجمعيّـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، مقـال بموقـع ابن بـاديس على هـذا الرابـط: (http://www.binbadis.net)

التيــار لأنهم لا يشــعرون به[1] (ولأنهم لم يكونــوا على جــانب من الخبرة بوسائل الاستعمار في مجال الصراع الفكري حتى يفطنــوا إلى هذا الانحراف، وربما كان هذا سبب فتور علاقـاتي بهم خاصـة مع الشيخ العربي التبسي)[2]

ويرى مالـك أن الحركـة الإصـلاحية كـان عليهـا أن تتعـالى على أوحال السياسـة والمطـامع الانتخابيـة وأن من أسـباب انجـرارهم لهذه الأحوال هو شعورهم بمركب النقص إزاء قادة السياسة[3].

وقـد صـدقت فراسـة مالـك بن نـبي في ابن جلـول، فقـد كتب بعدئذ الشيخ الإبراهيمي يقول: (ولكن الرجل – ابن جلـول- تملّكـه الغرور، وتكشف عن خِلال كلها غميزة في وطنيّة السياسيّ، وكان أقوى الأسباب في سقوطه اصطدامه بجمعية العلمـاء، وهي الـتي كونته وأذاعت اسمه، وعبّـدت لـه الطريـق إلى النيابـات، فـأرادت الجمعية أن تستصلحه فلم ينصلح، فنبذت إليه على سواء)[4]

وما ذكره مالك بن نبي حول انزلاق الجزائر إلى أوحال التهــريج السياسي عاد الإبراهيمي عام 1954 ليقر بـه وينتقـده، يقـول في ذلك: (وكأن الحكومة الاسـتعمارية الـتي تـدرس نفسـية الشـعوب عــرفت مــواطن الضــعف في النفســيّة الجزائريــة، فــرأت أن الانتخابات هي الفتنـة الكـبرى للزعمـاء وأتبـاعهم، فنَصَـبَتها صـنماً يصطرعون حوله، والغالب على الشعوب البدائيّة في السياسة أن تكون على بقيّة من وثنيّة، أصنامها الشخصيات، فيكـون إحساسـها تبعاً لإحساسهم ولو إلى الضياع والشر، وهذه هي الحالـة السـائدة في شرقنا)[5]

ونرى أن ما حدث للجمعية وما ذكره مالك بن نبي من آثـار هـو نفس مـا تقـع فيـه حركـات الإسـلام السياسـي حين تنصـرف عن

---

[1] مذكرات (386).

[2] مذكرات (386).

[3] مذكرات (386).

[4] آثار الإبراهيمي: 5/132.

[5] الآثار الكاملة 3/69.

مهمتها الأساسية في تشكيل الأمة وتحصينها إلى ما يسميه مالك بن نبي بالزردات[1] السياسية التي لا تقل خطرا عن الزردات الصوفية.

ثالثا ــ رفض برقية التأييد لفرنسا:

وقصتها كما يذكرها حمزة بوكوشة[2] هي أنه سنة 1937 ظن الناسُ أن الحرب بين فرنسا وألمانيا على الأبواب، فبعثت جمعية الميعاد الخيري (هيئة متكونة من الأغوات والقياد)، وبعثت جماعة اتحاد الزوايا وغيرها من الهيئات برقية ولاء وتأييد للحكومة الفرنسية، وشذت جمعية العلماء عن ذلك، فكبر ذاك على الفرنسيين.

فطلبوا من الشيخ الطيب العقبي أن ترسل جمعية العلماء برقية ولاء ليُظهر المسلمون الجزائريون مظهر اتحاد ووفاق في موالاة فرنسا، فعرض القضية على الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقال: (سينعقد الاجتماع العام للجمعية في هذه الأيام، وطبعاً يتقدم ذلك اجتماع المجلس الإدراي، وسأضع هذا الاقتراح في اجتماعه ليقول الأعضاء الإداريون كلمتهم)

وفي الاجتماع الإداري في 23 سبتمبر 1938 طرح عبد الحميد القضية بهدوء، وطلب من الأعضاء إبداء آرائهم، فكانت غالبية الآراء ضد كتابة البرقية، واستصوب العقبي إرسالها، وقال في تبريره لذلك: (الحرب على الأبواب، وإرسال البرقية يخفف من حدة الفرنسيين، فتسلم مدارسنا ونوادينا ومشاريعنا الخيرية، ونبقى على اتصال بأمتنا ولو في زمن الحرب)، وأخذ يدافع عن نظريته، فعارضه كثير من الأعضاء، وعبد الحميد معتصم بالسكوت.

ولما طالت المناقشة طلب عبد الحميد من الأعضاء التصويت برفع الأيدي، فكانت النتيجة أربعة أصوات منهم العقبي يقولون بإرسالها، واثني عشر يقولون بعدم إرسالها، واحتفظ عبد الحميد بصوته، ولما انتهت المناقشة حمد الله وأثنى عليه، وكان مما

---

[1] يسمى هكذا النذر الذي يقام كل سنة قبل قيام الحركة الإصلاحية في المدن الجزائرية، انظر حديث مالك بن نبي عن هذا في (مذكرات شاهد القرن)، ص 386.

[2] انظر: حمزة بوكوشة : مجلة الثقافة، عدد 06، جانفي 1972، ص 60، وما بعدها.

قاله: (لو كانت أغلبيتكم تؤيد إرسال البرقيـة مـا كنتم ترونـني في مجلسكم هذا بعد اليوم)

وانتقلت القضية من الاجتماع الإداري الخاص بالأعضاء الإداريين إلى الاجتماع العام الذي تحضره الجماهير، فقال عبد الحميـد على رؤوس الملأ: (أقول صراحة – واجتماعنا هذا لا يخلو من جواسيس رسميين أو غير رسميين- إني لن أمضي البرقية ولن أرسـلها ولـو قطعوا رأسي، وماذا تستطيع فرنسا أن تعمل؟ إن لنا حياتين حياة مادية وحياة أدبيـة روحيـة، فتسـتطيع القضـاء على حياتنـا الماديـة بقتلنا ونفينا وسجننا وتشريدنا، ولن تستطيع القضـاء على عقيـدتنا وسـمعتنا وشـرفنا فتحشـرنا في زمـرة المتملقين، إننـا قررنـا السكوت)

وقد بـرر هـذا الموقـف بـأن الحـرب بين فرنسـا وألمانيـا (حقـد الاسـتعمار بعضـه على بعض، ورغبـة بعضـه في إثـارة مسـتعبدي بعضه عليه، واسـتمالتهم إلى نفسـه، لأنّ تلـك الأمم المستضـعفة، هي مادة حياته وأساس قوته، فهو يتقاتل من أجلها تنافسـا عليهـا، لا رحمة بها، وإن تظاهر بالعطف والشفقة)[1]

وقد نتج عن هذه الحادثة آثار سلبية كثـيرة على الجمعيـة، كـان أولها استعفاء الشيخ الطيب العقبي من العضوية الإداريـة لجمعيـة العلمـاء، واضـطرار الجمعيـة إلى توقيـف جريـدة البصـائر لكي لا تـرغم على نشـر مـا لا ترضـاه، فأعـاد العقـبي إصـدار جريدتـه (الإصلاح) في 28 ديسمبر 1939 والـتي اسـتمرت إلى العـدد 73 الصادر في 3مارس 1948.

المطلب الثالث: جمعية العلماء في عهد الإبراهيمي:

بعـد وفـاة ابن بـاديس لم يكن هنـاك شـخص أولى وأقـدر من الإبـراهيمي على تـولى ذلـك المنصـب الحسـاس، زيـادة على أن القانون الأساسي للجمعيـة يقضـي بتوليـة النـائب في حالـة وفـاة الرئيس[2].

---

[1]) البصائر، العدد 165، 22 ربيع الأول، 1358هـ ـ 12 مايو، 1939م.

[2]) وقد ذكرت بعض المصادر أنـه عنـد وفـاة ابن بـاديس حضـر ممثـل الـوالي العـام الفرنسي الكومندان شال، واقترح عليهم تعيين العقبي مقابل تقديم العـون، بـالرغم من أ ن هـذا الأخـير قـد اسـتقال من عضـوية الجمعيـة منـذ سـبتمبر 1938، بسـبب

وقد كان الإبراهيمي في تلك الأثناء منفيا بآفلو[3]، ولم ترفع عليه الإقامة الجبرية إلا سنة 1943، فانتخب كرئيس للجمعية غيابيا، وظل يشغل هذا المنصب إلى غاية اندلاع الثورة، رغم بعده عن الساحة.

ويمكن من خلال استقراء الأحداث والمواقف التي وقفتها الجمعية في عهد إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى (1939- 1944):

مع قيام الحرب العالمية الثانية، طالبت فرنسا كافة الهيئات الجزائرية بتأييد موقف فرنسا، لكن الجمعية رفضت، وكانت المواجهة مع السلطة الفرنسية مباشرة، ولهذا أصدرت السلطات قرارًا بإلغاء الجمعية عام 1940، وتوفي ابن باديس في نفس العام، وخلفه محمد البشير الإبراهيمي في رئاسة الجمعية، ولكنه اعتقل وعُذِّب في عام 1941، ثم قامت سلطات الاحتلال بنفيه إلى الصحراء، وفي عام 1946 عادت الجمعية إلى النشاط بعد الإفراج عن رئيسها.

وتتميز هذه الفترة بتجمد نشاط الجمعية فيها مثل سائر الأحزاب الجزائرية نتيجة الحرب العالمية الثانية، حيث خضعت إلى الأحكام العرفية.

ونحب أن ننقل هنا بتصرف تصوير الشيخ الإبراهيمي لتلك الفترة وما حصل فيها من أحداث، لأنها – بالإضافة إلى تصويرها الواقع الجزائري في ذلك الحين بدقة – تصور كذلك الفكر الثوري

الخلاف الذي وقع بينه وبين ابن باديس نتيجة رسالة الولاء والتأييد التي كان سيبعثها العقبي للحكومة الفرنسية في حربها ضد ألمانيا.

(CH-R-Ageron:.Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op-Cit, p 579.(

[3]) يذكر المناصرون للإبراهيم في سبب اعتقاله أن فرنسا عرضت عليه في بداية الحرب العالمية الثانية أن يقبل بمنصب شيخ الإسلام في الجزائر إن هو قال أو كتب ما يؤيّدها في حربها ضد ألمانيا، فرفض ذلك بإباء وشموخ، فكان أن نفي إلى الصحراء. (انظر: الدكتور عبد العزيز الصغير الدخان، جمعية العلماء ــ ابن باديس ـ البشير الإبراهيمي: المصابيح المشرقة في ليل مظلم طويل، على موقعه بالانترنت ((http://dr-dakhane.com/main/textshow-27.html)

الذي كان يحمله الإبراهيمي، وكان يقود الجمعية على أساسه.

يقول ذاكرا الفترة التي كان فيها في الغـرب الجزائـري: (بلغت إدارة الجمعية وهي في مسـتهل حياتهـا من النظـام والقـوة مبلغًـا قويًّا بديعًا فأصبحنا لا نتعب إلّا في التنقل والحـديث، أمـا الحكومـة الاستعمارية فإننا بنينا أمرنا من أول خطـوة على الاسـتخفاف بهـا وبقوانينهـا، وقـد كنـا نعلن في جرائـدنا كـل أسـبوع بـأن القـوانين الظالمـة لا تسـتحق الاحـترام من الرجـال الأحـرار، ونحن أحـرار فلتفعل فرنسا ما شاءت، وكان هـذا الكلام ومثلـه أنكى عليهـا من وقع السهام لأنها لم تألف سماعه، وقـد اطمـأنت إلى أن الشـعب الجزائري قد مات كما صرح بذلك أحد ساسـتها الكبـار في خطبـة ألقاهـا على ممثلي الأمم في المهرجـان الـذي أقامتـه في عيـدها المئـوي لاحتلال الجزائـر، وكـان ممـا قـال: (لا تظنـوا أن هـذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هـذا الـوطن، فقـد أقـام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجـوا منـه، ألا فلتعلمـوا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار)[1]

ثم يذكر تأثير ذلك السلوك الثوري عليه وعلى الجمعية، فيقول: (ولما ضاقت فرنسـا ذرعًـا بأعمـالي ونفـد صـبرها على التحـديات الصـارخة لهـا، وأيقنت أن عاقبـة سـكوتها عنـا هـو زوال نفوذهـا وخاتمة استعمارها، اغتنمت فرصة نشوب الحرب العالمية الثانيـة، وأصدر رئيس وزرائها إذ ذاك "دالاديى" (Daladier) قرارًا يقضـي بإبعادي إلى الصحراء الوهرانية إبعادًا عسـكريًا لا هـوادة فيـه، لأن في بقـائي طليقًـا حـرًا خطـرًا على الدولـة، كمـا هي عبارتـه في حيثيات القرار، ووكـل تنفيـذ قـراره للسـلطة العسـكرية فنقلـوني للمنفى في عاشر أفريل سنة 1940، وبعد استقراري في المنفى بأسبوع تلقيت الخبر بموت الشيخ عبد الحميـد بن بـاديس- رحمـه الله- بداره في قسنطينة بسرطان في الأمعاء، كـان يحس بـه من سنوات ويمنعـه انهماكـه في التعليم وخدمـة الشـعب من التفكـير فيه وعلاجه، وقد شيع جنازته عشرات الألوف من الأمة رغمًـا عن

---

[1]) آثار الإبراهيمي: (5/284)

قسوة الأحكام العسكرية وقت الحرب)[1]

ثم يذكر انتخاب الجمعية له بإجماع، فيقول: (واجتمع المجلس الإداري للجمعية ورؤساء الشُّعَب يوم موته وانتخبوني رئيسًا لجمعية العلماء بالاجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى فأصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين اخواني بواسطة رسل ثقات) [2]

المرحلة الثانية (1944-1956):

وتعتبر فترة نشاط واسع بالنسبة للجمعية، وخاصة في نشر رسالتها التعليمية من خلال مدارسها، ومساجدها رغم احتياجها للمال.

وقد ذكر الشيخ الإبراهيمي منجزاته فيها، فقال: (بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريبًا، ولما أطلق سراحي من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأت في سنة واحدة ثلاثًا وسبعين مدرسة في مدن وقرى القطر كله، كلها بأموال الأمة وأيديها، واخترت لتصميمها مهندسًا عربيّا مسلمًا فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة) [3]

ويذكر النشاط الكبير الذي بذلته الجمعية في بناء المدارس في ذلك الوقت، فقال: (وتهافتت الأمة على بذل الأموال لتشييد المدارس حتى أربت على الأربعمائة مدرسة، ولم أتخل بعد رئاستي للجمعية وخروجي من المنفى عن دروسي العلمية للطلبة وللعامة)[4]

ثم يذكر موقف المستعمر من هذا النشاط، فيقول: (ولما رأت فرنسا أن عقابها لي بالتغريب ثلاث سنوات لم يكف لكسر شوكتي، وأنني عدت من المنفى أمضى لسانًا وقلبًا وعزيمة مما كنت، وأن الحركة التي أقودها لم تزدد إلّا اتساعًا ورسوخًا،

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/284)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/284)

[3] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[4] آثار الإبراهيمي: (5/285)

انتهزت فرصة نهاية الحرب ودبرت للجزائر ثورة مفتعلة فقتلت من الشعب الجزائري المسلم ستين ألفًا، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفًا معظمهم من أتباع جمعية العلماء، وألقت بي في السجن العسكري المضيق تمهيدًا لمحاكمتي بتهمة التدبير لتلك الثورة، فلبثت في السجن سنة إلّا قليل، ثم أخرجوني بدعوى صدور عفو عام على مدبري الثورة ومجرميها وكان من "زملائي" في السجن الدكتور شريف سعدان- رحمه الله-، والصيدلي فرحات عباس والمحامي شريف حاج سعيد وغيرهم)[1]

ثم يذكر النشاط المتزايد الذي قام به بعد خروجه من السجن، فقال: (ولما خرجت من السجن عدت إلى أعمالي أقوى عزيمة مما كنت، وأصلب عودًا وأقوى عنادًا، وعادت المدارس التي عطلتها الحكومة زمن الحرب، وأحييت جميع الاجتماعات التي كانت معطلة بسبب الحرب، ومنها الاجتماع السنوي العام، وأحييت جريدة (البصائر) التي عطلناها من أول الحرب باختيارنا باتفاق بيني وبين ابن باديس لحكمة، وهي أننا لا نستطيع تحت القوانين الحربية أن نكتب ما نريد، ولا يرضى لنا ديننا، وهمتنا، وشرف العلم، وسمعة الجمعية في العالم، أن نكتب حرفًا مما يراد منا، فحكمنا عليها بالتعطيل وقلنا: بيدي لا بيد عمرو، وحسنًا فعلنا، كذلك عطلنا مجلة (الشهاب) الناشرة لأفكار الجمعية)[2]

ويذكر الإبراهيمي النشاطات الكثيرة التي كان يقوم بها في الجمعية، فيقول: (كنت أقوم للجمعية بكل واجباتها، وأقوم للجريدة بكل شيء حتى تصحيح النماذج، وأكتب الافتتاحيات بقلمي، وقد تمر الليالي ذوات العدد من غير أن أطعم النوم، وقد أقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلّا وأحضر افتتاحها وأخطب فيه، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلّا وأحضر بنفسي وأبرم الصلح بينهما، وأرغم الاستعمار الذي من همه بث الفتن، وإغراء العداوة والبغضاء بين

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/285)

الناس، فكنت معطلًا لتدبيراته في جميع الميادين)[1]

ثم يـذكر النشـاط المتزايـد الـذي قـام بـه في مجـال التعليم، فيقول: (بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمائة وزيادة، وبلـغ عدد تلامذتها إلى اليوم الذي سافرت فيه إلى الشرق مئات الآلاف بين بـنين وبنـات، وبلـغ عـدد معلميهـا ألفًـا وبضـع مئـات، وبلغت ميزانيتها الخاصة (وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلمــاء) مائـة مليـون فرنـك وزيـادة إلى نهايـة خـروجي من الجزائـر سـنة 1952. ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارسنا بالشـهادة الابتدائيـة عشرات الآلاف، وجدت نفسي أمام معضلة يتعسر حلهـا، ذلـك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيـد، وأرهقـوني من أمري عسـرًا، وألحـوا عليَّ أن أتقـدم بهم خطـوة إلى الأمـام، وحرام علي- على حـد تعبـيرهم- أن أقـف بهم دون غاياتـه، فكـان واجبًـا علي أن أخطـو بهم إلى التعليم الثـانوي، وأهبت بالأمـة أن تعينني بقوة أبلغ بها غرض أبنائها، فاسـتجابت فكـان ذلـك مشـجعًا على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة نسبناه إلى إمـام النهضـة ابن باديس..، وكـانت نيـتي معقـودة على إنشـاء معهـدين ثـانويين آخرين، أحدهما بمدينة الجزائر، والثاني بمدينة تلمسـان، وقـد بلـغ تلامذة المعهد الباديسي في السـنة الأولى ألفًـا أو يزيـدون، وكلهم منتخبون من مدارسنا الابتدائية من جميع القطر) [2]

هـذه هي الأحـداث كمـا صـورها الإبـراهيمي بنفسـه، وهي في مجملها تـدل على الاهتمـام المتزايـد في عهـده بالمجـال الـتربوي والتعليمي وتأسيس المدارس.

ويضم إلى هذا جهـوده السياسـية الكثـيرة، ومن أهمهـا محاولـة جمع الأحزاب والشخصيات الوطنية في (هيئة أحباب البيان)، وقــد خرج من تلك المحاولات أكثر اقتناعـا بفسـاد أغلب تلـك الأحـزاب وتناحرها على المناصب والألقاب[3].

---

[1] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[2] آثار الإبراهيمي: (5/285)

[3] انظـر: آثـار الإبـراهيمي 2/257. وقـد كتب هـذا الكلام بالبصـائر، العـدد 52، 11 أكتوبر 1948..

ومن الأعمال السياسية التي قامت بها جمعية العلماء في عهده أنّها كانت وراء تشكيل اتحاد أحزاب الشمال الإفريقي، الذي شارك فيه من الجزائر: حزبُ البيان الجزائري، وحزبُ حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ومن المغرب: حزبُ الاستقلال، وحزب الإصلاح، وحزبُ الشورى والاستقلال، وحزب الوحدة، ومن تونس: الحزبُ الحرّ الدستوري الجديد، والحزب الدستوري التونسي[1].

وأسوأ ما حصل في هذه الفترة – وهو ما كان مقدمة لانتهاء نشاط الجمعية - هو سفر كل من رئيس الجمعية البشير الإبراهيمي، ونائبه أحمد المدني إلى مصر في عام 1951، واستقرارهما بها منذ عام 1952، وإن كان عذرهما هو حشد التأييد السياسي والمادي القضية الجزائرية، وخشية الاعتقال عند العودة، ونجاحهما في المشاركة في تأسيس مكتب المغرب العربي بالقاهرة، وافتتاح إذاعة صوت الجزائر من الإذاعة المصرية، وقد كان أول صوت يصدر من هذه الإذاعة صوت البشير الإبراهيمي مناديًا الثوار: (لا نسمع عنكم أنكم تراجعتم، أو تخاذلتم)[2]

المطلب الرابع: دور الشيخ العربي التبسي في جمعية العلماء

من الشخصيات المهمة التي كان لها الدور الكبير في الجمعية ابتداء من تأسيسها، وانتهاء بحلها الشيخ العربي التبسي، ولهذا لا يمكننا أن نؤرخ للجمعية دون أن نمر عليه، وعلى منجزاته فيها.

وبما أن رسالة دكتوراه أستاذي الفاضل الدكتور أحمد عيساوي مرتبطة بالشيخ العربي التبسي، بالإضافة إلى ما جمعه من آثاره، بالإضافة إلى كونه ابن بلده، ويعرف الكثير من العلاقات المرتبطة به، فسيكون مرجعي في هذا المطلب ما كتبه في رسالته حوله، لا باعتباره مرجعا فقط، بل باعتباره مصدرا أيضا، فقد تسنى له

---

[1] انظر: عبد العزيز الصغير دخان، جمعية العلماء ـ ابن باديس ـ البشير الإبراهيمي: المصابيح المشرقة في ليل مظلم طويل، على هذا الموقع: (http://dr-dakhane.com/main/textshow-27.html)، ولم أجد الكتاب مع أهميته مطبوعا.

[2] المصدر السابق.

أن يلتقي بالكثير من معارف الشيخ الذين وفروا له من الشهادات ما يمكن الاستئناس به والاستفادة منه.

ومن خلال ما ذكره الدكتور عيساوي عنه، يمكن تقسيم مراحل علاقة الشيخ العربي التبسي بالجمعية إلى أربعة مراحل:

1 ــ قبل تأسيس الجمعية:

ذكر الدكتور أحمد أن علاقة الشيخ العربي بالجمعية كانت علاقة مبكرة ابتدأت من عضويته في جماعة الرواد (1928-1931) الذين ذكرهم الشيخ محمد خير الدين في مذكراته، فقال: (.. اجتماع الرواد، في عام 1928م تحقق عزم ابن باديس ووجه دعوته إلى الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي ، الذين رأى فيهم مقدرة واستعدادا للعمل في سبيل الدين والوطن .. وقد لبى دعوته : الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ مبارك بن محمد الميلي والشيخ الطيب العقبي والشيخ العربي التبسي والشيخ السعيد الزاهري، وكاتب هذه المذكرات الشيخ محمد بن خير الدين)[1]

وقد عرض الشيخ ابن باديس خطته على هذه الجماعة، وهي – كما يلخصها الدكتور عيساوي-:

1 - تكوين لجنة منكم للتسيير والتنفيذ .

2 - الشروع فورا في إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية .

3 - الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة ، والجولان في كافة أنحاء الوطن لتبليغ الدعوة الإصلاحية لجميع الناس .

4 - الكتابة في الصحف ، والمجلات لتوعية طبقات الشعب .

5 - إنشاء النوادي العربية للاجتماعات ، وإلقاء الخطب والمحاضرات .

6 - إنشاء فرق الكشافة الإسلامية للشباب في كافة أنحاء البلاد .

7 - العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والحكم الأجنبي ، لأن مبدأنا الذي يجب أن

---

[1]) محمد خير الدين . المذكرات . ج 1 . ص 83، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص120.

نسير عليه هو اتباع هدي رسول الله ﷺ[1].

بعد ذلك عين ابن باديس جماعة الرواد ، وحدد لهم أماكن نشاطهم .. وجعل نشاط الشيخ العربي التبسي لإلقاء الدروس بتبسة وما جاورها.

2 ــ عند تأسيس الجمعية:

حيث أنه كان من الحضور في جلسات الاجتماع التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي بالجزائر العاصمة يوم الثلاثاء 05/05/1931م الموافق 17/ذي الحجة/ 1349هـ[2].

وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي السبب في عدم ترشيح الشيخ العربي التبسي نفسه لعضوية المجلس الإداري لجمعية العلماء في جلستها التأسيسية ناقلا ذلك عن أقرب تلامذته ومساعديه[3]، وهي:

1 - رغبته في إفساح الفرصة للعلماء الآخرين .

2 - زهده في طلب المناصب.

3 - تفويت الفرصة على الأعداء ، والمتربصين بنجاح تأسيس الجمعية .

3 ــــ مرحلة العضوية في المجلس الإداري لجمعية العلماء

وهي تمتد من سنة 1932 إلى سنة 1956، وتبدأ من ترشيح الشيخ العربي نفسه لعضوية المجلس الإداري للجمعية بطلب من العلماء الحاضرين في جلساتها المنعقدة يومي الاثنين والثلاثاء 18/19/محرم 1350هـ27/28/09/1932م، وانتخب الشيخ في عضوية المجلس الإداري للجمعية في عامها الثاني للمرة الأولى

---

[1]) محمد خير الدين . المذكرات . ج 1 . ص 83 .ـ 122، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص121.

[2]) محمد البشير الإبراهيمي . الجلسة التمهيدية لجمعية العلماء . مجلة الشهاب . ج 6 . المجلد 7 . قسنطينة غرة صفر 1350هـ . الموافق لـ جوان 1931م . ص 341 ..

[3]) ذكر الدكتور أحمد عيساوي أنه استفاد ذلك من حوار مع الشيخ العيد والشيخ عيسى سلطاني بالقرب من منزلهما بتبسة شهر جوان 1991م، نقلا عن: الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص122.

الـتي يترشـح فيهـا ، وعين نائبـا للكـاتب العـام محمـد الأمين العمودي[1].

وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي أن الشيخ العربي التبسـي كـان يرشـح نفسه لعضوية المجلس الإداري لجمعية العلمـاء كـل سـنة إلى أن انتخب كاتبا عاما للجمعية في جلساتها الاعتيادية أيام الأحد والاثـنين 11/12/رجب/ 1355هـ 27/28/09/ـ 1936م، بعـد أن حـاز على 178 صـوتا من المصـوتين كبقيـة زملائـه الأعلام المترشحين وهم : ابن باديس والإبراهيمي والعقبي والميلي[2].

وقد ظل الشيخ العـربي – كمـا يـذكر الـدكتور أحمـد عيسـاوي- يشـغل منصـب الكـاتب العـام للجمعيـة إلى أواخـر شـهر سـبتمبر 1946م تـاريخ انعقـاد الجلسـة العاديـة للجمعيـة، حيث تم تجديـد المجلس الإداري للجمعية وفيـه نـال منصـب نـائب الـرئيس، وفي فـترة جمـود نشـاط الجمعيـة أثنـاء الحـرب العالميـة الثانيـة كـان الشيخ مبارك الميلي يشـغل منصـب نـائب الـرئيس ، وقـد أقعـده المرضه العضال ، فنابه في مهامه [3].

وقـد تعمـق في هـذه المرحلـة (1939-1945)ـ – كمـا يـذكر الـدكتور أحمـد عيسـاوي- نشـاط الشـيخ في مجـالات الجهـاد السياسي بالإضافة إلى اضطلاعه أيضا بالعمل الدعوي والإصلاحي والتعليمي.

ومن نشاطاته التي غطتها تقاريـر الإدارة الاستعمارية (S . L .N . A) كراسة المطالب التي تقدمت بها جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائريين للحلفاء، حيث يورد التقرير

أنـه (اجتمـع العلمـاء بقسـنطينة يـوم 07/07/1944م برئاسـة الشيخ العربي التبسي في غياب الإبراهيمي الـذي كـان معتقلا في آفلـو ، رغم قـرار الحظـر الصـادر عن الحـاكـم العـام بسـبب

---

[1]) محمد خير الدين . المـذكرات . ج 1 . ص 111 ..ـ 119، نقلا عن الـدكتور أحمـد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص122.

[2]) اجتماع الجمعية . جريدة البصائر . السلسـلة الأولى . السـنة الأولى . عـدد 37 . الجمعة 16/رجب/1355هـ الموافق 02/ 10/1936م . ص 1 ـ 5 ـ 8، نقلا عن الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[3]) الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص123..

ظروف الحرب العالمية الثانية الاستثنائية ، وكان موضوع الاجتماع منصبا حول العراقيل الإدارية التي تعترض رجال الجمعية ومؤسساتها ، واقترح تقديم كراسة المطالب إلى الحكومة الفرنسية حول القضايا الرئيسية التالية :

1 - المساجد وموظفوها وأوقافها .

2 - التعليم العربي ومدارسه ومعلموه .

3 - القضاء الإسلامي وتعليمه ورجاله ..)[1]

بعد هذا ترقى الشيخ العربي إلى منصب نائب رئيس الجمعية وذلك عند انعقاد اجتماع أعضاء الجمعية في دورتهم العادية أيام بقسنطينة في 27/28/29/سبتمبر/1946م، حيث انتخبوا مجلسا إداريا جديدا للجمعية.

وقد ظل الشيخ العربي في هذا المنصب إلى أن رحل البشير الإبراهيمي إلى المشرق العربي يوم 07/03/1952م [2] .

4 ــ مرحلة الرئاسة الفعلية لجمعية العلماء:

وهي تمتد من (1952-1956)، وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي أن الشيخ العربي ظل يشغل منصب نائب رئيس الجمعية حتى بعد جلستها الإدارية المنعقدة بالجزائر العاصمة أيام 27/28/29/سبتمبر1954م لاعتبارات إصلاحية لها صلة بتماسك الجمعية أثناء غيابه في موسم الحج إلى غاية حل الجمعية.

وذكر أن الشيخ تحمل في هذه المرحلة بالذات ما تنوء الجبال بحمله ، وذلك باعتراف كل رجال الجمعية بما فيهم الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، إلى أن أوصل الجمعية إلى حل نفسها يوم 07/01/1956م كي لا تتورط مع الإدارة الاستعمارية في الدخول في المفاوضات والطروحات الاستسلامية[3].

ومن الملاحظات التي أوردها الدكتور أحمد عيساوي حول هذه المرحلة[4]:

1 - وضوح وثبات إطاره المرجعي في كافة مراحله الدعوية والإصلاحية .

---

[1] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[2] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[3] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

[4] الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص125.

2 - وضوح خطه ، وممارساته ، وغاياته ، وأهدافه .
3 - تنوع أساليبه ، وممارساته ، ووسائله .
4 - استمراره بين خطي التربية والتعليم من جهة ، والعمل في إطار جمعية العلماء من جهة أخرى.
5 - تطوير آلياته وتقنياته الدعوية والإصلاحية حسب ماتقتضيه كل مرحلة .
6 - عزوفه عن الترشح للمناصب الدنيوية ، وتجنبه المنافسة فيما لايرضي الله تعالى .
7 - صدقه ، وإخلاصه ، وتقواه ، ووفاؤه لرسالة الإسلام ، التي تفانى في خدمتها إلى يوم استشهاده.
8 - حزمه ، وانضباطه المهني .
9 - تفانيه في خدمة الإسلام ، والجزائر ، والشعب الجزائري .

المبحث الثاني
نبذة تاريخية عن الطرق الصوفية المعاصرة لجمعية العلماء

تعتبر الطرق الصوفية – بغض النظر عن توجهاتها الفكرية والسلوكية المختلفة- من أهم مكونات المجتمع الجزائري لفترة طويلة من الزمن، فالمؤرخون يتفقون على أنها بدأت في الانتشار في الجزائر، وكسب نفوذ اجتماعي لها فيها، بل أحيانا تعدى إلى النفوذ السياسي ابتداءا من القرن السادس عشر، ثم أخذت تنمو وتتسع حتى انتشرت على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر[1].

وهي بذلك تشكل جزءا مهما من تاريخ الجزائر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي، ولهذا نجد المستعمر الفرنسي قد أولاها أهمية كبرى، فأرشيفه يحتوي على تفاصيل كثيرة عن أعدادها وزواياها ومشايخها، بل حتى توجهاتها الروحية والفكرية.

وبما أن دراستنا هذه مرتبطة خصوصا بالتعامل بين الطرق الصوفية وجمعية العلماء، فإننا سنكتفي بالتعريف بالطرق الكبرى[2] التي حصل بينها وبين الجمعية أي نوع من أنواع التعامل الذي سنراه في الفصول القادمة.

والثاني أننا سنقتصر من التأريخ لهذه الطرق بما يرتبط بتلك

---

[1] فيلالي مختار الطاهر، نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، دار الفن القرافيكي، باتنة، ط1، ص34.

[2] ناهز عدد الطرق الصوفية في الجزائر ستة وعشرين طريقة، منها أربعة أنشئت في العهد الاستعماري كالسنوسية والعليوية، والباقي كان موجودا منذ العهد العثماني، وبعضها مؤسس بالجزائر كالرحمانية والتيجانية، والبعض الآخر في المغرب كالطيبية والعيسوية والدرقاوية، ومنها ما هو مؤسس في المشرق كالقادرية، وأهم الطرق الصوفية التي ذاع صيتها في الجزائر : القادرية، الشاذلية، الدرقاوية، الرحمانية، التيجانية، السنوسية (مقلاتي عبد الله : الطرق الصوفية في الجزائر أمام جدلية فاعلية حضورها الاجتماعي والسياسي، الموقف من الاحتلال الفرنسي نموذجا، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 511)

الفترة إلا إذا دعت الحاجة إلى الرجوع للأحداث السابقة أو التالية.

وقبل أن نبحث في تاريخ هذه الطرق في تلـك الفـترة نحب أن ننبه هنا إلى أمرين:

الأول: أنه من الصـعب ضـبط العلاقـة بين أي طريقـة صـوفية وأي دولة من الدول، ذلك أن الطرق الصـوفية لا تعـترف بالحـدود الجغرافية، فلهذا، قد نجد بعض مشايخ الطرق من خارج الجزائــر، بينما لهم تواجد فاعل في الجزائر، ويتـدخلون بمـواقفهم أو آرائهم فيما يحصل فيهـا من أحـداث[1]، ولهـذا سنسـتند عنـد الحـديث عن المناقشات الفكرية بين الجمعية والطرق الصوفية إلى مشايخ من خارج الجزائر، باعتبار أن امتدادهم الـروحي والفكـري يسـري إلى الطرق الموجودة في الجزائر[2].

ولعـل نفس الأمـر يقـال بالنسـبة لجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائــريين، فقـد تبنت هي أيضـا جماعـة من العلمـاء من خـارج الجزائر، وضمتهم إلى الجمعية[3].

---

[1] وكمثال على ذلك الشيخ عبد الحي الكتاني المغربي، فقد كانت لـه صـلات كبـيرة بالطرق الصوفية الجزائرية إلى درجة أن جمعية العلماء شـنت حملـة شـديدة عليـه، وكان على رأسها البشير الإبراهيمي في مقـال مطـول لـه بعنـوان (أفي كـل حي... عبد الحي)، وقد كتبه بمناسبة مؤتمر الزوايا، الذي قـاده الشـيخ عبـد الحي الكتـاني. (انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 391)

[2] وفي هذا يقول الباحث عبد القادر خليفي: (الطرق الصوفية ظـاهرة إسـلامية لا تعترف بالحدود السياسية بين الدول والشعوب ولا بالقوميات والإثنيات، وهي أوسـع مجالا من الوطنية الضيقة، بل هي أفسح ميدان يعبر فيه المريد عن شجونه ويتحـرر بها من خصوصـياته الضـيقة في سـبيل خصوصـيات جماعيـة هادفـة، إذ من أهـدافها الجمع لا الفرقة والألفة لا التشرذم، والطرق الصوفية هي إحدى عوامل التوحـد بين الشعوب المغاربية التي لن تتأثر بالمسارات السياسية والتغيرات الآنية) انظـر: عبـد القادر خليفي : الشيخية والقادرية بين الجنوب الغربي الجزائري وشـرقي المغـرب، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحـديات المعاصـرة)، جامعـة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 533.

[3] قرر المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائـريين في اجتماعـه يـوم 4 أكتوبر 1951 منح لقب "الـرئيس الشـرفي" لهـذه الجمعيـة لبعض العلمـاء الأجـانب

الثـاني: أنـا لا نتحـدث هنـا عن التفاصـيل المرتبطـة بالتوجـه الروحي والفكري للطرق الصوفية، لأنا سنتحدث عنه بتفصيل عنـد ذكـر الاتجـاه الفكـري للطـرق الصـوفية، بالإضـافة إلى ذكـره في الباب المخصص لجوانب الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية.

ولهـذا سيقصـر حـديثنا في هـذا المبحث عنـد كـل طريقـة على أمرين:

1 - التعريـف المختصـر بمؤسـس الطريقـة وشـيوخها الكبـار، وخاصة من الذين سيرد لهم ذكر في الرسالة، أو كانت لهم علاقـة مع جمعية العلماء.

2 – تاريخ الطريقة في الجزائر، ومـواطن انتشـارها، ومـا يتبـع ذلك من البحث عن عوامل الانتشار ونحوها.

أما علاقة هذه الطرق بجمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين، والتي هي الهدف الأساسي من البحث، فسنتعرف عليهـا بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل.

بعد هذه المقدمات والتنبيهـات، فإننـا - باسـتقراء الطـرق الـتي تتوفر فيها الخصائص التي ذكرناها - نجد أنهـا أربعـة طـرق كـبرى، وهي بحسب تسلسلها التاريخي (القادرية، والرحمانية، والتيجانيـة، والعلاوية)، وقد خصصنا كل واحدة منها بمطلب خاص.

ثم أضفنا مطلبا بذكر طرق أخـرى كـانت لهـا بعض العلاقـة مـع الجمعية، وهي مع ذلك أقـل شـأنا من هـذه الطـرق الكـبرى، وقـد

الـذين يشـتركون معهـا في الفكـر والمنهج والهـدف، وهم: محمـد بهجت البيطـار (سوريا)، محمد تقي الدين الهلالي (العراق)، محمد عبد اللطيف دراز (مصر)، محمد أمين الحسيني (فلسطين)، محمد بن العربي العلوي (المغرب)، عبد القادر المغربي (سوريا)، عبد العزيز جعيط (تـونس)، مسـعود النـدوي (باكسـتان)، أحمـد بن محمـد التيجاني (المغرب)، محمد نصيف (الحجاز).

ووكـل المجلس إلى رئيسـه الشـيخ محمـد البشـير الإبـراهيمي تنفيـذ هـذا القـرار بمراسلة هؤلاء العلماء لإبلاغهم به. وتمثل هذه الخطـوة إسـتراتيجية جديـدة لتوسـيع نشاطها خارج البلاد وكسب منابر جديدة للتعريـف بأعمالهـا، واسـتقطاب شخصـيات علمية مشهورة لمناصرة دعوتها، وفك الحصار الـذي فرضـته عليهـا سـلطة الاحتلال الفرنسية. (انظر: أ.د مولـود عـويمر، الشـيخ محمـد بهجت البيطـار وصـلته بجمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين، مقال منشور بـ (رابطة أدباء الشام على هذا الموقـع الالكتروني(http://www.odabasham.net/show.php?sid=52591)

اكتفينا فيها بتعريف موجز عنها.

المطلب الأول: الطريقة القادرية

تعد الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية التي دخلت إلى الجزائـر عن طريـق بجايـة، ثم انتشـرت في الغـرب الجزائـري والجنـوب الغـربي من الصـحراء وبـاقي منـاطق الجزائـر وغـرب تونس.

وفروعها كانت موجودة في مختلف المدن ولهـا زوايـا وأضـرحة ومساجد في الجزائر وتلمسان وغيرها، ولها أوقـاف كثـيرة، كـانت ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم في بغـداد، وبقي الحـال كـذلك في العهد الفرنسي ولكن في ظل إجراءات مغايرة متضمنة قيودا عديدة.

وتعتـبر القادرية أسـاس ومنطلـق كـل الطـرق الصـوفية في الجزائـر، فالمدينيـة (نسـبة إلى أبي مـدين شـعيب بن الحسـين) تفـرعت عن القادرية، وتفـرعت عن المدينيـة الطريقـة الشـاذلية، وعن الشـاذلية تفـرعت طـرق كثـيرة كالدرقاويـة والجزوليـة واليوسيفية والعيساوية والشيخية والطيبية والحنصالية، وإن كـانت الشـاذلية قـد تفـرعت عن القادرية إلا أنهـا أخـذت منحى صـوفيا يختلف عن المنحى الصوفي القادري[1].

ويقدر الفرنسيون عدد أتباع الطريقة القادرية في الجزائر سـنة 1882 بـ (14.574) إخوانيا، 268 مقدما، 29 زاوية.

وفي سنة 1897 بـ 24.578 إخوانيـا، 558 مقـدما، 33 زاويـة، ومن ضمن الإخوان هناك 2.695 إمرأة أو خونية.

وفي سنة 1906 قدر عددهم بـ 25.000 إخوانيـا (منهم 2.800 من النساء) و33 زاوية[2].

وقد كـان لهـذه الطريقـة تـاريخ مشـرف في الجزائـر، فهي من أوائـل الطـرق الـتي قـاومت الاسـتعمار الفرنسـي بقيـادة شـيخها الكبير الأمير عبد القادر، وكان لها في نفس الوقت علاقة طيبة مع جمعية العلماء، وخاصة في منطقة الوادي الـتي كـانت تـتزعم في

---

[1]) خير الـدين شـترة، الصـلات الروحيـة بين الطـرق الصـوفية في المغـرب العـربي (الجزائـر وتـونس أنوذجـا)، الملتقى الـدولي الحـادي عشـر (التصـوف في الإسـلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 405.

[2]) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 4، ص 58.

ذلك الحين هذه الطريقة.

بناء على هذا سنتحدث في هذا المطلب عن كبار مشايخ هذه الطريقة في الجزائر، وبعض فروعها فيها، وبعض الأحداث التاريخية التي كان لها علاقة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقبل ذلك نتحدث باختصار عن مؤسس الطريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

أولا ــ مؤسس الطريقة القادرية:

مؤسس الطريقة القادرية هو الشيخ عبد القادر أبو محمد محي الدين بن أبي صالح عبد الله، وقيل ابن أبي موسى جنكي دوست الجيلاني، نسبة إلى مدينة جيلان (وراء طبرستان)، ولد بجيلان عام 1077م وجاء إلى بغداد عام 488 هـ / 1095م حيث درس الفقه الحنبلي، ويقال أنه لم يهتم بالصوفية حتى حضر مجلس الشيخ أبو الخير حمد الدباسي.

في عام 521 هـ 1127م أي عندما جاوز الخمسين من العمر أصبح من أشهر علماء بغداد في الفقه الحنبلي، ثم لبس لباس الصوفية وبنى لنفسه مدرسة عام 528 هـ / 1135م، لم ينضم أحد إلى طريقته خلال حياته، وبعد وفاته بدأ الناس يسيرون على نهجه، وقد أخذ المريدون بنشر الطريقة فكان لها مواقع كثيرة في العالم الإسلامي ومنه شمال إفريقيا، توفي الشيخ عبد القادر سنة 561 هـ ودفن في مدرسته ببغداد[1].

ثانيا ــ شيوخ الطريقة في الجزائر:

من أهم شيوخ وأعلام الطريقة القادرية بالجزائر:

1 ـــ الشيخ محمد الهاشمي بن إبراهيم:

يعتبر الشيخ محمد الهاشمي الشريف بن إبراهيم بن أحمد الذي ولد سنة 1853م في نفطة بتونس[2] من أكثر مشايخ الطريقة

---

[1] ممدوح الزوبي : الطرق الصوفية، ظروف النشأة وطبيعة الدور، الأهالي للتوزيع، دمشق، ط1، 2004م، ص 111، 112.

[2] معظم زوايا الشرق الجزائري والجنوب ذات صلة بزاوية نفطة والكاف القادريتين، ومؤسس زاوية نفطة هو أبو بكر بن أحمد الشريف، وهو تلميذ الشيخ المنزلي (نسبة إلى منزل بوزلفة بتونس) وقد تطورت الزواية بفضل جهود الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف النفطي حتى قال بعضهم أن تأثيره سنة 1897م وصل

القادرية نشاطا، وقد تلقى تعليمه الديني على يد والده الذي كـان شيخ الطريقة القادرية على منطقة الجريد التونسي، وبتوجيه منـه انتقل إلى ناحيـة الـوادي وأسـس بهـا زاويـة قادريـة، واسـتمر في نضــاله إلى أن تــوفي عــام 1923م وهــو دفين مدينــة البياضــة بالوادي.

وقـد واجـه في بدايـة تأسيسـه للطريقـة منافسـة شـديدة مـع الزاويـة التيجانيـة المجـاورة لـه في البياضـة، وكـانت السـلطات الفرنسـية تـزكي هـذا التنـافس، بـل تثـير النعـرات والفتن بين الطريقتين – كما ذكرنا سابقا- ضمن سياية (فرّق تسد)

2 ــ الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي:

وقد خلف والده في مشيخة الطريقة القادرية بعـد وفـاة أخيـه، بعد أن توفر فيه الشرط الذي شـرطه والـده، فقـد حفـظ القـرآن الكريم في سن مبكرة، ثم التحـق بجـامع الزيتونـة بتـونس، وكـان أول الناجحين ضمن أقرانه وإخوانه إذ تحصل على شهادة التطويع في حيـاة والـده بامتيـاز، وبـذلك أصـبح المؤهـل الوحيـد لمشـيخة الزاوية باعتباره المتخرج الأول من جامع الزيتونة.

وقـد تم الإجمـاع على أن يتـولى مشـيخة الزاويـة القادرية في سوف مع ملحقاتها في كل من تقرت وبسكرة وسكيكدة والجزائر العاصمة، كما يقوم بالإشـراف على شـؤون العائلـة وعلى إخوانـه الــذين يزاولــون تعليمهم بجــامع الزيتونــة بالإضــافة إلى العمــل المسـتمر في تطـوير أملاك الزاويـة وخاصـة في غابـات النخيـل، واستثمار تجارة التمور المزدهرة والمربحـة عـبر منـاطق الجنـوب حتى أصبح الشيخ عبد العزيز يعرف بـ (ملك التمور)، وهذا ما أثـار غيظ المحتكرين الأجانب الذين عزموا على إبعاده من هذا الميدان

إلى غـدامس وغـات والجزائـر وعين صـالح وتـوات وتيـديكلت ولـه أتبـاع في بلاد الطوارق وعلى رأسهم الشيخ عابدين، وكان هذا الأخير هو مقـدم الشـيخ محمـد بن إبراهيم وقد ترك إبراهيم أولادا تقاسموا برَكة والدهم على النحو الآتي: الأكـبر منهم وهو محمد تولى الزاوية الأم بنفطة وأسس الهاشمي زاوية في عميش بوادي سوف وأصبح نائبا لأخيـه، ونشـط الهاشـمي في تجنيـد الأتبـاع ونشـر الطريقـة إلى أقصـى الجنـوب وربـط علاقـات مـع السـودان وغـات. انظـر: موسـى بن موسـى، الحركـة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، رسـالة ماجسـتير، 2005، ص100.

والسطو وحدهم على تجارة التمور واحتكارها لأنفسهم، وهذا ما تم لهم فعلا فيما بعد.

وقد سارت حياة الشيخ بصورة عادية لمدة 12 سنة، ولكنه بعد أن قام بأداء فريضة الحج سنة 1936، عاد إلى الجزائر أخذ يقترب من أفكار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي طفحت على سطح الأحداث الجزائرية خاصة بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائري العام في شهر جوان 1936، وذهاب الوفد الإسلامي بمطالب الأمة الجزائرية إلى باريس لعرضها على الحكومة الفرنسية، وما تلا ذلك من أحداث[1].

وبناء على هذا راسل الشيخ عبد الحميد بن باديس في شهر أكتوبر 1937 ببرقية يفصح له فيها عن رغبته في الانخراط في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[2]، فبادر الشيخ عبد الحميد بن باديس بالإسراع في الرد عليه بالمثل معينا إياه عضوا فاعلا في مكتب الجمعية مكلفا بمناطق وادي سوف وما جاورها.

نتيجة لهذا التحول وجدت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين نفسها بوادي سوف تنتشر انتشارا واسعا نتيجة السعي المكثف من طرف الشيخ عبد العزيز الشريف، والذي تمثل في تحويل جزء من زاوية عميش إلى مدرسة عصرية على طراز مدارس جمعية العلماء المسلمين[3].

وقد انتدب للتدريس فيها الشيخين عبد القادر الياجوري والشيخ علي بن سعد خران[4]، كما قام الشيخ عبد العزيز الشريف بفتح مدرسة بالوادي وانتدب لها من الشيوخ ما يحولها إلى معهد

---

[1] انظر: موسى بن موسى، الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، رسالة ماجستير، 2005، ص106.

[2] عمار هلال : أبحاث ودر سات في تاريخ الجز المعاصرة (1830 - 1962)، ديوان المطبوعات الجامعية، 1995، ، ص 321.

[3] عمار هلال : أبحاث ودراسات، ص 326.

[4] انظر: محمد الصالح بكوش: (الشيخ علي بن سعد خيران القماري)، الندوة الفكرية الثالثة للشيخ عبد القادر الياجوري، الجمعية الثقافية للمركز الثقافي بقمار، الوادي، أيام 04 -5-6 جوان 2002، ص2.

إسلامي يتوفر على الشروط الضرورية، وعلى إثر هذه المساعي التعليمية طالبت الإدارة الفرنسية من الشيخ عبد العزيز الشريف رخصة التعليم، فرد عليها الشيخ بأن الزاوية تقوم بدور التعليم من قديم الزمان بدون رخصة[1].

وقد تدعمت الصلة بين الشيخ عبد العزيز وجمعية العلماء بعد حضوره المؤتمر السنوي العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي بدأ أعماله يوم 24 سبتمبر 1937 بنادي الترقي بالعاصمة، حيث قدم الشيخ ابن باديس بعض كبار الرجال الذين لهم أكبر الأثر في بعث النهضة الجزائرية من جمعية العلماء، وذكر منهم الشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ سعيد صالحي، ثم تقدم هو بنفسه، وألقى خطابه الرسمي مقترحا أن يسمى هذا الاجتماع بعيد النهضة الجزائرية، ثم طلب إلى زميله الطيب العقبي أن يقدم الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي إلى الحاضرين، وكان لهذا التقديم مغزاه العميق، فقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يدرك الشدة التي كان يحملها العقبي على الطرقيين.

ثم أحيلت الكلمة إلى الشيخ عبد العزيز الذي أبدى تأسفه لتأخره عن الانضواء تحت لواء الجمعية، ووعد بأنه سيبذل كل مجهوداته في خدمة الإصلاح وتبرع لهم بمبلغ خمسة وعشرين ألف فرنك، وهو مبلغ هام في ذلك الوقت.

بعدها رتب الشيخ عبد العزيز زيارة لوفد من جمعية العلماء بقيادة الشيخ عبد الحميد بن بادسي إلى الوادي في شهر ديسمبر 1937 م[2].

وفي أواخر جانفي 1938 م أعد الشيخ عبد العزيز الشريف زيارة للشيخ الفضيل الورتلاني إلى وادي سوف، وهذا ردا على الزيارة التي قام بها الشيخ محمد الحافظ التيجاني المصري قصد إلقاء دروس بمنطقة سوف بدعوة من شيوخ الطريقة التيجانية كرد فعل على زيارة وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين للمنطقة، وقد كانت الزيارة التي قام بها الشيخ الورتلاني بعد

---

[1]) وقد ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس هذا في مقاله السابق: البصائر : عدد 123، السنة الثالثة، الجمعة 24 جمادي الثانية 1357 ه - 22 جوليت 1938م.

[2]) عمار هلال : أبحاث ودراسات، ص 326.

زيارته لبسكرة، حيث كانت يوم الثلاثاء 23 ذي القعدة 1356 ه / 25 جانفي 1938 م، ليبقى مدة يومين في ضيافة الشيخ عبد العزيز الشريف[1].

وقد كان الشيخ الورتلاني يتقد حماسا بمواقفه الصريحة ونقده اللاذع، فكان لهذه الزيارة الصدى الواسع عند الناس لما طرحته من مواضيع ساخنة أغضبت الحاكم العام الفرنسي الذي بدأ يترصد خطوات الشيخ عبد العزيز.

و رغم ملاحظات السلطات المحلية، فإن الشيخ عبد العزيز لم يتوقف عن نشاطه، بل واصل مشروعه التعليمي، ولم يعترف بمرسوم 10 أكتوبر 1892 واعتمد بمرسوم 8 مارس 1938 الذي يراقب التعليم في المدارس القرآنية، لأن الشيخ يعتقد أن التعليم في الزوايا غير مراقب.

وقد كان هذا السلوك بالإضافة إلى مواقف أخرى كثيرة جعلت من الإدارة الفرنسية تشيد في ضغوطها عليه، وقد كان

وقد اشتد هذا الصراع خلال زيارة مدير الشؤون الأهلية وأقاليم الجنوب (لويس ميبو) للوادي، حيث صرح له الشيخ عبد العزيز الشريف بموقفه المعارض لمرسوم 08 مارس 1938 ويفصح عن الحالة الاقتصادية السيئة التي يعيشها أهالي المنطقة[2].

ومن مواقف أسرة الهاشمي الشريف الكبرى بعد هذه المواقف وقوفهم لصالح الثورة التحريرية وتزويدها بما تحتاجه من ثروة وما قام به أحد أبناء القادرية يعد إثباتا على نضالها إذ تبرع بقصر الباي بتونس الذي اشتراه عام 1946 للثورة التحريرية ورفع فيه علم الجزائر ونصبت فيه أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية[3].

و استمر الشيخ في تدعيم الثورة حتى تحصلت الجزائر على استقلالها غير أن الشيخ لم يرجع إلى الجزائر، بل بقي بتونس، ولازم داره ولم يقم بأي عمل سياسي أو ثقافي يذكر، وكانت

---

[1] أحمد صاري : عبد العزيز الهاشمي والإصلاح، ص 569.

[2] أحمد صاري : عبد العزيز الهاشمي والإصلاح، ص 569.

[3] عميراوي احميده، رسالة الطريقة القادرية في الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، 2003، ص 68.

وفاته في تونس سنة 1965.

القاضي شعيب بن علي:

هـو الشـيخ الفقيـه أبـو بكر شـعيب بن علي بن فضـل اللـه بن محمد بن عبد الله الجليلي، ولد بتلمسـان وحفـظ القـرآن الكـريم وشرع في طلب العلم على يد علماء تلمسان منهم: أحمد المختار بن البشير، محمد بن دحمان العبادي، بن عبـد اللـه بن العيـدوني، وهـو الـذي لازمـه طـويلا واشـتد سـاعده بـه، كمـا روى عن ابن الحفاف وعبـد الكبـير الكتـاني، وكـان من أتبـاع الطريقـة القادرية التي أخذها عن الشيخ بن سليمان.

بالإضـافة إلى هـذا، فقـد درس بالمدرسـة الشـرعية الفرنسـية، وتولى الإمامة ثم القضاء، برع في الفقه والتصوف ونظم الشـعر، تولى القضاء لمـدة أربعين سـنة من 1869 إلى 1909، وقـد مثَّل الجزائر في مؤتمر المستشرقين باستوكهولم عام 1889م.

توفي بتلمسان سـنة 1928م، ودفن بضـريح سـيدي أبي مـدين بالعباد. تاركا خلفه عــدة رسائل في التوحيد وقصائد منها: (الرمـز الكفيل في عقائـد أهـل الـدليل)، شـرحه محمـد بن عبـد الـرحمن الديسي، وقرظه الشيخ محمـد عبـده، و(المعلومـات الحسـان في مصنوعات تلمسان)، و(زهرة الريحان في علم الألحان)، وغيرها[1].

المطلب الثاني: الطريقة الرحمانية

تعتبر الطريقة الرحمانية من أوسـع الطـرق انتشـارًا في عمـوم الجزائر إبان القرن التاسع عشر؛ حيث كانت تستحوذ وحـدها على أكثر من 50% من عدد الزوايا في الجزائر، وحسب إحصائية عـام 1892 للمستشرق (رين) بلغ عدد زوايـا الطريقـة الرحمانية 177 زاوية، وأتباعها 156214 خونيا[2].

وتنتشر هذه الزوايا خصوصا في الشرق والوسط والجنوب حتى في تــونس، ومن هـذه الزوايـا (زاويــة صـدوق، بــرج بن عــزوز،

---

[1] انظـر: مركـز القاسـمي للأبحـاث والدراسـات الصـوفية على هـذا الرابـط: (http://kacimisoufisme.org)

[2] صلاح مؤيد العقبي، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، لبنان، دار البراق، 2002م، ص158.

طولقة، أولاد جلال، خنقة سيدي ناجي، قسنطينة)[1]

ومن أهم مراكز الطريقة في العهد العثماني الأخير: الحامّة قرب العاصمة، وآيت إسماعيل ببلاد القبائل، وزاوية صدوق بناحية سطيف، وقسنطينة، والبرج قرب طولقة، وأولاد جلال، وخنقة سيدي ناجي، ووادي سوف، وتقع المراكز الأربعة الأخيرة بالواحات[2].

ويذكر للطريقة الرحمانية التي صعدت سلطتها في منطقة الشرق الجزائري وخاصة الريف القسنطيني، يذكر لها أنها قامت بدور محوري في نشر التضامن بين سكان المنطقة ونشر العلم والتآخي[3].

وقد كانت هذه الطريقة محل احترام من بعض مشايخ الجمعية، وخصوصا الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كانت له علاقة مع بعض مشايخها كما سنرى.

ولكن ذلك ليس عاما، فقد شن عليها الشيخ مبارك الميلي في كتابه (رسالة الشرك ومظاهره) حملة شعواء خاصة على فرعها في الزاوية الحملاوية.

انطلاقا من هذا، فسنتحدث في هدا المطلب باختصار عن مؤسس الطريقة، وكبار مشايخها في الجزائر إبان العهد الاستعماري.

أولا ــ مؤسس الطريقة:

---

[1] صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا، ص162، وانظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، 1/515.

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 44،ـ 45، وعبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، الوليد للنشر، الوادي، طبعة 2004، ص 61، 62، 63، ص 144، 167، 232.

[3] محمد الأمين بلغيث : السلطة في الجزائر وتونس في القرن 17م من خلال تاريخ العدواني، الندوة الفكرية الخامسة للشيخ محمد العدواني، الزقم / الوادي / 01، 02، 03 نوفمبر 2000م، ص 6، 7.

مُؤسِّسُ الطريقة هو محمد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجري الأزهري[1]، المولود حوالي سنة 1720م في قبيلة آيت إسماعيل التي كانت جزءًا من حلف قشتولة في قبائل جرجرة، الواقعة على بعد 15 كلم، شرق ذراع الميزان.

ويلقب بـ (الزواوي) نسبة إلى بلاد زواوة التي نشأ بها، كما يلقب بالأزهري نسبةً إلى أزهر مصر حيث جاوره مدة طويلةً من سني حياته.

زاول دراسته الأولى في مسقط رأسه، ثم واصل تعلمه في الجزائر العاصمة، في عام 1739م توجه لأداء فريضة الحج، وفي عودته استقر بالجامع الأزهر فترة طويلة مترددًا على العلماء وشيوخ التصوف كمحمد بن سالم الحفناوي، حيث أصبح محمد بن عبد الرحمان مريدًا وتلميذًا له حيث أدخله الطريقة الخلوتية.

وبعد غياب طويل دام أكثر من ثلاثين سنة عاد إلى الجزائر بعدما تلقى الأمر من شيخه في مصر محمّد بن سالم الحفناوي الخلوتيّ (ت 1181 هـ) بالعودة إلى بلده ونشر الطريقة الخلوتية،وكان ذلك سنة 1177هـ = 1758م.

التزم التلميذُ أمرَ شيخِه وعاد إلى موطنه الجزائر حيث أسس زاوية بمسقط رأسه (آيت إسماعيل) وشرع في الوعظ والتعليم، وقد التف حوله جموع الناس من سكان جرجرة المستقلين عن السلطة العثمانية[2].

---

[1] استفدنا هذه الترجمة من عدة مصادر أبرزها ما كتبه الحفناوي في كتاب (تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية في الجزائر/1324هـ - 1906م، ص(450) وما بعدها)، بالإضافة إلى مقاليْن للأستاذ عبد المنعم القاسمي عن الطريقة الرحمانية ومؤسسها (كلاهما منشور على موقعه المشار إليه آنفًا)، فضلًا عن مقال ثالث بعنوان (تعريف الطريقة الرحمانيّة الخلوتيّة والزاويّة القاسميّة) من إعداد محمّد فؤاد، منشور على مدونة (دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع)ن بالإضافة إلى ترجمة وافية في (عبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية، ص63-76)

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 40، وعبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ومحمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، ص 151.

انتقل إلى الحامة إحدى ضـواحي العاصـمة، ومن المحتمـل أنـه فعل ذلك فرارًا من خصومه المرابطين الذين عادوه لما حققه من نجاح هدد نفوذهم في المنطقـة، أو لأنـه تأكـد من رسـوخ تعاليمـه وانتشـارها في المنطقـة فـرأى أن يسـتقر بـالقرب من العاصـمة ليوسع دائرة دعوته، أسس في الحامة زاوية وأخذ في نشر تعاليم الطريقــة الخلوتيــة، ولكن ســرعان مــا أثــار ســخط المــرابطين والعلماء للأسباب التالية:

1 – ابن عبـد الرحمـان من أبنـاء الريـف، لـذا لابـد أن يلقى معارضة من أهل الحضر المرابطين والعلماء خوفًا على نفوذهم.

2 – خـوف الأتـراك منـه لأن قبيلتـه تنتمي إلى حلـف قشـتولة وبالتالي فهي لا تخضع لحكمهم بل معادية لهم، ولهذا الغرض أثــار الأتراك العلماء والمرابطين ضده.

3 – دعوته الدينية تبعث على إحيـاء الوحدة الروحيـة والوطنيـة التي طالما عمل الأتراك من أجل عدم تحققها طوال حكمهم حتى لا تكون خطرًا على سلطانهم[1].

رأى ابن عبـد الرحمـان أن الحكمـة تقتضـي منـه العـودة إلى مسقط رأسه فعاد سريعًا إلى زاويتـه ببلـدة آيت إسـماعيل، وبعـد ستة أشهر من عودته جمع مريديه وأخبرهم بقرب أجلـه وعين من يخلفه في منصبه وهو علي بن عيسى المغربي[2].

لم يحصـر ابن عبـد الرحمـان نشـاطه في نشـر دعوتـه الدينيـة الصوفية على منطقة القبائل والعاصمة فحسب، وإنما مدّ نشـاطه أيضًا إلى إقليم الشرق الجزائري حيث قـام بتعـيين خليفـة لـه من أبناء قسنطينة وهو مصـطفى بن عبـد الرحمـان بن البـاش تـارزي الكـرغلي، فقـام هـذا الأخـير بنشـر تعـاليم الطريقـة في الإقليم الشرقي حيث نصّب عدة مقاديم أشهرهم الشيخ محمد بن عــزوز

---

[1]) فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني، ص 41، 42..

[2]) فيلالي مختار الطاهر: نشأة المـرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني،، ص 43.

في واحة البرج قرب بلدة طولقة[1].

بعد وفاته (1208هـ/1793م) ازدادت الطريقة نجاحًا واتسعت دائرة نفوذها مما زاد في هياج الأتراك وحنقهم، لذا فقد قاموا بمحاولة لوضع حد لتدفق الزوار من كل مكان على الزاوية الأم بآيت إسماعيل فدفعوا بثلاث مجموعات استطاعت إحداها نقل جثمانه إلى الحامة حيث دفن في احتفال مهيب، ثم بنوا عليه مسجدًا وقبة، على أن سكان قرية آيت إسماعيل حينما تحققوا أن الجثة لم تفارق قبرها الأصلي - وكانوا قد نبشوا القبر - اعتقدوا أن جثة شيخهم قد ازدوجت ومنذ ذلك الحين لُقب محمد بن عبد الرحمان بـ (بو قبرين) [2]

وقد استطاع خليفته - علي بن عيسى - الذي بقي مدة 43 عامًا في منصبه 1208هـ /1251هـ أن يدير الزاوية الأم بكل حكمة ونجاح، مما أكسب الطريقة انتشارًا واتساعًا في النفوذ سواء في وسط البلاد أو في شرقها وجنوبها، إلا أن موته أفقد إدارة الزاوية الالتحام والوحدة حيث إن خلفاءه لم يستطيعوا بسط هيمنتهم على مقاديم الزوايا البعيدة التي أعلنت استقلالها عن الزاوية الأم، وذلك نتيجة لضعف شخصية هؤلاء الخلفاء من جهة، وسياسة الاحتلال الفرنسي التي عملت على تمزيق وحدتها من جهة أخرى[3].

ثانيا ــ شيوخ الطريقة الرحمانية وأعلامها:

اشتهرت الطريقة الرحمانية بكثرة مشايخها وعلمائها،

---

[1] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 43، وعبد الباقي مفتاح: أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 98، 118، 146.

[2] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 43،ـ 44، وعبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 62.

[3] فيلالي مختار الطاهر: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني، ص 44، وعبد الباقي مفتاح، أضواء على الطريقة الرحمانية الخلوتية، ص 74.

وسنحاول هنا أن نذكر - باختصار - بعضهم :

الشيخ عبد الرحمن باش تارزي:

ويعتبر من أشهر رجال الطريقة الرحمانية، وناشرها بالناحية الشرقية من الجزائر، وهو مؤسس أسرة باش تارزي العلمية الطرقية المجاهدة الشهيرة بالشرق الجزائري، وقد وصف بكونه أحد أركان التصوف علما وعملا وزهدا وتحقيقا ورئاسة وجلالة، كان وحيد دهره علما وحكمة واتقانا وإصلاحا.

تفقه على المذهب الحنفي، وألمّ بالمذهب المالكي، وسلك التصوف على يدي الشيخ الأزهري، ومن مؤلفاته: (عمدة المريد في بيان الطريقة)، و(غنية المريد في شرح كلمة التوحيد)، و(المنظومة الرحمانية).. وغيرها من المؤلفات والرسائل.

وقد تخرج على يديه جمع كبير من التلاميذ منهم: الشيخ محمد بن عزوز البرجي ناشر الطريق في الجنوب الجزائري، والشيخ محمد بن الحبيب القسنطيني، والشيخ محمد السياري القسنطيني.

توفي الشيخ باش تارزي عام 1807م، بقسنطينة ودفن بها[1].

الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي:

بعد وفاة الشيخ عبد الرحمن خلفه ابنه العلاّمة الشيخ مصطفى بن عبد الرحمن باش تارزي (ت 1836م). وهو من كبار رجال الطريقة الرحمانية، وشارح (المنظومة الرحمانية) لوالده الشيخ عبد الرحمن باش تارزي. ومما جاء في وصفه: (هو الشيخ الإمام العلامة نخبة الفضلاء وواسطة عقد النبلاء وواحد العلماء الأعلام...) تولى الفتوى الحنفية ثم القضاء، ثم الخطابة بجامع سوق الغزل ثم بجامع القصبة ثم بالكتاني.

ومن آثاره العلمية: (المنح الربانية في بيان المنظومة الرحمانية)، و(رسالة تحفة الناظرين) في الوقف... وغيرها من المؤلفات. توفي الشيخ مصطفى عام 1836م بقسنطينة ودفن في المقبرة العليا بسوق الغزل، ويسمى الممر باسمه (ممر باش تارزي)

وجاء بعده ابنه الشيخ محمود. ثم خلفه ابن عمه الشيخ محمد

---

[1] انظر: عبد المنعم القاسمي الحسني، (زاوية الشيخ عبد الرحمن باش تارزي بقسنطينة: معقل العلم والقضاء والطريقة والجهاد)، مقال منشور بجريدة الشروق اليومي : 25 - 08 - 2010.

بن محمد بن عبد الرحمن، ثم جاء بعده الشيخ الحاج السعيد بن أحمد باش تارزي (ت 1911م). وخلفه على رئاسة الزاوية الحاج أحمد باش تارزي (ت 1917م). ويتولى مشيختها حاليا الأستاذ الفاضل محمد الشريف باش تارزي من سلالة العلامة الشيخ عبد الرحمن باش تارزي[1].

ونحب أن نذكر هنا بمناسبة علاقة جمعية العلماء بالطريقة الرحمانية أن الشيخ عبد الحميد ابن باديس قد اشرف على تصحيح الطبعة الثانية لـ (المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقة بالطريقة الخلوتية) التي ألفها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي.

وقد قال الشيخ عبد الحميد في آخر تصحيحه للطبعة: (ندبني الشيخ المذكور مصطفى باش تارزي إلى إعانته على نشر المنظومة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتذكر الإخوان ما عليهم في هذا الطريق الشرعي من الأدب العملي والعلمي، ويعلموا أنهم لا يكفيهم في ترقية نفوسهم مجرد الانتساب الإسمي، فيدعوهم ذلك إلى العلم والتعلم اللذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيفقهوا حينئذ حقيقة الدين وينتفعوا بنصائح المرشدين، ويكونوا يوم ذلك إن شاء الله تعالى من المهتدين، والله المسؤول أن يهب التوفيق والنفع والثواب لكل ساع في خير المسلمين آمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) [2]

و تحت عنوان خاتمة الطبع بقلم المصحح، قال الشيخ عبد الحميد بن باديس: (الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والآل والصحابة أجمعين وجميع التابعين بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد : فقد تم طبع المنظومة الرحمانية ذات الأسرار الربانية الجامعة لأصول الطريقة الخلوتية، وآداب التربية الشرعية الدالة على علم ناظمها

---

[1] انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص4.

[2] نقلا عن: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص5.

وبركته بما نفع الله بها من أتباعـه وتلامذتـه، حـتى نفـدت طبعتهـا الأولى مع شرحها، فكثرت الرغبـات، وتـوالت الطلبـات في إعـادة طبعها لتعميم نفعها، فقام بـذلك على نفقتـه العـالم البركـة الخـير الثقة شيخ شيوخ الطريقة الخلوتية بقسـنطينة اليـوم المتحلى من أخلاق أسلافه بالنفائس الغالية السوم الشيخ سيدي مصـطفى ابن الشيخ سيدي محمود ابن الشـيخ سـيدي الحـاج محمـد ابن الشـيخ سيدي محمود ابن الشيخ الأكبر سيدي الحـاج عبـد الـرحمن بـاش تارزي زاده الله من بره وتوفيقه وسدده في سـلوك طريقـه بمنـه آمين.

و لنحل هذه الخاتمة بكلمات وجيزة في ترجمته فنقول : لا زال هـذا الرجـل معروفـا من شـبابه بجمـال العفـة، وحسـن السـمت، ومكـارم الأخلاق، والحيـاء التـام، والتواضـع الفطـري مـع جميـع الناس.

اعتنى بتربيته أبوه الشيخ سيدي محمود، ثم ابن عم جده الشيخ سيدي الحاج السعيد، فحفـظ القـرآن الكـريم، وقـرأ العلم وتـأدب بآداب الطريق وشبّ على الأخلاق الكريمة اللائقة بمثله، في كـرم مجـده وشـريف تربيتـه، ومـا هـو مترشـح لـه من الجلـوس على سجادة الطريق، وتهذيب الإخوان حتى نال بذلك المنزلـة الرفيعـة من قلوب عارفيه عموما، وأهل الطريقة خصوصا.

و في رجـــب عـــام 1329 هـــ ولي خطـــة الخطابـــة والإمامـــة بالجامع الأخضر الحنفي، بعد وفاة الشيخ سيدي السعيد الذي كـان إماما خطيبا بالجامع الكتاني الحنفي.

و في شوال 1335 هـ جلس على سجادة الطريقة الخلوتية بعد وفـاة عمـه الشـيخ البركـة سـيدي الحـاج أحمـد عليـه الرحمـة والرضوان، وله في الإذن بتلقين ذكـر الطريقـة الخلوتيـة إجازتـان تتصلان بالقطب الأكبر والغـوث الأشـهر الشـيخ سـيدي محمـد بن عبـد الـرحمن القشـطولي الأزهـري دفين الجزائـر، الـذي أتى بالطريقة الخلوتية إلى وطن الجزائر من ديار مصر)[1]

ونحب أن نـذكر هنـا كـذلك أن الزاويـة الرحمانية الـتي أسسـها الشـيخ بـاش تـارزي في قسـنطينة كـانت مركـزا لاجتمـاع علمـاء

---

[1]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص5.

الحنفية والأتراك منهم خصوصا، ومقـرا لنشـر الطريقـة الرحمانية لدى قسنطينة والضواحي، كما كانت حلقة وصـل بين بلاد القبائـل والزوايا الجنوبية، ونشرت الطريقة بالشرق الجزائري.

وكــان للزاويــة فــروع ومقــدمون، وحســب إحصــاء (ديبــون وكوبولاني) فإن أتباع الزاوية بلغوا في آخـر القـرن التاسـع عشـر: أكثر من عشرة آلاف مريد، ولها ثمـاني زوايـا، ووكيـل واحـد و25 أسـتاذا، وشـيخ واحـد و85 مقـدما، و104 من الشـواش، ومعظم هؤلاء الإخوان كانوا في إقليم قسـنطينة. وبعضـهم كـان في إقليم الجزائر.

وقد ساهمت الزواية في ثـورة الرحمـانيين سـنة 1864م، حيث هـاجم أتباعهـا قـوات الجـنرال (بريقـو) حـاكم مقاطعـة قسـنطينة بالوادي الكبير، واسـتمرت الثـورة إلى غايـة 1865. كمـا شـاركت في ثورة التحرير الكبرى عن طريق أبناء الأسرة الذين التحق عدد كبير منهم بالثورة[1].

الشيخ محمّد بن أبي القاسم:

هو مؤسّـس زاويـة الهامـل، ولـد في 1823م ببادية الحامديّـة، بولايــة الجلفــة، رحــل في طلب العلم إلى جبــال القبائــل، فحــلَّ بزاويـة سـيّدي أبي داود بتاسـلينت ناحيـة أقبـو، وأخـذ من شـيخها أحمـد بن أبي داود، علـوم الفقـه، والنحـو، وعلم الكلام والفلـك، والفرائض، والمنطق.

وفي عام 1844م جلس للتدريس بالهامل، فتوافد عليه الطلاب من المناطق المجاورة، وفي هذه الفترة ذهب لزيـارة الأمـير عبـد القادر، الذي كان غير بعيد عن البـيرين، بجبـل البيضـاء، وفي نيّتـه أن يكون مجاهدا في صفوف جيش الأمير، غـير أنّـه طلب منـه أن يبقى مدرّسا، ومن هنا توطّدت العلاقـة، فكـانت بينهمـا مراسـلات من الجزائر ومن الشام، وما تزال بالزاوية قطع من أسلحة أهداها الأمير للشيخ محمّد بن أبي القاسم، وازدادت العلاقة بعائلة الأمـير متانة بتعاقب شيوخ الزاوية.

وقــد تتلمــذ في التصــوف على يــدي الشـيخ المختــار بن عبــد

---

[1]) انظر: عبد المنعم القاسمي الحسني، (زاوية الشـيخ عبـد الـرحمن بـاش تـارزي بقسنطينة: معقل العلم والقضاء والطريقة والجهاد)، مقال منشور بجريدة الشـروق اليومي : 25 - 08 - 2010.

الرّحمن بن خليفة الجلاّلي، فلازمه من بداية سنة 1273هـ إلى أول سنة 1278هـ، حيث أذِن له في إعطاء ورد الطريقة الرحمانية، وخلفه على رأس زاويته قريبا من سنة.

عاد بعدها إلى الهامل فبنى زاويته التي كانت من أهم زوايا العلم في الجزائر بالإضافة إلى دورها التربوي والروحي والاجتماعي والذي لا يزال قائما إلى الآن.

وقد كان لهذه الزاوية علاقة طيبة بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فقد حاضر فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وأحمد توفيق المدني، والشيخ إبراهيم بيوض، وغيرهم ممّا يطول عدّهم[1].

السيدة زينب بن محمد بن أبي القاسم:

ولدت في بلدة الهامل، عام (1287هـ/1872م). حفظت القرآن الكريم، وتفقّهت على يد والدها. تولت إدارة الزاوية بعد وفاة مؤسسها، فأحسنت تسييرها. كتب عنها بعض المستشرقين الذين رأوا فيها مثالا للمرأة العربية المسلمة التي أثبتت جدارتها في حسن الإدارة والسياسة، ولا سيما في تلك الفترة التي كانت المرأة في المجتمعات الإسلامية محجرا عليها. توفيت رحمها الله في الزاوية بتاريخ: (1323هـ/1905م) ودفنت بجنب والدها[2].

الشيخ محمد بن الحاج محمد بن أبي القاسم:

ولد في بلدة الهامل، عام 1859م أخذ عن الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي، والشيخ عاشور الخنقي، والشيخ محمد المكي بن عزوز، وغيرهم من العلماء. درّس بالزاوية، وتولّى مشيختها بعد وفاة ابنة عمّه السيدة زينب عام 1905م، فنهض بها نهضة علميّة استرعت اهتمام العلماء في المشرق والمغرب، فكاتبوه وزاروه، واستجازوه وأجازوه، وكوّن علاقات علميّة وأدبيّة

---

[1]) انظر ترجمته المفصلة في: الشيخ محمد بن محمد القاسمي: الزهر الباسم في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم، المطبعة الرسمية، تونس، ط1، 1308هـ.

[2]) انظر ترجمتها المفصلة في: لالا زينب القاسمية ودور الطريقة الرحمانية في المقاومة الشعبية والثورة التحريرية الكبرى، على هذا الموقع: (http://ouledsidi.com)

واسـعة في شـتى الأقطـار الإسـلاميّة، تـوفّي عـام 1913م في الزاويـة ودفن فيهـا. من تآليفـه (الزهـر الباسـم) وهـو مطبـوع، و(المطلب الأسنى) وهو مطبوع، و(تحفة الأفاضل) ورسائل أخرى مخطوطة[1].

الشيخ محمد بن عبد الرحمن الديسي:

ولد سنة 1270 هـ- 1854م بقرية الديس، وتـوفي عـام 1339 هـ- 1921م، تلقي المبادئ العلمية على يد الشيخ ابن أبي القاسم بن إبراهيم، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ السعيد بن أبي داود، وأخـذ عن رجالها الفقه والنحو والتوحيد والفلك، ثم عاد إلى قريته ولازم حفظ المتون بها فحفـظ نحـو الخمسـين متنـا، ومنهـا قصـد زاويـة الشيخ سـيدي محمـد بن أبي القاسـم بالهامـل، فأخـذ فيهـا علـوم التفسير والحديث والتصوف وبعض علـوم العربيـة، ولقنـه الأسـتاذ الأكبر الورد وكلفه لما رأى فيه من النبوغ بمجاورة الزاويـة لإفـادة الطلبة بمعلوماته وللاسـتفادة من العلمـاء الوافـدين على الزاويـة في ذلك العهد.

كان شغوفا بالمجالس العلمية والبحوث، وقد أقـر لـه بالرسـوخ في العلم من عاصره من أفاضل العلماء كالشيخ محمد المكي بن عـزوز، والشـيخ أحمـد الأمين، والشـيخ عبـد الحي الكتـاني، وكـان الشيخ الحفناوي يلقبه بـ (الشمس)

من مؤلفاته: (فوز الغانم، في شرح ورد الشيخ سيدي محمد بن أبي القاسم)، و(الزهرة المقتطفة)، و(عقد الجيـد)، ومنظومـة في العقائـد وشـرحها بشـرح سـماه (المـوجز المفيـد))، و(المشـرب الراوي على منظومـة الشـبراوي في النحـو)، و(سـلم الوصـول)، و(وهو نظم الورقات في الأصول)، وشرحه بشـرح سـماه (النصـح المبــذول)، و(تــوهين القــول المــتين، في الــرد على الشــماخي الإباضي)، وغيرها من المؤلفات[2].

الشيخ أبو القاسم الحفناوي:

مفـتي المالكيـة بـالجزائر، ولـد بقريـة الـديس سـنة 1269 هــ-

---

[1] انظر في ترجمته الشيخ أبو القاسم الحفناوي في كتابه (تعريف الخلـف برجـال السلف)، ص336.

[2] . انظر في ترجمته الشيخ أبو القاسم الحفناوي في كتابه (تعريف الخلف برجـال السلف)، ص399.

1852م، تعلم على يد والـده بمسـقط رأسـه ثم توجـه إلى زاويـة طولقــة، ثم زاويــة ابن أبي داود وأكمــل تعليمــه العــالي بزاويــة الهامل، ثم توجـه إلى العاصـمة سـنة 1301 هــ- 1883م، وتـولى الكتابة بجريدة المبشر إلى أن تـوقفت سـنة 1344 هــ- 1927م، كما تولى التدريس بالجامع الكبير بالعاصمة منـذ سـنة 1315 هــ- 1897م، عين للفتوى سنة 1927.

كان واسع المعارف جماعا للكتب والوثائق، وهو صاحب الكتاب الشهير (تعريف الخلف برجال السلف)، توفي بمسقط رأسه سنة 1360 هـ- 1943م[1].

محمد بن عزوز البرجي:

يعتـبر محمـد بن عـزوز الـبرجي (بـرج طولقـة) شـيخ الطريقـة الرحمانية الذي ورث عن شيخه مصـطفى بن محمـد بـاش تـارزي الــذي لم يكن مقــدما للرحمانيــة في الجنــوب فقــط، ولكن في الجريد التونسي أيضا، كما أنه ولشهرته وكثرة أتباعه أصـبح وكأنـه مؤسس لطريقة جديـدة تسـمى العزوزيـة – الرحمانية، كمـا كـان احتلال فرنسا لبسكرة وتطور أحـداث الجزائـر وتـونس سـببا آخـر في تفريعـات الطريقــة الرحمانية، فعنــد احتلال بسـكرة (1843-1844م) هاجر مصطفى بن محمد بن عزوز إلى نفطة وأسس بها زاوية رحمانية أصبحت ذات شهرة واسعة سيما قبل احتلال تونس سنة 1881م، حيث كان ولاء شيوخ الطريقـة في فـروع (طولقـة، أولاد جلال، الأوراس، خنقـة سـيدي نـاجي، الهامـل، وادي سـوف) لمصطفى بن محمد بن عزوز.

وزاوية نفطة التي أنشـأها مصـطفى بن عـزوز والـتي انفصـلت عن الطريقة الرحمانية بالجزائر، أنشـأها لنشـر الطريقـة بتـونس، وقد كان صاحب شخصية جذابة بما لـه من فصـاحة وبيـان وتمكن في العلم وذوق صوفي وصدق في ممارسة الشعائر.

ومن تلامذة بن عزوز عبد الحفيظ الخنقي مقــدم الرحمانية في خنقـة سـيدي نـاجي ونواحيهـا، عمـل على نشـر التعليم والأذكـار الصوفية، وبقي على ولائه لفرع الرحمانية بنفطة العزوزية، وكــان لمصــطفى بن عــزوز أولاد منهم من بقي في الجزائــر ومنهم من انتقل إلى تونس وأنشأ بها زوايا، وهم : الحفناوي الذي خلفه على

[1]) الزير سيف الإسلام؛ تاريخ الصحافة في الجزائر، ج5، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985، ص؛144

زاوية نفطة، ومحمد الذي أسس زاوية بالقيروان، والمكي الذي اشتهر بالعلم والورع حيث هاجر إلى المشرق وعمل في نطاق الجامعة الإسلامية، وكان المكي قد تزوج من نواحي بوسعادة.

وكان أبناء عبد الحفيظ الخنقي على صلة بزاوية نفطة الرحمانية، حتى أن الأذكار هنا وهناك واحدة، وكانت فرنسا تشجع على التفرق بين الزوايا والشيوخ لأجل تسهيل التحكم فيها.

وترجع شهرة زاوية نفطة إلى كونها أصبحت مدرسة للتعليم بالإضافة إلى الدور الديني والاجتماعي، وكان رجالها يكملون تعليمهم بجامع الزيتونة، ويتولون الوظائف الدينية كالقضاء والتعليم، ومنهم الجزائريان المكي بن عزوز والخضر بن الحسين، وذهب إلى هذه الزاوية عدد من طلبة الجزائر للدراسة مثل عاشور الخنقي، كما هرب إليها بعض الثوار أمثال ناصر بن شهرة وشريف ورقلة ونزل فيها محي الدين بن الأمير عبد القادر سنة (1870-1871م) حين عاد إلى الجهاد، فأهل بسكرة وتبسة والوادي وتقرت كانوا يقصدون زاوية نفطة للتعلم والتصوف معا.

وبعد ثورة 1871م اضطهدت الطريقة الرحمانية، وهُدمت زواياها الواقعة في المناطق الثائرة وتفرعت إلى فروع وفقدت مركزيتها بعد هدم زاوية (صدوق) التي تزعمها الشيخ الحداد ونفي زعمائها إلى خارج الجزائر.

كما تذكر بعض المصادر أن الجنوب بصفة عامة كان تحت تأثير الزاوية العزوزية خصوصا عن طريق خريجيها أمثال مولود الزريبي المدرس بزاوية الهامل، وسيدي حامد العبيدي النفطي مدرس التجويد والقراءات، أو عن طريق معاهدها وزواياها المنتشرة في القطرين مثل زوايا طولقة والهامل والخنقة ووادي سوف[1].

الشيخ محمد المكي بن عزوز:

كان قاضياً وفقيهاً، باحثاً بالإضافة إلى توجهه الصوفي الرحماني المختلف فيه، وقد هاجر أبوه من الجزائر لاجئا إلى تونس، ولد في مدينة نفطة بأرض الجريد في الجنوب التونسي سنة 1270 هـ، وتعلم بتونس، وولي الإفتاء بنفطة سنة 1297 هـ ثم قضاءها،

---

[1]) خير الدين شترة، الصلات الروحية بين الطرق الصوفية في المغرب العربي (الجزائر وتونس أنوذجا)، الملتقى الدولي الحادي عشر (التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة)، جامعة أدرار، أيام 09/10/11 نوفمبر 2008، ص 408.

وفي سنة 1313 هـ رحل إلى الآستانة إسطنبول، فتولى بها تدريس الحديث في دار الفنون ومدرسة الواعظين، واستمر إلى أن توفي بها.

من مؤلفاته (رسالة في أصول الحديث)، و(مغانم السعادة في فضل الإفادة على العبادة)، و(نظم الجغرافية التي لا تتحول بمغالبة الدول)، و(تعديل الحركة في عمران المملكة)، و(عمدة الإثبات في رجال الحديث)، و(إرشاد الحيران في خلاف القالون لعثمان في القراءة الجوهر المرتب في العمل بالربع المجيب)، و(إسعاف الإخوان في جواب السؤال الوارد من داغستان)، و(أصول الطرق وفروعها وسلاسلها)، و(إقناع العاتب في آفات المكاتب)، و(انتهاز الفرصة في مذاكرة متفنن قفصة)، و(الأجوبة المكية عن الأسئلة الحجازية)، وغيرها.

و لما توفي رثاه الشيخ الطيب العقبي بقصيدة تشمل على خمسين بيتا قدم لها بقوله : (وهذه قصيدة قلتها بالمدينة المنورة أرثي بها العلامة الشيخ محمد المكي بن عزوز دفين دار السعادة لما بلغني خبر وفاته، وكان مما يعز علي كثيرا لما بيني وبينه من المؤانسة وعظيم الوداد، ولم أرث أحدا قبله فهي أول مرثية لي، قال في مطلعها :

هي الدار في أحداثها تتجرم سرور فأحزان فعرس فمأتم

إلى أن يقول:

بكت سنة من بعده وتألمت فقد كان إن مست لها يتألم

و يختمها بقوله:

عليك سلام الله حيا وميتا فآخر عهدي أنني بك مغرم

وقد وقع الخلاف في انتسابه للطريقة الرحمانية، بل للتصوف أصلا، فبينما يذكر باحثو الطريقة الرحمانية أنه كان صوفيا رحمانيا، وأنه ظل على هذا طول حياته، ومما يدل على هذا كتابه (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني) يرد فيه على من أنكر كرامات الشيخ الشهير عبدالقادر الجيلاني وما نُسب إليه من خرافات، وقد تهجم فيه على دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب،

وجوّز الاستغاثة بالأموات[1].

وله – بالإضافة إلى هذا- منظومة سماها (وسيلة الأمان في مناقب الشيخ علي بن عثمان)، مطلعها :

حمدا لباسط الأنام في الورى ما دامت الأشراف في الدنيا تـــــــــــــــــــــــــرى

إلى أن يقول :

كشيخنا طود الأسانيد علي هو ابن عثمان زكي العمل

محي طريق: جده التهامي صلى عليه خالق الأنام

كما أنه قام بالرد على الشيخ رشيد رضا لما أنكر كرامات الأولياء ومما جاء في رده قوله: (أنتم تعلمون أن الكرامة ثابتة عند أهل السنة قاطبة حتى الإسفراييني والقشيري المروي عنهما البحث في شأن الكرامة ما أنكراها، وإنما قالا أنها لا تبلغ مبلغ المعجزة، وبعضهم اشترط أن لا تتوالى ولا تترادف ترادفا يجعلها عادة وفيه نظر، وكلاهما الآن في جواز وقوعها إمكانا وسنة لا في عوارضها، وإرشاداتكم على طريقة السلف الصالحين في الاعتقاد، وهل نطق بذلك أحد من أهل القرون الثلاثة ؟ فتأملوا المسألة فإن خطرها كبير، والماديون والطبيعيون بالمرصاد، فإذا سمعوا علماء الملة يقولون بعدم خرق العادة، فيا بشراهم يبنون على هذا الأساس الموهوم ما شاءوا لأن مذاهبهم انعزال الخالق جل جلاله عن التصرف في العالم استغناء بالطبيعة، أعاذنا الله وإياكم من الضلالة وبالله التوفيق)

في مقابل هذا الرأي نجد من ينكر هذا [1]، بل يعتبر الشيخ وهابيا سلفيا، ويذكر قصة لذلك، وهي أنه لما كتب كتابه (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني)والذي اعترض فيه على من أنكر كرامات الشيخ عبدالقادر الجيلاني حرص على توزيع

---

[1]) انظر: المكي بن عزوز، السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني، دط.دت. ص 35.

[1]) انظر: مجلة الكويت، الجزء 10 العدد الأول، ورسالة : المكي بن عزوز - حياته وآثاره، للأستاذ على الرضا الحسيني.

كتابه هذا في أنحاء البلاد الإسلامية، فوقعت نسخة منه بيد علامة العراق الشيخ السلفي محمود شكري الألوسي الذي بادر بعد قراءته للكتاب إلى مناصحة صاحبه بإرسال خطاب وعظي رفيق، دون أن يكتب اسمه عليه، مرفقٌ به أحد كتب علماء الدعوة السلفية.

ويذكرون أن هذه الهدية قد أثرت فيه، حيث تغيرت أحواله بعد انتقاله من تونس إلى الأستانة بتركيا.

ويذكرون أن جمال القاسمي كتب رسالة إلى الألوسي - ولم يدرِ برسالة الألوسي السابقة لابن عزوز – يقول فيها: (إن حضرة العالم النحرير، سليل العلماء الأفاضل السيد محمد المكي بن عزوز التونسي نزيل الأستانة كان من أشداء المتعصبين للجهميين والقبوريين، ثم بصّره الله تعالى الحق فاعتنقه، وأصبح يدافع عنه)[1]، ثم ذكر بتفصيل قصة تحوله إلى المذهب السلفي.

فأجاب الألوسي على رسالة القاسمي السابقة يذكر فيها رسالته له: (سرّني ما كان من المراسلة بين السيد محمد المكي وبين السلفيين في دمشق. وهذا الرجل أعرفه منذ عدة سنين ؛ فإن كتابه (السيف الرباني) لما طُبع في حضرة تونس أرسل منه لنقيب بغداد عدداً كثيراً من نسخه، فأعطاني النقيب يومئذ نسخة منه، فطالعتها فرأيت الرجل من الأفاضل، غير أنه لم يقف على الحقائق، فلذلك استحكمت الخرافات في ذهنه فتكلم على السلفيين، وصحح بعض الأكاذيب التي يتعلق بها مبتدعة الصوفية، وغير ذلك من تجويز الاستغاثة، والتوسل بغير الله، وإثبات التصرف لمن يعتقد فيهم الولاية، والاستدلال بهذيان ابن دحلان ونحوه... كما ترى بعضاً من ذلك في الورقة المنقولة عن كتابه. فأرسلت له كتاب "منهاج التأسيس"، مع التتمة المسماة "بفتح الرحمن"، وذلك سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة وألف، وكان إذ ذاك في تونس لم يهاجر بعد، ولم أعلمه بالمرسل، ويخطر لي أني كتبت له كتاباً أيضاً التمست منه أن يطالع الكتاب كله مع التمسك

---

[1])انظر: الرسائل المتبادلة بين القاسمي والألوسي، للأستاذ محمد العجمي، ص 101-110.

بالإنصاف، ولم أذكر أسمي ولا ختمته بختمي، وأرسلت كل ذلك إليه مع البريد الإنكليزي. وبعد ذلك بمدة هاجر إلى القسطنطينية، وكان يجتمع كثيراً مع ابن العم علي أفندي ويسأله عن كتب الشيخين ويتشوق إليها.. وقد اجتمع به ابن العم في هذا السفر الأخير وأخبرني عنه أنه الآن تمذهب بمذهب السلف قولاً وفعلاً وأصبح يجادل أعداءه، ويخاصم عنه. ولم يزل يتحفني بسلامه، ويتفضل علي بالتفاته)[1]

ويذكرون أن ابن عزوز - بعد هدايته للسلفية – كتب رسالة إلى الشيخ الكويتي عبدالعزيز الرشيد صاحب مجلة (الكويت) قال فيها : (دخل علي السرور ما الله به عليم في التعرف بكم وظفري بصاحب مثلكم، وذلك أن قلبي موجع من غربة العلم والدين وأهله وقلة أنصاره. وإيضاح هذا: أني لست أعني بالدين الدين الذي قنع به أكثر طلبة العصر والمنتسبين إلى العلم في الشرق والغرب من كل مذهب من مذاهب أهل السنة.

سارت مشرِّقة وسرت مغرباً شتان بين مُشرِّق ومغرِّب

ولكني أعني بالعلم والدين علم السنة، وما الدين إلا اتباعها وإيثارها على عصارات الآراء وهجومة المتفقهة، وما التوحيد إلا توحيد السلف الصالح، وأما غيره فأشبه بالضلالات وزلقات الهفوات.. ومن اللطائف أن في الشهر الأول والثاني من انفتاح البصيرة، ألقي إلي في مبشرة منامية قوله تعالى {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142] والحاصل فما ذكر لكم من تلك المناقب لم ألبس منها ثوباً قط، وإنما أنا محب لأهلها، وذاب عنهم، وناصر لهم، ولعله يشملني حديث (المرء مع من أحب)[2] فمن وصفني بما زاد على ذلك، فقد استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم)[3]

---

[1] المرجع السابق، ص 113-115.

[2] صحيح البخاري (8/ 48)

[3] مجلة الكويت، الجزء 10 العدد الأول، ورسالة : المكي بن عزوز - حياته وآثاره، للأستاذ على الرضا الحسيني.

الشيخ عبد الكريم بن التارزي:

هو الشيخ عبد الكريم بن التارزي بن محمد بن عزوز البرجي (ت بعد 1344 هـ - 1926م)، من الأسرة العزوزية الشهيرة بالجنوب الجزائري والجنوب التونسي، وقد كان عالما فاضلا فقيها محدثا صوفيا، ولد بنفطة وأخذ العلم عن والده العالم الفاضل الولي الكامل الشيخ التارزي بن عزوز، وعن الشيخ محمد المكي بن عزوز، وعن شيوخ زاوية نفطة وتولى التدريس بها فترة، قرظ كتاب (السيف الرباني في عنق المعترض على الغوث الجيلاني)، سنة 1309 هـ.

انتقل مع والده إلى المدينة المنورة، وأخذ عن شيوخها منهم: الشيخ محمد بن سليمان حسب الله (ت 1335 هـ)، تولى التدريس بالحرم المدني في بداية القرن العشرين، كان على علاقة علمية متينة مع الأسرة القاسمية، أجاز أيضا الشيخ مصطفى القاسمي في جميع تآليف الشيخ يوسف النبهاني، وفي إعطاء ورد الطريقة الرحمانية، وذلك في صفر 1343 هـ= 1925م. توفي بعد 1344 هـ = 1926م.

الشيخ الطاهر العبيدي:

هو الطاهر بن علي بن أبي القاسم بن العبيدي[1] (1885-1968م) أحد علماء وادي سوف المشهورين، بل أحد كبار علماء الجزائر، ومن علماء الطريقة الرحمانية، وله فيها رسالة منظومة في الدعوة إلى الطريقة العزوزية الرحمانية المعروفة بـ (النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية)،

يقول في مطلعها[2]:

[1]) انظر في ترجمته الدكتور سعد الله، تجارب في الأدب والرحلة، ص 100، ومقال بعنوان (العلامة الشيخ الطاهر العبيدي الفقيه الصوفي) منشورة بجريدة العقيدة عدد 76 : الأربعاء 1 شعبان 1412 هـ / الموافق ل 8 فيفري 1992 م بقلم الاستاذ أحمد بن السائح، ومحاضرة مطبوعة بعنوان : " الشيخ العبيدي بمناسبة يوم العلم " ألقيت يوم الجمعة 14 افريل 1983 م بالمسجد الكبير بتقرت، من إعداد حفيده (ابن بنته) الأستاذ سليماني عبد السلام.

[2]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص6.

إن تــرد عــزة وفضــل مزيه فتلـــــق الطريقـــــة العزوزية

بالإضافة إلى منظومة أخرى بعنوان (نصـيحة الشـباب المريحـة للسحب والضباب)، و(منظومة جريان المدد في الاعتصـام برجـال السند) في 856 بيت، و(رسـالة السـتر)، و(رسـالة في الـرد على الطبيعيين)، و(رفع الإبهام عن مسائل الصـيام)، وتفسـيره للقـرآن الكريم الذي كتب منه بعض تلامذته اجـزاء لا تـزال مخطوطـة في كراريس، والكثير من الفتاوي والبحوث الاصولية لكنها مع الأسـف مبعثرة عند تلامذته وحفدته والكثير منها ضاع.

ولد بمدينـة الـوادي، وتعلم بكتاتيبهـا، ثم أخـذ عن عبـد الـرحمن العمودي ومحمد العربي بن موسـى، أجـازه الشـيخ محمـد المكي بن عزوز من الآستانة، انتقل إلى جامع الزيتونة بتونس ومكث فيه ثلاث سنوات، رجع إلى بلاده واسـتقر بتقـرت أين تـولى التـدريس بالجامع الكبير بها لسنوات طويلة، وكان يتنقل هنا وهناك في زوايا وادي ريغ وطولقة والهامل وغيرها، واعظـا ومدرسـا، تخـرج عليـه المئات من طلبة العلم الشريف.

و من ابرز العلماء الـذين أخـذ عنهم من الجـامع الأعظم الإمـام محمـد بن الطـاهر بن عاشـور، والعلامـة محمـد الخضر حسـين، والشيخ أحمد بن مراد والشيخ حسن بن يوسف، وفضـيلة الأسـتاذ محمـد النجـار، والشـيخ أحمـد البـنزرتي والأسـتاذ الكبـير صـالح الهواري، والشيخ خليفة بن عروس، والشـيخ بن محمـود، والشـيخ النخلي وغيرهم مكن الشيوخ.

و يعتبر الشيخ العبيـدي عـالم منطقـة ورقلـة وفقيههـا المجتهـد ومثقفها الأكبر لا يشاركه في ذلك مشاركة طيلة ستين سنة، وفي خلال هذه المدة استطاع أن يفسـر القـرآن الكـريم، وفي العاشـر من محـرم سـنة 1353 هــ الموافـق ل 17 ابريـل 1934 هــ ختم تفسيره للقرآن الكريم، وعاشت تقرت مهرجانا عظيما بالمناسبة.

و قد ذكر الدكتور سعد الله أنه كان بين الشـيخ العبيـدي صـحبة مع الشيخ عبد الحميد بن باديس أيام طلبه للعلم بالزيتونـة، يقـول في ذلـك: (و هنـاك أوجـه شـبه واختلاف بين ابن بـاديس والشـيخ العبيدي، من ذلك صداقتهما أيام الطلب في تونس، وهو مـا يشـير اليه ابن باديس في رسالته بعبارة (قديم التذكار) رغم أنهـا عبـارة

غير صريحة في هذا المعنى)[1]

وقد ذكر الدكتور عبد الله حمادي في كتابه (دراسات في الأدب العـربي القـديم) رسـائل من الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس إلى الشـيخ الطـاهر العبيـدي[2]، وهي رسـائل خطـيرة في موضـوعها، وربما تكون محـل شـك في صـحتها، وسـنتعرض لهـا بتفصـيل في الفصل التالي لهذا الفصل عنـد الحـديث عن العلاقـة بين الجمعيـة والطرق الصوفية.

وما يهمنا منها هنا هو ذلك الثناء الذي أثنى بـه ابن بـاديس على الشيخ الطـاهر العبيـدي فممـا جـاء فيهـا قولـه: (إلى حضـرة علم العلم والفضـل، ومعلم الكـرم والنبـل، التقي الطـاهر، الأثـواب السري البارع للأدب، مستحق الشكر منا بما لـه علينـا من سـابق الأيدي العلامة الشـيخ سـيدي أبي الطيب الطـاهر العبيـدي، أدامـه الله بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا في ربع العلم، من بعد طمسه حـتى وحشـة قطـره بأنسـه، ويحقـق من بسـاتين تلاميـذه ثمرات غرسه آمين) [3]

المطلب الثالث: الطريقة التيجانية

هي طريقة صوفية ظهرت في أواخر القرن الثـامن عشـر على يد مؤسسها الشيخ أحمـد التيجـاني المكـنى بـابي العبـاس أحمـد محمد التيجاني الشريف، وقـد تواجـدت مراكزهـا في الجزائـر في العهـد العثمـاني في : عين ماضـي وتيماسـين والأغـواط وتـوقرت وورقلة ووادي سوف[4].

أولا ــ مؤسس الطريقة:

تنسب التيجانية إلى صاحبها الشيخ أبي العباس احمد بن محمـد

---

[1]) تجارب في الأدب والرحلة، ص 101.

[2]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، د.ط،.ت، ص6.

[3]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، ص6.

[4]) فيلالي مختار الطاهر : نشأة المرابطين والطـرق الصـوفية وأثرهمـا في الجزائـر خلال العهد العثماني، ص 51.

التيجاني الحسيني، ولد سنة 1737م، بدائرة عين ماضي بولاية الاغواط الجزائرية، لقب بالتيجاني نسبة للقبيلة التي تنتمي لها والدته وأخواله (بنو توجين)، نشأ في بيت صلاح وتقوى ووسط عائلي محافظ، حفظ القرآن الكريم برواية نافع عن أستاذه أبي عبد الله محمد بن حمو التيجاني المضاوي وعمره لم يتعد سبع سنوات، ثم اشتغل بطلب العلوم الأصولية والفرعية حتى تفرس فيها على يد الأستاذ الخبير والمرشد البصير الشيخ البركة المبروك ابن أبي عافية التيجاني المضاوي[1].

وبعد وفاة والده غادر عين ماضي وراح يتنقل بين مناطق عدة منها (بوسمغول-توات-لبيض سيد الشيخ-تلمسان...) وفيها كان يتصل بالعلماء والفقهاء يأخذ عنهم ويستفيد منهم ثم انتقل إلى المغرب الأقصى ونزل بمدينة فاس، التي كانت ولا تزال حاضرة العلم، وهناك التقى بأعلام التصوف، فاجتمع بهم وتحاور معهم واخذ عنهم تعاليم التصوف ومبادئ التربية الروحية.

وكان من أول أساتذته الشيخ أحمد بن حسان القادري من مدينة فاس ثم تتلمذ على يد الشيخ مولاي الطيب الوزاني شيخ الطريقة الطيبية، وقد دام مكوث الشيخ التيجاني بمدينة فاس حوالي 18سنة كان خلالها يدرس ويتفقه في شتى العلوم الدينية والشرعية[2].

وفي سنة 1773م بدأ الشيخ التيجاني في رحلته إلى الحج مواصلا تتبعه للطرق الصوفية، ولما بلغ قرية آيت إسماعيل ببلاد القبائل نزل عند الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الأزهري وأخذ عنه الطريقة الرحمانية الخلوتية، ثم واصل رحلته إلى أن بلغ مقصده في شهر يناير سنة 1188هـ/1774م، هناك اتصل بشيخ هندي يدعى أحمد بن عبد الله وهو صوفي ورع وتقي زاهد فجالسه مدة شهرين أثنائها توفي الشيخ الهندي، وخلف للتيجاني عمله ومعارفه في الطريقة الصوفية.

---

[1]) سالم الحبيب التيجاني، نبذة عن حياة الشيخ سيدي احمد التيجاني، 1999م، ص ص2-3.

[2]) صلاح مؤيد العقبي، الزوايا والطرق الصوفية بالجزائر تاريخها ونشاطها، بيروت، لبنان، دار البراق، 2002م، ص175.

وفي رحلة العودة مـر التيجـاني بالقـاهرة وهنـاك التقى الشـيخ محمد الخيضري الـذي فوضـه لنشـر تعـاليم الخلواتيـة في شـمال إفريقيا، فانطلق مباشرة إلى مدينـة فـاس حيث مكث مـدة يتعلم ويعلم علوم الدين وأسس الطريقة الصـوفية الخلواتيـة، ثم انتقـل إلى مدينة تلمسان ومنهـا توجـه إلى قصـري بوسـمغون والشـلالة بالصحراء الشرقية وهناك بنى خلوة له وانقطع للعبادة فقضـى لـه الله بالفتح الأكبر، حيث رأى الرسول ﷺ يقظة لا مناما فلقنه الورد الشريف الذي أصبح أسس الطريقة التيجانية ويشتمل على: (مائة من الاستغفار ومائـة من الصـلاة على النـبي المختـار ﷺ ، ثم أمـر بتلقينه لكل من طلبه من المسلمين والمسلمات[1].

مكث الشيخ التيجـاني في زاويتـه بقصـر بوسـمغون مـا يقـارب ثمانية عشر سـنة داعيـاً إلى مذهبـه، ثم اخـذ ينتقـل بين المنـاطق الصحراوية الفاصلة بين توات والسودان الغربي وتونس يدعو إلى الإسلام وينشر تعاليم طريقته الصـوفية، فكـان كلمـا نـزل بمكـان استأنسه أهله أطال المكوث عندهم مربيا ومرشدا ويؤسس هناك زاوية له يعين عليها مقدم يكلفه بتلقين طريقته[2].

واستمر الشيخ التيجاني ينشر دعوته إلى أن وافته المنيـة سـنة 1815م بمدينة فاس المغربية، وكان قد اسـتقر بهـا بعـد مطـاردة باي وهران (محمـد الكبـير) لـه واسـتلائه على قريـة عين ماضـي، وترك ذخرا كبيرا من المؤلفات الدينية أهمها: (الإرشادات الربانيـة بالفتوحـات الإلهيـة من فيض الحضـرة الأحمديـة التيجانيـة)، وهي شرح لقصيدة الهمزية للبوصيري في مـدح الرسـول عليـه الصـلاة والسـلام، و(جـواهر الحقـائق في شـرح الصـلاة المسـماة ياقوتـة الحقائق والتعريف بحقيقة سيد الخلائق)

وقـد خلـف ولـدان بـاران تقيـان زاهـدان وهمـا (محمـد الكبـير) و(محمد الحـبيب) الـذي واصـل نشـر مـذهب والـده وجمـع حولـه

[1]) عبد اللـه الحـاج مكي التيجـاني، اليـواقيت والجـواهر المضـيئة، مخطـوط بمكتبـة الشيخ محمد السالم المغيلي، الحي الغربي، ادرار، ص11.

[2]) عمـار هلال، الموسـوعة التاريخيـة للشـباب (الطـرق الصـوفية ونشـر الإسـلام والثقافـة العربيـة في غـرب إفريقيـا السـمراء)، ط1، الجزائـر، منشـورات وزارة السياحية والثقافة، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث، 1984م، ص112.

العديد من المريدين والأتباع[1].

ثانيا ــ مشايخ الطريقة التيجانية:

تشتهر الطريقة التيجانية بكثرة علمائها ومشايخها، وكثرة مؤلفاتهم[2]، ولكن مع ذلك فإنه لاشك أن أكثرهم تأثيرا في التيجانيين الجزائريين إبان عهد الجمعية شخصيتان مهمتان لازال تأثيرهما في الطريقة ساريا، وكلاهما من غير الجزائر، أما أحدهما فمن المغرب، وهو الشيخ أحمد سكيرج العياشي، والثاني هو الشيخ محمد الحافظ، وقد كان لكليهما زيارات للجزائر، وكان لكليهما – كذلك - بعض الردود على الجمعية، وهذه ترجمة مختصرة لهما:

الشيخ أحمد سكيرج العياشي :

هو العلامة، الفقيه، القاضي سيدي أحمد بن الحاج العياشي سكيرج، ولد بفاس سنة 1259هـ، وقرأ القرآن على الفقيه محمد بن الهاشمي الكتامي، ثم التحق بدروس العلم بمسجد القرويين بفاس، برع في الفقه والنحو واللغة والسيرة والحديث والتصوف والأدب والحساب والشعر، تقلد مناصب مختلفة أهمها نظارة الأحباس والقضاء، خاصة بمدينة سطات أخذ الإذن بالأوراد عن محمد قنون بمحراب زاوية التيجاني، وقرأ الفتوحات المكية والإنسان الكامل، كانت بمراكش سنة 1363هـ، ويعتبر من أكثر أتباع التيجاني كتابة وتأليفا إذ بلغت مؤلفاته أكثر من مائتي تأليف غالبها في الطريقة التيجانية، وفي مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام في قصائد تناهز إحداها العشرين ألف بيت.

من أهم مؤلفاته: كشف الحجاب عمن تلاقى مع التيجاني من الأصحاب، ورفع النقاب (في أربع مجلدات)، وتطييب النفوس بما كتبته من بعض الدروس والطروس، والكوكب الوهاج، والذخيرة

---

[1] صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص178.

[2] من العلماء الذين يعتبرهم التيجانيوون من أتباع الطريقة: الشيخ محمد بن احمد بن محمد حمدان لونيسي شيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ عبد القادر بن الشيخ عبد الله الملقب بالمجار، والشاعر محمد العيد آل خليفة، وغيرهم كثير (انظر: كتاب (دليلُ الحَائِر إلى صور ومواقف من جهاد التيجانيين في الجزائر) للباحث في الطرق الصوفية: الأستاذ ديدي السعيد)

للآخـرة (ديـوان قصـائد تقـارب السـبعين في مـدح الرسـول ﷺ) (تجـاوز 2000 بيت)، والقصـيدة الكافيـة بتضـمين الهمزيـة في كاملية كافية (456 بيتا)، والوصية الشافية (وهي منظومـة طويلـة في الحكم والعلوم) (أبياتها 3042)، والذهب الخالص في محاذاة كبرى الخصائص (وهو نظم الخصائص الكبرى للحافظ جلال الـدين السـيوطي، في نحـو 19150 بيتـا، وقـف في نظمهـا عشـية يـوم الخميس 22 رجب 1363 وتوفي بعد ذلك رحمه الله بشـهر، وقـد أتم نظمها أخوه الفقيه سيدي محمد سكيرج رحمه الله[1].

الشيخ محمد الحافظ التيجاني:

هو الشـيخ محمـد الحافظ بن عبـد اللطيـف بن سـالم التيجـاني المصري المالكي الحسيني[2]، ولد عـام 1315هـ في ربيـعٍ الثـاني، في بلدة (كفر قورص) مركز (أشـمون) بـ (المنوفيـة) في مصـر، قــرأ القــرآن الكــريم، واللغــة، والتفســير، والفقــه، والحــديث، والأصول ... وغيرها، على كبار علماء عصره، وصحب الكثيرين من العلماء، وكان يلازم العالمَ حتى يحصل على كل ما معه من العلم، ويدخل مكتبته فلا يخرج منها إلا بعد أن يقرأ جميع ما فيهـا ممـا لم يَسبق له قراءته.

وقد كـان لـه دور كبـير في توضـيح الحقـائق الصـوفية وتقريبهـا بالإضافة إلى دفاعه الشديد عن كل ما ينسب للطريقـة التيجانيـة، ولذلك سنستعين بردوده وتوضيحاته في بعض مناقشـات الجمعيـة مع الطرق الصوفية.

ولقد كان للشيخ علاقـة طيبـة بجماعـة الإخـوان المسـلمين في بادئ الأمر، فإنه كـان يـرى أن تكـون هنـاك دعـوة عامـة للإسـلام بصرف النظر عن الـدعوات الخاصـة، وكـانت للأسـتاذ حسـن البنا صـلة قويـة بالشـيخ من قبـل أن يبـدأ نشـاط الجماعـة، ثم قـامت الجماعــة وأنشــئت، وكــان الشــيخ يــرى أن لا تشــتغل الجماعــة بالسياسة الحزبية، بل تدعو للعمـل بالكتـاب والسـنة بين جمـاهير

---

[1]) انظر ترجمتــه وجميــع كتبــه في موقعــه على الإنــترنت: (http://www.cheikh-skiredj.com)

[2]) انظـر ترجمتـه في: لمجلس الأعلى للشـؤون الإسـلامية، موسـوعة أعلام الفكـر الإسلامي، دار السلام، ص(928 – 929)

الأمة، وتترك كلًّا على مذهبه السياسي الذي يعتنقه، فإذا اقتنعت جماهير الأمة برأي وانضمت إليه، فإنهم في الانتخابات سينتخبون الأقرب للعمل بمبادئهم من نفس حزبهم السياسي. وبالتدريج سيكون في المجلس النيابي أعضاء من جميع الأحزاب، إما من الجماعة، أو من المقتنعين برأيها، أو من مؤيديها، وهكذا سيأتي اليوم الذي يصبح فيه أغلبية النواب من سائر الأحزاب من أنصار الجماعة، وسيأتي اليوم الذي يطلب فيه البرلمان العمل بالكتاب والسنة، ويضع التشريعات اللازمة لذلك.

بالإضافة إلى هذا، فقد كان الشيخ أحد القادة في ثورة سنة 1919م في مصر ضد الإنجليز، وحاربهم بشدة، وكان من قواد إحدى المعارك في أسيوط ضدهم، وقد قبض عليه الإنجليز وأودعوه أحد السجون.

من مؤلفاته: ترتيب وتقريب (مسند الإمام أحمد)، وترتيب (ذخائر المواريث) للنابلسي، وترتيب تخريج أحاديث (الإحياء) على حروف المعجم، وأمام كل حديث تعليق السيد مرتضى الزبيدي، وتخريج أحاديث (جواهر المعاني)، وتخريج أحاديث كتاب (اللمع) لأبي نصر الطوسي، وتحقيق الأحاديث الضعيفة في (سنن الترمذي)، و(أهل الحق العارفون بالله السادة الصوفية)، و(سلطان الدولة التيجانية بغرب إفريقيا: الحاج عمر بن سعيد الفوتي، وجهاده مع الكفار)، و(علماء التزكية هم أعلم الناس بالكتاب والسنة والصحبة الروحية لرسول الله r)، وهو عبارة عن ثلاث رسائل في الرد على المنكرين على أهل الحق، و(رؤية النبي ﷺ في اليقظة)، و(الإنصاف في رد الإنكار على الطريق)، و(التعليق على الإفادة الأحمدية)، و(قصد السبيل في الطريقة التيجانية)، و(أصفى مناهل الصفاء في مشرب خاتم الأولياء)، و(فصل المقال فيما يرفع الإذن في الحال)، و(شروط الطريقة التيجانية)، و(مجموع الأوراد في الطريقة التيجانية)، و(الإسراء يقظة بالروح والجسد)، و(التوفيق بين الطوائف الإسلامية المعاصرة في الأصول)، ومعنى قوله ﷺ: (تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة) [1]

توفي منتصف ليلة الاثنين 29 جمادى الآخر 1398هـ، الموافق 5 يونيه سنة 1879م.

---

[1]) سنن الترمذي (5/ 26)

المطلب الرابع: الطريقة العلاوية

وهي من أشهر الطرق الصوفية الجزائرية المعاصرة، ومن أكثرها علاقة مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بل يكاد يحصر التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية في هذه الطريقة، ولهذا سنرجع إليها كثيرا عند مناقشة المسائل المختلفة.

وسنتحدث هنا باختصار عن مؤسس الطريقة وكبار مشايخها ممن كانت لهم علاقة بالجمعية، أما التفاصيل المرتبطة بتوجهها الفكري والسلوكي ومواقفها المختلفة، فسنتحدث عنها بتفصيل في أكثر المحال في هذه الرسالة.

أولا ــ مؤسس الطريقة:

هو الشيخ أبو العباس أحمد بن مصطفى بن عليوة المعروف بالعلاوي المستغانمي[1] مولدا ونشأة، ولد بمستغانم عام 1869، وتوفي بها سنة 1934، تعلم مبادئ الكتابة والقرآن الكريم على يد والده الحاج مصطفى الذي كان معلما للقرآن الكريم، فانتهى به الحفظ إلى سورة الرحمن، ثم اضطر إلى ممارسة التجارة ليعول عائلته خاصة بعد وفاة والده، وهو في سن مبكرة, إلا أن ذلك لم يمنعه من الانكباب على ملازمة الدروس ليلا رفقة جماعة من الطلبة في الفقه، والتوحيد، والتفسير على يد جماعة من مشايخ المدينة، إلى أن التقى بأستاذه الروحي الشيخ سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي، فلازمه إلى أن وافته المنية سنة 1909، وكان قد قضى في صحبته نحو خمس عشرة سنة، فبويع بعده بالخلافة على رأس الطريقة الدرقاوية بمستغانم ونواحيها، حوالي عام 1909، وخلال بداية العقد الثاني من القرن العشرين، أسس الطريقة العلاوية، معلنا بذلك عن ميلاد طريقة روحية جديدة في أساليبها.

وقد اشترى ابن عليوة مطبعة للزاوية، وأسس صحفا كانت تنشر نشاطه كما كانت ترافع عن الزاوية ضد مخالفيها ومن أشهر صحفه أسبوعية (لسان الدين) و(البلاغ الجزائري)، حيث كان لهما آراء صريحة لتأييد الجامعة الإسلامية واليقظة الوطنية، وقد وقفت

---

[1]) انظر ترجمته المفصلة في موقع (جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية) على هذا الرابط (http://ar.asso-alawi.org)

ضد الاندماج وأنصاره وضد التجنيس ودافعت بشدة عن اللغة العربية.

وقد عمل الشيخ على إبراز الزاوية في شكل يتلاءم ومستجدات العصر الحديث مع الحفاظ على دورها التربوي الروحي، فسارع إلى بناء زاوية جديدة تجمع جملة من المرافق من أجل تبليغ رسالته التربوية والاجتماعية كأقسام الدراسة والمطبعة والمخبزة، واستقطب إليها نخبة من العلماء في التفسير، والحديث، وأحكام الفقه، واللغة العربية.

من مؤلفاته: الرسالة العلاوية في البعض من المسائل الشرعية، ومبادئ التأييد في بعض ما يحتاج إليه المريد، وقواعد الإسلام بالفرنسية، ونقد وردود ورسائل، ورسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف، والقول المقبول فيما تتوصل إليه العقول، والقول المعتمد في مشروعية الذكر بالإسم المفرد، وأعذب المناهل في الأجوبة والرسائل، ورسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ومنهل العرفان في تفسير البسملة وسور من القرآن، ويتضمن كتبا ثلاثة هي: 1) النموذج الفريد المشير لخاص التوحيد، 2) لباب العلم في سورة (والنجم)، 3) مفتاح علوم السر، في تفسير سورة (والعصر)، والبحر المسجور في تفسير القرآن بمحض النور (جزآن)، والمواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية (جزآن)، والمنح القدوسية في شرح المرشد المعين بطريق الصوفية، والنور الضاوي في حكم ومناجاة الشيخ العلاوي، ودوحة الأسرار في معنى الصلاة على النبي المختار، ونور الأثمد في سنة وضع اليد على اليد في الصلاة، ومنهاج التصوف والتعرف إلى حقيقة التصوف، ومعراج السالكين ونهاية الواصلين، ومفتاح الشهود في مظاهر الوجود، والأبحاث العلاوية في الفلسفة الإسلامية، ومظهر البينات في التمهيد بالمقدمات.

ثانيا ــ مشايخ الطريقة العلاوية:

مع أن الطريقة العلاوية من الطرق المعاصرة إلا أنها بسبب انتشارها الواسع في كثير من الدول العربية وغيرها حظيت بالكثير من الباحثين والمثقفين بالإضافة إلى مشايخ الطريقة الذين خلفوا الشيخ العلاوي.

وسنذكر هنا باختصار بعض النماذج عن الشخصيات الكبرى في الطريقة العلاوية.

الحاج عدة بن تونس:

هـو الشـيخ عـدة بن تـونس ابن (بن عـودة) ولـد بحي تجـديت بمدينـة مسـتغانم (الجزائـر) عـام 1898، تعلم وسـلك في شـبابه بالزاويـة العلاويـة الكـبرى، على يـد الشـيخ أحمـد بن مصـطفى العلاوي، الذي أذن له في الرحيل إلى جامع الزيتونة، فمكث هناك نحو العامين ثم عاد إلى مستغانم فلازم شيخه ملازمـة مكنتـه من المعرفة التامة بأحوال الشـيخ العلاوي ونشاطه الديني والـروحي حـتى وفاتـه عـام 1934 بعـد أن أوصـى بالخلافـة ورعايـة شـؤون الزاويـة الكـبرى للشـيخ عـدة بن تـونس، فقـام بمهـام الطريقـة العلاوية وفق المنهج الذي رسمه أستاذه أحسن قيـام، حيث عمـل على نشر الطريق والدعوة إلى الله، وأنشـأ عـددا من الزوايـا في الجـــزائر وخارجـــها، مـن أجـل الـتربـيـــة والـتـعـلـيـم، والتوجـيـــــــه والإرشاد، رغم الظروف القاسية التي شلت كل نشاط ديني واجتماعي، أثناء الحرب العالمية وبعدها.

من أهم ما قـام من أعمـال إصـداره عـدة جرائـد منهـا: جريـدة لسان الدين الثانيـة من 1937 إلى 1939 (حيث أصـدرت جريـدة لسـان الـدين الأولى في عهـد الشـيخ العلاوي)، ومجلـة المرشـد الشـهرية بـاللغتين (العربيـة والفرنسـية) من 1946 إلى 1952 للدفاع عن تعاليم الإسلام، وتبليغ مبادئه لغير المسلمين إلى جانب مجلـة أحبـاب الإسـلام الناطقـة بالفرنسـية الـتي أسسـها لنفس الغرض.

إلى جـانب ذلـك قـام الشـيخ بإنشـاء مؤسسـة لإعـادة تأهيـل الشباب المنحرفين (1940) تحتـوي على أربـع ورشـات للتكـوين: الميكانيكا، النجارة، الطباعة والمخبزة.

من مؤلفات الشيخ: الروضة السنية في المـآثر العلاويـة، وتنبيـه القـراء إلى كفـاح مجلـة المرشـد الغـراء ،و هي مجمـوع مقالاتـه الصحفية صدرت تحت هذا العنوان، والدرة البهية في أوراد وسـند الطريقة العلاوية، ووقاية الذاكرين من غوايـة الغـافلين، ومجـالس التذكير في تهذيب الروح وتربية الضمير، وفك العقال عن تصـرف الأفعال.

وقد أسهم في نشر معظم التراث المخطوط الذي خلفه الشيخ العلاوي، وأشرف بـنـفـسه عـلى تـحـقـيـقـه وطبعه.

ومن الجمعيات التي أسسها الشيخ: (جمعية الشـبيبة العلاويـة)، و(جمعية التنوير)، و(جمعية أحباب الإسلام) التي تنشط حتى اليوم

بأروبا.

توفي سنة 1952 وهو في الرابعة والخمسين، وعهد بالخلافة لولده الشيخ بن تونس محمد المهدي[1].

الشيخ محمد بن خليفة المدنى:

ولد الشيخ محمد المدني بن خليفة بن حسين بن الحاج عمر خلف الله بقصيبة المديوني ولاية المنستير عام 1888 ميلادية, درس في جامع الزيتونة، ومن مشايخه فيها الشيخ محمد بن يوسف وشيخ الإسلام المالكي بلحسن النجار والعلامة محمد طاهر بن عاشور.

عندما حلّ الشيخ ابن عليوة بتونس ليطبع له كتاب (المنح القدسية في شيخ المرشد المعين بالطريقة الصوفية) أعجب به الشيخ (محمد بن خليفة المدني، وأصرّ أن يسافر مع شيخه إلى الجزائر، وهناك تفانى في خدمته وقرّبه وأدناه، حتى صار من أعزّ الخواص وقد اقتضى نظره إلى أن يوجهه إلى نشر الطريقة في 11 ذي الحجة 1329هـ، وبقي في خدمة شيخه نحو ثلاث سنوات استكتبه فيها لتأليف رسائله، ثم أجازه في تلقين الورد العام والاسم الخاص والمفرد، وتلقين أسرار التوحيد وأذنه في نشر الطريقة بالقطر التونسي.

وقد ذكر الشيخ المدني صحبته للشيخ ابن عليوة، فقال: (أما إجتماعنا بالأستاذ رضي الله عنه وأرضاه فقد كان في أول زيارة تشرفت به حاضرة تونس في سنة 1328 هجرة من بعث على أكمل وصف, وكنت أظن أن الأستاذ كغيره من مشائخ زماننا المدعين، ولكن ما لبثت بعد إستماع تذكيره ولطيف تعبيره وصولة كلامه وسطوة معانيه وأفهامه أن قلت كما قال ابن عبد السلام مع الشاذلي: (هذا الكلام قريب العهد من رب العالمين)، فعند ذلك تشرفت بالتسليم عليه والمثول بين يديه, فلقنني ورد طريقته العام بطريق المصافحة, ثم لقنني الإسم المفرد وأذنني في ذكره بكيفية خاصة بعد أن أدخلني الخلوة, ولكن ما لبثت في الذكر زمنا يسيرا حتى فتح الله على عين قلبي فحصلت على الفتح المبين ببركة الاستاذ رضي الله عنه والمنة لله, وقد بقيت

---

[1]) انظر ترجمته المفصلة عنه في كتاب: (الشيخ سيدى عدة بن تونس عبر مؤلفاته ومآثره وشهادات حية لمجموعة من الكتاب والشخصيات الادارية، وبعض معاصريه من الاتباع والمحبين)، نشر جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية.

في خدمته بعد الذكر نحو الثلاث سنين متفرقة منهـا سـنة متصـلة استكتبني في تلك المدة لتآليفه ورسـائله, فكنت أسـتفيد منـه في كل وقت وحين من أسـرار التوحيـد ودقـائق تفسـيره في القـرآن العظيم ورقائق شرحه للحديث الشـريف, ومـا سـمعت منـه مـدة إقامتي عنده كلمة إلا فيما يعود بالنفع ظـاهرا وباطنـا, ثم أجـازني في تلقين الـورد العـام والاسـم المفـرد الخـاص لمن فيـه أهليـة للمزيـد وتلقي أسـرار التوحيـد ففتح اللـه على كثـير من الفقـراء ببركة إذنه المبارك والله يزيدنا من فضله فإن الفضـل بيـده يؤتيـه من يشاء من عباده وهو على كل شيء قدير)

وقد امتثل الشيخ للإذن ونشر الطريـق في عـدة بقـاع، وقضـى 49 سنة في التذكير إلى أن توفي بأحد مستشفيات سوسة، وذلك في 14 ماي 1959 م[1].

[1]) انظر ترجمته المفصلة في الموقع الرسمي للطريقة المدنيـة على هـذا الرابط: ((http://www.madaniyya.com

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ــ أن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يعتبر من من أدق المنجزات التاريخية في الجزائر، باعتبار الظروف الاستعمارية التي كانت تمر بها الجزائر حينئذ، وباعتبار الواقع الديني الذي كان يشكل فيه المحافظون نسبة أكبر بكثير من نسبة الإصلاحين، وباعتبارات أخرى كثيرة، ومع ذلك، فقد كانت هناك عوامل كثيرة ساعدت على تأسيسها من آثار دعوة الإمام محمد عبده التي تأثر بها المصلحون الجزائريون، ومنها الثورة التعليمية التي أحدثها الشيخ عبد الحميد ابن باديس بدروسه، ومنها التطور الفكري الطي مان من مخلفات وآثار الحرب العالمية الأولى، ومنها رجوع طائفة من المثقفين الجزائريين الذين كانوا يعيشون في المشرق العربي ولا سيما في الحجاز والشام والذين من أبرزهم الإبراهيمي والعقبي.

2 ــ أن المؤرخين للجمعية اختلفوا حول البداية الحقيقية للتفكير في تأسيسها، وبناء على ذلك اختلفوا في المؤسس الحقيقي لها، ولو أن أكثرهم يميل إلى اعتبار الشيخ ابن باديس هو أول من فكر في ذلك، وأسس له.

3 ــ من أهم منجزات المرحلة الباديسية، وهي الفترة التي ولي فيها ابن باديس قيادة جمعية العلماء استبعاد المحافظين من الجمعية، والذين يشملون خصوصا على رجال الطرق الصوفية، والذين كانوا يشكلون جزءا مهما من الجمعية عند تأسيسها.

4 ــ يعتبر حضور الجمعية في عهد ابن باديس للمؤتمر الإسلامي في شهر جوان 1936 من أهم الأنشطة السياسية التي قامت بها الجمعية، والتي لقيت في نفس الوقت جدلا في مدى جدواها وتأثيرها.

5 ــ بعد وفاة ابن باديس تولى الإبراهيمي رئاسة الجمعية بناء على أن القانون الأساسي للجمعية يقضي بتولية النائب في حالة وفاة الرئيس، وقد اشتد الصراع في عهده بينه وبين رجال الطرق الصوفية، بالإضافة إلى مساهمته في بناء المدارس.

6 ــ يعتبر الشيخ العربي التبسي من الشخصيات المهمة التي كان لها الدور الكبير في الجمعية ابتداء من تأسيسها، وانتهاء بحلها، وقد تولى الرئاسة الفعلية لجمعية العلماء من (1952-1956)، وقد تحمل في هذه المرحلة ما تنوء الجبال بحمله ، وذلك

باعتراف كل رجال الجمعيـة بمـا فيهم الشـيخ البشـير الإبـراهيمي نفســـه، إلى أن أوصـــل الجمعيـــة إلى حـــل نفســـها يـــوم 07/01/1956م كي لا تتورط مع الإدارة الاستعمارية في الـدخول في المفاوضات والطروحات الاستسلامية[1].

7 ــ تشـكل الطـرق الصـوفية جـزءا مهمـا من تـاريخ الجزائـر الديني والثقافي والاجتماعي، بل والسياسي، ولهذا نجد المستعمر الفرنسي قد أولاها أهميـة كـبرى، فأرشـيفه يحتـوي على تفاصـيل كثيرة عن أعدادها وزواياها ومشايخها، بل حتى توجهاتهـا الروحيـة والفكرية.

8 ــ أن هنـاك أربعـة طـرق كـبرى، هي (القادرية، والرحمانيـة، والتيجانيـة، والعلاويـة) كـان لهـا دور فاعـل في التـاريخ السياسـي والثقـافي الجزائـري، وكـان لهـا جميعـا صـلات خاصـة مـع جمعيـة العلماء المسلمين الجزائريين.

9 ــ أن الطريقة العلاوية من أشهر الطرق الصـوفية الجزائريـة المعاصــرة، ومن أكثرهــا علاقــة مــع جمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائريين، بل يكاد يحصر التعامل بين الجمعية والطرق الصـوفية في هذه الطريقة.

---

[1]) الدكتور أحمد عيساوي، جهود الشيخ العربي التبسي الإصلاحية، ص124.

الفصل الثاني
العلاقة بين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والطرق الصوفية

لقد تبين لنا مما سبق أن من الأهداف الكبرى التي تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأجلها مواجهة الطرق الصوفية، بل محاربتها، واستئصالها، بل تقديم استئصالها على استئصال الاستعمار نفسها، باعتبارها أخطر تأثيرا منه.

ولكن هذا الهدف مع وضوحه وشهرته لا يمكن أن نستنبط منه العداء المطلق للطرق الصوفية من ناحيتين:

الناحية الرسمية: ذلك أنه حصل بين الجمعية والطرق الصوفية –كما عرفنا سابقا- نوع من الوفاق بينهما عند أول تأسيس الجمعية، وبسببه تأسست الجمعية، وانتشر صيتها، ثم حصل بعد ذلك، وبعد سنة واحدة الانقلاب، ولسنا ندري من المنقلب، ومن المنقلب عليه، وهذا يحوجنا إلى التحقيق التاريخي في ذلك بالإضافة إلى التحقيق في النتائج التي ترتبت على ذلك الفصام، والأسباب التي دعت إليه.

الناحية الشخصية: ذلك أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ضمت أعضاء مختلفي المشارب، وقد جعلهم ذلك يختلفون في سلوكهم مع الطرق الصوفية بين معتدل ومتشدد، بل ومتسامح، وقد عبرنا عنه بكونه شخصيا لأنا رأينا أعضاء الجمعية يختلفون كثيرا في سلوكاتهم ومواقفهم من الطرق الصوفية، وهذا ما جعلنا نبحث عن تصنيف المواقف، ثم تصنيف أعضاء الجمعية على أساسها.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن البحث في كلا الأمرين يعتمد على التاريخ أكثر من اعتماده على تحليل الأفكار ودراستها باعتبار أنا سنخص الباب التالي لهذا الباب لدراسة التوجهات الفكرية وأثرها في التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

بناء على هذا، فقد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: العلاقة الرسمية بين جمعية العلماء والطرق الصوفية

المبحث الثاني: العلاقة الشخصية بين جمعية العلماء

المبحث الأول: العلاقة الرسمية بين جمعية العلماء والطرق الصوفية

على الرغم من أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أعلنت قبل تأسيسها وبعده معاداتها للطرق الصوفية، بل حربها لها، بل تقديمها لحربها لها على حرب الاستعمار نفسه - كما يذكر الإبراهيمي - ويعلله بأن استعمار الطرق أخطر[1]، ومع ذلك فقد رأينا في الفصل السابق أن الجمعية ضمت في أول تأسيسها كثيرا من رجال الطرق الصوفية، فما سر ذلك؟

وما سر ذلك الشقاق الذي دب إلى الجمعية بعد أول سنة من تأسيسها؟

وهل كانت الطرق الصوفية تريد أن تستلب الجمعية من رجالها لتحولها إلى مؤسسة لتسويق البدع والدعوة لها – كما يرى رجال الجمعية والموالون لهم-؟

أم أن الأمر على عكس ذلك، وهو أن رجال الجمعية استخدموا رجال الطرق الصوفية واحتالوا عليهم ليصلوا بهم إلى أغراضهم، ثم يطردوهم بعد ذلك شر طردة، ــ كما يرى رجال الطرق الصوفية، والموالون لهم؟

ثم ما كان نتائج ذلك الفصام النكد الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية؟ وما أسبابه؟ وهل كانت هناك محاولات لرأب الصدع، أم الأمر بقي كما هو؟

هذه أسئلة كثيرة تفرض نفسها، ولا يمكننا أن نعرف العلاقة

---

[1]) وقد علل ذلك بقوله: (ولقد تفرسنا فيهم فصحت الفراسة، وبلوناهم فصدق الابتلاء، وجربناهم فكشفت التجربة على أنهم لا يعرفون الأمة إلا في مواقف الاستعباد وابتزاز الأموال، فإذا مسها الضر وتنكر لها الدهر تنكروا لها وتجاهلوها، وإن علاقتهم بالأمة علاقة السيد بعبده والمالك لمملوكه لا علاقة المسلم بأخيه المسلم، يحب له ما يحب لنفسه، وأنهم مطايا الاستعمار الذلل وأيديه الباطشة؛ بل القنطرة التي هونت عليه العبور، وانهم كانوا ولا زالوا على خلاف ما وصف الله به عباده المؤمنين أعزة على الأمة أذلة على المستعمرين والحكام المستبدين، وأن ليس في صحائفهم السوداء موقف يعز الإسلام أو يرفع المسلمين) (آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 297))

الرسمية بين الجمعية والطرق الصوفية دون الإجابة عليها.
وقد حاولنا ذلك عبر ثلاثة مطالب:
المطلب الأول: مرحلة التوافق وأسبابها
المطلب الثاني: مرحلة الاختلاف وأسبابها
المطلب الثالث: نتائج الاختلاف

المطلب الأول: مرحلة التوافق وأسبابها:

ربما يكون تعبيرنا عن الفترة القصيرة التي سادت فيها بعض الألفة المحتشمة بين الجمعية والطرق الصوفية بكونها (مرحلة) نوعا من المجاز، أو نوعا من التجني على الحقيقة، فلم يحمل أعضاء الجمعية وخصوصا المتشددون منهم – كما سنرى- في أي يوم من الأيام أي نية صادقة للتوافق مع الطرق الصوفية، وكيف يفعلون ذلك، وهم يعتبرونها شرا محضا، في نفس الوقت الذي يعتبرون فيه أنفسهم خيرا وصلاحا وإصلاحا محضا، ولا يمكن للخير والشر أن يتوافقا أبدا.

ومع ذلك فقد حصل نوع من التوافق المصلحي للجانبين، فقد كانت الجمعية بحاجة إلى الطرق لتعبر من خلالها إلى السلطات من جهة، وإلى كثير من أفراد المجتمع المتشبث بالطرق الصوفية من جهة أخرى.

وفي نفس الوقت كانت الطرق الصوفية بحاجة إلى هذا التوافق لتكف تلك الحرب التي أعلنت عليها منذ دخول ما يسمونهم بـ (الوهابية) أو (العبداوية)[1] إلى الأرض التي كانت خالصة لهم في فترات تاريخية كثيرة.

بناء على هذا نحاول في هذا المطلب أن نتعرف على تلك الفترة القصيرة التي ساد فيها هذا التوافق المحتشم، ثم نتعرف على أسبابه وخلفياته الفكرية والتاريخية.

أولا ــ بداية التوافق ومدته:

في سنة 1925، وبعد أن أدرك ابن باديس صعوبة تأسيس ما كان يصبو إليه من إصلاح من خلال النخبة القليلة التي كانت تشاركه آراءه وتوجهاته الإصلاحية من العلماء الأحرار الذين تخرجوا في المدارس والمعاهد الحرة، ومن الجامعات الإسلامية

[1]) يقصد بهذا المصطلح أتباع (محمد عبده)، وقد ذكره الإبراهيمي في معرض ذكره للحرب التي ووجهت بها الجمعية (انظر: آثار الإبراهيمي: 1/123)

في وقتها مثل الزيتونة، والأزهر، والقرويين أو درسوا بالحجاز.

ورأى أن جمعا كبير من العلماء لا يتوافق معه في هذا السبيل، أو لا يفكر معه هذا التفكير، وهم إما من الذين تتلمذوا في المدارس الرسمية الحكومية التي تكون وتخرج الموظفين في القضاء والإفتاء والإمامة، والذين كان جلهم يظهرون ولاءً كبيرًا وطاعة عمياء لإدارة الاحتلال.

أو من الذين تتلمذوا في مدرسة الزوايا التي تخرج شيوخاً يعلمون بالزوايا، ويتفرغون لخدماتها، مع جمود على طرائقها وحالتها، التي هي عليها منذ أمد بعيد[1].

بعد أن رأى هذا وأدرك صعوبة تحقيق ذلك الغرض الإصلاحي الذي يصبو إليه مع نفر قليل من المصلحين تخلى عن بعض الحدة التي كان يخاطب بها المخالفين له خصوصا من رجال الطرق الصوفية، ونشر– عبر جريدة الشهاب- نداء إلى العلماء الراغبين في الإصلاح من كل الجهات والتوجهات يقول فيه:: (أيها السادة الأدباء المؤيدين للإصلاح، المتواجدين في مناطق متفرقة مختلفة في الجزائر، هلموا، اتّحدوا وتعاونوا، وأسسوا حزبا وثيقا (حزب ديني محض)، من أجل تنقية الدين من الشوائب والبدع التي لحقت به من السذج والجاهلين، وذلك بالرجوع إلى المصادر القرآنية، وأحاديث الرسول، وتقاليد القرون الثلاثة الأولى، نحن نتمنى أن يقبل كل شخص هذا الاقتراح، وأن يلبي نداء العلماء ومؤيدي الإصلاح الذين يؤيدون هذه الصحيفة، وأن يغادروا أفكارهم القديمة، وإذا حصلنا على شهادة استحسان وقبول من عدد كاف، سنشرع في تكوين الحزب، والله الموفق)[2]

وهذا النداء من خلال عباراته لا يدل على اختصاص الإصلاحيين به، فالطرقيون – كما سنرى عند الحديث عن توجههم الفكري- ينكرون البدع ويحاربونها على حسب تصورهم لحقيقتها، ومثلهم الإباضيون، وغيرهم، فالكل يتفق على إنكار البدع، ويحمل في

[1]) عبد رشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913 ـ 1940)، دار الشهاب، بيروت، ط1، 1420 هـ / 1999 م، ص 126

[2]) عبد الحميد بن باديس: نداء إلى العلماء الإصلاحيين (جريدة الشهاب، العدد (3)، 26 نوفمبر 1925)

نفس الوقت تصوره الخاص بها، فلذلك لقي هـذا النـداء قبـولا من الجميع.

وبعد أن نضـج ذلـك التوافـق، قـرر ابن بـاديس ومن معـه ممن يحمل فكره وتوجهـه إنشـاء هـذا الحـزب الـديني الإصـلاحي، وقـد أعلن ذلك في مارس1931 م حيث خرجت الشهاب ببيان تضـمن دعوة عامة إلى تكوين جمعيـة العلمـاء، ويصـرح الإبـراهيمي بأنهـا كانت دعـوة عامـة لجميـع العلمـاء الجزائـريين بمختلـف مـذاهبهم وتوجهاتهم، فيقـول: (دعونـا فقهـاء الـوطن كلهم، وكـانت الـدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمـة كلهـا ليس فيهـا اسـمي ولا اسم بن باديس، لأن أولئك الفقهـاء كـانوا يخافوننـا لمـا سـبق من الحملات الصـادقة على جمـودهم، ووصـفنا إيـاهم بـأنهم بلاء على الأمة، وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايـا الاستعمار، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم)[1]

فالإبراهيمي يصرح هنا بأن عبـارات النـداء كـانت عامـة تشـمل الجميـع، وذكـر في نفس الـوقت أنـه والشـيخ ابن بـاديس كانـا يقصدان ذلك بدليل أنهما لم يذكرا اسميهما في النداء، مخافـة أن لا يلبي الدعوة الكثير من الجهات.

وإلى هنا فإن القصد – كما هو ظاهر - نبيل، واللغة التي عبر بها عن المقصـد كـانت واضـحة غايـة الوضـوح، ولـذا نجحت في أن تجذب إليها أكبر كم من العلماء بمختلف مذاهبهم ومشـاربهم، من (مـالكيين وإباضـيين، ومصـلحين وطرقـيين، ومـوظفين وغـير مـوظفين، كمـا حضـر الاجتمـاع طلبـة العلم من مختلـف جهـات الوطن)

ولم يكن ذلك من أثر تلك النداءات الموجهة عبر الشهاب فقط، بل كانت هناك مراسلات خاصة شملت أغلب العلماء ورجال الدين الذين كانوا من خريجي المعاهد العليا، أو أن يكونـوا من المشـهود لهم بالعلم أو من الذين يتبوؤون مركزا دينيا مهما بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية أو الطرقية أو الإصلاحية[2].

---

[1]) مجلة مجمع اللغة العربية، ج21 سنة 1966، ص : 143.

[2]) أحمـد الخطيب، جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين و أثرهـا الإصـلاحي في الجزائر، ص 108.

وقد وصف الشيخ الإبراهيمي نجاحه مع رفيقه ابن باديس في هذه المهمة، فقال: (فاستجابوا جميعًا للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر- ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام)[1]

بل فوق ذلك يذكر الإبراهيمي، كيف أن أصحاب الطرق مع علمهم بشدته وشدة ابن باديس عليهم لم يجدوا إلا التسليم لهم، بل الموافقة على إدارتهم للجمعية، وقد علل ذلك بتمكنه العلمي وتمكن المصلحين معه مقارنة بمشايخ الطرق وعلمائها الذين وجدوا أنفسهم كالتلاميذ بالنسبة لهم، يقول في ذلك: (ولما تراءت الوجوه، وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء أنهم مازالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا فانتخب المجلس الإداري من رجال أكفاء، جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة... ووحدة المناهضين للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا فانتخبوهم بالإجماع وانتخبوا بن باديس رئيسًا.. وأصبحت الآن الجمعية حقيقة واقعة قانونية، وجاء دور العمل)[2]

هذه أول العلاقة الرسمية بين الجمعية والطرق الصوفية، وهي علاقة - كما رأينا- لم تؤسس على أساس صحيح، ولذلك سرعان ما انهارت، فالتوجهات الفكرية كانت مختلفة، بل متناقضة، ولهذا لم لم تستمر العلاقة إلا قليلا، يقول سعد الله: (وكان تأسيس الجمعية على هذا النحو يعتبر (شهر عسل) بالنسبة لرجال الدين عامة، وهو الشهر الذي استمر عاما فقط، لأن أهداف الجميع لم تكن واحدة) [3]

ثانيا ــ أسباب التوافق:

من خلال العرض السابق للفترة التي ساد فيها بعض التوافق بين الجمعية والطرق الصوفية، ولو شكلا، نحاول هنا باختصار أن نتعرف على أسباب ذلك التوافق، وهل هو تنازل من الجمعية، واستسلام من الطرق الصوفية، أم أن الأمر كان فيه مصلحة لكلا

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 281)

[2] مجلة مجمع اللغة العربية، ج21 سنة 1966، ص : 143.

[3] سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 84.

الجانبين؟
أم أن كلا الطرفين أو أحدهما كان صادقا في نيته، ولم يكن له من مقصد سوى الاهتمام بخدمة البلد الذي كان في أمس الحاجة إلى اتحاد جميع أبنائه بمختلف توجهاتهم ومذاهبهم؟
سنحاول هنا - باختصار - أن نجيب على هذه الأسئلة من خلال طرح المصالح المترتبة على ذلك التوافق للأطراف جميعا.

1 ــ مصالح الجمعية المتعلقة بالتوافق:

يكاد يتفق أكثر الباحثين في ذلك التوافق الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية في تلك السنة القصيرة على اعتباره نوعا من التوافق المؤقت المحدود - كما يعبر الدكتور أبو القاسم سعد الله - بدليل المناصب الهامة التي تولاها المصلحون[1].

وبرر ذلك بأن الواقع المحرج الذي كان يعيشه أعضاء الجمعية لا يسمح لهم بتحقيق أهدافهم الإصلاحية إلا باستعمال بعض الطرق والأساليب الخاصة، فقال:(ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات بالإدارة)[2]

وقد ذكر محمد الأخضر السائحي الطريقة التي قامت بها الجمعية لإخراج الطرق الصوفية من الجمعية، أو لعدم تمكينهم من أي موضع فيها، وذلك أنهم دبروا خطة تتمثل في تغيير أوراق الانتساب إلى الجمعية، وذلك بناء على امتحان يقوم به شيخان من العلماء لإثبات علمية المنتسب أو جهله.

وقام الشيخ أبو اليقظان بطيع الأوراق الجديدة ذات اللون الأزرق عوضا عن الأوراق القديمة ذات اللون الأصفر، وخاف

---

[1] سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، ص 83..

[2] الحركة الوطنية: 3/93.

الطرقيون من الامتحان، وبذلك فشلت محاولتهم بصورة قانونية[1].

وهذا هو الواقع الـذي مارسـته الجمعيـة في كثـير من مراحلهـا، فهي تشتد مـع المخـالفين إذا أتيحت لهـا الفرصـة لـذلك التشـدد، وتلين كلما وجدت نفسها في مواقف حرجة لا تسـتطيع أن تحقـق أهدافها الإصلاحية إلا من خلالها.

وكمثـال على ذلـك موقـف رجـال الجمعيـة بـوادي سـوف – باعتبارها من المناطق التي تنتشر فيها الطرق الصوفية بكثرة من قادرية وتيجانية ورحمانيـة (عزوزيـة)، وشـابية وعلويـة - وهـذا مـا جعل الشيوخ يتخذون مواقـف مختلفـة: إمـا التسـامح مـع الجميـع دون إبداء التعصب لطريقة دون أخرى مثلما فعل الشـيخ إبـراهيم بن عامر، أو الالتزام بطريقة معينة مثلما كان يقوم به شيوخ بلـدة قمار مثل الشيخ محمد بن البرية ومحمد الصالح بن الخوصـى من خلال انتمائهم للطريقة التيجانية.

كما كـان هنـاك طائفـة أخـرى من العلمـاء الـذين حـاولوا تجنب الطــرق الصــوفية في الســعي والتحــرك على مســتوى التعليم والوعظ، والإرشاد، وهم علماء عديدون أهم علماء حاضرة الـزقم، حيث كانت الطرق الصوفية أقل عنفوانـا، بالإضـافة إلى عمـار بن الأزعر الذي كان صاحب موقف واضح من الطـرق الصـوفية الـتي كــان يعــدها من بين الأســباب الرئيســية في تكــريس التخلــف بالمنطقة، كما كـانت بينـه وبين محمـد بن البرية مشـاحنات، حيث كان محمد بن البرية مدافعا عن الطرق الصـوفية، وهـذا من خلال مــا كتبــه هــذا الأخــير من مقــالات في الجرائــد كجريــدة (البلاغ الجزائري) وجريدة (النجاح) معاديا الشيخ عمار بن الأزعر[2].

بل إن الاستاذ حمزة بوكوشه يذكر أنه كـان من رجـال الجمعيـة من (ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية يحتمي بهـا، وتحتمي به، وينتسب إليها وتنتسـب إليـه سـواء كـان ذلـك منـه عن إيمـان

---

[1]) محمد الأخضر السائحي، محمد الأمين العمودي الشخصية المتعددة الجـوانب ،ط 2،دار هومه للطباعة والنشر. بوزريعة، الجزائر: 2001 م،ص 32

[2]) محمــد الطــاهر تليلي : من تــاريخ وادي ســوف، ص 77، نقلا عن: (الحركــة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900-1930)، إعداد الطالب: موسـى بن موسى، 2005)

وإعتقاد أو عن تقية أو مجاراة للعوام الـذين من أصـول اعتقـادهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه[1]

2 ــ مصالح الطرق الصوفية المتعلقة بالتوافق:

وقد عبر عن هذه المصالح الشـيخ الإبـراهيمي، فقـال: (لم يكن تأسيس جمعية العلمـاء المسـلمين خفيـف الوقـع على الجماعـات التي ألفت اسـتغلال جهـل الأمـة وسـذاجتها وعاشـت على موتهـا، ولكن التيـار كـان جارفًـا لا يقـوم لـه شـيء، فمـا كـان من تلـك الجماعات إلّا أن سايرت الجمعية في الظـاهر وأسـرت لهـا الكيـد في الباطن، وكان المجلس الإداري الذي تألف بالاختيار في السنة الأولى غير منقح ولا منسجم لمكان العجلـة والتسـامح، فكـان من بين أعضائه أولو بقية يخضعون للزوايا وأصحابها رغبًا ورهبًا، وكـان وجـودهم في مجلس الإدارة مسـليًا لشـيوخ الطـرق ومخففًـا من تشاؤمهم بالجمعية لسهولة استخدامهم لهم عند الحاجـة، فإمـا أن يتخذوهم أدوات لإفساد الجمعية وإسقاطها، وإمـا أن يتـذرعوا بهم لتصريفها في مصالحهم وأهوائهم)[2]

ومن خلال هـذا النص يتـبين لنـا أن الطـرق الصـوفية لم تكن راضية عن تلك الشحناء الـتي كـانت منصـبة عليهـا، ولـذلك كـانت تلتمس كل السـبل لتتقي هجومـات الإصـلاحيين عليهـا، ومن أدلـة ذلك ما سنراه من دعوات للإصلاح بين الطرفين.

3 ــ مصالح الجزائر المتعلقة بالتوافق:

لقد عرفنا في الفصل الأول أن المجتمـع الجزائـري منـذ قـرون طويلة كان مرتبطا في نواحيه جميعا الدينية والاجتماعية والثقافيـة بـل حـتى السياسـية بـالطرق الصـوفية ارتباطـا شـديدا، ولـذلك اسـتطاع رجـال الطـرق أن يجنـدوا بسـهولة أتبـاعهم لمحاربـة المستعمر، وكان لها السبق في ذلك.

بالإضافة إلى سبقها في الحفاظ على الهوية العربيـة الإسـلامية للجزائريين، وقد أقر الإبراهيمي بهـذا ناقـد لـه، فقـال: (ولكن أنّى للأمة الجزائرية باجتماع العلمـاء وتـآخيهم في العلم، وإن الطائفـة التي يطلق عليها هذا الاسم حقيقة أو ادعاء بهذا القطر هي طائفة

---

[1] علي غنابزية، العلامة إبراهيم العوامر، ص 11.

[2] آثار الإبراهيمي: 1/188.

متنافرة متنابذة، كأن من كمال العلم عند بعضها أن يبغض العالم العالم، وبجفو العالم العالم، شنشنة مُعْظَم الشر فيها آت من الزوايا الطرقية التي تعلم فيها أولئك العلماء أو علّموا فيها، والكثرة الغالبة في علماء الجزائر قبل اليوم تعلمت بالزوايا أو علمت العلم في الزوايا، فمن الزوايا المبدأ وإليها المصير. وزوايا الطرق في باب العلم كمدارس الحكومات هذه معامل لتخريج الموظفين، وتلك معامل لتخريج المسبحين بحمد الزوايا والمقدسين) [1]

وما ذكره الإبراهيمي كان يدعوه في الأصل كما يدعو الجمعية جميعا إلى استغلال هذه الطاقات في الطرق الصوفية لتوجيهها لمصلحة البلد الجاثم تحت الاستعمار، ثم تترك مسائل الخلاف بعدها لمحلها الخاص بعد التخلص من العدو المشترك الأكبر.

لكن الجمعية لم تكن ترضى بهذا، فقد كانت تتصور أن الاستعمار الطرقي أخطر من الاستعمار الفرنسي، بل إن الشيخ الطيب العقبي – وهو أكثر الأعضاء تشددا في الجمعية - عارض المطالبة بالاستقلال قبل التحرر من الاستعمار الطرقي، فقد ورد في البصائر تلخيص لخطاب ألقاه الشيخ العقبي سنة 1937 م يوضح هذا المعنى، يقول كاتبه: (وبين أنه لا يوافق السيد مصالي الحاج ومن معه من الإخوان على فكرة الاستقلال الذي هو بعيد عن الأمة الجزائرية، وهي بعيدة عنه ما دامت لم تستقل في أفكارها وكل مقومات حياتها، وما دامت لا تقدر أن تحرر نفسها من ربقة بعض المرابطين واستعبادهم لها باسم الدين فكيف يطير من لا جناح له ولا ريش)[2]

بل إن بعض كتاب الجمعية كتب في جريدة (الشريعة النبوية) يفضل المستشرقين على أصحاب الطرق، ففي مقال تحت عنوان (الدّين الإسلامي بين المبشرين والمبتدعين)[3] لكاتب

---

[1] آثار الإبراهيمي: 1/186.

[2] البصائر: 1/ ع 31 / ص 1.

[3] جريدة الشريعة النّبويّة في عددها السّادس , الصّادر يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933.

يدعى (محمد جير فودة) يقول فيه: (لست أذيع سرا إذا ما جاهرت عن يقين ثابت وعقيدة راسخة بأن المسلمين الآن بين شقي الرحى, تضغطهم أعمال المبشرين التي ذاع أمرها واستفاض خبرها, وتصرفات المبتدعين الذين يدخلون في الدين ما ليس منه, ولئن حمدت للأمة اهتمامها بأمر المبشرين وانتهاج الوسائل المؤدية إلى الحد من طغيانهم والقضاء على أغراضهم, فإنه لا يزال عالقا بنفسي أثر سيء مما يأتيه المبتدعون هادما لبنيان الدين, وناقضا لتعاليمه من أساسها, ولو أحسنت الحكومة صنعا لعملت على تحرير الدين مما علق به بفعل جماعة من المسلمين لا يعنيهم من أمر دينهم غير أن تشبع بطونهم وتمتلئ جيوبهم, أولئك على الدين أشد ضررا وأكثر خطرا من المبشرين)[1]

ثم بين وجه تفضيله للمبشرين على الطرقيين بقوله: (ذلك لأن جماعة المبشرين إنما يدعون إلى الخروج على الدين إطلاقا ويروجون لاعتناق دين غيره، وتلك دعوة ينبني على مجرد الجهر بها النفور عنها اللهم إلا عند نفر قليل تدفعهم الحاجة إلى الاستسلام وتغريهم الفاقة بالاستكانة, وهؤلاء لا يلبثون أن يصدوا عن الدعوة ويرجعوا إلى الهدى عندما يرون بأعينهم أن المنشآت التي أعدت لهم بين أهل دينهم ستغنيهم عن التردد على أماكن المبشرين فتكتب لهم النجاة من المهاوي السحيقة التي كانوا على وشك التردي فيها, ولكن ما ظنك بجماعة ليسوا من المبشرين حتى نجتنبهم, ولا يدعون للخروج على الإسلام حتى نتحاشاهم, وإنما هم مسلمون أولا, يلبسون لباس الإسلام, ويتزيون بزيه وجاءوا تحت ستار لباسهم الزائف يجتذبون نفرا من المسلمين, ينفثون فيهم سموم خرافات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان بدعوى أن تلك الخرافات من الدين وأن من لم يتبعها وينسج على منوالهم فيها يبوء بغضب من الله ورسوله ويكون من الكافرين.. لا شك أن هؤلاء أشد ضررا على الإسلام من

---

[1]) جريدة الشريعة النّبويّة في عددها السّادس , الصّادر يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352 للهجرة الموافق ل 21 أوت 1933، ص6.

المبشرين الذين قـدمنا أن معالجـة أمـرهم بـاتت وشـيكة النجـاح, وأن دعوتهم عند الكثيرين لا تصادف ما قدر لها من رواج) [1]

هذا هو التصور الذي طرحته الجمعية وبموجبه كانت تــرفض أي دعوة للصـلح أو تخفيـف الحـدة مـع الطرقـيين، بـل تـرفض حـتى الجلـوس معهم في طاولـة الحـوار، أو العمـل معهم في المتفـق عليه.

ونحب أن نذكر هنا دعوة ملحة قامت بها الطريقة العلاوية الـتي لاقت حربا شديدة من الجمعية، فقـد تكـررت دعواتهـا للمصـلحين بالاجتمـاع معهـا على الأهـداف المشـتركة، وتـرك الخلاف لمحلـه الخاص به، سواء قبل تأسيس الجمعية أو بعدها.

ومن الأمثلــة على ذلــك البلاغ الــذي نشــرته صــحيفة البلاغ الجزائري، والذي تـدعو فيـه إلى (رفض الطعن في أي طبقـة من طبقات الأمة وفي أي مذهب من مذاهبها، ما دام لا أحد يمكنه نيل إجماع الأمة، فيكون محـل ثقتهـا ومرجعيتهـا الوحيـدة، والكـل في دعواه ومذهبه يدعي الاستناد إلى القـرآن والسـنة وإجمـاع الأمـة، وعليه فلم يبق إلا أن نحسن الظن ببعضنا بعضـا مراعـاة لمصـالح الأمة فمن صلاح الأمة وإصلاحها أن لا يتسـاهل في تنقيص سـلفها ولا يمس بسوء أي مذهب من مذاهبها ما دام الجميـع متحـدا على كلمـة الإخلاص وإقـام الصـلاة وإيتـاء الزكـاة وصـوم رمضـان وحج البيت وإن اختلفوا فيما عدا ذلك من الفروع) [2]

وفي محل آخر كتبت نفس الصـحيفة تتسـاءل: (مـا الـذي يمنـع الناس من الاتفـاق والتعاهـد على تأسـيس الأنديـة والتعاضـد على تأسـيس الأنديـة للاجتمـاع والمـدارس الخصوصـية لتعليم العربيـة وآدابها الراقية ونشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.. كمـا تسـاءلت عن ما يمنع الناس من صرف أموال الولائم والمآتم والموائد والزوائــد في تعليم أبنائهم القراءة والكتابة والحسـاب وفـق النظم الحديثـة

---

[1] المصدر السابق، ص6.

[2] الإدارة: البلاغ، البلاغ الجزائري،ع: 19، مستغانم: 4 ذي القعـدة 1345، الموافـق لـ 6 ماي 1927، نقلا عن أضاميم المد الساري، ج 1، ص 60.

المعمول بها في العالم) [1]

وقد كان هذا - على حسب اطلاعنا - سلوك شيخها عبر رسائله ومقالاته وكل ما نشر له، فلم نر منه إلا الدعوة لتوحيد الجهود للإصلاح، ونبذ التعصب والخلاف، ولعل من أهم مواقفه في هذا، إرساله في احتفال للطريقة سنة 1928، دعوة خاصة إلى العلماء الإصلاحيين بلغته البسيطة يقول فيها: (إليكم أيها السادة الكرام، والعلماء الأعلام، أوجه خطابي وأنهي كلامي، بصفتكم داعين إلى الكتاب وسنة رسول الله ﷺ، ويا ما أسعدنا وأسعدكم بإقامة هاته الدعوة، والعمل على ما تقتضيه التقوى، وطالما تكررت على مسامعنا وأسماع غيرنا، وها هو قد هيأ الله لنا أسباب الاجتماع، وطرق الانتفاع، بحلول اجتماع العلويين المقبل، فهيا نشد العضد ببعضنا، للتمييز بين الصحيح والفاسد، فهيا بنا نتحد على ما يوافق صريح النقول، ثم نتفاهم فيما وراء ذلك بما هو معقول، فهيا بنا نمد لبعضنا يد المساعدة، فيما نراه صالحا لنفع الأمة، ومفيدا لتشييد صروح الملة. فهلم لتنظروا أحوال إخوانكم العلويين، وما هم عليه في اجتماعاتهم وتذكيراتهم، فإن كانوا على الجادة والصراط المستقيم، تشكروهم وتوازروهم وتتخذوهم عضدا وان كانوا على غير ذلك فذكروهم بألطف عبارة وارق أسلوب..فهلم إلينا نتفاوض فيما يزيل من بيننا تلك الفوارق القاضية على جمعنا ومجموعنا، فهلم إلينا ننهي دور القول، ونشرع في دور العمل)[2]

لكن الإصلاحيين للأسف لم يقبلوا هذا، إلا أن الشيخ أبا يعلى الزواوي خالفهم في ذلك، وقد انتقد انتقادا شديدا من الجمعية بسببه.

ومما ذكره في شهادته على استعداد الطرقيين للإصلاح والحوار قوله: (صاحبي ابن عليوة..أشهد الآن بين يديكم أني ما عرضت وما أمرت ولا نهيت الشيخ العليوي إلا استحسن وسلم حتى قال: إن حملاتك إن كانت علينا مقبولة وإن كانت لنا فهي أحسن لنا،

---

[1] (الإصلاح الإصلاح)، البلاغ الجزائري، ع: 68، مستغانم: 14 ذي القعدة 1346-4 ماي 1928. .

[2] عدة بن تونس : الروضة السنية، المطبعة العلاوية، مستغانم، ص 66.

ويخاطبني قائلا: إنك بنظريتك السياسية والاجتماعية ننقاد إليك ونعمل بإشارتك، وما زال وما زلت طامعا في، وطامعا فيه، أي بأن نتفق على كتاب الله وسنة رسوله، وصرح لي أمام جمع أنه إذا ظهر لكم – معشر الإخوان- في الدين والوطن والجنس – أن نتفق على جميع ما يخص المسلمين والوطنيين ... ولم أر ولم اسمع من غيره من الشيوخ الذين عرفتهم إلا الصدود وتعير الخدود ومقتي بأني كافر بهم وببدعهم، وقلت لكم وما زلت أقول أنه – أن الشيخ ابن عليوة يقول لكم: (مروا جميع رؤساء الطرق لنجتمع ونتفق على الموافق للكتاب والسنة وللأمة)[1]

ويذكر أبو يعلى الزواوي أن الشيخ ابن عليوة كان يرى أن (لا نهوض لأمتنا إلا بتوحيد التربية والتعليم وتعميمهما، فينشأ النشء الجديد على دين واحد، ومذهب متحد في النهضة والإصلاح، لتتقرب المدارك والمقاصد، وتكون التعاليم صحيحة ذات تسامح ديني، وذات اجتماع وحسن العشرة والمعاملة مع الموافق والمخالف في الدين؛ ذلك أن أوروبا وأمريكا مخالفون لنا وغالبون متقدمون علينا، ولا مانع لنا من الدين أن نقسط إليهم ونبرهن لهم بأن ديننا دين مدنية، وعشرة، ومساعدة، ولا إكراه فيه...)[2]

---

[1] أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، دار البعث، قسنطينة: 1984، ط 1، ج 2، ص 71.

[2] أحمد حماني: صراع السنة والبدعة، ج 2، ص 79.

المطلب الثاني: مرحلة الخلاف وأسبابها:

يصور رجال الجمعية ومن وافقهم، وهم أكثر الباحثين والكتـاب، حادثة الانشقاق التي حصلت بين الجمعية والطرق الصوفية بنـادي الترقي يوم 23 ماي 1932 على أنها حادثة مشؤومة كـان الهـدف منها هو استيلاء الطرقيين على الجمعية لخدمة مآربهم.

وقد عبر الزاهري - الذي كان حينها عضوا إداريا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقبل انشقاقه هو الآخر عن الجمعيـة - عن ذلك بعد سنة من حصوله، فقـال: (كـان يـوم 23 مـاي من السـنة الماضية من أشد الأيام على هذا الوطن شؤما وسوادا, ففيه جمـع المفسـدون أمـرهم وشـركاءهم ثم تقـدموا إلى جمعيـة العلمـاء المسـلمين فأثـاروا عليهـا غـارة شـعواء, من الشـغب والفوضـى وأرادوا بها كيدا فكانوا هم الأخسرين)[1]

ثم حكى القصة بتفصيل، ونحن – مع عدم ثقتنا المطلقة بكل ما ذكره فيها من أحداث- نذكرها هنا كما ذكرها لاعتبارين:

الأول: أن مـا ذكـره ليس أحـداثا سـردية فقـط، كمـا يـذكر المؤرخـون الأحـداث عـادة، وإنمـا هـو يـذكر الأحـداث الظـاهرة، ويحللها، ويبني على تحليلاته بعد ذلك ما يشاء، ونحن لا نعتب عليه تحليله للأحداث، ولكن نعتب عليه تحليل الأحداث من خلال التوجه الفكري والمذهبي، لا من خلال ما توحيه الأحداث نفسها.

والثاني: أن أكـثر من اطلعنـا عليـه من البـاحثين يأخـذون مـا ذكره مأخذ الجد والصواب الذي لا يمكن أن يرد أو يرفض، ويبنون على ذلـك بـأن الطـرق الصـوفية بـوحي من الاسـتعمار أرادت أن تسيطر على الجمعية لتخدم من خلالها المشاريع الاستعمارية.

بناء على هذين الاعتبارين نسـرد الحـدث كمـا سـرده الزاهـري، حيث ذكر أنه في نحو الساعة السادسـة من صـباح يـوم 23 مـاي 1932 مضى بعض الإصلاحيين من علمـاء الجمعيـة إلى دار إحـدى الجمعيات في الجزائر (العاصـمة) , (فوجـد هنالـك جموعـا غفـيرة من الناس قـد تجمهـروا أمـام الـدار, وتجمعـوا داخلهـا حـتى ملأوا صحنها وغرفها وحجراتها، فظن أنه أمام مكتب من المكـاتب الـتي

[1]) الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريـدة الشـريعة النبويـة، السـنة الأولى، العدد الثاني، قسنطينة يوم الاثنين 01 ربيع الثاني 1352، ص6.

يفتحها المترشحون لأحد الانتخابات لشراء الأصوات!! ودخل الدار فوجد أن شيخ الحلول[1] قد جلس في صدر المجلس على هيئة بارزة تستلفت إليه الأنظار, وكان مريضا مثقلا لا يستطيع أن يجلس طويلا فأحيط - لذلك - بكثير من المساند والوسائد والمخدات, وكان إلى جانبه ثلاثة أشخاص يوزعون على الناس الأوراق والوصولات، أما الوصولات فكانت زائفة مصطنعة وهي من الفئة ذات العشرة فرنكات التي تعطيها جمعية العلماء أعضاءها العاملين الذين لهم حق الانتخاب, وأما الأوراق فكانت تشتمل على قائمة بأسماء الذين رشحوا أنفسهم لكي يكونوا أعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين، وهم ليسوا بعلماء ولكن كانوا لأنفسهم يظلمون)[2]

ونحب أن ننبه هنا إلى أن أساس الخلاف الإداري الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية انطلق من تصور كلا الفريقين لنوع التعليم الذي يسمح لصاحبه بأن يكون عالما، فللجمعية تصورها في هذا، وللطرق الصوفية تصورها الخاص.

بل إن هناك من أعضاء الجمعية من اختلف معها في هذا التصور، وهو الشيخ أبو يعلى الزواوي الذي حصلت مناوشات بينه وبين الجمعية بسبب ذكره في بعض مقالاته أن في الطرق الصوفية علماء، وسنرى ذلك عند ذكر المواقف الشخصية لأعضاء الجمعية.

بناء على هذا يذكر الزاهري أن الإصلاحي فوجئ بتلك القائمة وتقدم – كما يذكر – (من شيخ الحلول وعاتبه على هاته الأوراق والوصولات الزائفة التي يوزعها مجانا بلا أدنى مقابل على الذين لم تتوفر فيهم الشروط التي تؤهلهم لكي يكونوا بجمعية العلماء أعضاء عاملين)[3]

ويذكر الزاهري هنا نص الحوار الذي جرى بينهما بطريقته الأدبية الفنية، وهي نفس الطريقة التي كتب بها قصته المشهورة

---

[1]) يقصد أعضاء الجمعية في كتاباتهم بشيخ الحلول عادة (الشيخ ابن عليوة)، وقد يقصدون به كذلك غيره من رجال الطرق الصوفية، وخصوصا الحافظي.

[2]) الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

(اعترافات (طرقي) قديم)[4]، والتي لا يمكن التسليم بكل ما ذكر فيها مطلقا أيضا باعتبارها أميل إلى الجانب الأدبي الفني منها إلى الجانب التأريخي.

حيث يذكر أن الإصلاحي خاطب الطرقي الحلولي بقوله: (إن هذا هو عمل من يسعى لهدم هذه المؤسسة المباركة التي لم يخلق مثلها في البلاد, وما ينبغي لك - وأنت في شيبتك وشيخوختك - أن تكون في يد (فلان) آلة من آلات الهدم والتخريب والإفساد, على أن هذه الجمعية هي جمعية علماء, وليست جمعية متصوفة ولا جمعية أشياخ طرق, فما يكون لك - أنت المتصوف - أن تدخل فيها!)

فيرد عليه الطرقي، أو كما يحلو للزاهري أن يسميه (شيخ الحلول): (إن بيني وبين الشيخ ابن باديس عداوة شديدة ما أنساها له أبد الدهر, وأما العلماء الآخرون فليس بيني وبينهم شيء إلا أنهم أصحاب الشيخ بن باديس وإخوانه)

فيسأله الإصلاحي: وماذا بينكما؟

فيجيب الطرقي، وهو يقصد الشيخ ابن عليوة نفسه: كنت نشرت كتابا واستشهدت فيه ببعض الأحاديث النبوية التي قلت عنها أنها واردة في صحيح البخاري وصحيح مسلم، والحقيقة أنها لم ترد لا في البخاري ولا في مسلم, وإنما أنا الذي غلطت وأخطأت, فما كان من الشيخ باديس إلا أن نشر في الشهاب انتقادا شديدا فضحني فيه، وحط من قيمتي بين أتباعي وأظهر أغلاطي وأخطائي، أو قل أظهر للناس أكاذيبي.

فيجيبه الإصلاحي: لو لم تكن أنت نشرت كتابك محشوا بالأغلاط والأخطاء لكان حقا لك على الشيخ ابن باديس أن يستر عليك جهلك، وأن لا يفضحك أمام الناس، أما وقد طبعت كتابك ونشرته بين الناس فمن واجب الشيخ بن باديس ومن واجب كل عالم يغار على السنة النبوية أن يصحح أغلاطك وأخطاءك للناس حتى لا يضلوا بها؛ وعلى كل حال فهذه مسألة شخصية لا يحسن

---

[3] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[4] سنحلل القصة ومحتوياتها في الفصل الخاص بأساليب الجمعية في التعامل مع الطرق الصوفية.

بك أن تتخذها حجة وذريعة لهدم هذا المشروع العمومي العظيم.

وهنا يذكر الزاهري - على طريقته في الأسلوب الذي لا يمكن التمييز فيه بين الحقيقة التاريخية، والتعبير الأدبي الفني - بأن (شيخ الحلول - تحرك- من مكانه وتحلحل, ثم قال في لهجة الواثق بنفسه: (فات الحال! لا بد لنا أن نستولي على جمعية العلماء، ولا بد أن نطرد عنها كل عالم من العلماء وكل طالب من طلبة علم, ولا بد أن تكون هذه الجمعية خالصة لنا من الناس، ولا يمكن لنا بحال أن نرجع عن محاربة جمعية يرأسها الشيخ بن باديس) [1]

بعد هذا، وبعد ذكر الزاهري أنه استطاع أن يكتشف بأن رجال الطرق الصوفية قدموا رشاوى للناخبين لأجل أن ينتخبوهم، ذكر أنه - وبحلول الساعة التاسعة من صباح ذلك اليوم – افتتح ابن باديس الجلسة الأولى من جلسات الاجتماع العمومي لجمعية العلماء بخطاب وصفه الزاهري بكونه (آية من آيات البلاغة، وجاء جامعا لكل معاني الموعظة والذكرى, فخشعت له القلوب وفاضت له الأعين من الدمع، ولكن الذين طبع الله على قلوبهم فلا تنفع فيها الذكرى, وجعل في آذانهم وقرا فهم لا يسمعون قد كرهوا هذا الخطاب وقالوا: لا تسمعوا له والغوا فيه لعلكم تغلبون, فهاجوا وماجوا, وأكثروا من اللغط والضوضاء, وكانوا مأجورين على أن يحدثوا في هذا اليوم الفتنة والشغب والفوضى) [2]

ويذكر الزاهري كيف بدأ الشيخ ابن عليوة حديثه - متهكما به - بقوله: (وانتصب (الجاهل الأمي) كزعيم لهؤلاء المشاغبين وجعل (يروث من فمه) ويسيء الأدب بحق هذا الاجتماع الحافل بالعلماء والأعيان, وكان الأستاذ باديس يخاطبه قائلا: (يا سيدي فلان) بكل هذا اللطف والأدب, ولكنه هو كان يقول للرئيس: (يا ابن باديس (أي بضم نون ابن) فكان العلماء يضحكون من جهل هذا المخلوق,

---

[1] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2] الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

ويعجبون من وقاحته وقلة حيائه, وكان كل واحـد إذا أراد أن يتكلم رفع يده وطلب من الرئيس أن يأذن لـه بـالكلام إلا هـذا المخلـوق فإنـه كـان يتكلم بلا اسـتأذن ونصـب نفسـه للـرد على كـل أحـد وللجواب عن كل كلام, وكان يقول الكلمات الجارحة حتى اضطره الرئيس مرارا عديـدة إلى أن يسـحب كلامـه وأن يبـادر بالاعتـذار, وذات مــرة أراد أن يكــون نظاميــا متأدبــا لا يخــرق ســياج الأدب والنظام، فرفع يده وقال للـرئيس: (أطلِيب الكلام) (بضـم الهمـزة وكسـر اللام الممـدودة) فلج الحاضـرون في الضـحك وقضـوا من العجب)[1]

بهذا الأسلوب التهكمي الساخر ذكر الزاهري أخطر حدث حصل في تـاريخ الجمعيـة، وهـو يشـير إلى مـا كـان يغلب على أعضـاء الجمعية من تقديم أصحاب اللسان والفصـاحة والبلاغـة باعتبـارهم وحدهم العلماء، أما من كان ضعيفا في هذه النواحي، فهو عنــدهم جاهل أمي يستحق أن يضحك عليه ويسخر منه.

ونـرى بوضـوح - أيضـا- كيـف أنـه ذكـر سـوء أدب الطرقـيين ومشاغبتهم، مع عدم ذكره ما شاغبوا به وما شاغبوا لأجله، وغفـل في نفس الـوقت عن ذكـر سـوء أدب الإصـلاحيين الـذين يتتبعـون سقطات الألسن، فيمتلئون منها ضحكا، ويقضون منها عجبا.

والأعجب من هذا كلـه أن الزاهـري المعـروف بنقلـه للحـوارات المفصلة لم يذكر ما قاله هذا (الجاهل الأمي) بزعمه، حتى نعـرف أساس الخلاف، وإنما اكتفى بكونه لا يعرف كيف يعـرب المنـادى، في نفس الوقت الـذي كـان فيـه كلام ابن بـاديس (آيـة من آيـات البلاغة)، وكأن الجلسـة كـانت جلسـة مبـاراة في الكلام لا جلسـة للبحث عن الحلول التي تصلح بها أحوال الأمة.

بعـد هـذا التعقيب الـذي رأينـا أنفسـنا مضـطرين لـذكره[2] ذكـر الزاهري كيـف أن (القـوم – أي رجـال الطـرق الصـوفية- تواصـوا بالشــر, وتواصــوا بــالمكر, واتفقــوا فيمــا بينهم على أن يشــاغبوا

---

[1]) الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2]) باعتبار أن أكثر الباحثين للأسف يمرون على الأحداث مرور الكرام، بل يسلمون لما قاله باعتباره الحق المطلق.

ويغلطـوا إذا تكلم الأسـتاذ بن بـاديس أو غـيره من العلمـاء, وأن يتظاهروا بالقبول والرضى إذا تكلم واحد من خمسة من أصحابهم قد عينـوهم للكلام في هـذا الاجتمـاع, وقـد لقنهم بعض النـاس أن يقولوا (صواب, صواب) لكل متكلم من هؤلاء الخمسة)[1]

ولم يذكر الزاهري مصدره على هذه المعلومة، ولم يـذكر معهـا كذلك ما قاله هؤلاء الطرقيون لنرى هل كان مـا قـالوه صـوابا، أم لم يكن كذلك.

والأغـرب من كـل هـذا أن الزاهـري أديب الجمعيـة وشـاعرها استطاع أن يلج في صدور أولئك الطرقيين ليتعرف على المقاصـد الخسيسـة الـتي يحملونهـا للجمعيـة، فهم – كمـا يـرى الزاهـري- (يحملـون في صـدورهم لجمعيـة العلمـاء أسـوء المقاصـد, وأخبث النوايا)، وهم (يريدون أن يستولوا على جمعية العلمـاء، وإلا فـإنهم عزموا على إحداث فتنة عمياء تسيل فيها الدماء, وحينئـذ يمكنـون للحكومة أن تحل الجمعية وأن تغلق نـادي الـترقي, ولكنهم خـابوا في كلتا الأمنيـتين {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَـرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَـالُوا خَيْـرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ} [الأحزاب: 25])[2]

هذا ما ذكره الزاهري عن الحادثة بعـد مـرور سـنة عليهـا، وقـد رأينا أنه - للأسف – لم يذكر ما جـرى في ذلـك الجمـع، ومـا قالـه الطرفان، وأن كل ما ذكره مجرد تحامـل خطـابي على الطرقـيين ورميهم إما بالمقاصد الخسيسة، وإما بالعي والحصر وعدم القدرة على البيان والبلاغة شأن رجال الجمعية الإصلاحيين.

ونفس الأمـر يكـاد يـذكره – ولـو بصـياغة أخـرى أكـثر أدبـا- الإبراهيمي، فهو عنـد استعراضـه لـذلك المجلس المشـؤوم الـذي تصدع فيه شمل الجمعية، لم يذكر ما قيـل ومـا حصـل بالتفصـيل، وإنما اكتفى بذكر قدرات الإصـلاحيين مقارنـة بقـدرات الطرقـيين، ونيات المصلحين وأغراضهم مقارنة بنيات الطرقيين وأغراضهم.

فتحت عنوان (جمعية العلماء حقيقة واقعـة) كتب يقـول: (رأيت

---

[1]) الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

[2]) الأستاذ الزاهري، يوم 23 ماي 1932، جريدة الشريعة النبوية، السنة الأولى، ص 6.

الآن أن السر في تأسيس جمعية العلماء بتلك السهولة وبتلك المحاولة الهينة هو استعداد الأمة لظهور هذا المشروع العظيم فيها. فانقادت إليه بشعرة، وانجرت إلى بناء صرحه بنملة، وعلمت مما أجملناه لك من مراحل هذا المشروع أن الشعور به كان من نصيب طبقات مخصوصة وهم المتأثرون بالإصلاح، وفي ناحية محدودة من القطر وهي إقليم قسنطينة، ثم تغلغل في الأقاليم الثلاثة في بضعة أعوام وتحوّل التفكير في مكان التأسيس من قسنطينة التي هي الجناح إلى الجزائر التي هي القلب، ومعنى هذا كله أن الأمة الجزائرية استيقنت سفه الأيدي التي كانت تقودها باسم الدين فصممت على التفلت منها وإلقاء المقادة إلى أيدي العلماء لتبتدئ السير في نهضتها على هدى وبصيرة، فقالت للعلماء اجتمعوا فاجتمعوا)[1]

بهذا الحكم المبدئي الذي ينطلق من تبيان الأثر الكبير للإصلاحيين، وخصوصا من كان منهم في إقليم قسنطينة، ينطلق الإبراهيمي ليعتبر أن كل من لم يكن من هذين الصنفين، فلا حق له في التفكير في الإصلاح، أو لا طاقة له في التفكير فيه.

وبشدته المعروفة يتحدث كيف أن قوة الإصلاحيين استطاعت أن تدحر أولئك الطرقيين أصحاب النيات السيئة واللسان الكليل في أول جلسات الجمعية، يقول في تأريخه لذلك: (لم يكن تأسيس جمعية العلماء المسلمين خفيف الوقع على الجماعات التي ألفت استغلال جهل الأمة وسذاجتها وعاشت على موتها، ولكن التيار كان جارفًا لا يقوم له شيء، فما كان من تلك الجماعات إلّا أن سايرت الجمعية في الظاهر وأسرت لها الكيد في الباطن، وكان المجلس الإداري الذي تألف بالاختيار في السنة الأولى غير منقح ولا منسجم لمكان العجلة والتسامح، فكان من بين أعضائه أولو بقية يخضعون للزوايا وأصحابها رغبًا ورهبًا، وكان وجودهم في مجلس الإدارة مسليًا لشيوخ الطرق ومخففًا من تشاؤمهم بالجمعية لسهولة استخدامهم لهم عند الحاجة، فإما أن يتخذوهم أدوات لإفساد الجمعية وإسقاطها، وإما أن يتذرعوا بهم

---

[1]) آثار الإبراهيمي: (1/187)

لتصريفها في مصالحهم وأهوائهم)[1]

مـع العلم أن هـؤلاء الـذين ذكـرهم الإبـراهيمي، والـذين كـانوا أعضاء في الجمعية أول تأسيسها لم يكونوا أقل شأنا في النواحي العلمية والأدبية من الإصلاحيين أنفسهم، فالشيخ مولود الحـافظي -كمـا سـنرى -كـان عالمـا أزهريـا يحمـل الكثـير من المشـاريع الإصلاحية التي لا تقل شأنا عن المشاريع التي حملتها الجامعية.

ومـع ذلـك فإنـه - في تصـور الإبـراهيمي - لم يـرق إلى مرتبـة الإصلاحيين باعتباره خاضعا للزوايا رغبة أو رهبة بخلاف المصلحين الـذين (صـرحوا من أول يـوم بـأنهم سـائرون بهـذه الجمعيـة على المبدأ الـذي كـانوا سـائرين عليـه من قبلهـا، ومنـه محاربـة البـدع والخرافات والأباطيل والضلالات ومقاومة الشر من أي ناحية جاء)[2]

ويــذكر الإبــراهيمي نفس مــا ذكــره الزاهــري من قــدرات الإصلاحيين مقارنـة بقـدرات غـيرهم، وكيـف أنـه (انقضـت السـنة الأولى.. وبدأت الأعمال تظهر مراتب الرجال، فاضطلع المصلحون وحدهم بالأعمال التمهيدية- وما هي بالحمل الخفيف-)[3]

ولعل الإبراهيمي يشير هنا إلى ما ذكره في موضع آخـر، فقـال: (كلّفني إخـواني أعضـاء المجلس الإداري في أول جلسـة أن أضـع للجمعية لائحة داخليـة نشـرح أعمالهـا كمـا هي في أذهاننـا لا كمـا تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلّلون منا، فانتبذت ناحية ووصــلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبهـا، فجـاءت في مائـة وسـبع وأربعين مـادة، وتلوتهـا على المجلس لمناقشـتها في ثمـاني جلسـات من أربعة أيـام، وكـان يحضـر الجلسـات طائفـة كبـيرة من المحـامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهايـة عـرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنهـا أصـلح لغـة لصـوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسـلام من ذلـك اليوم، وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[3] آثار الإبراهيمي: (1/188)

خطبة مؤثّرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان ممـا قـال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يذلّ لاستعمار. ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية)[1]

ولسـنا نـدري مـا الحـرج في أن يضـطلع الإصـلاحيون وحـدهم بالأعمال التمهيدية ما دامت لهم القدرة على ذلك، بل إن في ترك الطرقيين للإصلاحيين وحدهم الحريـة في الاضـطلاع بهـذا الجـانب وعدم مزاحمتهم فيه دليل على حسن النية، لا على سوئها.

لكن الأمر من وجهة نظـر الإبـراهيمي لم يكن كـذلك، ويسـتدل على ذلك بأن الطرقيين في السنة التالية أرادوا – وعبر الانتخابات التي نص عليها قـانون الجمعيـة – أن يكـون لهم مكـان في ريـادة الجمعية، ولا ينبغي لهم – على حسب الإبراهيمي – أن يحلموا هذا الحلم أو يفكروا هذا التفكير.

يقول الإبـراهيمي – بلغتـه الأدبيـة – مصـورا الحادثـة، باعتبارهـا مؤامرة خبيثة، لا باعتبارها حقا قانونيا لكل منتسب للجمعية: (ولما جـاء أجـل الانتخـاب للـدورة الثانيـة هجم العليويـون ومن شـايعهم على ضـلالهم تلـك الهجمـة الفاشـلة بعـد مكائـد دبروهـا، وغـايتهم استخلاص الجمعية من أيـدي المصـلحين، وجعلهـا طرقيـة عليويـة واستخدامهم هذا الاسم الجليـل في مقاصـدهم الخاطئـة كمـا هي عادتهم في إلباس باطلهم لباس الحـق، ووقـف المصـلحون لتلـك الهجمة وقفة حازمة أنقـذت الجمعيـة من السـقوط ومحصـتها من كل مذبذب الـرأي مضـطرب المبـدأ، وتـألف المجلس الإداري من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره، ورأى الناس عجيب صـنع اللـه في نصر الحق على الباطل)[2]

بالإضافة إلى هذين التأريخين للحادثة نجد تأريخات كثيرة سـواء من أعضـاء الجمعيـة المباشـرين، أو ممن يوالونهـا ولاء مطلقـا، ونراها جميعـا تنهج نفس النهج من الشـدة والعنـف واعتبـار الآخـر متآمرا وعميلا، ولا طاقة له بالإصلاح، ولا غرض له فيه.

وهؤلاء جميعا يتناسون حدثا مهما وخطيرا حصل في ذلك اليوم، لا ينبغي للمؤرخ النزيه أن يتركه، ثم له بعد ذلك أن يبرره بما شاء

[1] آثار الإبراهيمي: (5/281)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

من المبررات.

وهذا الحدث الخطير هو أن الشيخ عبد الحميد بن باديس – باعتباره رئيس الجمعية- وبعد أن رأى أن الجو لم يعد مناسبا بسبب ما حدث من فوضى الجانبين قام باستدعاء الشرطة إلى نادي الترقي للمحافظة على الأمن، وقد انتقد في ذلك نقدا لاذعا وليم على استدعاء الشرطة (الفرنسية طبعا) لفض تنازع العلماء، لكن ابن باديس دافع عن الشرطة بحرارة[1].

وكان من ضمن ما قال في دفاعه: (ارتباط الجزائر بفرنسا اليوم صار من الأمور الضرورية عند جميع الطبقات، فلا يفكر الناس اليوم إلا في الدائرة الفرنسية، ولا يعلقون آمالهم إلا على فرنسا مثل سائر أبنائها ورغبتهم الوحيدة كلهم هي أن يكونوا مثل جميع أبناء الراية المثلثة في الحقوق كما هم مثلهم في الواجبات وهم إلى هذا كله يشعرون بما يأتيهم من دولتهم مما يشكرونه ومما قد ينتقدونه وقد كنا نؤكد لهم هذا التعلق ونبين لهم فوائده ونبين لهم في المناسبات أن فرنسا العظيمة لا بد أن تعطيهم يوما- ولا يكون بعيداً- جميع ما لهم من حقوق وكنا لا نرى منهم لهذا إلا قبولا حسنا وآمالاً طيبة)[2]

وقد دافع سعد الله عن هذا الموقف الحرج الذي وقع فيه ابن باديس والجمعية، فقال: (ومن هنا يتضح أن موقف العلماء لم يكن سهلا، فقد كانوا يمشون على البيض كما يقول المثل الأجنبي، فهم من جهة كانوا يريدون تحقيق مبادئهم وأهدافهم بأية وسيلة مشروعة، ومن جهة أخرى كانوا واقعين تحت طائلة إجراءات استثنائية مستعدة لعرقلة سيرهم، بل وضعهم في قفص الاتهام، لذلك كانوا يناورون ما وسعتهم الحيلة والمناورة ويجاملون ولكنهم لا يتنازلون عن مبادئهم، ومن أجل ذلك اصطدموا مرات

---

[1] انظر: الشهاب، ج 8، م 8، ص 401 -ـ 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

[2] الشهاب: ج 8، م 8، ص 401 -ـ 409 غرة ربيع الأول 1351ه - أوت 1632م، وانظر: آثار ابن باديس: 4/321.

بالإدارة)[1]

بنـاء على هـذا نحـاول في هـذا المطلب أن نتلمس الأسـباب الحقيقيـة في هـذا الانشـقاق بعيـدين عن منطـق قـراءة مـا في الصدور، ملاحظين الواقع من حيثياته المختلفة.

وقد رأينا أنه يمكن إرجاع أسباب ما حصـل إلى خمسـة أسـباب نلخصها فيما يلي:

أولا ــ الأحداث السابقة على تأسيس الجمعية:

وهي أحداث كثيرة كانت ممتلئة بالصراع بين الجمعيـة والطـرق الصوفية، ذكرها الإبراهيمي فقال: (وقـد لقيت – أي الجمعيـة- في تاريخ حياتها خصومات عنيفة وواجهت خصومًا أقويـاء، وكـانت في جميع ذلـك مظلومـة واحتملت من الأذى والكيـد والعـدوان والتهم الباطلة ما تنوء به الجبال)[2]

بغض النظر عن مدى صدق كـون الجمعيـة لهـا المظلوميـة في كل ما ذكر من أحداث أم لا إلا أن ذلك كان مؤثرا تأثيرا كبـيرا في علاقتها بالطرق الصوفية بما حصل بعـد ذلـك من صـراعات كـانت تظهر كل حين.

وكمثـال على تلـك الأحـداث نـذكر هنـا أكـبر حادثـة سـبقت التأسيس، وكان لها دورها الفاعل في توسيع الهـوة بين الجـانبين، وهي اتهام الجمعية للطرق الصوفية بمحاولـة اغتيـال ابن بـاديس، وما أثارته من ضجة كبرى، وما أسالته من حبر كثير[3].

ونحب أن نـذكر ببعض التفصـيل[4] هـذه الحادثـة لنقرأهـا قـراءة واقعية بعيدة عن التحليل الذي ينطلق من توجيـه الاتهـام من غـير توفر الأدلة الكافية.

والحادثة قد تم تدوينها بكـل تفاصـيلها في مجلـة الشـهاب عـام 1926 م بقلم ابن بـاديس ومبـارك الميلي بالإضـافة إلى صـحيفة

---

[1]) الحركة الوطنية: 3/93.

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

[3]) سنتعرض لهذا بتفصيل عند الحديث عن أسلوب المواجهة العاطفية الذي مارسته الجمعية مع الطرق الصوفية.

[4]) انظر: محمـد الصـالح بن عـتيق، أحـداث ومواقـف في مجـال الـدعوة الإصـلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، منشورات دحلب، ص 60.

(لاديبـاش دو كونسـتونتين) في عـددها الصـادر يـوم 30 جويليـة 1927 م بقلم صـحفي فرنسـي رمـز لاسـمه بـالحرفين (ن.ل)، وكتب عن الحادثـة بتفصـيل الأسـتاذ الأمين العمـودي وعـاد إلى تدوينها الشيخ محمد الصـالح بن عـتيق والشـيخ أحمـد حمـاني في كتابه (صـراع بين السـنة والبدعـة) الـذي خصصـه للحـديث عنهـا، وللحديث عما أفرزته من كتابات وخطابات وأشعار كثيرة.

وقصة الحادثة هي أنه في يوم 14 ديسمبر 1926 م عندما كان ابن باديس عائد إلى بيته بعد منتصف الليل، كمن له الجاني – وهو فقير علاوي من زاوية الجعافرة وصفته الشـهاب بأنـه (ابن ملجم) القـرن العشـرين- في منحـدر (مـايو)، وأقـدم على تنفيـذ محاولـة اغتياله، فلما دنا منه هوى عليه بهراوة وأصابه بضـربة على رأسـه وصـدعه، فشـج رأسـه وأدمـاه، لكن ابن بـاديس اسـتطاع، وهـو الضـعيف النحيـل، أن يمسـك بـه، بـل ويصـعد بـه في الـدرج إلى الطريق العام[1]، ويصيح مستغيثا فتبلغ صيحته جماعة كانت بمكـان قريب منه، فيهرعون إليه.

أمـا الجـاني فقـد أمسـكت بـه جماعـة النجـدة وسـاقوه إلى الشرطة فأوقفتـه وفتشـته فوجـدت عنـده سـبحة وتـذكرة ذهـاب وإياب بتاريخ ذلك اليوم (من مسـتغانم إلى قسـنطينة) زيـادة على الخنجر والعصا، واتضح أثناء التحقيق أنه من سكان برج بـوعريريج ومن منطقة جعافرة – وهي أحد معاقـل العلاويين – وكـان اسـمه (محمد الشريف مامين)، واعترف أنه كـان يريـد القضـاء على ابن باديس بدعوى أنه يحارب الإسلام ولا يعترف بكرامات أوليـاء اللـه الصالحين، وأنه مبعوث خاص من الزاوية العلوية بمسـتغانم لأجـل قلته.

وقد قام بالتحقيق في القضية قاضي الاسـتنطاق (أودوانـو) من محكمة قسنطينة الذي أمر بتحويـل الجـاني إلى محكمـة الجـرائم التي أصدرت في شـأنه الحكم بخمس سـنوات سـجنا رغم أن ابن باديس عفا عنه في المحكمة قائلا : (إن الرجل غرر به، لا يعرفني ولا أعرفه، فلا عداوة بيني وبينـه.. أطلقـوا سـراحه)، ولكن الزبـير بن باديس المحامي (شقيق الشيخ بن باديس) قـام باسـم العائلـة يدافع عن شرفها، ويطالب بحقها في تنفيذ الحكم قائلا : (إن أخي

[1]) وقد نقل الكثير من الموالين للجمعية هذا الحدث باعتباره كرامة لابن باديس،

بفعل الصدمة لم يعد يعي ما يقول)

وبعد أن قضى الجاني المدة التي حكم بها عليه عاد إلى مستغانم وعاش فيها ثلاث سنوات ثم عاد إلى حوزته في برج بوعريرج، أين أنشأ مركزًا للطريقة العلوية[1].

ونحب قبل أن نعلق على الحادثة أن نذكر ما كتبه الإبراهيمي عنها وعن أسبابها وملابساتها، فقد قال فيها: (وإذا نسي الناس فإنهم لم ينسوا حادثة الاعتداء على الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي هو رئيس هذه الجمعية منذ تأسست إلى اليوم، فقد تآمر العليويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولا زال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ- وهو أعزل- فأمسك خصمه الفاتك المسلّح ولبّبه بثيابه، ثم تجلّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال- وجرحه يثعب دمًا- للجمهور المتألّب المتعطّش لدم الجاني: (إياكم أن يمسّه أحد منكم بسوء) حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربًا إربًا))[2]

ومثله كتب الكثير من أعضاء الجمعية نثرا وشعرا، بل كتب غيرهم أيضا داخل الجزائر وخارجها[3]، ولا زالت الأقلام تكتب عن الحادثة إلى الآن، وتوجه التهمة فيها إلى الطرق الصوفية جميعا مصورة لها على أنها دبرت مؤامرة كبرى لا تقل عن المؤامرة التي قام بها الخوارج لقتل الإمام علي رضي الله عنه.

مع أن الحادثة قام بها شخص واحد ينتمي لطريقة واحدة، ولا دليل على أنه كان في ذلك مأمورا من مشايخ الطريقة ولا أهل الرأي فيها، وإلا كان في إمكانهم أن يوفروا ظروفا أفضل من

---

[1] محمد الصالح بن عتيق، أحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية والحركة الوطنية بالجزائر، ص 63.

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

[3] سنستعرض نماذج مما كتب في الفصل الخاص بأساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية.

الظروف التي وقعت فيها، ليبعدوا عن أنفسهم التهمة، وليحققوا غرضهم من جهة أخرى.

بالإضافة إلى هذا، فإنه لم يكن للطرقيين والعلاويين خصوصا أي حاجة في تلويث أياديهم بقتل ابن باديس أو غيره، فقد كان لهم – كما يذكر الإصلاحيون والموالون لهم - علاقة وطيدة مع الاستعمار، وكان الاستعمار ظالما طاغيا يستطيع أن يدبر أي مكيدة لمن يشاء وكيف شاء، وكان في إمكانهم استغلاله واستغلال صداقتهم له لتحقيق هذا الغرض.

بالإضافة إلى هذا، فقد حصلت أحداث أخطر، وكيل للطرق الصوفية وخصوصا العلاوية تهم أعظم، وكان أفراد الجمعية يتحركون بكل حرية في أماكن تواجد الطرقيين، ومع ذلك لم يحصل أي اختراق لهذا.

بالإضافة إلى هذا، فقد حصل اعتداء على رجال الطرق الصوفية من طرف بعض العوام، ومع ذلك لم يصور الإصلاحيون ولا الموالون لهم الأحداث إلا على اعتبار أنها أحداث تنم عن تفاعل المجتمع مع الجمعية لا على تآمر الجمعية على الطرق الصوفية.

ونحب أن نذكر أمثلة هنا على ذلك على اعتبار أنها من نوع العلم المكتوم الذي لا ينشر حرصا على سمعة الجمعية، فقد تعرض مامي إسماعيل[1] رئيس تحرير جريدة النجاح[2]، وهو لا يقل في مكانتة العلمية عن أي عضو من أعضاء الجمعية، بل كان في

---

[1]) هو مامي إسماعيل بن علاوة بن عبدي، وغالبا ما يلقب "ابن عبدي"، ولد بقسنطينة في 18 أكتوبر 1899م وتعلم في مسجدها على يد شيوخ أجلاء أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس ثم شد الرحال إلى تونس وبالضبط في جامع الزيتونة، إلا أنه غادره بسرعة ولم يتمم دراسته، وأثناء عودته اتصل بالشيخ عبد الحفيظ بن الهاشمي واشترك معه في العمل بجريدة النجاح فكان رئيس تحريرها، ثم مدير مطبعتها ومكتبتها، وكان كثير الترحال تارة مكلفا من قبل مدير الجريدة لترويج الجريدة وجمع الاشتراكات، وتارة مشاركا في ملتقيات لرؤساء الزوايا أو أثناء الاحتفالات الدينية المختلفة كالمولد النبوي الشريف، عاشوراء، أول محرم الخ .. وقد اتسع نطاق الجريدة بفضل رحلاته الكثيرة والتي كانت تدوم لفترات طويلة (انظر: محمد ناصر; المرجع السابق، ص33)

يوم من الأيام من المؤيدين لها، لكنه بسبب مخالفته للجمعيـة في منهجها تعرض لضرب شديد من قبل الشيخ أحمد بوشمال[1]، وقـد سجل الشيخ حماني هذا الحادث مثنيا عليه، فقـال: (وبلـغ بالسـيد مـامي — عفـا اللـه عنـه — أن صـار يسـخر بالشـيخ ابن بـاديس ويخـترع على لسـانه محـاورات، فبلـغ السـيل الزبـا، واشـتد غيض الشهيد أحمد بوشمال ولم يملك نفسه ذات يـوم في 1938م، أن ارتمى عليه في نهج تجاري مزدحم وأعطـاه (طريحـة)؛ أي ضـربة كانت كافية لكفه النهائي عن التعرض لشخصية الشيخ ابن بـاديس بسوء حتى مات رحمه الله)[2]

بهذا المنطق برر الشـيخ أحمـد حمـاني هـذا الاعتـداء من شـيخ الجمعية الكبير، لا من فرد من أفرادها البسـطاء في نفس الـوقت الذي كتب فيه مجلدا ضخما ممتلئـا بالسـباب والتكفـير لـركن من أركان المجتمع الجزائري بناء على تصرف فرد واحد.

ولسنا ندري لم لم يعذر ذلك الفقير العلاوي على اعتبـار أنـه لم يسمع إهانات فقط تتعلق بشيخه، بل سمع تكفيره وتضليله، وليتـه لو لم يعذره، لم يحمل جنايته على الطرق جميعا.

هذا مثال على الاعتداء المرتبط بالأفراد، أمـا الاعتـداء المرتبـط بالجماعات، فهو أخطر وأشد، ونسوق مثالا هنا على مـا صـار إليـه

---

[2] وكان قد تعرض قبلها لمحاولة اغتيال في أم البواقي يوم03 سبتمبر سنة 1930، ولكن بما أنه كان حينها مؤيد للجمعية أدين الاعتـداء عليـه في مجلـة الشـهاب، تحت عنوان " اعتداء فظيع وتوحش شنيع " (قسم التحرير ; اعتداء فضيع وتوحش شـنيع، الشهاب، المجلد 6، يوم أكتوبر 1930، ص 573)

[1] أحمد بوشمال (1899 - 1958م)، ولد بمدينة قسنطينة وبها حفظ القرآن الكريم بجامع سيدي ياسمين بالقرب من رحبة الصـوف ثم اشـتغل بصـناعة الأحذيـة، وكـان يحضر دروس الشيخ عبد الحميد بن باديس ولازمه ملازمة شديدة. ولما أزمع الشـيخ ابن باديس تأسيس الصحافة الإسلامية العربية الحرة تبرع له أحمد بوشـمال بمحلـه التجاري ليكون مقر المطبعة الإسلامية الجزائرية. وصار هو مـدير أعمـال، وصـاحب الامتياز لصحف الجمعية، وجمعية التربية والتعليم بقسنطينة .. انظر: أحمـد حمـاني، صراع بين السنة والبدعة، ج 2، ص 270.

[2] أحمد حماني ; المرجع السابق، ص131.

المجتمع الجزائري المتسامح الموحد بعد تلك الأفكار التي نشرتها الجمعية، فقد ورد في جريدة النجاح هذا لخبر: (في يوم الجمعة 15 ماي 1930 م بينما كانت قبيلة أراس من سكان فج أمزالة عائدة من زيارتها الاعتيادية لمقام القطب الرباني الشيخ الزواوي بالروفاك مارة بميلة إذ بأتباع المرابط الشيخ مبارك الميلي العضو وأمين مال جمعية العشور[1] ينهالون على الزوار المذكورين بالسب والشتم ولولا تدخل الفرنسيين وفرقوهم وإلا تقع بينهم ملحمة عظيمة)[2]

ولا نتعجب بعد هذا من اتهام الطرقيين للإصلاحيين بكونهم وهابيين، فأي فارق بين ما كان يمارسه الوهابيون في ذلك الحين من هدم للأضرحة وتعرض للزائرين لها، وبين ما مارسته هذه العصابة التي تنتسب للشيخ مبارك الميلي؟

ثانيا ــ الأهداف الداعية للتأسيس:

عرفنا في الفصل السابق أن الإجماع يكاد ينعقد على اعتبار الشيخين عبد الحميد بن باديس والإبراهيمي هما المؤسسان الحقيقيان للجمعية، وعرفنا أن المؤسس الحقيقي هو الذي يحق له أن يضع أهدافها، ويخطط برنامجها.

وعلى ضوء ذلك نبحث هنا عن الأهداف الحقيقية التي كانت وراء دعوتهما لتأسيس الجمعية.

وقد ذكر الإبراهيمي بتفصيل مهم جدا هذه الأهداف، وأنواع المشاريع التي كان يمكن أن تقوم الجمعية على أساسها ولتحقيقها، وكيف اختارت بعد ذلك الجمعية المنهج الذي ظهرت به، والذي به حصل الصراع الشديد بينها وبين الطرق الصوفية

---

[1]) يقصد بذلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لأنها كانت تطلب من الفلاحين أن يعطوا زكاتهم للجمعية لخدمة التعليم فيها، بل كتب العربي التبسي فتوى ينص فيها على جواز أخذ الفقهاء من الزكاة (إذا كان أولئك الفقهاء قد حبسوا جهودهم وعلومهم وحياتهم للجهاد في سبيل الإسلام، ونشره، والدفاع عنه. أما فقهاء السوء طلاب الدنيا فإننا لا نقول بجواز أخذهم من الزكاة) (انظر: جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الثالثة، عدد 119، الاثنين 15/ماي/1950م الموافق 28/رجب/ 1369هـ، ص 2)

[2]) مامي إسماعيل;فتنة ميلة، النجاح، العدد1871، يوم20 ماي 1936، ص2.

بسببه.

ونحب أن نلخص هنا ما ذكره لأهميته القصوى، فهو يرينا المدى الـذي تريـد الجمعيـة أن تـذهب إليـه في صـراعها مـع الطـرق الصوفية.

فقد كتب تحت عنوان (نشوء الحركـة الإصـلاحية في الجزائـر)[1] يذكر أن الأوساط الإصـلاحية في ذلـك العهـد كـان يتجاذبهـا رأيـان يلتقيان في المقصد وبختلفان في المظهر العملي للإصـلاح وكيـف يكون؟

أما أولهما، فيرى (صرف القوّة كلها وتوجيه جهود متضافرة إلى التعليم المثمر، وتكوين طائفـة جديـدة منسـجمة التعليم مطبوعـة بالطـابع الإصـلاحي علمًـا وعملًا، مسـلحة بالأدلـة، مدربـة على أساليب الدعوة الإسلامية والخطابـة العربيـة، حـتى إذا كـثر سـواد هذه الطائفة وكان منها الخطيب ومنها الكاتب ومنها الشاعر ومنها الواعـظ ومنهـا الـداعي المتجـول، اسـتخدمت في الحملـة على الباطل والبدع على ثقة بالفوز)[2]

ولعله يشير بهـذا الـرأي إلى المدرسـة السـلفية التنويريـة وإلى كثـير من الحركـات الإسـلامية الـتي تبنت منهجهـا، وقـد ذكـر الإبـراهيمي أن (هـذا رأي لـه قيمتـه وخطـره، وكـان كَـاتِبُ هـذه الأسطر من أصحاب هذه الفكرة في ذلك الوقت)

وأمـا الثـاني، فهـو رأي استئصـالي هجـومي ينطلـق من (أخـذ المبطلين مغافصـة والهجـوم عليهم وهم غـارّون، واسـماع العامـة المغرورة صوت الحق فصيحًا غير مجمجم)[3]، وهذا الرأي هو الذي تبناه -كما سنرى بتفصيل - التوجه السلفي المحافظ الـذي أحيـاه الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

وقد انتصر الإبراهيمي لهذا الرأي الثاني باعتبـار أن تلـك (البـدع والمنكرات التي يريد الإصلاح أن يكـون حربًـا عليهـا هي أمـور قـد طال عليها الأمد، وشاب عليها الوالد، وشبَّ عليها الولـد وهي بعـد شديدة الاتصال بمصالح ألفها الرؤساء حتى اعتبروهـا حقوقًـا لهم،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 181)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 183)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

وأنس بهـا العامـة حـتى اعتقـدوها فروضًـا عليهم، فلا مطمـع في زوالها إلّا بصيحة مخيفة، تزلزل أركانها، ورجة عنيفة تصـدع بنيانهـا واعصار شـديد يكشـف السـتر عن هـذا الشـيء الملفـف، والسـر الذي يأبى أن يتكشف، ليتبينه الناس على حقيقته، وأقل مـا يكـون من التأثير لهذا العمل أن تضعف هيبته في نفوسهم وتضؤل رهبتـه في صدورهم، وهنالك يسهل العمل في نقضه، وتخف المئونـة في هدمه)[1]

ثم ذكر ما قام بـه مـع ابن بـاديس لتحقيـق هـذا الـرأي الثـاني، فقال: (وقد رجح الرأي الثـاني لمقتضـيات للـه من ورائهـا حكمـة، فأنشئت جريدة (المنتقد) بقسـنطينة لهـذا الغـرض، وكـان اسـمها نذيرًا بالشر لأهل الضلال فإنه مُتَحَدِّ لما نهوا عنه، وهاتك لحرمة ما شرعوه في كلمتهم التي حذروا بها العامة وهي قولهم: (اعتقد ولا تنتقد)، وانبرت للكتابة في (المنتقد) أقلام كانت ترسل شواظًا من نـار على الباطـل والمبطلين، ثم عطـل المنتقد فخلفـه الشـهاب (الجريدة) ثم أسست جريدة الإصلاح ببسكرة فكـان اسـمها أخـف وقعًا وإن كانت مقالاتها أسد مرمى وأشد لذعًا.. ثم تطور الشهاب الأسبوعي فأصبح مجلـة شـهرية اسـتلمت قيـادة الحركـة من أول يوم وورثت الأقلام الـتي كـانت تكتب في الجرائـد قبلهـا، ولم تهن لمجلـة الشـهاب في حـرب الباطـل وأهلـه عزيمـة ولم تفـل لهـا شباة..)[2]

وقد سبق أن ذكرنـا أن هـذا الهـدف كـان في نفس ابن بـاديس والإبراهيمي منذ فترة طويلة سبقت تأسـيس الجمعيـة، فقـد ذكـر الإبـراهيمي في معـرض حديثـه عن الأيـام الأولى الـتي بـدئ فيهـا بالتفكير في تأسيس الجمعيـة، في مسـامرتهما بالمدينـة المنـورة سـنة 1913 م أنهمـا اهتـديا إلى أن (البلاء المنصـب على هـذا الشعب المسـكين آت من جهـتين متعـاونتين عليـه، يمتصـان دمـه ويفسـدان عليـه دينـه ودنيـاه : اسـتعمار مـادي هـو الاسـتعمار الفرنسي.. واستعمار روحاني يمثله مشايخ الطـرق المـؤثرون في

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 183)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتجرون باسم الدين، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هـذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب، حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى.. خوفًا من الله بزعمـه. والاسـتعماران متعاضـدان، يؤيد أحدهما الآخر بكل قوته، وغرضهما معًا تجهيل الأمة، لئلا تفيق بالعلم.. وتفقيرهـا، لئلا تسـتعين بالمـال على الثـورة.. وإذن فلقـد كـان من سـداد الـرأي أن تبـدأ الجمعيـة بمحاربـة هـذا الاسـتعمار الثاني لأنه أهون وهكذا فعلت)[1]

وبناء على هذا التحليل والتشخيص، بدأت الجمعيـة بمحاربـة مـا تسـميه الاسـتعمار الثـاني، وارتـأى ابن بـاديس والإبـراهيمي ومن وافقهما من الإصلاحيين بداية العمل الإصلاحي بإعلان الحرب على الطرق الصوفية قبل إعلان الحرب على الاستعمار نفسه.

ثالثا ــ التنافر بين الاتجاهات الفكرية:

وهـذا في الحقيقـة هـو السـبب الأكـبر في كـل مـا حصـل بين الجمعية والطرق الصوفية، وقد خصصنا الحديث عنـه بتفصـيل في الباب الثاني، ومن خلاله سنعرف نـوع التوجـه السـلفي للجمعيـة، ونـوع التوجـه الصـوفي للطـرق الصـوفية، وعلاقـة ذلـك بـالخلاف بينهما.

ولكنـا نحب أن ننبـه هنـا إلى أن هـذا السـبب كـان في الإمكـان تجاوزه لو حسنت النيـات، فقـد كـان الاسـتعمار جاثمـا على أرض الجزائر – كما عرفنـا في الفصـل الأول- يسـتغل خيراتهـا، وينتهـك حرماتهـا، ولم يكن الوضـع مناسـبا في ذلـك الحين ليكتب أعضـاء الجمعية وعلماؤها في الصـحف القليلـة - الـتي كـانت هي المنهـل الوحيد للكثير من الجزائـريين ليتحـرروا ويتثقفـوا - في قضـايا هي من فروع فروع الفقه يجادلون فيها، ويبدعون من خالفها.

وسنرى نماذج كثيرة على هذا في الباب الرابع، ونرى من خلالها أن كل ما طرح من قضايا لم يكن يعدو قضـايا طـرحت في جميـع التاريخ الإسلامي، ولم تسل من المداد، ولم تنشر من الأحقـاد مـا حصل في عهد الجمعية.

رابعا ــ الأسباب النفسية:

لقد كـان من الحـرج الشـديد أن نعتـبر من أسـباب الخلاف بين

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/282)

الجمعية والطرق الصوفية - منـذ بدايـة تأسيسـها - هـذا النـوع من الأسباب لولا أنـه بحسـب تصـورنا هـو السـبب الأبـرز، إن لم يكن أصل الأسباب ومنبعها.

وقد دعانا إلى اعتبار هذا السبب ما ذكره أبو حامد الغزالي عند بيانه لـ (آفات المنـاظرة ومـا يتولـد عنهـا من مهلكـات الأخلاق) [1]، فقد قـال: (اعلم وتحقـق أن المنـاظرة الموضـوعة لقصـد الغلبـة والإفحام وإظهار الفضـل والشـرف والتشـدق عنـد النـاس وقصـد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبـع جميـع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عـدو اللـه إبليس، ونسـبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر والعجب والحسـد والمنافسـة وتزكيـة النفس وحب الجـاه وغيرهـا كنسـبة شـرب الخمـر إلى الفـواحش الظاهرة من الزنا والقذف والقتل والسـرقة، وكمـا أن الـذي خـير بين الشرب والفواحش وسائر الفواحش استصغر الشـرب فأقـدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكـاب بقيـة الفـواحش في سـكره فكـذلك من غلب عليـه حب الإفحـام والغلبـة في المنـاظرة وطلب الجـاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضمار الخبائث كلها في النفس وهيج فيه جميع الأخلاق المذمومة)[2]

وللأسف فإن هذا الكلام مع شدته صحيح إلى حد بعيـد، فالـذي حصل بين الجمعية في ذلك اليوم المشؤوم، وما حصـل بعـده من نتائج خطيرة زادت المجتمع الجزائري تفكيكا يعود في نصيب كبير منه إلى تلك الآفـات الباطنـة في نفـوس كـل من رجـال الجمعيـة ورجال الطرق الصوفية.

وقد كفانا رجال الجمعيـة البحث عن الأسـباب النفسـية لرجـال الطرق النفسية، حين ذكر الإبـراهيمي هـذا فقـال:(ولقـد تفرسـنا فيهم – في الطرق الصوفية- فصحَّت الفراسـة، وبلَوْنـاهم فصـدق الابتلاء، وجرَّبْناهم فكشفت التجربة على أنهم لا يعرفـون الأمـة إلا في مواقف الاستعباد وابتزاز الأموال، فإذا مَسَّـها الضـر وتنكَّر لهـا الدهر تنكَّروا لها وتجاهَلُوها، وإن علاقتهم بالأمة علاقة السيد بعبده والمالك لمملوكـه لا علاقـة المسـلم بأخيـه المسـلم، يحب لـه مـا

[1] أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، (1/ 45)

[2] إحياء علوم الدين (1/ 45)

يحب لنفسه، وأنهم مطايا الاستعمار الـذُّلُل وأيديـه الباطشـة؛ بـل القنطرة التي هوَّنت عليه العبور، وانهم كانوا ولا زالـوا على خلاف مـا وصـف اللـه بـه عبـاده المؤمـنين أعـزة على الأمـة أذلـة على المســتعمرين والحكــام المســتبدين، وأن ليس في صــحائفهم السوداء موقف يعـز الإسـلام أو يرفـع المسـلمين. وهـذا تـاريخهم الماضي الملحود، وتاريخهم الحاضر المشهود يسـجلان عليهم أنهم أعوان على هذه الأمة للدهر، وحلفاء عليها للفقر، وإِلْبٌ على دينها مع التبشير بالكفر، وانهم هم الـذين أَمَـاتُوا رهبـة الإسـلام ونخـوة الإسلام بخضوعهم واستسْلامهم، كمـا أمَـاتُوا حقائقـه بأسـاطيرهم وأوهـامهم، وأنهم مـردوا على الملـق والمداهنـة المزريـة بشـرف الإسـلام في المواقـف الـتي تسـمو عن المجاملـة وتقتضـي نهايـة الصدق في المعاملة)[1]

إلى آخر تلك الأوصاف الكثيرة التي اعتبرها الإبراهيمي السـبب في كل تلـك السـلوكات الـتي يمارسـها رجـال الطـرق الصـوفية، والتي يراها بدعة وضلالة وكفرا.

وما ذكره ربما يكون صحيحا من جهة انطباقه على بعض رجــال الطـرق أو حـتى مشـايخها، أمـا تعميم ذلـك، فيحتـاج إلى فراسـة أعظم من الفراسة التي تفرس بهـا، ذلـك أن الطـرق كمـا عرفنـا في الفصل الأول، وكما يشهد التاريخ كان لهم أثـرهم الفاعـل في جميع أنواع المقاومات العسكرية والدينية والثقافية، وغير ذلك.

ونحن لا نريـد أن نـاقش هنـا هـذا، وإنمـا نريـد أن ننبـه إلى أن الجمعية كانت تعرف جيدا أن للأسباب النفسية تأثيرهـا الكبـير في جميع الانحرافات الحاصة في الطرق الصوفية.

ولكن الذي لم تنتبه لـه - للأسـف - هـو سـلوكها النفسـي تجـاه المخالفين لها من رجال الطرق الصوفية، وكيف كانت تنظـر إليهم بنوع من التعالي والاحتقار، لأنهم ليس لهم من الفصـاحة مـا كـان لرجال الجمعية، أو لأن شيخهم كان – كما يذكر الزاهري – (تـاجرا يبيع الأحذية، ويصنعها فأفلس احتيالا وأكل أموال النـاس، ثم ارتـاد تجارة كلها ربح، ورأس مالـه فيهـا النصـب والاحتيـال، يحتـال على الفقراء المسـاكين، فيسـلب أمـوالهم، ويسـتغل أبـدانهم ويختلس

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 297)

يتمانهم، ومن ذلك فهو يحترف طريقة التصوف ويستغلها ماديا، ولا يعرف من التصوف إلا أنه باب من أبواب الرزق، وسبب من أسباب المعاش، ووسيلة من وسائل الاكتساب)[1] إلى آخر تلك الأوصاف الكثيرة التي حاول الزاهري أن يعرف بها الشيخ ابن عليوة.

وقد حالت هذه الأوصاف بين الجمعية وبين الحوار مع الكثير من رجال الطرق الصوفية، والذين كانت لهم شهرتهم على المستوى العالمي، وقد عرفنا في الفصل السابق بعض النماذج عنهم من الطرق الصوفية المختلفة، لكن الجمعية لم تكن تعترف بهم، ولا بعلومهم.

وسنرى النماذج الكثيرة عن أسلوب الحوار جمعية مع المخالفين، بحيث تنتقل من الحوار في القضية الخلافية بغية الوصول إلى الحق فيها إلى الحوار في شخص المحاور، ومحاولة إسقاطه، وكأنه إذا أسقط أسقطت القضية معه.

خامسا ــ المؤامرة الاستعمارية:

فقد كانت مصالح المستعمر منوطة بتفرق الجزائريين وصراعهم فيما بينهم، ولهذا انتهجت فرنسا – كما عرفنا سابقا- سياستها المعروفة (فرق تسد)، وقد مارست هذه السياسة مع الجميع، فهي لا يهمها طرقي أو مصلح، المهم عندها كما عند كل مستعمر أن تتنافر النفوس، وأن يجهز بعضهم على بعض، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه[2].

---

[1] الزاهري؛ شيخ علماء الجزائر، أم شيخ الحلول؟ الشهاب. مج9. ج11. أكتوبر 1933. ص 494

[2] نحب أن ننبه هنا إلى أن الجنرال الفرنسي (هنري جاكين) نشر كتابا بباريس سنة 1977 تحت عنوان (الحرب السرية في الجزائر)، كشف فيه عن الكثير من الشخصيات المهمة التي كانت تعمل في خدمة المصالح الفرنسية في الجزائر، ومن بينهم ذكر أحمد توفيق المدني من جمعية العلماء المسلمين الذي كان عميل الحاكم العام، وأحمد بن بلة الذي كان مخبرا سابقا للأمن العسكري الفرنسي، وفرحات عباس الذي كان لمدة طويلة مراسلا محترما لشرطة الاستعلامات العامة، ومصالي الحاج الذي أصبح منذ 1945 تحت الاسم المستعار ''ليون'' (Léon)، مخبرا ثمينا للشرطة الفرنسية.

ويذكر الكثير من الباحثين بناء على هذا أن الإدارة الفرنسية كانت تستعمل الطرق الصوفية لتحقيق أهدافها وخدمة مصالحها عبر استعمال العملاء وتوجيههم في خدمة مصالحها، ولعل أحسن مثال على هذا ما كتبه مصالي الحاج في مذكراته، من أن جاسوسا فرنسيا كان يسمى ليون روش[3]- Léon Roche ألف كتابا سنة 1884 تحت عنوان (ثلاثون سنة داخل الإسلام)(Trente ans à travers l'Islam)، يقص فيه أن هدفه الوحيد من اعتناقه الظاهري للإسلام كان يتمثل في الحصول على فتوى من القادة الدينيين لوقف القتال ضد الاستعمار، وقد تحصل على تلك الفتوى مقابل

---

[3]) هو ليون روش من مواليد قرونوبل وُلد سنة 1809 م، تحصل على بعض الشهادات، كان والده من المُشاركين في الحملة الفرنسية على الجزائرعام 1830 . بعد سنتين من الاحتلال الفرنسي قَدِمَ ليون روش الى الجزائر ليكون في خدمة الاستعمار الفرنسي، بعد وصوله الى الجزائر سنة 1832 م بدأ ليون يتعلم اللغة العربية حتى أتقنها، هذا الاتقان ساعده على العمل مُترجما في الجيش الفرنسي، يُقال أنه أسلم واعتدل اسلامه في نظر المسلمين ورحل بعد اسلامه الى الأمير عبد القادر مُبديا له يد المعونة. وكان ذلك سنة 1837 حيث أصبح اسمه الجديد عُمر .

كلفه الجنرال بيجو الحاكم العسكري للجزائر بمساعدة الزاوية التيجانية والطيبية المغربية في الجزائر بالسفر الى تونس ومصر والحجاز للحصول على فتوى تدعوا أهل الجزائر الى قَبول الحكم الفرنسي مقابل أن يَحترم هذا الحُكم دينهم وعادتهم وتقالدهم .

ورحل روش ومعه نص الفتوى ويُقال أنه حصل على مُصادقة علماء جامع الزيتونة في تونس وعلماء الأزهر في مصر، وعلماء المسلمين المجتمعين في مدينة الطائف بالحجاز حيث مقر الشريف الأكبر شريف مكة المكرمة، وقد وصل الحجاز أثناء موسم الحج فأراد أن يشهد هذا الموسم، لكن بعض من الجزائريين تعرف عليه في وقفة عرفات ورفعوا أصواتهم استنكارا لوجوده، وكاد أن يفقد حياته لولا الحراس الذين كلفهم الشريف بمراقبته سرا اذ قام هؤلاء باختطافه ومضوا به الى جدة ومنها الى مصر ومنها الى أوروبا (انظر: ليون روش، ثلاثون سنة في رحاب الاسلام، مذكرات ليون روش عن رحلته الى الحجاز، ترجمة: الدكتور محمد خير البقاعي، دار جداول للنشر)

دفعه نقودا من الذهب إلى قادة الزوايا أو الطرقية.

وبنـاء على هـذا يعتـبرون الطريقـة العلاويـة خصوصـا أداة من أدوات الاسـتعمار مسـتدلين على ذلـك برضـا المسـتعمر عنهـا، والسماح لها بأداء نشاطها بحرية كبيرة.

ونحن - كمـا نعتقـد حصـول هـذا الاخـتراق بين صـفوف الطـرق الصوفية - فإنـا نعتقـد كـذلك أن الجمعيـة لم تكن بمنـأى من هـذا الاخـتراق، وأنهـا في بعض نـواحي سـلوكها كـانت تنفـذ مـؤامرة فرنسية شعرت بها أو لم تشعر.

ولذلك – كمـا يصـرح ابن بـاديس نفسـه – فتحت لهـا الحكومـة الفرنسية كل الأبـواب لتـؤدي أدوارهـا بحريـة أكـبر، وقـد ذكـر ابن باديس هذا مثنيا عليه، فقال: (للحكومة – الفرنسية طبعا- الفضـل العظيم بفتحها السـبل لهـذه الجمعيـة حـتى تتوصـل إلى نشـرهما باتصـال رجالهـا من أهـل العلم بالأمـة في مسـاجدهم ومجـامعهم وحيثما كانوا، فللحكومة في هذا من الفضل بقدر ما فيه للأمة من النفع، ولقد كان رجال الحكومة الـذين لقينـاهم في جميـع البلـدان يلاقوننا بمزبد الإكرام، ويزودوننا بعبارات التأييد والتنشيط، ويقـول لنا الكثير منهم: (إننا مستعدون لمسـاعدتكم في كـل مـا تريدونـه بـدائرتنا)، ولا شـك أنهم يتكلمـون بلسـان الحكومـة ويعربـون عن نياتهـا ومقاصـدها، وأي مقصـد أشـرف وأي نيـة أنفـع من تعـاون الحكومة من العلماء لتهذيب الأمة وتعليمها)[1]

ويعقب على ذلك بقوله: (هذا أعظم مـا قـامت بـه فرنسـا في أول القرن الثاني نحو أبنائهـا المسـلمين الجزائـريين الـذين كـانوا معها في جميع المواقف مواقف الحياة ومواقف الموت) [2]

ولا نريد أن نعلق على هـذه العبـارة الـتي لم نجـد من البـاحثين من ينقلهـا مـع صـراحة نسـبتها لابن بـاديس، لكنـه لـو قالهـا بعض رجال الطرق لنشرت، واستعملت أسوأ استعمال.

بل إن ابن باديس يـذكر كيـف كـان للإعلام الفرنسـي دوره في الاهتمـام بالجمعيـة والتعريـف بهـا، فيقـول تحت عنـوان (فضـل الصـحافة العربيـة والفرنسـية): (كـانت الصـحف الفرنسـوية تتبـع

[1]) آثار ابن باديس (4/ 322)

[2]) آثار ابن باديس (4/ 322)

رحلتنا وتنشر الفصول عنها وتذكر الجمعية بكل تعظيم وتبجيل مثل ما كانت تفعله مع أكبر جمعية فرنسوية ورئيسها فبرهنت على أن الفكر العام الفرنسي يقدر للمسلمين مشاريعهم ويساعدهم عليها ويرد لهم الرقي والتقدم، وقد كانت الصحافة العربية النجاح والنور والمرصاد قامت بواجبها نحو قومها وملتها فلجميع الرصيفات الفرنسية والعربية شكر الأمة والوطن وشكر الجمعية والعلم) [1]

قد يقال بأن فرنسا كانت تصادر صحف الجمعية، وتضيق عليها، والجواب على هذا بسيط جدا من جهتين:

الجهة الأولى: أنها لم تكن تضيق عليها إلا فيما يرتبط بمصالحها، أما ما كانت تنشره الجمعية مما يصدع الوحدة الاجتماعية والثقافية والدينية، فقد كانت راضية عنه أتم الرضى، بل إنها كانت تشجعه أعظم تشجيع.

الجهة الثانية: هي أن الكثير من المضايقات للجمعية كانت مضايقات شكلية، لا حقيقية، فعند منع الصحيفة في الصباح تصدر صحيفة أخرى بنفس المنهج ونفس الشدة في المساء، وليس من خلاف بينهما إلا في الاسم.

بالإضافة إلى هذا، فقد كتب الإبراهيمي في العدد 61 من جريدة (البصائر)، بتاريخ 27 ديسمبر سنة 1948 مقالا طويلا تحت عنوان (إلى الزاهري) حمل فيه حملة شديدة على الرجل الذي كان في يوم من الأيام بالنسبة لهم مصلحا أو معولا خطيرا من أهم معاول هدم الطرق الصوفية، لكنه بعد أن كشفت حقيقته تبين لهم أنه كان كاذبا وخائنا، بل فوق ذلك عميلا من عملاء الاستعمار[2]، ومما جاء في ذلك المقال قوله له يذكره ببعض

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 322)

[2] وقد أيده في هدا حسين آيت أحمد، في كتابه ('ذكريات مكافح)، فقد ذكر فيه أن مصالي الحاج نصب الشيخ الزاهري مديرا لأسبوعية (المغرب العربي) لسان حزب الشعب، وأنه كان جاسوسا للمخابرات الفرنسية، وعندما تم اكتشاف حقيقته من طرف جبهة التحرير التاريخية، قاموا بإعدامه قي بداية حرب التحرير كما جاء ذلك في كتاب محمد حربي (جبهة التحرير الوطني: سراب وحقيقة) نقلا عن (

مواقفه في الجمعية: (أتذكُر يوم ضاقت بك الحيل فعرضت همّتك وذمّتك وقلمك في المزاد العلني فكنّا أزهد المشترين فيك؟ كن شريفًا ولو لحظة من عمرك واعترف بهذه الحقيقة. ألم ننصحك نصيحة لو أحيا الله أبويك لما نصحاك بمثلها؟ ولكنها ضاعت كما تضيع المِنّة عند غير شاكر. ألم تفترص الفرصة حين خاطبناك في صندوق الحروف الذي تملكه لنطبع به (البصائر)، بالبيع أو بالكراء، فأخذت منّا عشرة آلاف فرنك لتفكّ بها رهن الصندوق من الطابع الإسباني، وكنت عاجزًا عن فكّه بستة آلاف فرنك؟ فلما حصلت عليه اشتططت وشرطت قرض مائتي ألف فرنك في مقابلة كراء الحروف، فلما يئست منا عرضت نفسك على دكتوريْن لهما ماضٍ عريق في خيانة الوطن لتخدم ركابهما وتزكيهما في الخيانة، في مقابل قناطير من الورق منَّياك بها، فلما لمناك على ذلك قلت لنا بالحرف: (ما نكذبش عليكم، أنا نتبع مصلحتي المادية حيثما كانت) والجملة الأولى هي لازمتك المعروفة عند جميع الناس، وهي لازمة كل كذّاب، إذ لا يكثر من نفي الشيء إلا المتّصف به، ثم كنت متشوّفًا إلى خدمة مَن تُسمّيهم اليوم باللائكيين، ولو أعاروك التفاتة، أو أشاروا إليك بغمزة، لكنت اليوم من عبيدهم المطيعين، ولكانت اللائكية، في نظرك ملائكية، ثم عرّجت على الشيوعيين، ولهم معك ماضٍ معروف، فوجدتهم أيقاظًا، ذاكرين لذلك العهد، مثنين عليك بمثَل ريح الجورب، ولو آنستَ في ذلك العهد من جانب الطرُقيّة نارًا، لقلت في غير تردّد: إني أجد على هذه النار هدى. ثم وقع بك الحظ على هؤلاء القوم أو وقع بهم عليك، وهم لم ينسوا ماضيك معهم، وإنما يتناسونه لأمر ستنجلي عنه الغيابة، يوم ينكفئ القدر بما فيه من صبابة. فهل فكّرت بعد هذه الأطوار أن تستقلّ بجريدة لا تناصر بها حركة ولا سكونًا، ولا تعتمد فيها على شخص ولا على حزب؟ وهيهات)[1]

المطلب الثالث: نتائج الخلاف بين الجمعية والطرق الصوفية

(http://www.djelfa.info/vb/showthread.php?t=210205

[1]) آثار الإبراهيمي: 3/562.

لقد عبر ابن باديس عن تبعات ذلك التفرق الذي حصل بين الجمعية والطرق الصوفية بعد سنة من التأسيس، فقال: (ها هو القانون الأساسي للجمعية كما وضع أول مرة منذ خمس سنوات، وقد كان الذين وضعوه شطرهم مع الطرقيين، ولكنهم ما أكملوا السنة الأولى حتى فروا من الجمعية وناصبوها العداء واستعانوا عليها بالظلمة ورموها بالعظائم وجلبوا عليها من كل ناحية بكل ما كان عندهم من كيد، ذلك لأنهم وجدوا كثيراً من الآفات الاجتماعية التي تحاربها الجمعية هم مصدرها وهي مصدر عيشهم، ووجدوا قسماً منها مما تغضب محاربته سادتهم ومواليهم وقد شاهدوا مظاهر الغضب بالفعل منهم فما رفضتهم الجمعية ولا أبعدتهم ولكنهم هم أبعدوا أنفسهم)[2]

ونحن، وإن كنا لا نسلم باللغة الشديدة التي تحدث بها ابن باديس من تحميله تبعات ما حصل على الطرقيين وحدهم إلا أننا مع ذلك نستطيع أن نستنبط من كلامه الكثير من النتائج السلبية التي أعقبت ذلك الحادث، والتي نحاول سرد بعضها هنا باختصار:

أولا ــ زيادة شدة الخلاف:

لقد كان الخلاف – كما ذكرنا سابقا- موجودا مشهورا بين الجمعية والطرق الصوفية قبل تأسيسها، ولكنه كان خلافا لا يعدو أفرادا من الإصلاحيين، ولم يتعد إلى مستوى التجمعات، ليصل إلى أكبر تجمعين عرفتهما الجزائر في ذلك الحين: تجمع الجمعية، وتجمع الطرق الصوفية.

وعند تصفح صحف الجمعية في ذلك الحين نجد أنه لم يكن لها دور إلا النفخ في نار الفرقة، فصحيفة الشريعة والصراط وغيرها مع قلة أعدادها، ومع كونها كانت فرصة لتعليم الجزائريين وتوجيههم وتوحيد صفوفهم إلا أنا للأسف نجدها صارت مملوءة بصفحات كثيرة جلها سباب وأحقاد.

وكمثال على ذلك التهييج والإثارة بيان نشرته جريدة الشريعة تحت عنوان (براءة القبائليين من شيخ الحلول وتلميذه الحافظي ومن تبعهما)، وهو بيان خطير وقع عليه 135 من تلك البلاد التي كان للطريقة العلاوية فيها وجود واسع، وقد ضم هذا البيان أمثال

---

[2] آثار ابن باديس: 2/549.

هذه الأفكار التفكيكية والاستئصالية، والتي عبروا عنها بقـولهم: (.. بناء على هذا فنحن الواضعين خطـوط أيـدينا هنـا من عـرش ذراع اقبيلة الذي يعد بالنسبة إلى بلاد القبائل أقل تقدما من غـيره, قـد أدركنا مـا عليـه الأمـة الجزائريـة اليـوم من تشـويش المشوشـين ومشاغبة المشـاغبين الـذين كتب اللـه عليهم الشـقاوة في الـدنيا والآخرة, فأشفقنا على أنفسنا وعلى إخواننا المسـلمين من سـائر أولئك المجرمين, فعملنا لرفـع الـنزاع بكـل وسـيلة نافعـة دون أن تضر, فما زيد في نار القوم إلا اضطراما حتى أيسنا ولم نرج منهم سلاما, ثم إن مثير الفتنة واحد لا ثـاني معـه إلا من كـان لـه أجـيرا وما في معناه)[1]

بـل إن هـؤلاء الـذين حملـوا كـل هـذه الأحقـاد على الطـرق الصوفية، وعلى الشيخ الحافظي، عندما يتحـدثون عن فرنسـا في نفس البيـان يقولـون عنهـا: (بقي الآن علينـا أن نـؤدي شـهادتنا لحكومـة افرانسـه الفخيمـة العادلـة المنصـفة وأن هـذه الطائفـة المخذولة التي تكذب على جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائـريين مرة بعد أخرى بإلصاق السياسة لها وبالتدخل في غير أمور الـدين والواقـع يفنـد مفترياتهـا والحكمـة نفسـها تـرى بعين الـرأس من المشـاغب ومن المهيج، ومن الـذي يكتب في جرائـده السياسـة وينشرها في الناس بعكس ما يتظاهر به للحكومة) [2]

وحتى نكتشـف خطـورة هـذا البيـان وتـأثيره في تفكيـك وحـدة المجتمع الدينية والثقافية، بل والسياسـية نحب أن نـذكر أنـه كـان للزوايا والطرق الصوفية في تلك المنطقة خصوصا تأثير كبـير في مواجهـة التبشـير والحفـاظ على الهويـة إلى درجـة أنـه صـدر من الجمعيـة قـرار سـري – ذكـره الشـيخ خـير الـدين - يقضـي بمنـع مقاومة الزوايا والمرابطين في بلاد القبائـل الـتي كـانت للكنيسـة نشاط تخريبي هدام منظم، ما يتحتم توظيف تلـك الزوايـا في بث

---

[1]) الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى / العدد 6، قسنطينة يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352، ص8.

[2]) الشريعة النبوية المحمدية، السنة الأولى / العدد 6، قسنطينة يوم الاثنين 29 ربيع الثاني 1352، ص8.

الوعي الديني الإسلامي ورد شبه المنصرين عمليا[1].

ومثله كتبت الصراط بيانا أمضاه (أربعمائة من جميع طبقات الأمّة من أهل العلم وأهل الفلاحة وأهل الصّناعة وأهل التّجارة وغيرهم) يقول أصحابه: (إنّ سكّان بلدة باتنة وأحوازها الواضعين إمضاءاتهم أسفله يشكرون العمل الصّالح الذي قامت به جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين لِرفع حالة إخوانهم المسلمين من الجهة الأدبيّة والأخلاقيّة والذي هو روح الفكرة الفرنسويّة ويُوجّهون لرئيس الجمعيّة المذكورة الوجيه الأستاذ عبد الحميد بن باديس احترامهم ويشكرون سعيه ويضمنون له الاتّحاد معه في هذا العمل)[2]

مع العلم أن باتنة في ذلك الحين كانت معقلا للطرق الصوفية، وخصوصا الطريقة الرحمانية، وكان دورها لا يقل عن دور الطريقة العلاوية أو الرحمانية في بلاد القبائل، سواء من الناحية العلمية أو الناحية السياسية والعسكرية، كما سنرى ذلك بتفصيل عند الحديث عن المشروع الإصلاحي للطرق الصوفية.

وقد كان لهذا الشحن الطائفي آثاره الخطيرة على وحدة المجتمع الجزائري، وعلى تسامحه مع المخالف، وتعدى الأمر الكلام ليصل إلى العنف بمختلف أشكاله، كما سنرى في الباب الثالث.

ثانيا ــ تضييع المكاسب والطاقات:

فقد كان في إمكان الجمعية في حال التوافق أن تكتسب الكثير من المواقع المهمة والطاقات التي تستطيع من خلالها أن تؤدي رسالتها، وأن تصل إلى أكبر عدد من الجزائريين، لكنها للأسف فرطت فيها بناء على نظرتها الاستئصالية الإقصائية.

ونحب أن نذكر هنا نماذج عما خسرته الجمعية، وخسره معها الشعب الجزائري من مكاسب وطاقات كان يمكن توظيفها في التثقيف والتهذيب والإصلاح، لكنه بسبب التسرع في المواقف تحولت إلى أدوات للصراع.

تضييع المكاسب:

---

[1] خير الدين، المذكرات: 2/118.

[2] جريدة الصراط العدد الخامس، قسنطينة يوم الاثنين 26 جمادى الثانية 1352، الموافق ل 16 أكتوبر 1933، ص3.

لا يمكن تعداد المكاسب التي كان يمكن للجمعية أن تستفيد منها في خدمة هدفها الإصلاحي، والتي حال بينها وبين تحقيقها ما حصل من شقاق، ولكنا مع ذلك سنكتفي – من باب المثال- على الناحية الإعلامية التي كان لها تأثير كبير في توجيه الرأي العام في الصالح العام.

ولعل أحسن مثال على هذه الناحية ذلك الشقاق الذي حصل بين الجمعية و(جريدة النجاح) باعتبار أن صاحبها كان من أبناء الطرق الصوفية[1]، ولذلك تخلت عن دعمها للجمعية بعد أن ناصرتها في بداية تأسيسها، بل تحولت إلى مواجهتها والصراع معها.

مع العلم أنها أتاحت المجال لابن باديس لنشر مقالاته الإصلاحية – مع علمها بتوجهه الفكري- قبل أن يحصل ما حصل[2]، فقد كان يكتب فيها تحت عنوان (خطرات الأسبوع) فقرات مختصرة طرح فيها الكثير من القضايا الإصلاحية، واستمرت لأكثر من سنتين[3]، وكان يمضي فيها باسم مستعار هو (العبسي)[4]

---

[1] يقول الشيخ أحمد حماني : (أما جريدة النجاح فإنها من أوائل الجرائد العربية بروزا إثر الحرب العالمية الأولى أسست عام 1919 م بمدينة قسنطينة ومؤسسها هو السيد عبد الحفيظ بن الهاشمي من آل زاوية (سيدي علي بن عمر) بطولقة الرحمانية) (أحمد حماني: صرا ٦ بين السنة والبدعة أو القصة الكافة للسطو بالإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، ص 128)

[2] يذكر البعض أن ابن باديس كان من المؤسسين لها، وهذا غير صحيح، فقد كان مجرد كاتب فيها.

[3] وكان آخر عدد لها يوم 28 مارس 1925، العدد 201، وقد ورد في جريدة النجاح هذا العنوان:(خطرات الأسبوع، تحت هذا العنوان رغب منا أحد الكتاب أن نفسح له مجالا يكون درسا جامعا للعبر والحوادث والانتقادات واللمح التاريخية وغير ذلك من القواعد المتنوعة خدمة للعلوم والحقائق وسعيا وراء الواجب الذي يقضي بالعمل المتواصل، وعليه فقد لبينا هذا الاقتراح الجليل تحت الإمضاء أسفله (العبسي) (فسم التحرير ; خطرات الأسبوع، النجاح، ع 172 يوم 12 سبتمبر 1924، ص 2)

[4] وقد كان إمضاء مستعارا لابن باديس في النجاح وغيرها، انظر: أحمد حماني ; الصراع بين السنة والبدعة، ص 128.

تضييع الطاقات:

وهي كثـيرة جـدا، من المثقفين وغـيرهم من أبنـاء الزوايـا أو المؤيدين لها، والذين انلقبوا على الجمعيـة بمجـرد إعلان صـراعها مع الطرق الصوفية.

وكمثال على ذلك (مامي إسماعيل) رئيس تحرير جريدة النجاح الذي أشرنا إليه سابقا، والذي استطاع باجتهـاده أن يصـل بجريـدة النجاح إلى نواح كثيرة في الجزائر، وكانت الشهاب تثني عليه، بـل كان ابن باديس نفسه يستفيد منه، كما قال الشيخ أحمـد حمـاني: (كان يحب الشيخ ابن باديس (يقصد مامي) ويأتيه بأسرار الإدارة الفرنسية ويطلعه على بعض ما يدبر من مكائد، وهـذا مـا جعلـه لا يقطع صلته به)[1]

وكان هو أيضـا من مؤيـدي تأسـيس جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائريين إذ كتب مقالا حولها بعنوان (جمعية العلمـاء منـة كـبرى يجود بها القرن العشرون) وقـال : (إذا جـاء موسـى وألقى العصـا فقـد بطـل السـحر والسـاحر)[2] ويعـني بـذلك أن جمعيـة العلمـاء المسلمين هي عصا موسـى الـتي تلتهم كـل الجمعيـات أو تقضـي عليها.

لكنه بعد الذي حصل تراجع، وكان من الطبيعي أن يـتراجع، فلا يمكن أن يظل على تأييده لجهة لا تريد إلا استئصاله.

ثالثا ــ تأسيس جمعية علماء السنة :

مـع أن تأسـيس هـذه الجمعيـة الإصـلاحية لا يمكن اعتبـاره من النتائج السلبية، لكنـا جارينـا الواقـع المعمـول بـه في اعتبـاره من الآثار السلبية، لنطرح فيه موقف الجمعية منها.

وقبل أن نطرح موقفهـا منهـا نقـدم لهـا بتعريـف مختصـر، فقـد تأسست جمعية علماء السـنة رسـميا بتـاريخ 15سـبتمبر 1932م، وكان السـاعي إلى تأسيسـها الشـيخ المولـود الحـافظي الأزهـري الذي كان عضوا في المجلس الإداري لجمعيـة العلمـاء المسـلمين

---

[1] أحمد حماتي : صراء السنة والبدعة، ص 131.

[2] مامي إسماعيل: جمعية العلماء منة كبرى يجـود بهـا القـرن العشـرين، النجـاح، العدد1229، يوم09-09-1931

الجزائـريين عنـد تأسيسـها سـنة 1931م، وكـان يمثـل اتجـاه الطرقيين في الجمعية في ذلك الحين، لكن بعد تلك الأحداث التي حصلت يوم 23 مـاي 1932م اجتمـع رؤسـاء الزوايـا والمـوظفين الدينيين في الإدارة الحكومية وأسسوا هذه الجمعية، ومن مبادئهـا التي أعلنوها في قانونهـا الرسـمي أنهـا (جمعيـة إسـلامية تعليميـة خيرية.. وأنها تمتنع عن الخوض في الأمور السياسية، وعن كل مـا يمكن أن يثـير الاضـطراب بين الفئـات الدينيـة، والعصـبية.. وأنهـا تهـدف إلى إحيـاء السـنة، والتقاليـد، ونشـر لفضـيلة والتمسـك بـالأخلاق وفقـا لمـا جـاء في الكتـاب والسـنة، وتعـاليم المـذاهب الأربعة، ومبادىء الفقه والتصوف والدين الإسلامي)[1]

انطلاقا من هـذا، وقبـل أن نـذكر مواقـف رجـال الجمعيـة منهـا نحب أن نبين الموقـف الحضـاري المفـترض من جمعيـة تأسسـت على مبـادئ واضـحة مقبولـة، بعـد أن رأت نفسـها لا تنسـجم مـع جمعية أخرى، وهو ما يحدث كثيرا في الواقع، بل ما تمليـه طبيعـة النفس والمجتمع المبنية على التعدد.

كـان الموقـف الحضـاري - كمـا نتصـور - يتطلب من كلتـا الجمعيتين أن تتعاونا في الأهداف المشتركة، وأن تترك كل جمعية للأخرى ميدانها الذي تريد أن تتخصص فيه.

لكن جمعية العلماء المسلمين الجزائـريين تعـاملت مـع القضـية على خلاف ما يمليه هذا السلوك الحضاري، وكان مبدأ ذلك اعتبـار انشـقاقها وكأنـه انشـقاق عن جماعـة المسـلمين الـتي لا يحـل مخالفتها ولا الخروج عليها.

ونحن لا نستطيع في هذا المحل الضيق أن نسـتعرض جميـع مـا كتب في الموضوع، ولذلك نكتفي بـرأس من رؤوسـها الكبـار، بـل منظرها الأكبر الشـيخ البشـير الإبـراهيمي، فقـد ذكرهـا وأرخ لهـا، ونحب أن نقتطـع هنـا من حديثـه عنهـا بعض المقـاطع لـنرى من

---

[1]) انظر : أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسـلمين الجزائـريين وأثـرهـا الإصـلاحي في الجزائـــر، المؤسسة الوطنية للكتـاب، الجزائـر، الطبعـة الأولى، 1985م، ص 180.

خلالها كيف يتعامل الإبراهيمي، وكيف تتعامل الجمعية مع المخالف لها الذي استعمل حقا شرعيا وقانونيا، ومن باب التبسيط، وتيسير التعليق نضع ذلك على شكل عناوين وعناصر:

1 ـ **اتهامها في أهدافها**: وأنها أسست لأجل محاربة جمعية العلماء ومضارتها على الرغم من أن قانون الجمعية لا ينص على ذلك، يقول الإبراهيمي: (لم يقف العليويون وأذنابهم عند حدّ ذلك الهجوم الذي كان أوله كيدًا وآخره فضيحة، بل أجمعوا أمرهم وشركاءهم وقرروا في اجتماع تولى كبره رئيسهم الأكبر أحمد بن عليوه محاربة جمعية العلماء بكل وسيلة وبكل قوّة، وتقاسموا على ارتكاب ما يحل وما يحرم في هذا السبيل، وانفتقت لهم الحيلة بإرشاد بعض أذناب الإدارة على تأسيس جمعية طرقية في معناها وحقيقتها، حلولية في باطن باطنها، علمية في ظاهرها وما يراه الناس منها ليوهموا العامة أنهم يحاربون العلم بالعلم، لا العلم بالجهل، فبثوا في الزوايا وعبيدها دعوة جامعة إلى تكوين هذه الجمعية التي وصفوها بأنها جبهة قوية تقف في وجه الإصلاح وتنازل جمعيته وجهًا لوجه ودارًا لدار بعد أن لم يبق أمل في إسقاطها بالحيلة، أو الاستيلاء عليها بالمكر)[1]

هذا ما ذكره الإبراهيمي للأسف، بهذه اللغة الممتلئة بالاتهامات الجزاف الخالية من أي منهج علمي، ولا أدلة علمية، بل إن الأدلة العلمية من أصحاب هذه الجمعية تناقض ما ذهب إليه، وسنرى ذلك بتفصيل عند الحديث عن محاولات الصلح التي قام بها الحافظي، ورفضت جميعا.

2 ـ **اتهامها في أعضائها**: وأنها أسست من (علماء مأجورين، وطلبة مدحورين، من كل من في عنقه للزوايا مِنَّةُ الخبز، ولها عليه فضل التعليم الأشل، وله فيها رجاء العبد في سيده، من تلك الطائفة التي لا ترعى للعلم حرمة، ولا تشعر له في نفوسها بعزة ولا كرامة) [2]، وغير ذلك من الأوصاف الكثيرة لأعضائها مع كون الكثير منهم علماء لا يزالون محترمين، وكتاباتهم

---

[1] آثار الإبراهيمي: (1/188)

[2] آثار الإبراهيمي: (1/188)

تشهد لهم بذلك.

فقد حضر مجلسها التأسيس علماء محترمون من جميع أقطار الجزائر، فبالإضافة إلى رئيسها الشيخ المولود الحافظي الأزهري الشهير بالفلكي حضر الشيخ العربي التواتي من غليزان، والشيخ ابن الهاشمي بن بكار من معسكر، والشيخ علي بن السنوسي الشطي من معسكر، والشيخ حسين بن قريد من معسكر، والشيخ أحمد بن قيطون، والشيخ أحمد الشاذلي بن الشيخ عبد الرحمن الميسومي من قصر البخاري، والشيخ أحمد لكحل شاعر العاصمة وهو ابن السيد يحيى لكحل رئيس اللجنة التنفيذية للجمعية في الجزائر العاصمة، والشيخ إبراهيم بن شناف من الأغواط، والشيخ الجيلالي يبن عبد الحكيم من العطاف، والشيخ محمد الفضيل الزواوي من الأربعاء ناث يراثن، والشيخ ابن إبراهيم أحمد بن الحاج مصطفى من قرية تاحميرت بفرندة، والشيخ محمد الشريف بن السعيد من زاوية سيدي منصور بتيزي وزو، والشيخ محمد العيد مفتي سور الغزلان، والشيخ محمد العشي من زاوية سيدي الحسين بن الحسن بضواحي قسنطينة، والشيخ مصطفى بن المكي بن عزوز من عين البيضاء، والشيخ ابن شعبان الحاج محمد القريشي إمام مسجد الأربعين شريفا وشيخ الزاوية الحنصالية بقسنطينة، والشيخ حسن الطرابلسي من عنابة، والشيخ مصطفى بن الفخار مفتي المدية آنذاك[1].

والخطر الأكبر في هذا الاتهام أنه لا ينصب فقط على أعضاء الجمعية، بل ينصب على جميع المثقفين الجزائريين ممن لم تتح لهم الفرصة ليذهبوا للزيتونة والأزهر، مع كون التعليم في الزوايا في ذلك الحين لا يقل عن التعليم في الزيتونة والأزهر.

لكن السر كما ذكرنا سر نفسي، يعود إلى احتقار الجمعية للتعليم الجزائري، واعتبارها أن المتعلم هو ذلك الذي وصفه رسول الله ﷺ، فقال: (إن الله عز وجل يبغض البليغ من الرجال

---

[1]) للتعرف المفصل على تراجم هؤلاء العلماء وآثارهم انظر: محمد بن إسماعيلي، مشايخ خالدون وعلماء عاملون، ط4، 1421-2001.

الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها[1][2]

3 ـ **اتهامهـا في نياتها**: وأن أعضـاءها - بعلمـائهم وطلبـة علمهم - (اجتمعوا كلهم على النداء من كل صـوب كضـوال الإبـل، وحشروا في غمـرة من الـذهول أوهمتهم أنهم سيصـبحون بفضـل سـادتهم مشـائخ الطـرق، وبجـاه مـوالاتهم للحكومـة مـوظفين (مُنَيْشَنِين[3][4]

بعد هذه الاتهامات يسـخر الإبـراهيمي من هـذه الجمعيـة لكـون رئيسها خرج (إلى الأمة يسألها المال والتأييد، فقابلته بما يسـتحق من طرد ومقت، ولم يمض إلّا قليل حتى حلّ الله مـا عقـدوا، وتَبَّرَ ما شـيدوا، ورأى النـاس عـبرة العـبر في انهيـار الباطـل وانخـذال أهله، وعدوها من عجائب صـنع اللـه لجمعيـة العلمـاء المسـلمين، وقرأوا قوله تعالى: { فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَـعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ } [الرعد: 17])[5]

ومن العجيب أنَ ينكر الإبراهيمي عليهم هذا السلوك مع كونـه - مـع أعضـاء جمعيتـه جميعـا - يمارسـونه، بـل إن الشـيخ العـربي التبسي ذهب إلى أعظم من ذلـك حين أبـاح لفقهـاء الجمعيـة أن يستفيدوا من الزكاة حـتى لـو كـانوا أغنيـاء مـا دامـوا (قـد حبسـوا جهودهم وعلـومهم وحيـاتهم للجهـاد في سـبيل الإسـلام، ونشـره، والدفاع عنه. أما فقهـاء السـوء طلاب الـدنيا فإننـا لا نقـول بجـواز أخذهم من الزكاة)[6]

---

[1]) التخلـل في الكلام : التشـدق وتفخيم اللسـان فيـه. تخلـل البـاقرة : البقـرة أي التشدق في القول ولفه كلف البقرة للكلأ.

[2]) أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة قرطبة – القاهرة، 3/165.

[3]) من (النيشان) وهو الوسام، أي مُوَسَّمِين.. حاملى الأَوْسِمة

[4]) آثار الإبراهيمي: (1/189).

[5]) آثار الإبراهيمي: (1/189).

[6]) انظـر: جريـدة البصـائر، السلسـلة الثانيـة، السـنة الثالثـة، عـدد 119، الاثـنين 15/ماي/1950م الموافق 28/رجب/1369هـ، ص 2.

ثم هـل هنـاك جمعيـة في الـدنيا لا تبحث عن المعونـات حـتى تحقـق أهـدافها، ولـو طالعنـا جرائـد الجمعيـة من هـذه الناحيـة، واهتمامها بجلب المعونات المادية لألفنـا في ذلـك أسـفارا كثـيرة، ويطيب لنا هنا أن نستعمل أسلوب الإبراهيمي في ضرب الأمثـال، فنقول: (رمتني بدائها وانسلت)[1]

بعد هذا نحب أن نبين أثرا خطيرا لهذا الذي طرحه الإبـراهيمي، وهو مرتبط بواقعنا لنعرف من خلاله أننـا لا زلنـا أسـارى لتقـديس الأشخاص لا لتقديس المبادئ.

وهـو موقـف مؤسـف من رجـل أكـاديمي يـتزعم الآن جمعيـة العلماء المسلمين الجزائـريين، وهـو الـدكتور عبـد الـرزاق قسـوم الذي أدلى بتصريح لجريدة واسعة الانتشـار بين العـوام والمثقفين يقـول فيـه: (إن الخلاف بين الجمعيـة (يقصـد جمعيـة العلمـاء المسلمين) والزوايا يعـود إلى زمن تأسـيس جمعيـة العلمـاء الـتي ضمت جل علماء الأمـة، بمـا في ذلـك بعض شـيوخ الزوايـا الـذين تصدوا لمحاربة الاستعمار الفرنسـي، فعمـد هـذا الأخـير إلى شـق الصـف بإنشـاء جمعيـة (السـنة)، كـان المعـنيون يتهمـون جمعيـة العلمـاء المسـلمين بكونهـا جمعيـة سـلفية، بعيـدة عن نهج السـنة العطرة.. وفرنسا عملت على بعث جمعية مناهضة لجمعية العلماء من خلال استعمال مصطلح يحقق إجماع المسلمين، هي السنة)[2]

ولسنا ندري ما مصدره على هذه المعلومة الخطيرة، وهي كون فرنسـا هي الـتي أوحت للحـافظي وللشـيخ ابن عليـوة ولمشـايخ الهامل وغيرهم من مشـايخ الزوايـا بـأن يسـموا جمعيتهم (جمعيـة السنة)؟ ثم متى كانت السنة حكرا على جمعية العلماء أو غيرهـا؟ ثم متى حوسب الناس على الأسماء التي يختارونها لأشخاصـهم أو

---

[1]) هو مثل يضرب لمن يعير صاحبه بعيب هو فيـه، فيلقي عيبـه على النـاس ويتهمهم بـه، ويُخـرج نفسـه من الموضـوع، انظـر المثـل في أبـو القاسـم محمـود بن عمـر الزمخشـري، المستقصـى في أمثـال العـرب، دارالكتب العلميـة – بـيروت، الطبعـة الثانية، 1987، 2/103.

[2]) راجع مقال زهية منصر في الشروق اليومي حول الطرق الصوفية والسياسة في الجزائر، بتاريخ : 22 - 12 - 2011.

لأي شيء يشاءونه؟، ثم هل العبرة بالأسماء أم بمحتوياتها؟

نترك هذه الأسئلة جميعا للباحثين لينصفوا هذه الجمعية المظلومة التي ظلمتها جمعية العلماء السابقة واللاحقة، والعجيب رميها بكونها صناعة استعمارية، ولو كانت صناعة استعمارية لما أجهضت بعد شهور من تأسيسها، ثم يستشهد رئيسها من طرف الاستعمار لا من طرف جبهة التحرير الجزائرية[1].

ونرى من خلال بعض البحث في هذه الجمعية أن الاستعمار كان هو السبب في توقفها، فلم يكن يرضى بحال من الأحوال أن تعود للطرق التي حاربته أي سلطة في المجتمع خاصة إذا دعمت تلك السلطة بالوسائل والأساليب الحديثة.

المبحث الثاني

---

[1]) لا ينكر على الحافظي وطنيته الصادقة، فهو الذي عكف على دعوة الناس إلى الوحدة ونبذ الفرقة، ورفض الواقع الذي فرضه الاحتلال الفرنسي وأن يصروا على التغيير بقدر استطاعتهم وأن ينهضوا فوق الأحداث ويهتموا بتربية أبنائهم حتى يكونوا عدة للمستقبل، داعيا في سلسلة مقالاته التي نشرها تحت عنوان (العلم والأدب وحالة الجزائر) عن الإصلاح والمصلحين إلى معرفة أدواء الأمة والإخلاص في معالجتها، كما عني بالتجنس الذي قال فيه: (بنصرة الدين وتقوى الله وطاعة الله ورسوله فيما جاءت به الشريعة السمحة، هي شروط العزة والسيادة والقوة والسلطان والذين ضيعوا عزة الله وضاعت منهم العزة وهي في متناول أيديهم وفي إمكانهم الحصول عليها أصبحوا يتطلبونها بطريق التجنيس علهم أن يكونوا أعزاء مثل الذين يلحقون بهم وينتسبون إليهم في عزتهم، ولكن الله سبحانه وتعالى مكر بهم ورد كيدهم في نحورهم بجعلهم أذلاء وأذنابا للذين حاولوا المساواة بهم في عزتهم فإن القانون الآن اعتبر التجنس في درجة متوسطةبين الأهلي غير المتجنس وبين الفرنسي الأهلي، فالفرنسي الأصلي أكبر مقاما من المتجنس المتفرنس وهذا أق منه بكثير، بل الأدهى والأمر أن المسلم التجنس المتفرنس أق شأنا ن اليهودي والاسبنيولي والطلياني والمالطي المتجنس المتفرنس ...) (انظر: الأستاذ محمد الصالح الصديق، أعلام من المغرب العربي، الجزء الأول، موفم للنشر والتوزيع- الجزائر 2000، ص386)

العلاقة الشخصية بين الجمعية والطرق الصوفية

بعد تعرفنا على المواقف الرسمية للجمعية من الطرق الصوفية، وما ساد فيها من أجواء مشحونة بالحرب والصراع، فإن المنهج العلمي يقتضي منا أن لا نحكم على كل أعضاء الجمعية بتلك الخلال التي سبق ذكرها إلا بعد دراسة المواقف الشخصية لكل فرد من الجمعية، وذلك لسببين:

الأول: أن أعضاء الجمعية – كما ذكرنا سابقا- لم تقتصر تلمذتهم على مدرسة واحدة، وبالتالي اختلفت مواقفهم شدة ولينا بحسب ما أشربوا من أفكار، ذلك أن الكثير منهم إنما انتسب للجمعية بناء على اقتناعه بمشروعها الإصلاحي أكثر من اقتناعه بتوجهها الفكري، وقد ذكرنا في الفصل السابق مثالا على ذلك بالشيخ العيد القادري، والذي حول من زاويته إلى مدرسة للإصلاح، وليس لنا أي مصدر يدل على أن الشيخ ترك تيجانيته أو توجهه الصوفي.

والثاني: أن المواقف الشخصية ترتبط بسلوك الشخص وأدبه مع المخالف، أكثر من ارتباطها بالنواحي العلمية أو التوجهات الفكرية، والتي سنرى أن أعضاء الجمعية يكادون يتفقون عليها.

وقد وجدما لنا من خلال استقراء المواقف المختلفة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أصحاب الطرق الصوفية موقفين متباينين أحدهما متشدد، والثاني معتدل، ولكليهما درجات مختلفة قوة وضعفا.

والمعيار الذي وضعناه لهذا التقسيم لا علاقة له بالأفكار والتوجهات الإصلاحية، ذلك أنا قد ذكرنا اتفاق الجميع على اعتبار وقوع الانحراف في الطرق الصوفية، وبعدها بالتالي عن الإسلام الصحيح.

ولكن الفرق بين هذه التوجهات الشخصية يتمثل في كيفية التعامل مع الآخر، سواء على المستوى الفكري، أو المستوى الشخصي.

فعلى **المستوى الفكري**، نجد المتشددين المغالين يصمون آذانهم عن سماع ما يطرحه الآخر من أفكار وأدلة، لأنه يعتبر أن كل ما يأتي به المخالف كفرا وضلالا وبدعة، ويرى لأجل هذا أن

منهج التعامل معه هو الاستئصال والتشهير لا الإصلاح والتوجيه، بينما نجد المعتدلين أخف حدة، وأكثر إقبالا على تقبل الآخر ومناقشته.

وعلى **المستوى الشخصي** نرى المتشددين يميلون إلى استعمال العنف اللفظي والأحكام المشددة على خلاف المعتدلين الذين هم أكثر لينا وسماحة.

ونحب - قبل أن نذكر نماذج عن هذين الموقفين ودوافعها – أن ننبه إلى صعوبة التصنيف العلمي الدقيق لرجال الجمعية بهذا الاعتبار، وذلك لسببين:

السبب الأول: أن البعض ممن نعتبرهم معتدلين يقفون في بعض المواقف مواقف المتشددين من حيث عدم سماع الآخر، أو عدم احترامه، والعكس صحيح، وكمثال على ذلك موقف ابن باديس والزاهري من الطريقة التيجانية.

فعلى الرغم من اعتبار الشيخ ابن باديس عند أكثر الباحثين من المعتدلين في مواقفهم إلا أنه في موقفه من التيجانية خصوصا كان متشددا غاية التشدد، فقد أفتى بكفرهم في رسالته التي خصصها عنهم، والتي يقول فيها بعد أن بسط الأدلة كما تصورها وكما سئل عنها، من غير أن يرجع إلى ما يقول علماء التيجانية في الإجابة عنها: (لهذه وغيره نقول أن الطريقة التيجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام، فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة على هذه الأفكار وأكثر منها فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتى يمكن أن يكون هو الأصل وأن غيره مدسوس وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضى والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم. ولو كان عالمهم بالكلمة المنسوبة إلى صاحب الطريقة، والله أعلم بصحة نسبتها: (زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة) - لأعدموا تلك الكتب أو حرموا على جماعتهم قراءتها أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل وأعلنوا البراءة منها للناس لكن شيئا من ذلك لم يقع. وإنما يطنطنون بتلك الكلمة قوليا ويقرون تلك الكتب وما فيها علميا. وماذا يفيد القول مع التقرير والعمل. ولهذا رغم من كان في هذه الطريقة من أناس مشهورين بالعلم كالشيخ الرياحي فإن الحالة هي الحالة وتلك

الكفريات والأضاليل فاشية منتشرة في اتباع الطريقة إلى اليوم)[1]

وفي المقابل نجد الزاهري الذي يعتبر من المتشددين، وفي الفترة التي كان فيها في قمة عنفوان تشدده يكتب مؤيدا التيجانية، ويثني على شيخها، بل يعتبره من المتأثرين بالمدرسة الوهابية[2].

السبب الثاني: أن الكثير من أعضاء الجمعية تغيرت مواقفهم لأسباب مختلفة، وبالتالي يمكن اعتبارهم في مرحلة من المراحل ضمن المتشددين، وفي مرحلة أخرى ضمن المعتدلين، والعكس صحيح، ونحب أن نذكر لهذا مثالين، أحدهما عن انقلاب المعتدلين إلى متشددين، والثاني عن انقلاب المتشددين إلى معتدلين:

المثال الأول: نشرت جريدة الشهاب في العدد 82 الصادر يوم الخميس 30 رجب 1345 هـ/ 3 فيفري 1927 م، استفسارا وتساؤلا من مواطن رمز لنفسه باسم (مستبين) تحت عنون: (طلب الحقيقة)، ومما جاء فيه: (.. منذ اجتماع العلويين في جامع سيدي رمضان ونحن في حيرة والتماس حقيقة مما صدر من أحد أعيان العاصمة وهو الشيخ محمد الشريف الزهار الإمام بجامع جده (رضي الله عنه) من وقوفه بذلك المحفل وإلقائه لتلك الخطبة التي كادت أن تنشق لها السموات ومدحه لذلك الشيخ[3] مدحا مفرطا أدهش الحاضرين، ودونك أيها القارئ ملخص قوله: (أيها السادة إني قد كنت قبل الاجتماع بهذا الرجل العظيم أنكر عليه أقواله وأفعاله واقدح فيه وأسبه وأقول لأتباعه: إن شيخكم لَّدعي زنديق بل كافر، وما أشبه ذلك والآن لما اجتمعت به، والحمد لله فقد ظهر لي ما كان خافيا عني من الأسرار والأنوار، وها أنا تائب مما قلته واشهد انه ولي كامل زاهد... الخ)، فبالله متولي السرائر هل كانت حقيقة اعتقادك أيها الإمام في ذلك القطب ما فهمت به الجمهور، أم كان نطق لسانك مغايرا لجنانك فأصدقنا أرشدك الله حتى ترتفع عنا الحيرة وننجو من الوقوع في

[1] آثار ابن باديس: (3/148)

[2] كمثال على ذلك انظر: الزاهري؛ هل كان الشيخ التيجاني وهابيا؟ حقائق من التاريخ لا يعلمهن كثير من الناس. الصراط. ع7. س1. 30-1933 - 10. ص 4.

[3] يقصد الشيخ ابن عليوة.

المحـذور اقتـداء بـك حيث كنت إمـام مسـجد شـريفا بـل نقيب الأشراف، وابن عائلة موصوفة بالصدق والكمـال، فكيـف محضـت في هذا المجال فعجل بالجواب على كل حال)

وقد جاء الرد سريعا من الشيخ محمد الشريف الزهار، فلم يكد يصدر العدد التالي[1]، أي بعـد أسـبوع من صـدور الاستفسـار حـتى كتب ردا بعنـوان (الجـواب بـالبراءة)، يقـول فيـه: (الشـهم الغيـور مـدير جريـدة الشـهاب الأغـر... سـلاما واحترامـا.. اطلعت في جريـدتكم السـمحا عـدد 82 على سـؤال عنوانـه (طلب الحقيقـة) بإمضاء (مستبين) مضمنه اجتماع العلويين بمسجد سيدي رمضان، وخطبتي في ذلـك الاجتمـاع ومـدحي لـذلك الشـيخ مـدحا مفرطـا وطلب مني الكاتب حقيقة اعتقادي.. فأقول ولا أخشـى لومـة لائم لتظهر الحقيقة وضاحة الجبين، وأشهد الله الذي يعلم خائنة الأعين ومـا تخفي الصـدور أنـني بـرئ من بـدع المبتـدعين وخـزعبلات المتصوفين وشعوذة المشعوذين ونصرة السفاكين...أحب العلمـاء العاملين والأوليـاء المتقين طريقـتي الكتـاب والسـنة.. بلغـني عن الطائفـة العليويـة وشـيخهم (المـربي) من الأسـرار والأنـوار مـا شـوقني إلى مشـاهدة رؤيتهم فـاجتمعت بالشـيخ وأصـحابه في مسجد جدي محمد الشريف الزهار (رضي الله عنه)، فكان كلامـه في الصلاح والإرشاد والوقوف على حدود الشـريعة ونفـع العبـاد.. فأعجبني ذلك وحمـدت اللـه على وجـود رجـل مثـل هـذا في هـذا الزمـان، خطبت خطبـتي الـتي لا أنكرهـا، ولكن لمـا أطلعت على حقيقـة أمـرهم وحللتهـا تحليـل الحكيم الكيمـاوي، تمثلت بالمثـل السائر (ما أنت أول سار غـره قمـر) فتـبين لي الرشـد من الغي، وظهر الأمر على خلاف ما كنت أظن من أمور مصـادمة للشـريعة لا ينبغي السكوت عنها، ولا يسـع إنكارهـا، وبَّختهم عليهـا مشـافهة وحذرتهم من سوء عاقبتها عملا بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَـإِنَّ الـذِّكْرَى تَنفَـعُ الْمُـؤْمِنِينَ } [الـذاريات: 55] فـأبو وأصـروا علَى فعلهـا، فتكلمت مع الشيخ نفسه ليزجرهم عن ذلك فتبسم وسكت، فلمـا علمت أن القوم اتفقوا على الضلالة نبذتهم نبـذ النـواة، وهجـرتهم

[1]) الشهاب، العدد 83 : الخميس 7 شعبان 1345هـ/ 10 فيفري 1927م.

وقطعتهم، وقلت لهم: هذا فـراق بيـني وبينكم لأن الحب في اللـه والبغض في الله، فقد تحققت صدق مـا هـو شـائع عنكم من هتـك الدين باسم الدين، وحمدت الله حيث أخرجـني من الظلمـات إلى النور وشاهدت الأمـر عيانـا فليس من رأى كمن سـمع.. فتأسـفت على ما صدر مني واستغفرت الله عسى أن يغفر لي ورجعت إلى الحق أفضل من الباطل، هذا هو اعتقادي أيهـا السـائل، وهـذا هـو ديني الذي أدين الله به، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) [1]

المثال الثاني: وهو عن انقلاب المتشددين إلى معتدلين، وهو يمثل كثيرا من أفراد الجمعية، والذين يمكن تصنيفهم في المراحل الأولى من حياتهم ضمن طائفة المتشددين المغالين في تشددهم، ولعل أوضح مثال على هؤلاء الشـيخ محمـد سـعيد الزاهـري، فقـد كــان من المتحــاملين المتشــددين في تحــاملهم على التصــوف والطرق الصوفية، فقد كان - مثلا- يرمي الشيخ ابن عليوة بـالكفر والشرك والإلحاد، فيقول عنه: (يكفر عن تقليد ويشرك عن تقليد، ويلحد عن تقليد، فليس لـه مـذهب، ولا رأي فيمـا يكفـر، ولا فيمـا أشرك، ولا فيما ألحد، ولا فيما آمن، إن كـان يـزعم أنـه يكـون في بعض الأحيان من المؤمنين) [2] بالإضافة إلى النعوت الكثـيرة الـتي كان ينعته بهـا، والـتي سـبق الإشـارة إلى بعضـها، لكنـه بعـد ذلـك تراجع تماما عن هذه الرؤيـة، بعـد أن انشـق على جمعيـة العلمـاء عـام 1937، ثم أسـس عـام 1938 جريـدة الوفـاق، وشـارك في مؤتمر الزوايا.

ومثله أحمد توفيق المدني الذي كتب في (كتاب الجزائر) يشـيد بـابن عليـوة وزاويتـه، ويعتـبره معينـا على نشـر الفضـيلة وحفـظ الرابطة القومية الإسلامية، وينقل عنه إنكاره على حـزب الإصـلاح عنفه وشـدته في مهاجمـة الطرقيـة، وخصوصـا العلاويـة، أمـا في مذكراته - وباستثناء الوثائق المتعلقة بنازلة آذان غرداية- فقد غـير

---

[1]) جريــدة الشــهاب رقم العــدد 83 : الخميس 7 شــعبان 1345هـــ/ 10 فيفــري 1927م.

[2]) تأبــط شــرا: قــوارص!... أيتهــا الفلتــاء المتشــردون. الــبرق. ع7، س1، 17/10/1927، ص3.

موقفه إلى النقيض تماما؛ وقد عبر عن ذلك التحـول عمليـا عنـدما أصبح وزيرا للأوقاف في الجزائر المستقلة[1]؟

بناء على هذا التنبيه نحـاول في هـذا المبحث أن نصـنف أعضـاء الجمعية الكبار على هذا الأساس مع محاولة التعرف على أسـباب وخلفيات ذلك التوجه.

وقد قسمنا المبحث على هذا الأساس إلى قسمين:

المطلب الأول: الموقف المعتدل:

وقد أشرنا إلى أن الضابط في هذا الموقف هو قبـول الآخـر، أو التعامل بلين معه، ولو في بعض المواقف، ومن خلال استقراء مـا كتبه وما قام به كبار رجال الجمعية وجدنا أن هذا الوصـف ينطبـق أحسـن انطبـاق على شخصـيتين من كبـار أعضـاء الجمعيـة المؤسسين، وهما الشيخ عبد الحميد بن باديس، والشيخ أبـو يعلى الزواوي.

بالإضافة إلى هذا هناك شخصيات كثيرة كالشيخ العيد القـادري، ومبروك التبسي وغيرهما، وهذه الشخصيات – كمـا ذكرنـا – يمكن تصنيفها في إطار آخر، وهو التصوف الإصلاحي، فهم لا يتفقون مع الجمعية إلا في مشروعها الإصلاحي، ويختلفون معها اختلافا جذريا في توجهها الفكري.

بناء على هذا سنذكر هنـا - باختصـار - بعض الأدلـة على التوجـه المعتدل لكلا الشخصيتين السابق ذكرهمـا، مـع محاولـة بيـان سـر الاعتدال فيهما.

الشيخ عبد الحميد بن باديس:

عند مقارنة المواقف التي وقفها الشيخ عبد الحميـد بن بـاديس مع مواقف أكثر أعضاء من اطلعنا على تراثهم من رجال الجمعيـة يمكن اعتباره أكثرهم اعتدالا، وأحسنهم أدبا مع المخالف.

بـل إني أشـعر – من غـير أن أسـتطيع إثبـات ذلـك بدقـة – أن الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس كـان معرضـا لضـغوط من طـرف المتشددين من رجال الجمعيـة الكبـار، والـذين كـان يحـرص على

---

[1]) غزالة بوغانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعـة منتوري قسنطينة، قسم التاريخ والآثار، د.ط، د.ت، ص4.

إرضائهم، ولذلك كان يظهر أحيانا بصورة المتشـدد، فلـذلك كـانت لغته في الخطـاب مـع المخـالف أكـثر لينـا بكثـير من مثيلاتهـا من سائر رجال الجمعية.

والذي قـد يشـير إلى هـذا، إن لم يصـح اعتبـاره دليلا مـا ذكـره الشيخ أحمد حماني عنـد حديثـه عن الشـيخ الطيب العقـبي الـذي كان في ذلك الحين – بسبب قدراته الخطابية – لا يقل شـهرة عن ابن باديس، فقد قال: (كان أحد أقطاب الحركة الإصلاحية، وكتابها النابهين، وكان يميـل في أسـلوبه إلى الشـدة والعنـف والصـراحة المريرة، بينما كان الشيخ عبـد الحميـد بن بـاديس يجنح نوعـا مـا إلى الأخذ بالرفق واللين والدعوة بالتي هي أحسن، ويعز عليـه مـا وصلت إليه الحال بين كتاب الطرفين، وبعـد 18 عـددا من المنتقد ومثلها من الشهاب نشر الأستاذ ابن باديس في عدد الشـهاب 19 مقـالا تحت عنـوان: (في سـبيل الوفـاق والتفـاهم) قـال عنـه ابن باديس في عدد 75 (أردنا به جمـع الكتـاب على نقطـة خاصـة من الإصلاح وإيقاف ذلك التيار القوي من الكتابة الإصلاحية) ولكن هذه الدعوة لم ترق بعض الكتاب، وعلى رأسهم ــ فيما يقول الشـهاب ــ العلامـة المصـلح الشـيخ العقـبي لأنـه عـده تحجـيرا تامـا ومنعـا صـريحا لكـل كتابـة في الإصـلاح الـديني، أو مـا حـام حولـه، وبقي الأستاذ العقبي مصرا على المقاطعة والامتنـاع التـام عن الكتابـة، ولم يقتنع بما ذكره الشـهاب من مـبررات، فاضـطر الشـهاب إلى زيادة بيان في مقال آخر نشـره تحت عنـوان (في سـبيل الـدعوة والرشاد)، ودعا الكتـاب المصـلحين إلى العـودة (للكتابـة في نقـد الدحل والدجالين، وأنه لم ولن يحجر على الكتاب الخوض في نقد أعمال الطرقيين، وإنما أوقفنا ذلك التيار القوي حيث رأينا أنه بلـغ حده، ووصل إلى منتهاه)[1]

فعند ملاحظة هذا الـتراجع السـريع من ابن بـاديس من موقفـه الداعي إلى الاعتدال دليل أو أمارة على أنه كان حريصا على بقـاء الشيخ الطيب العقبي معـه لأهميتـه في جلب الكثـير من الأعضـاء للجمعية، ولكن مع ذلك لم يرض بيان التراجع الشيخ العقبي الـذي بلغ به الغضب أشده بعد الحادثـة الـتي ذكرناهـا من الاعتـداء على ابن بـاديس، وحينهـا أعلن الشـهاب بهـذا الإعلان الـذي توجـه بـه للشيخ العقبي، والذي يقول: (ونحن نؤكد لحضرته ولكـل من كـان

[1]) أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ح2، ص26.

على شاكلته أننا أضربنا على ذلك المقال الذي زال بزوال ما اقتضاه من الأحوال ورجعنا إلى خطتنا القديمة)

وقد كان لهذه الكلمة المبيحة للعودة إلى العنف في القول أثر كبير على الشيخ العقبي، فنشر مقالا عنوانه: (أما الآن فنعم. وقد وجب الرجوع)، وبين فيه مقدار ما وصل إليه سوء التفاهم مع إدارة الشهاب، وما جرى بينه وبينها من كلام[1].

هذا ما ذكره شاهد عيان بنوع من الرضا عن موقف الطيب العقبي، ونوع من المعاتبة لابن باديس، وهذا ما يدل على البيئة التي كان يتعامل معها ابن باديس، التي اضطرته فيما نرى أحيانا على بعض التشدد.

ومن ذلك أنه لما توطدت العلاقة بين العقبي وابن باديس فراسله ابن باديس سنة 1924، مباركا أعماله ومجهوداته في الإصلاح، أقلق هذا الموقف أصحاب الطرق الصوفية، لأن ابن باديس في نظرهم كان أكثر ليونة، ولم يرغبوا في أن يصير ابن باديس كالعقبي[2].

ويذكر المؤرخون للجمعية في هذا أن ابن باديس سعى الى إخماد نار الفتنة بين العقبي والطرق، وزاره في بسكرة لكنه فشل في مساعيه لصلابة موقف العقبي[3].

بالإضافة إلى هذا، فقد عرفنا في المبحث الأول أن الذي قام بالطرق المختلفة لصرف رجال الطرق الصوفية من الجمعية لم يكن ابن باديس، وإنما كان بعض الأعضاء ممن تبرأت الجمعية منهم بعد ذلك.

بالإضافة إلى هذا عند مقارنة ألفاظ السخرية والبذاءة التي كان يعبر بها الإبراهيمي أو الزاهري عن الطرق الصوفية نجد بونا شاسعا جدا، وسنرى هذا ببعض التفصيل عند الحديث عن أسلوب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

ولعل هذه المواقف المعتدلة من الطرق الصوفية تعود إلى نشأة ابن باديس الأولى التي كان لها علاقة بالطريقة الرحمانية، وقد ذكرنا في الفصل السابق العلاقة الحميمية التي كانت تربط

---

[1]) أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة: ح2، ص26.

[2]) بعلي مراد، الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر، ص168..

[3]) أحمد مريوش: العقبي، ص83..

ابن باديس بتلك الطريقة، فقد أشرف على تصحيح الطبعة الثانيــة لـ (المنظومة الرحمانية في الأسباب الشرعية المتعلقـة بالطريقـة الخلوتية) التي ألفها الشيخ عبد الرحمن باش تارزي.

وقــال في آخــر تصــحيحه للطبعــة: (نــدبني الشــيخ المــذكور مصطفى باش تـارزي إلى إعانتـه على نشـر المنظومـة الرحمانية بالوقوف على تصحيحها فلبيت طلبه راجيا من وراء ذلك أن يتـذكر الإخـوان مـا عليهم في هـذا الطريـق الشـرعي من الأدب العملي والعلمي، ويعلمــوا أنهم لا يكفيهم في ترقيــة نفوســهم مجــرد الانتسـاب الإسـمي، فيـدعوهم ذلـك إلى العلــم والتعلم اللـذين لا سعادة في الدارين بدونهما ولا تقدم، فيفقهوا حينئذ حقيقـة الـدين وينتفعوا بنصائح المرشدين، ويكونوا يوم ذلك إن شـاء اللـه تعـالى من المهتدين)

بل إنه في خاتمة الطبع بقلمه كتب يقـول: (تم طبـع المنظومـة الرحمانية ذات الأسرار الربانية الجامعة لأصول الطريقة الخلوتيـة، وآداب التربية الشرعية الدالـة على علم ناظمهـا وبركتـه بمـا نفـع الله بها من أتباعه وتلامذته)

إلى أن قال مثنيا على شيخ الطريقة الرحمانية في ذلـك الحين: (فقام بـذلك على نفقتـه العـالم البركـة الخـير الثقـة شـيخ شـيوخ الطريقــة الخلوتيــة بقســنطينة اليــوم المتحلى من أخلاق أســلافه بالنفائس الغالية السوم الشيخ سيدي مصطفى ابن الشيخ سـيدي محمود ابن الشيخ سيدي الحاج محمـد ابن الشـيخ سـيدي محمـود ابن الشيخ الأكبر سيدي الحاج عبد الرحمن باش تـارزي زاده اللـه من بره وتوفيقه وسدده في سلوك طريقه بمنه آمين)

بل أثنى عليه ثناء عطرا، فقال: (لا زال هذا الرجـل معروفـا من شبابه بجمـال العفـة، وحسـن السـمت، ومكـارم الأخلاق، والحيـاء التام، والتواضع الفطري مع جميع الناس) [1]

ولم يكن ثنـاء الشـيخ ابن بـاديس قاصـرا على رجـال الطريقـة

---

[1]) انظر: الشيخ عبد القادر عثماني، الطريقة الخلوتية الرحمانية طريقة قرآن وعلم وجهاد، ص5.

الرحمانية، بل إنه أثنى على الكثير من رجال الطرق الصوفية[1] مما لا نجد مثله عند أي عضو آخر من أعضاء الجمعية.

ومن الدلائل على هذا السمو الأخلاقي الذي كان يتمتع به على الرغم من توجهه الإصلاحي ما ذكره عند وصفه لرحلته إلى بعض المناطق في الغرب الجزائري، فعندما ذكر مستغانم، وعد من لقي فيها من العلماء والمشايخ ذكر الشيخ ابن عليوة، بل قدم له بهذا الوصف: (من غده دعا للعشاء معنا أعيان البلد منهم فضيلة الشيخ المفتي سيدي عبد القادر بن قارة مصطفى وسماحة الشيخ سيدي أحمد بن عليوة شيخ الطريقة المشهورة وكان هذا أول تعرفنا بحضرتهما فكان اجتماعا حافلا بعدد كثير من الناس)[2]

وقد ذكر ما حصل في ذلك المجلس وبعده، ونحب أن ننقله هنا كما وصفه ابن باديس لأنه يبين كيف كان يمكن للعلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية أن تستمر لولا وجود أولئك المتشددين

---

[1] من المشايخ الآخرين الذين أثنى عليهم ابن باديس الشيخ العلامة محمد بن عبد القادر بن عدة البوعبدلي شيخ الزاوية الشاذلية الدرقاوية بغليزان، وقد قال ابن باديس في حقه : (أول من اجتمعنا به من فضلائها الأخ الشيخ مولاي محمد أحد أهل العلم وشيخ الزاوية بها وهذا من شيوخ الزوايا الذين لهم رغبة في نشر العلم وهداية الناس وسعة صدر في سماع الحق وأدلته)

ومنهم (الشيخ العالم سيدي مصطفى بن طكوك شيخ الزاوية الشاذلية السنوسية ببوقيراط (مستغانم)، وقد صفه ابن باديس فقال: (فأكرم نزولنا وبتنا ليلة وودعناهم في صبيحتها، وحدثناه عن الجمعية فأظهر ابتهاجه بها وقدم مائتي فرنك لإعانتها)

ومنهم العلامة الفقيه العارف بالله سيدي بوعبد الله بن عبد القادر البوعبدلي شيخ الطريقة الشاذلية الدرقاوية البوعبدلية ببطيوة _ ارزيو، وهران، وقد أكثر ابن باديس من الثناء عليه وعلى سعة تبحره في العلوم فيقول : (نزلنا ضيوفا على العالم الأديب الشيخ أبو عبد الله آل أبي عبد الله، عالم فصيح اللسان، صحيح الإدراك، مستقيم الفكر، مهيب الطلعة، معترف له بالعلم والفضل) (انظر هذه الروايات جميعها في مجلة الشهاب : غرة شعبان 1350 هـ / ديسمبر 1931 م)

[2] آثار ابن باديس (4/ 311)

من المتشربين للأفكار الوهابية.

ونحن لا ننقلها من باب إثبات مدى اعتدال ابن باديس فقط، وإنما ننقلها لبيان مدى اعتدال مشايخ الطرق الصوفية وخصوصا الشيخ ابن عليوة.

يقول ابن باديس واصفا ذلك المجلس، وكيف أتيح له الكلام فيه في حضور المفتي وشيخ الطريقة، وهو موقف يدل على مدى احترامهما له:(ولما انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبة والأخوة ولزوم التعاون والتفاهم على أساسهما وأن لا نجعل القليل مما نختلف فيه سببا في قطع الكثير مما نتفق عليه، وأن الإختلاف بين العقلاء لا بد أن يكون ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق وذكرنا الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق وهم تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنة رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم-. فاستحسن الشيوخ الحاضرون ذلك وحل من الجميع محل القبول، والحق يقال أن أغلب الناس ممن رأينا صاروا يشعرون بألم الافتراق وينفرون منه ويصغون إلى دعوة الوفاق والتحاب)[1]

ثم يذكر ابن باديس دعوة الشيخ ابن عليوة له، فقال: (وما افترق المجلس حتى دعانا الشيخ سيدي أحمد بن عليوة إلى العشاء عنده والشيخ الحاج الأعرج بن الأحول شيخ الطريقة القادرية إلى الغداء فلبينا دعوتهما شاكرين، فكانت حفلة الغداء في دار الشيخ سيدي الحاج الأعرج ثم كانت حفلة العشاء عند الشيخ سيدي أحمد بن عليوة حضرها من أعيان البلد ومن تلامذة الشيخ ما يناهز المائة وبالغ الشيخ في الحفاوة والإكرام وقام على خدمة ضيوفه بنفسه فملأ القلوب والعيون وأطلق الألسنة بالشكر)[2]

ثم إن من دلائل اعتداله أنه قعد معهم في مجلس من مجالس الذكر، وبالهيئة التي يذكرون بها، فقال: (وبعد العشاء قرأ القارىء آيات، ثم أخذ تلامذة الشيخ في إنشاد قصائد من كلام الشيخ ابن

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 311

[2] آثار ابن باديس (4/ 312

الفارض بأصوات حسنة ترنحت لها الأجساد، ودارت في أثناء ذلـك مذاكرات أدبية في معاني بعض الأبيات زادت المجلس رونقا) [1]

وقد أثنى كثيرا على أدب الشيخ ابن عليوة، ومما قاله في ذلك: (ومما شاهدته من أدب الشيخ مضيفنا وأعجبت به أنـه لم يتعـرض أصلا لمسألة من محل الخلاف يـوجب التعـرض لهـا على أن أبـدي رأيي وأدافع عنه فكانت محادثاتنـا كلهـا في الكثـير ممـا هـو محـل اتفـاق دون القليـل الـذي هـو محـل خلاف. لكن السـيد أحمـد بن اسماعيل صاحب مخـازن الاتـاي- وكـان جالسـا على شـمالي في المجلس- شـاء أن يخـرق هـذا السـياج ويـدخل في موضـوع ليس حضرته- وله الاحترام- من أهل الكلام فيه فقال: هؤلاء المفسدون الذين يسمون أنفسهم مصلحين ينكرون الولايـة، فـرأيت في وجـه الشـيخ أحمـد بن عليـوة الإنكـار لهـذا الكلام الخـارج عن الـدائرة ووجدت نفسـي مضـطرا للبيـان فقلت لـه: إسـمع يـا سـيد أحمـد الولاية الشرعية قد جاءت فيها آية صريحة قرآنية" وتلوت له قوله تعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ} [يونس: 62]، وتكلمت على شـيء من معناها، فمن أنكر هذه الولاية. فلفظة مفسد قليل في حقه وحقـه أن يقال فيه ملحد. وأما لفظة مصلح فهي أعلى من هذا وأشــرف من هذا كله)[2]

ثم ذكر ابن باديس كلاما طويلا حكـاه لهم في بيـان موقفـه من الولاية ختمه بقولـه: (فلـو أن إخواننـا المنتمين للتصـوف قبلـوا أن يوزن كلام الشيوخ بميزان الكتاب والسنة مثـل غـيرهم من علمـاء الإسلام ورضوا بالرجوع الحقيقي لقوله تعالى: {فَـإِنْ تَنَـازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59] لبطل الخلاف أو قل)[3]

ثم أخبر عن تأثير هـذا الكلام في الحاضـرين، بمـا فيهم الشـيخ ابن عليوة نفسه، فقال: فرضي أهل المجلس هذا الكلام، وسـكت

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 312

[2] آثار ابن باديس (4/ 312

[3] آثار ابن باديس (4/ 313)

السيد أحمد بن اسماعيل، وقال الشيخ سيدي أحمـد: (هـذا ممـا لا يخالف فيـه أحـد، فقلت لـه: مثلكم من يقـول هـذا، وتكلم الشـيخ المفتي بما فيه تأييد لما قلناه)[1]

ثم ذكر كيف عاد المجلس إلى الإنشاد والمذاكرات الأدبية (حتى انتهت السـهرة، وانصـرف المـدعون ونحن من جملتهم شـاكرين فضل حضرة الشيخ وأدبه ولطفه وعنايته كما شـكرنا أدب تلامذتـه وعنايتهم بضيوف أستاذهم وخصوصا الشيخ عبده ابن تونس تلميـذ الشيخ الخاص)[2]

هذا شـاهد من شـواهد اعتـدال ابن بـاديس، ونحب أن نـبين أن هذه الرحلة قام بها ابن باديس في سنة 1931، وفيه رد بليغ على من يـزعم بـأن الطريقـة العلاويـة هي الـتي أرادت أن تغتـال ابن باديس.

بعد هذا نتأسف أن تكتم مثـل هـذه الشـهادات من البـاحثين ثم يقتصر فقط على تلك الأوصاف الشـنيعة الـتي وصـف بهـا الشـيخ الزاهري الشيخ ابن عليوة، ولسنا ندري أيهما أحكم وأعقل، وأيهما أقرب تمثيلا للجمعية: هل هو ابن باديس أم الزاهري؟ ولكن الكثير من الباحثين للأسف ينتهجون منهج الانتقاء، فيرفعون من يشـاءون رفعه، ويخفضون من شاءوا خفضه.

بالإضافة إلى هذا، فقد كـانت لابن بـاديس علاقـة طيبـة بـالكثير من الزوايـا، كالزاويـة الدردوريـة لأن أحـد أبنـاء هـذه العائلـة وهـو الشيخ عمر دردور[3] الذي كان من تلاميذ ابن باديس ثم من وجــوه الإصلاح في الأوراس بعد ظهور الجمعيـة، والإمـام ابن بـاديس قـد زار العائلة الدردورية في حيدوس، ونزل ضيفا عند دار الشيخ عمر

---

[1] آثار ابن باديس (4/ 313)

[2] آثار ابن باديس (4/ 313)

[3] عمـر دردور: من مواليـد 1913 في قريـة حيـدوس بـوادي عبـدي وفيهـا حفـظ القـرآن، درس بالزاويـة العثمانيـة بطولقـة، ثم اتجـه الى قسـندلينة ليلتحـق بطلبـة الجامع الأخضر، والأخذ عن الإمام ابن باديس الذي لازمـه مـدة 5سـذوات، مؤسـس الشعبية الأوراسية لجمعية العلماء سنة1936، (انظر: صلاح مؤيد، الزوايـا والطـرق، ص803. علي عزوزي: زاوية ال دردور، ص39)

دردور 1933 في إطار جولة قام بها الى المنطقة.

بالإضافة إلى هذا كله، فإنا نرى أن الكثير من مواقف ابن باديس تختلف اختلافا جذريا عن التوجه السلفي المحافظ، بل تجعله أميل إلى التصوف منه إلى السلفية، وهذه بعض الأمثلة على ذلك:

1 ـ من المتفق عليه عند السلفية عموما إنكار التوسل إلى الله، بل اعتباره شركا، لكن ابن باديس يخالف ذلك، بل يروي الحديث الذي يجمع السلفية على كتمانه، وكان في إمكانه أن يختار غيره من الأحاديث ليشرحه، وقد كان ما ذكره فيه من إيراده له وشرحه مثار سخط من السلفية الحديثة التي تعتبر القول بشرعية التوسل كالقول بشرعية الشرك.

والحديث المشار إليه هو ما حدث به عثمان بن حنيف: أن رجلا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني قال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت، فهو خير لك. قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي اللهم فشفعه في)[1]

وقد بدا ابن باديس في شرحه للحديث كالصوفية المحدثين الذين ينتصرون لأمثال هذه النصوص، فقد حاول جهده أن يبين صحته، وكأنه يرد بذلك على من يريد تضعيفه، فهو يقول – تحت عنوان (رتبة الحديث العلمية والعملية): (قال فيه الترمذي: حسن صحيح غريب)

ثم شرح هذه المصطلحات، وحاول من خلالها أن يركز على غرابته كما يفعل الاتجاه السلفي، ولكنه عكس ذلك تماما، بل قال:(وما يقول فيه أبو عيسى الترمذي: حسن صحيح أقوى مما يقول فيه حسن فقط، لأن وصفه بالصحة مع وصفه بالحسن يفيد أن خفة الضبط في بعض رجاله تكاد لا تؤثر عليه حتى كأنها لم تحطه عن رتبة الصحيح التام.. وأما الغريب فهو ما انفرد بروايته راو فقط وإذا كان ذلك المنفرد ثقة فذلك الانفراد لا يضر فالغرابة لا تنافي الصحة والحسن.. وصححه أيضا ابن ماجة والحاكم

---

[1]) محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح سنن الترمذي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون، (5/ 569)

والبيهقي والطبراني)[1]

ثم خلص من دراسة السند إلى نتيجة عبر عنها بقوله: (فبعدما عرفنا من حال سنده وتصحيح هؤلاء الأئمة له حصل لنا العلم الكافي- وهو الظن الغالب- بثبوته، وحيث كان بهذه المنزلة من الثبوت فإنه صالح لاستنباط الأحكام الشرعية العملية منه)[2]

بعد دراسة الشيخ ابن باديس للسند وتصحيحه له، كان في إمكانه أن يؤول الباء في المتن كما يفعل السلفيون، ولكنه لم يفعل، بل نص على أن الباء تفيد الاستعانة، بل تفيد التوسل، فقال: (و (الباء) في بنبيك وفي اني توجهت بك هي باء الاستعانة، والمستعان به هو السبب الحصل للمستعان عليه ولذلك جعل بعضهم باء الاستعانة من باء السببية، فالنبي- صلى الله عليه وآله وسلم- مستعان به على السؤال أي على نجح السؤال بحصول الشيء المسؤول من الله تعالى، ومستعان به على التوجه بمعنى القصد أي على نجح ذلك القصد بحصول المطلوب منه تعالى فهو متوصل به إلى نجح السؤال ونجح القصد، وكل ما يتوصل به إلى الشيء يقال فيه وسيلة إليه، فالسؤال به توسل به، فيمكن أن تسمي هذه الباء باء التوسل، وهي الداخلة على ما هو وسيلة في حصول شيء)[3]

وكان في إمكانه بعد هذا أن يقصر التوسل على النبي ﷺ في حياته فقط، ويعتبر التوسل به بعد وفاته شركا كما يرى ابن تيمية والسلفيون، ولكنه لم يفعل بعد ذكر القولين جميعا، واعتبرهما وجها في الحديث، فقال: (ثم انه توسل بذاته بحسب مقامه عند ربه وهذا على الوجه الأول من الوجهين المتقدمين في فصل التراكيب أو توسل بدعائه، وهذا على الوجه الثاني منهما. فمن أخذ بالوجه الأول قال يجوز التوسل بذاته، ومن أخذ بالوجه الثاني قال إنما يتوسل بدعائه، ثم ان من أخذ بالوجه الأول فهذا الدعاء حكمه باق بعد وفاته كما كان في حياته، ومن أخذ بالوجه الثاني لا يكون بعد وفاته. لأن دعاءه إنما كان في حياته لمن دعا له. فالوجهان المتقدمان- كما ترى- هما مثار الخلاف في جواز

---

[1] آثار ابن باديس: 3/188.

[2] آثار ابن باديس: 3/188.

[3] آثار ابن باديس: 3/188.

التوسل بذاته وعدم جوازه، فمن أخذ بالوجه الأول جـوز ومن أخـذ بالثاني منع)[1]

بـل إن الشـيخ ابن بـاديس لم يكتـف بمناصـرة التوسـل، بـل مارسه، واعتقد تأثيره، فقد حدث عن نفسه قال: (نصحني سـيدي الطالب إذا يسر الله لي زيارة القبر الشريف أن أسأله عليه وآلـه الصلاة والسلام الشفاعة، وقد يسر الله لي ذلك وله الحمد والمنة منـذ عشـرين سـنة، وقـد دعـوت اللـه وحـده وتوسـلت لـه بنبيـه وتوجهت إليه به أن يميتني على ملته، ويجعلـني من أنصـار سـنته، وأهل شفاعته، إلى أشياء أخرى قد استجاب الله تعالى بعضه، وأنا أرجو الاستجابة في الباقي)[2]

وهكذا عند حديثـه عن أدب العـارفين مـع رسـول اللـه ﷺ، فقـد قال: (اعلم أن السادة العارفين هم أرسخ الناس قـدما في محبـة النـبي - صـلى اللـه عليـه وآلـه وسـلم- وتعظيم حرمتـه، ومراعـاة شريف جانبه، وتعزيزه وتوقيره وبره. تجد ذلك في صلواتهم عليه، وفي أدعيتهم لله تعالى عند ذكره، والتوسل به، وفي مناجاتهم لـه عند الشوق إليه، وفي تأليفهم عنـد الكلام في حقـه. وهـذه أشـياء مرويـة عنهم، معروفـة منهم، لا تحتـاج إلى شـاهد ولا تخفى على طالب بل هم أكثر الناس أدبا مع شيوخهم ومربيهم ومريديهم، بـل هم آدب الناس من جميع الناس)[3]

وبناء على هذا ذكرنا أنـه لـو كـان الأمـر لابن بـاديس صـرفا في رئاسة الجمعية لما أصـبحت عـدوا لـدودا للطـرق الصـوفية، ولمـا انشغلت بما انشغلت به من جزئيات، ولقبلت الصلح مع المخالف، أو على الأقل قبلت المناظرة معه.

2 ــ مخالفتـه للاتجـاه السـلفي الـذي يعتـبر القـول بـأن والـدي رسـول اللـه ﷺ في النـار من مقتضـيات العقيـدة السـلفية، وقـد خالفهم ابن باديس في هذا، وشنوا عليه حملة شديدة بسبب هـذا، وقد استدل على ذلمك بقوله تعالى: {وَمَـا كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15] ، و{أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَـذِيرٍ فَقَـدْ جَـاءَكُمْ بَشِـيرٌ وَنَـذِيرٌ } [المائـدة: 19]، وغيرهمـا، ثم قـال:

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 191

[2] آثار ابن باديس (3/ 37)

[3] آثار ابن باديس (3/ 160)

(وكلها آيات قواطع في نجاة أهل الفترة، ولا يستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نص ثابت خاص كعمر بن لحي أول من سيب السوائب وبدل في شريعة إبراهيم وغير وحلل للعرب وحرم فأبوا النبي ﷺ ناجيان بعموم هذه الأدلة)[1]

ثم إنه رد الحديث الوارد في ذلك مع علمه بأنه ورد في صحيح مسلم، وهذا ما أثار عليه سخط الاتجاه السلفي، فقال: (ولا يعارض تلك القواطع حديث مسلم عن أنس: أن رجلا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار. فلما قفا الرجل دعاه فقال: إن أبي وأباك في النار)[2]

ثم علل ذلك بكونه (خبر آحاد فلا يعارض القواطع وهو قابل للتأويل، يحمل الأب على العم مجازا يحسنه المشاكلة اللفظية ومناسبته لجبر خاطر الرجل وذلك من رحمته ﷺ وكريم أخلاقه)[3]، وذلك نفس ما يقوله الصوفية ومن هو على شاكلتهم تماما.

3 ــ لاحظت عليه أدبا عظيما عند ذكر رسول الله ﷺ فهو لا يكتفي بالصلاة العادية عليه، وإنما يشفعها دائما بالصلاة على آله، بل أفرد فصلا خاصا بالصلاة عليه وعلى آله، وهو يشبه في هذا الصوفية تماما في تعظيمهم لآل بيت النبوة[4].

4 ــ أن ما كتبه من فتاوى في الرد على الصوفية – وإن ذكرنا شدته فيه، وبعده عن مقتضيات المنهج العلمي من التحقيق والتوثيق[5] - إلا أنه كان فيه من حيث القصد صحيح، فقد دافع فيه عن رسول الله ﷺ ضد من تصور أنه أساء إليه، كما سنرى ذلك بتفصيل في محله.

5 ــ أنه لم يتحدث بتلك اللهجة الشديدة التي تحدث بها الشيخ مبارك الميلي أو العقبي أو غيرهما حول ما يفعله الصوفية من

---

[1] آثار ابن باديس (2/ 72)

[2] مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، 1/191.

[3] آثار ابن باديس (2/ 72)

[4] آثار ابن باديس: 1/305.

[5] سنتحدث عن فتاواه بتفصيل في الفصل الخاص بأساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية.

زيارة الأضرحة، ونحوها، بل نجد بعض النقول من مصادر موثوقة، بأنه كان يرى شرعية زيارة الأضرحة، كشأن الصوفية، وكشأن الكثير من العلماء المرتبطين بهم، وأعتذر للقارئ قبل تلك إيراد تلك الروايات على أني أعتمد فيها فقط على ما ذكره الشيخ عبد القادر عثماني شيخ الزاوية الرحمانية بطولقة[1]، والتي كان لابن باديس علاقة بها، وثقتي فيه لا تقل عن ثقتي في أبناء الجمعية الذين حاولوا أن يصوروا ابن باديس وهابيا جلفا غليظا، ومما ذكره الشيخ عبد القادر عثماني، بل ردده كثيرا في محاضراته أن من مراسلات الشيخ ابن باديس للشيخ الطاهر العبيدي الصوفي الذي سبق أن تحدثنا عنه – وكان أحد كبار علماء الجزائر وسيد من سادات الطريقة الرحمانية، وقد سبق ذكره وترجمته – رسالة مهمة أسدل عليها ثوب النسيان.

ونحب أن نذكر الرسالة هنا كاملة لنكتشف من خلالها الجانب الخفي من شخصية ابن باديس، والذي لم يتح له أن يظهر بسبب الوضع الذي كان فيه، قال في الرسالة: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم، إلى حضرة علم العلم والفضل، ومعلم الكرم والنبل، التقي الطاهر، الأثواب السري البارع للأدب، مستحق الشكر منا بما له علينا من سابق الأيدي العلامة الشيخ سيدي أبي الطيب الطاهر العبيدي، أدامه الله بدرا طالعا في هالة درسه، وغيثا هامعا في ربع العلم، من بعد طمسه حتى وحشة قطره بأنسه، ويحقق من بساتين تلاميذه ثمرات غرسه آمين.

وبعد : سلام كما تفتحت الأزهار في نسمات الأسحار، وتحية تحيي قديم التذكار وإن شطت الديار، فإني كتبته إليكم من حضرة قسنطينة، يوم قدومي من رحلة كنت أعملتها من ناحية الجزائر وتلمسان، لزيارة الأحياء والأموات من العلماء والصلحاء وأعيان الزمان، فتشرفت بسادات كثيرين منهم العلماء والصالحين، ومن أعظم الجميع قدرا وأشهرهم ذكرا، سيدي أبي مدين الغوث، وسيدي محمد السنوسي بتلمسان، وسيدي محمد بن عبد الرحمن، وسيدي عبد الرحمن الثعالبي بالجزائر، ودعونا للمومنين عامة وإخواننا أمثالكم خاصة، بما نرجو من الله تعالى

[1]) عبد القادر عثماني: الزوايا والتعليم الديني، مجلة الامام مالك بن أنس ع، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة 2002، ص 20.

فيه القبول وبلوغ المأمول، وذكرت لكم هذا لمـا أعلمـه فيكم من محبـة الصـالحين، وإن أمكنت لي الفرصـة إن شـاء اللـه تعـالى كاتبتكم عن هذه الرحلة بمزيد تفصـيل، ووافى كتـابكم في غيـابي في هذه الرحلة ،، فلما قـدمت وقبلتـه كرمتـه على غـيره وقبلتـه، وكان ما داخلني من السرور، لكون خطابه مخففا لما غشـيني من الخجل لمرّ عتابه، ولك العتبى يا سيدي فيما ذكرته ومنـك الفضـل فيما به ابتدأت وتفضلت فقد باغتتني القصـيدة الغـراء الـتي راقت ورقت واسـتوجبت الحمـد، واستحسـنته، فنظـرت إلى أوصـافك الكريمة، فحليتني بها ونسـبتني إليهـا، ببركـة محبتـك الخالصـة مـا ظننت، ويجازيك بالخـير الجزيـل على مـا فعلـت، هـذا وإني مـا أخرت الجواب متهاونـا – أستغفر الله – ولا متكاسلا، ولكن حسبت أني أجبتكم فيمن أجبت، حتى جاء كتابكم فعلمـت أنني غالط فيما ظننت، فبـادرت بهـا متحـاملا على حلمـك، معتمـدا على فضلـك، والعفو يا سيدي من شيم أمثـالكم لا أعـدمني اللـه من أفضـالكم، وأقول :

إن كنت قـــد قصـــرت في الكتابة واللـــه مـــا ملت عن ودادي

وإنمـــا كـــان ذلـــك مـــني عن غفلـــة ليس عن مـــرادي

فســـامحوا طـــاهري بفضل وحســـبكم مســـكنا فـــؤادي

ويعـود من العبـد وجماعتـه السـلام عليكم وعلى جمـاعتكم، وأحبائكم كلهم لديكم، وكثير الدعاء لكم بالخير، طالبا منكم مثلـه، أخوكم وشاكر فضلكم ومملوك إحسانكم)[1]

وقد ذكر الدكتور عبد الله حمادي – على حسب ما يذكر الشـيخ عبد القـادر لأني لم أطلـع على المصـدر مباشـرة- أن ابن بـاديس وجه هذه الرسالة للشيـخ الطاهر العبيدي عـام 1916 م أو 1917 م تقريبا، و(أن عبد الحميد بن باديس كان في شـبابه كثـير الـتردد

[1]) العياشي دعدوعة: الطريقة الرحمانية علمية جهادية إصـلاحية، جريـدة الأحـرار، عدد 721، 15 جويلية 2000، ص16

على أضرحة الأولياء والصالحين، وذلك للتبرك بهم) [1]

وذكر الشيخ عبد القادر عثماني أن الشيخ عبد الحميد بن باديس زار طولقة وبرجها، للتبرك بضريح الشيخين ابن عزوز وعلي بن عمر، وربما كان ذلك في حدود 1925 م أو 1926 م ومما قاله في زيارته:

عوجوا نحيي منازل الأمجاد ونؤدي حق زيارة الأسياد

و نحط أرجلنا بدار كرامة مبذولة الروضات للرواد

فهي الملاذ لكل جان خائف وهي الشفا من وصمة الأنكاد

ما بين طولقة فبرج حيث تبصر نور أهل الله في إصعاد

بالإضافة إلى هذا كله، فقد عبر ابن باديس – وكأنه يرد على المتشددين من علماء الجمعية- عن المنهج الصحيح في التعامل مع الكافر أو المبتدع، فقال: (فلا يقال للكافر عند دعوته: (إنك من أهل النار)، ولكن تذكر له الأدلة على بطلان الكفر وسوء عاقبته، ولا يقال للمبتدع: (يا ضال)، وإنما تبين له البدعة وقبحها) [2]

هذه بعض الأدلة الدالة على مدى اعتدال ابن باديس، وهي لا تعني أنه لم ينكر ما يتصوره بدعا، ولم يقف أحيانا مواقف شديدة بسبب ذلك كموقفه الصارم من دعوة الصلح بين جمعية العلماء وبين الطرق الصوفية، وبين في رده أن الصلح من الأمور المحمودة التي دعا إليها الإسلام، ولكن الصلح لا يكون صلحا إلا إذا لم يحرم حلالا ولم يحل حراما، ولم يمت سنة ولم يحي بدعة ولم يقر منكرا ولم ينكر معروفا[3].

---

[1] عبد القادر عثماني: الزوايا والتعليم الديني، مجلة الامام مالك بن أنس ع، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة 2002، ص 20.

[2] آثار ابن باديس: 1/286.

[3] الصراط، عدد08، السنة الأولى 29 ماي 1933، ص01.

إلا أنا نرى أن ما فعله من مثل هذه المواقف كان مدفوعا فيه من طرف بطانة من المتشددين كانت تحيط به، ولهذا نجد اختلافا كبيرا في مواقفه قبل توليه رئاسة الجمعية، وبعدها، مع كونه في كلتا الحالتين يميل إلى الاتجاه السلفي بنوعيه، ولكنه في المرحلة الأولى كان يضم إليه بعض التصوف المعتدل.

6 ـــ أنه أثنى على الطريقة السنوسية خصوصا مع كونها تمارس نفس ما تمارسه الطرق الصوفية الأخرى، وتعتقد عقائدها، ولكنها أكثر انضباطا، فقال في مقال تحت عنوان (الصوفي السني بين الحكومة السنية والحكومة الطرقية)، ومما جاء فيه قوله: (أما الصوفي السني فهو الإمام المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي الذي توفاه الله منذ أشهر بالمدينة المنورة فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح وكانت دعوته إلى الله وإرشاده للعباد بهدايتهما وكانت تربيته لأتباعه مبنية على التفقه في الدين والتزام العمل به والزهد والصبر وحفظ الكرامة)[1]

ثم ذكر أن الحكومة الطرقية (هي حكومة مصر التي تشارك المشاركة الرسمية في بدع المواليد وتؤيد تأييدا رسميا الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر مما تضج منه صحافتها كل يوم فضلا عن العلماء المصلحين من أمتها. ويواطؤها على هذا علماؤها الرسميون بسكوتهم وإقرارهم وأحيانا بدفاعهم وتأويلاتهم)[2]

وهذان النصان يدلان على المنهج الباديسي في التعامل مع الطرق، فهو ينكر منكراتها، لا أصلها، ونحسب أنه لولا البطانة المتشددة التي كانت محيطة به لمد يده للشيخ ابن عليوة والشيخ الحافظي وأسسا كيانا يستحيل اختراقه، كيانا لا يخدم الجزائر وقت الاستعمار فقط، ثم يسلم الراية، بل يظل مستلما لها.

الشيخ أبو يعلى الزواوي:

لا يقل الشيخ أبو يعلى سعيد بن محمد الزواوي[3] عن ابن باديس اعتدالا، فهو مع كونه يصرح كثيرا بكونه سلفيا إلا أن

---

[1] آثار ابن باديس: 3/48.

[2] آثار ابن باديس: 3/49.

السلفية التي يقصدها – على حسب ما أرى – هي سلفية الإصلاح، والوقوف في وجه البدع والانحرافات لا المنهج الاستئصالي الذي كان ينادي المتشددون من أعضاء الجمعية.

ولعل السر في هذا الاعتدال هو نفس السر في اعتدال ابن باديس، وهو كونه مولودا في بيئة صوفية، فقد صرح في أحد مقالاته بقوله: (نعم كنت قبل أربعين سنة خلوتيا) أي حوالي سنة 1907، وبالتالي عاين ممارسات الطرق الصوفية عن كثب لا عن وصف بعيد، فقد درس في زاوية الشيخ عبد الرحمن الإيلولي المشهورة في فترة كان التصوف هو السائد فيها، وفي تلك المناطق عموما[1].

بالإضافة إلى كون الشخصيات التي لقيها أو استفاد منها أو تأثر بها هي الشيخ محمد بن سعيد بن زكري الذي تأثر به أبو يعلى كثيرا، والشيخ محمد بن بلقاسم البوجليلي والعلامة طاهر

---

[3]) ولد سنة 1866 في ناحية عزازقة ولاية تيني وزو حاليا، كان أبوه إماما في تلك القرية فتتلمذ على يده، أخذ عنه الفقه والقراءات والنحو ثم انتقل إلى زاوية عبد الرحمن الإيلولي المشهورة في فترة كان التصوف هو السائد في تلك المناطق، بعدها انتقل إلى دمشق وأخذ عن كثير من علمائها وعمل فيها ثم انتقل إلى مصر في أوائل الحرب العالمية الأولى وكان من شيوخه فيها الشيخ محمد بن سعيد بن زكري الذي تأثر به أبو يعلى كيرا والشيخ محمد بن بلقاسم البوجليلي والعلامة طاهر الجزائري ومن أقرانه رشيد رضا والشيخ محمد الخضر ومحمد كرد وشكيب أرسلان ومحمد عبده، ثم عاد إلى الجزائر سنة 1920 فأسندت إليه وظيفة الإمامة في مسجد سيدي رمضان، وأخذ الشيخ يناضل فيه عن فكرته الإصلاحية.انظر في ترجمته: الأفكار الإصلاحية في كتابات الشيخ أبي يعلي الزواوي، محمد أرزقي فراد، دار الأمل، ط. 2009، وتاريخ الجزائر الثقافي، من كتبه (الخطب) و(الإسلام الصحيح) و(تاريخ زواوة) و(جماعة المسلمين) وله مؤلفات أخرى، عاش الشيخ قرابة ستة وثمانين سنة وتوفي.بمرض البروستاتة أول جوان سنة 1952 الموافق ل 08 رمضان 1371 ه، انظر في ترجمته: أبو القاسم سعدالله، ج 8 ص 121-125، دار البصائر الجزائر، ط. 2007، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الحديث، أبو القاسم سعد الله، ج 2 ص 145، عالم المعرفة الجزائر، ط. 2009.

[1]) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 2، ص 71.

الجزائري، والشيخ رشيد رضا، والشيخ محمد الخضر ومحمـد كـرد وشكيب أرسلان ومحمد عبده، وغيرهم من التنويريين، ولهذا فـإن توجهه تنويري أكثر منه سلفي.

ومما يدل على هذا التوجه التنويري أنـه يـدافع عن حـق المـرأة في الميراث منتقدا أوضاع الزواوة في ذلك كمـا دعـا إلى تعليمهـا وتربيتها، ودعـا إلى إصـلاح التعليم في الزوايـا جملـة وتفصـيلا من حيث المواد التي تدرس فيها ومنهج إلقائها والنظام الـذي يجب أن تكون عليه، كما كانت له إسـهامات في السياسـة حـتى قيـل: إنـه أول سياسـي طـالب باسـتقلال الجزائـر حيث راسـل بعـد انتهـاء الحــرب العالميــة الأولى (1914-ــ 1918) الــرئيس الأمــريكي ولسون.

بالإضـافة إلى هـذا كـان مهتمـا بـالعلم الـذي يقتضـي المطالعـة والدراســة والبحث على عكس المتشــددين من أعضــاء الجمعيــة والذين كانوا أميل إلى الأدب والخطابة[1] والشــعر منهم إلى العلم، ولهذا كان من رجـال الفتـوى في الجمعيـة إذ وكلتـه إدارة جريـدة (البصائر) في مهدها على رئاسة لجنة الفتوى فيها.

ومن مواقفه الدالة على اعتداله:

1 ــ قولـه عن الشـيخ ابن عليـوة الـذي تشـدد معـه الكثـير من أعضاء الجمعية : (صاحبي ابن عليـوة...أشـهد الآن بين يـديكم أني ما عرضت وما أمرت ولا نهيت الشيخ العليوي إلا استحسن وسـلم حتى قال: إن حملاتك إن كـانت علينـا مقبولـة وإن كـانت لنـا فهي أحسن لنا، ويخاطبني قائلا: إنـك بنظريتـك السياسـية والاجتماعيـة ننقاد إليك ونعمل بإشارتك، وما زال وما زلت طامعا في، وطامعـا فيه، أي بأن نتفق على كتاب الله وسنة رسـوله، وصـرح لي أمـام جمـع أنـه إذا ظهـر لكم – معشـر الإخـوان- في الـدين والـوطن والجنس – أن نتفق على جميع مـا يخص المسـلمين والوطنـيين ... ولم أر ولم اسمع من غيره من الشيوخ الذين عرفتهم إلا الصــدود وتعير الخدود ومقتي بأني كافر بهم ومبدعهم، وقلت لكم وما زلت أقول أنه – أن الشيخ ابن عليـوة يقـول لكم: (مـروا جميـع رؤسـاء

---

[1]) وهذا لا يعني أنه لم يكن خطيبا، فقد عرف الشيخ بخطبه المرتجلة الحماسية مع القدرة العجيبة في الإقناع.

الطرق لنجتمع ونتفق على الموافق للكتاب والسنة وللأمة)[1]

2 ــ قوله بأن في الطرق الصوفية علماء، وهو ما أثار عليه سخط الكثيرين، مما اضطر بعض رجال الجمعية للدفاع عنه، وممن دافع عنه الشيخ الطيب العقبي في مقال نشر في الشهاب ردا على من انتقص الشيخ جاء فيه: (ألا ما أشفقتما عليه أو رحمتما شيخوخته وسلفيته الصادقة، وتركتماه لنا عضدا قويا وشيخا سلفيا ...وهو من قد عرفتماه فضلا ومعرفة وسبقا إلى مذهب السلفية، كما عرفتما مقدار مقدرته في الكتاب وبحثه وتنقيبه)

وقال الشيخ مبارك الميلي: (الشيخ الجليل العالم السلفي الأستاذ أبي يعلى الزواوي الذي لقبه الأخ الشيخ الطيب العقبي شيخ الشباب وشاب الشيوخ وكل من عرف هذا الشيخ وأنصفه اعترف له بهذا اللقب وسلم له هذا الوصف)

وقال أحمد توفيق المدني: (وإذا ذكرت الرجال بالأعمال فإني أذكر العلامة الكبير الشيخ سيدي أبا يعلى السعيد الزواوي، أذكره بتأليفه القيم الإسلام الصحيح الذي نسف به الخرافات والأوهام في الأفكار العامة) [2]

المطلب الثاني: الموقف المتشدد:

وهو الذي يرى التصوف شيئا واحدا، وأنه كله زندقة وضلال وكفر، وأنه بدعة حادثة لا تحتاج إلا إلى الاستئصال من الجذور، وهذا الموقف – في الحقيقة - يكاد يصير الموقف العام للسلفية الحديثة بغض النظر عن توجهاتها المختلفة، وللأسف كان من أعضاء جمعية العلماء من يميل إلى هذا الرأي، وينتصر له.

وهو ليس موقفا حديثا، بل كان هناك في كل جيل من يحمل مثل هذا التصور، ولهذا نجد في سير أعلام الصوفية وطبقاتها الكثير من الأذى والاضطهاد الذي لم يصب فقط المغالين فيهم، وإنما أصاب المعتدلين أيضا الذين تكاد تتفق الأمة على صلاحهم.

وقد اشار الإبراهيمي الى وجود هذا النوع من المتشددين

---

[1]) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة، ج 2، المصدر نفسه. ص 71.

[2]) نقلت هذه النصوص من موقع الموسوعة الحرة في ترجمة أبي يعلى الزواوي، (http://ar.wikipedia.org)

ومطالبة الطـرق الصـوفية بعـزلهم، فقـال: (وهم يقولـون عنّـا لـو أسقطوا من حسـابهم فلانًـا وفلانًـا لـ ... ولا يـأتون في جـواب (لـو) هذه بشيء سديد ونحن يحقّ لنا أن (نكاشف) ولو مرة في العمـر فدعوني آخـذ نوبـتي في المكاشـفة عن جـواب (لـو) هـذه وهـاكم تركيب الجملة (لو أسقطوا من حسابهم فلانًا وفلانًا (لاثـنين) لقلنـا لهم أسقطوا فلانًا وفلانًا لاثنين آخرين حـتى لا يبقى ... وفـاتهم أننـا تسعة كما يقولون وهذا الإسقاط الذي يطلبونه يتناول اثنين اثـنين، فلا بدّ من بقاء واحد. والسر في ذلك الواحد ... وما قولكم في ذلك الواحد إذا صاح صيحة الحق فـاجتمع عليـه تسـعمائة وابتـدأ الأمـر بأشـدّ ممـا انتهى بـه. ألا يكـون ذلـك أنكى عليكم؟ أم تظنـون أن تنـويمكم ضـرب على المشـاعر الحسّاسـة كلّهـا، وإن ذكـركم ملأ الآذان حـتى لم تعـد تسـمع صـيحة الحـق، ومـتى أنـار الـدنيا هلال مقنع؟ يا قوم، اظهروا ما تجمعون به وتعالوا نتساقط على الكيـف لا على الكم كمـا تريـدون ونحن تسـعة كمـا تقولـون وأنتم تسـعة آلاف ... فيوشـك إن فعلتم أن لا يسـقط منـا اثنـان حـتى تسـقطوا جميعًـا لأن نسـبتكم من العمـل الـذي تدعونـه نسـبة الـزؤان من القمح وعند الغربال الخـبر اليقين. إنهـا لخدعـة الصـبي على اللبن كما يقول علي، كرّم الله وجهه)[1]

ثم بين الشيخ الإبراهيمي أن المسألة ليسـت مسـألة أشـخاص، وإنمـا مسـألة مبـادئ، فقـال: (على أن المسـألة ليسـت مسـألة أشـخاص، فنحن نـرى أن الإصـلاح مبـدأ وفكـرة وأنتم ترونـه زيـدًا وعمرًا.. ونحن نرى أن هذه الفكرة أو هذا المبـدأ إن لم يقم بفلان قـام بغـيره وأنتم تـرون أنـه إن لم يكن فلان لم يكن مبـدأ. ونحن نرى أن فرقًا بين جمعية تتكوّن حول مبدإ اقتضـاه تـدبير الاجتمـاع الإنسـاني فهي مترابطـة بجاذبيـة مبـدإ وهي ذائبـة في مبـدإ وهي دائبة في العمـل للمبـدإ وبين جمعيـة تتكـوّن حـول نفسـها لتنصـر نفسها بنفسها فتنصر مدبرًا بمدبر وتدافع مـا لا يـدفع بمـا لا يـدفع ويكون من أول أكاذيبها على الناس أن تكذب في اسمها)[2]

بناء على هذا نحاول أن نذكر هنا بعض النمـاذج عن المتشـددين

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 126)

من رجال الجمعية، مع العلم أننا سنتحدث عن مواقفهم المختلفة بتفصيل في محالها المناسبة من هذه الرسالة.

الشيخ الطيب العقبي:

نرى من خلال مواقف وكتابات الشيخ الطيب العقبي أنه أكثر علماء الجمعية تشددا، بحيث لا يجاريه في تشدده أحد، بل نرى أنه عدى بتشدده الكثير من أعضاء الجمعية، لما كان يحظى به من قدرات مكنته لا من التسلط على قلوب العوام فقط، بل على قلوب الخواص أيضا، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

ولهذا اعتبره الشيخ الإبراهيمي (من أكبر الممثلين لهديها ــ أي الجمعية ـ وسيرتها والقائمين بدعوتها، بل هو أبعد رجالها صيتا في عالم الإصلاح الديني وأعلاهم صوتا في الدعوة إليه... وإنما خلق قوالا للحق أمارا بالمعروف، نهاء عن المنكر وقافا عند حدود دينه، وإن شدته في الحق لا تعدو بيان الحق وعدم المداراة فيه وعدم المبالاة بمن يقف في سبيله)[1]

والسر في تشدده بسيط، فقد عاش في الحجاز في فترة كان للوهابيين فيها سلطة وسطوة سواء على المستوى السياسي أو الدعوي[2]، وكان له نشاط صحفي إصلاحي قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، وعند عودته إلى الجزائر سنة 1920 قرر إصدار جريدة عربية إصلاحية بعنوان (الإصلاح) تنشر فيها أفكاره الإصلاحية وترد على الطرق الصوفية متأسيا في ذلك بما رآه في الحجاز من تشدد ومبالغة، فأقام حربا شعواء على الطرق.

وقد ذكر الإبراهيمي الأثر الكبير الذي أحدثته جريدته، فقال: (فكان اسمها أخف وقعا، وإن كانت مقالاتها أسد مرمى وأشد لذعا)[3]

وكتب عنها الشيخ ابن باديس، وبشر بقرب صدورها فقال: (ستصدر تحت الاسم أعلاه جريدة لخطيب السلفيين وشاعرهم

---

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 126)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 267)

[2] على الرغم من كونه كان مع الشريف حسين لا مع الوهابيين، ولكنه مع ذلك تأثر بالكثير من أفكارهم التي كانت تنتشر في العالم الإسلامي أجمع في ذلك الحين.

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 184)

الزعيم الكبير الشيخ الطيب العقبي، بحسبي التنويه بما ستجمل به الإصلاح الصحافة الجزائرية من آيات البيان، وغرر البلاغة، وفنون الكلام، وبديع الأساليب، وما تخدم به حزب الإصلاح الديني من آيات الحكمة وقواطع الحجة في أبواب الدعوة ومطارح الجدل، بحسبي ذلك أن أقول إنها للأستاذ العقبي، فقد عرفه الناس في مجالسه وما نشرته الصحف من كلامه، الخطيب المفوه، والكاتب الضليع)[1]

وقال فيه – ملمحا إلى تشدده - : (الأستاذ العقبي أشهر من أن نعرف به، ونتحدث عن ثباته، وإخلاصه وصراحته وجراءته، ولقد كان منذ أيام الحجاز وحل ببلدة سيدي عقبة معلنا بكلمة الحق داعيا إلى الكتاب والسنة، منكرا لشرك القبوريين، وبدع الطرقيين، وكان له من جراء ذلك أعداء، وكان له خصوم، وكانت له معهم مواقف وكانت له عليهم ردود)[2]

وقد سببت له تلك الشدة الكثير من المعاناة مع سكان بسكرة، حتى أنه عانى لاستصدار جريدته، ويدل لذلك أن العدد الأول من صحيفته صدر في 12 ربيع الأول 1346 هـ ولم يصدر العدد الثاني إلا في أول سنته الثالثة 2 ربيع الثاني 1348 هـ.

وقد ذكرنا من قبل وصف وصفه الشيخ أحمد حماني له بقوله: (كان أحد أقطاب الحركة الإصلاحية، وكتابها النابهين، وكان يميل في أسلوبه إلى الشدة والعنف والصراحة المريرة)[3]

الشيخ مبارك الميلي:

هناك أدلة كثيرة يمكن من خلالها اعتبار الشيخ مبارك الميلي[4]

---

[1] الشهاب العدد 106 / جويلية 1927 ص 7.

[2] الشهاب العدد 115 ص 17

[3] صراع بين السنة والبدعة: ح2، ص26.

[4] انظر في ترجمته: رواد النهضة والتجديد في الجزائر (1889 -ـ 1965)، د. عبد الكريم بن صفصاف، ص 98-110، دار الهدى، عين مليلة، ط.2007، وأحداث ومواقف في مجال الدعوة الإصلاحية للحركة الوطنية بالجزائر، محمد الصالح بن عتيق، ص 49-54، منشورات دحلب الجزائر، نبذة مختصرة عن العلامة الشيخ مبارك الميلي، محمود أبو عبد الرحمن، مجالس الهدى للإنتاج والتوزيع الجزائر، ط

من المتشددين من أعضاء الجمعية، بل هو من خلال مـا كتبـه في (رسالة الشرك ومظاهره) كـان صـوت الوهابيـة في الجزائـر، بـل كـان لـه فـوق ذلـك أتبـاع يقومـون بـالأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر، مثلما كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب تماما.

وسنذكر هنا باختصار بعض أدلة تشدده:

1 ــ عنـد حديثـه عن التصـوف يحـاول أن يجـرده من مصـدره الإسلامي ليربطـه بـأي مصـدر آخـر، وقـد أثـار هـذا الاختيـار بعض الباحثين في التصوف من المعاصرين، فكتب يقـول عنـه: (يسـعى الشيخ مبارك بن محمد الميلي، وهو يعـرف الطريقـة أو الصـوفية إلى تجريـدها من أي وجـود ممكن فاعـل، ففي البـدأ يعـدم هـذا الوجود لغويا أو لسانيا، نافيا أن تكون لكلمة تصوف وجـود لسـاني أصيل في اللغـة العربيـة مـادامت الكلمـة هي في الأصـل منتميـة وجوديا أو لسانيا إلى المجموعة اللغويـة اليونانيـة، ثم ينتقـل ليعلم التصـوف فيقطـع أي جـذر اجتمـاعي قـد يربطـه بالفضـاء العـربي الإسلامي.. هكذا يبـدو تعريـف مبـارك بن محمـد الميلي للتصـوف تعريفا إقصائيا متحاملا على وجه العموم على الطريقة أو الصوفية غايته إخراج وطرد لهذه الظاهرة من الفضاء العربي الإســلامي أو قل من الكيان الإسلامي)[1]

2 ــ تحامله على الزوايا والطرق الصوفية، حتى الرحمانية التي كانت – كما ذكرنا – محل احترام من الشيخ ابن باديس[2].

3 ــ تأثره الشديد بمدرسة محمد بن عبد الوهاب، وحكمه لأجل ذلك على العوام بالوقوع في الشرك نتيجة زيارتهم للأضرحة كمـا سنرى ذلك في محله.

الشيخ محمد السعيد الزاهري:

وهو – في المرحلة الأولى – من حياته من أكثر أعضاء الجمعيـة تشددا، بـل اسـتعمل في تشـدده كـل مـا أوتيـه من قـدرات أدبيـة

1، 2002.

[1]) مقاربة حول التصوف والطريقة بين التنظير والممارسة. الطريقة البلقائدية مثـالا مريدي الطريقة بالعين الصفراء تمثيلا، د.ط، د.ت، ص51.

[2]) انظر كمثال على ذلك: مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، دار الراية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى (1422هـ - 2001م) ص211.

شعرا ونثرا مما لم يؤت مثله الكثير من أعضاء الجمعية[1].

ومن خلال اطلاعي على ما كتبه أعضاء الجمعية وجدت أن المائلين منهم للأدب، أكثر تشددا من غيرهم من المائلين إلى التحقيق العلمي، وهكذا كان الزاهري، ولهذا استعمل كل قدراته الأدبية في مواجهة الطرق الصوفية.

ولأجل هذا حرص عليه أعضاء الجمعية مع إنكارهم الكثير من تصرفاته، كما عرفنا ذلك من موقف الشيخ الإبراهيمي منه، وقد عبر عن هذا الحرص رئيس جريدة البرق محمد الرحموني عندما قال: (فرجال الإصلاح يحسبونه هو القوة الفاعلة في هذه الحركة الناهضة إلى التجديد والإصلاح، لأن الله رزقه الجرأة والاقتدار ما لم يتم لأحد سواه من شباب الجزائر الناهض)[2]

لكنه لم يستمر على هذه الحال طويلا، بل انقلب إلى العكس حيث أصبح من ألد أعداء الجمعية، وحتى بعض التيارات السياسية الوطنية كانتقاده لحزب الشعب الجزائري[3].

وبعد اختلافه مع الجمعية انسحب منها وساند الطرق الصوفية التي كان يحاربها أشد المحاربة، ثم تقرب من حركة انتصار الحريات الديمقراطية بزعامة مصالي الحاج، وأعاد إصدار جريدة (المغرب العربي) التي كانت تتكلم باسم هذه الحركة[4].

وكانت هذه المواقف سببا في إصدار حكم بإعدامه من طرف جبهة التحرير الوطني يوم 21ماي 1956م في ساحة الشهداء بالجزائر العاصمة.

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: (الزاهري الذي كان شاعرا فحلا، وكاتبا مقتدرا، وكان في سلوكه وفي سياسته قوس قزح

---

[1]) سنرى الأمثلة الكثيرة عن ذلك عند ذكر أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية في الباب الثالث من هذه الرسالة.

[2]) محمد رحموني; محمد السعيد الزاهري، جريدة البرق، العدد، 16 يوم 18جويلية 1927 ،ص 2.

[3]) زهير إحدادن; أعلام الصحافة الجزائرية الأمير خالد والزاهري وأبو اليقظان، مؤسسة أحددن للنشر والتوزيع، الجزائر 2002، ،ص 25.

[4]) زهير أحدادن ; المرجع السابق، ص25

يتحلى كـل حين بلـون جديـد، إلى أن جـاءت الثـورة الجزائريـة الكبرى، وكان يُصـدر بالعاصـمة الجزائريـة صـحيفة، من الحكومـة مالُها وفكرُها، فحكمت عليه الثورة المطهرة بالإعدام، وأردته قتيلا قرب ساحة الحكومة)[1]

وقد تحدث عنه بتفصيل الشيخ أحمـد حمـاني منكـرا عليـه، بـل راميا له بما كان يرمي به الطـرق الصـوفية ممـا نتـنزه عن ذكـره هنا[2]، ونحب أن نذكر بعض تفاصيل حياته، وخاصة بعـد تحولـه عن الجمعية لنؤكد في ذلك أمرا طالما نبه الصـوفية عليـه، وهـو عـدم الاكتفاء بالعلم واللغة والفصاحة، بل لابد من إضافة إكسير الإيمان والتربية والروحية وإلا صارت اللغة والعلم وبالا على صاحبه.

يقـول الشـيخ أحمـد حمـاني[3]: (ولمـا تأسسـت جمعيـة العلمـاء المسلمين عام 1931م، انتخب في مجلس إدارتها سـنة 1932م، وفي إجتماعها العام سنة 1934م أنشد قصيدة رنانة مطلعها:

حي العروبة في جمعيـة العلما وحي – ويحـك – فيهـا الـدين والشـــــــــــــــــــيما

وتولى مع الشيخ العقبي رئاسة تحرير صحفها السنة والشـريعة والصراط وآخرهـا البصـائر في سلسـلتها الأولى[4]، ولكن لم يجـدد انتخابه لعضوية مجلس إدارتها أثناء اجتماعها العـام سـنة 1936م، فكان ذلك بدايـة منعـرج خطـير في حياتـه، إذ اتهم بعض أعضـائها بالعمل ضده[5]، وأخذ يقول عنهم السوء وينشره.. ثم تجاوز القـول

---

[1]) أحمد توفيق المدني : المذكرات، 02/195

[2]) انظر: أحمد حماني، صراع السنة والبدعة، ص 137.

[3]) نقلنا هذا النص بطوله لأهميته في التعرف على شخصية الزاهري، والذي كان من أهم أعضاء الجمعية الذين تعرضوا للطرق الصوفية، والنص موجود في كتاب الشـيخ أحمد حماني، صراع بين السنة والبدعة، ص133، وما بعدها.

[4]) كيف لا تتهم الجمعية بالتشدد، وقد رأس تحرير جرائدها هذان المتشددان اللـذان لم يستمرا معها طويلا، ولكنهما أثرا فيها كثيرا، بل انحرفا بمسارها انحرافا خطيرا.

[5]) نحتـاج هنـا أن نتـذكر ذلـك الموقـف الـذي وقـف فيـه ضـد الطـرق الصـوفية في الاجتماع الذي حصل فيه انشقاق الطرق، ويمكننـا من خلال موقفـه هـذا إدراك سـر

إلى العمـل فأسـس الجرائـد الخاصـة بـه، وكتب ضـدهم ثم ضـد الجمعية، من ذلك أنه أسس جريدة الوفاق فلم ترج، وردها الباعـة ورفضها القراء ولم يستسيغوا أن يتنكر لمبادئه ولإخوانـه، فـآل بـه الأمـر الى مـا آل إليـه أمـر (النجـاح) و(البلاغ الجزائـري)، وأخـذ يصانع أعداءه القدامى وخصوم مبدئـه الإصـلاحي بـالأمس، ويثـني على بعض شـيوخ الزوايـا والطـرق، وقـد كـان من أشـد كتـاب المصلحين ضـدهم، ثم بلـغ بـه الأمـر أن انضـم سـنة 1939م إلى الحلفاء – وفيهم فرنسا – أثناء حربهم ضد ألمانيا وحلفائها، وكـانت تغلب عليه نزعة ضد النازية، وهذا خلاف ما صنعته جمعية العلمـاء ورئيسها ابن باديس الذين قرروا الحيـاد والسـكوت قـائلين – كمـا سـمعت بـأذني فحـواه من ابن بـاديس – (إن قلنـا مـا يحب اللـه ورسوله ويرضى الشعب أغضبنا فرنسا، وإن قلنا ما يرضي فرنسا غضب الله علينا ولم يرض الشعب عنا فلنسكت) وحاولت فرنسـا أن تنطقهم فلم تستطع، أما الزاهري فنطـق بمـا أحبـوا أن يقـول في هتلر وحزبه، ولم يكن نطـق الزاهـري مفهومـا أو معللا بعلـة معقولة.. ولا يتهم الزاهـري في وطنيتـه لأنـه كـان متطرفـا، لكنـه سوء تدبير منه لترخص له الرقابة في إصـدار جريدتـه،ومن عجيب أنني قرأت له في أحـد أعـداده زعمـه أن الشـعب الجزائـري كلـه بجانب الحلفاء في الحرب مع أن عواطف الشـعب لم تكن كـذلك لما يقاسيه منها، بل كانت مائلة إلى جانب خصوم فرنسا بغضا لها لا حبا فيهم ولا إقرارا لمبادئهم.

وإثر الحرب العالمية الثانيـة اسـتمر في خطتـه وأسـس جريـدة (المغــرب العــربي) مهاجمــا فيهــا العلمــاء، مادحــا الطرقيــة والطرقيين، هاجيا بشدة الشيخ البشـير الإبـراهيمي، الـذي سـكت عنه كثيرا محتسبا، ثم كتب عنه مقالا نشره في البصائر[1]، وأخيرا اضطرت الحركة الوطنية إلى جريـدة وحـروف عربيـة فاسـتعارت

موقفه ذاك؟

[1]) عنـوان المقـال: إلى الزاهـري، نشـره الإبـراهيمي في العـدد 61 من جريـدة «البصائر»، 27 ديسمبر سنة 1948، انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبـراهيمي (3/ 558)

ذلك منه لمدة، قبل ان يخرجوا جريدتهم العربية الخاصة بهم، ووجد نفسه في خدمة الحركة الوطنية الصريحة، ولما وقع الانشقاق داخل الحركة لم يحسن الاختيار وانحاز إلى الآية الممحوة، فكانت عاقبة أمره خسرا، فإنه لما نشبت الثورة سكت مدة ثم أخرج جريدته من جديد، وشرع يلمز الجبهة وينتقد بعض تصرفاتها، أذكر من ذلك أنه شنع بقتل خائن أعدم بالمسجد الكبير بعدما عاث فسادا في جهة تابلاط واحتمى بالمسجد، وقد أهدر رسول الله ﷺ دماء قوم أذن في قتلهم بالمسجد الحرام، ومن ذلك انه انتقد انتقادا مرا سفر وفد فيه السيد فرحات عباس للالتحاق بالثورة وبأمر من القيادة، وكتب عن ذلك كلمة في جريدته عنوانها: (وفد مريب في مهمة مريبة) وغابت عنه السياسة الحكيمة التي انتهجتها جبهة التحرير في قبول جميع المواطنين – اذا نصحوا – في صفوفها، ثم تجرا أخيرا ونشر صورة كبرى غطت كامل الصفحة الاولى من جريدته للسيد.... (لعله مصالي) الذي كان رمز الخلاف، وزعم أنه زعيم الشعب الأكبر، وصادف أن كانت الفتنة في أشدها بين فدائي الجبهة وبين أتباع الحركة الوطنية، فكان هذا الانحياز المعلن عنه بمثابة الحكم على نفسه بالإعدام، وذات يوم من أيام سنة 1956م، خر الشيخ الزاهري صريع خمس رصاصات من يد فدائيين في مدخل نهج زبانة (لا لير آنذاك) قرب جامع كتشاوة، فذهب ضحية تهوره، وسوء تصرفه وإصراره على الخطأ، وعسى أن يلقى عند ربه خيرا مما لقي من الناس)[1]

ومع هذا التقلب في مواقفه إلا أنا اعتبرنا الغالب فيها، أو ما وصل إلينا منها، أو ما انتشر، لأن كتاباته المؤيدة غير منتشرة، ولا مشتهرة بالإضافة إلى محدوديتها، بالإضافة إلى أن الحقيقة لا يمكن الاطلاع عليها إلا من الاطلاع على جريدة (المغرب العربي)، أو ما أصدره بعد خروجه من الجمعية، ولم يتسن لي للأسف الاطلاع على ذلك[2].

---

[1]) صراع السنة والبدعة ص 136

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وهو – مع ما يـذكر من عقلـه وحكمتـه وفقهـه- إلا أنـه في هـذا الباب خصوصـا كـان شـديدا متحـاملا غايـة التحامـل، لا يكـاد يقـر بمكرمة لا للتصوف ولا للطرق الصوفية، بل فوق ذلك لا يقبـل أي هدنـة أو صـلح، بـل ولا منـاظرة مـع الآخـر، بـل لا يرضـى إلا الاستئصال، لأنه يعتبر التصوف دخيلا منـذ بـدأ التصـوف، ولم يقـل مثل ما قال غيره بطروء الانحراف عليه بعد أن كان سليما صالحا.

وقد عبر عن ذلك بصـراحة عنـدما أرخ لبـدء تفـرق المسـلمين، فقد اعتبر التصوف سرا من أسرار البلاء الذي نزل بالأمة، فقال – وهو يـؤرخ للفـترة الأولى من التصـوف-: (أمـا المـذاهب الصـوفية فهي أبعـد أثـرًا في تشـويه حقـائق الـدين وأشـد منافـاة لروحـه، وأقوى تأثيرًا في تفريق كلمة المسلمين، لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضـة مبهمـة، تسـترت في أول أمرهـا بالانقطـاع للعبـادة والتجـرد من الأسـباب والعـزوف عن اللـذات الجسـدية والتظـاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشـيء من مظـاهر المسـيحية، وهو التسليم المطلق، وشـيء من مظـاهر البرهميـة وهـو تعـذيب الجسد وإرهاقه توصلًا إلى كمال الروح زعموا. وأين هـذا كلـه من روح الإسلام وهدي الإسلام؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتى جـرت على ألسـنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار)[1]

فهذا النص صريح في اتهامه للصوفية الأوائل الـذين لم يسـتطع حتى ابن تيمية مـع تشـدده أن يتهمهم في نيـاتهم لكن الإبـراهيمي يعتبر أنهم كانوا يستعملون (التكتم والاحتراس) لنشر مذهبهم.

ولم يكتف بـرمي الصـوفية الأوائـل، بـل راح يـرمي من بعـدهم ممن كـانوا يشـتملون على كبـار المتكلمين كالقشـيري والغـزالي وغيرهمـا، حيث قـال: (فـراب أئمـة الـدين أمرهـا، وانفتحت أعين حـراس الشـريعة فوقفـوا لهـا بالمرصـاد، فلاذ منتحلوهـا بفـروق مبتدعـة يريـدون أن يثبتـوا بهـا خصوصـيتهم كالظـاهر والبـاطن،

[2]) ذكـر لي الـدكتور أحمـد عيسـاوي أن الجريـدة لا تـزال موجـودة في أرشـيف قسنطينة.

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا القبيل لا تخـرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.. وما كاد السـيف الـذي سـلّ على الحلّاج وصـرعى مخرقتـه يغمـد ويـوقن القـوم أنهم أصـبحوا بمنجـاة من فتكاتـه، حـتى أجمعـوا أمـرهم وأبـدوا للنـاس بعض مكنونـات أسـرارهم ملفوفـة في أغشـية جميلـة من الألفـاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال. وحـاولوا أن يصـلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه فلم يفلحـوا، وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبـل من أيـديهم، فرجعـوا إلى ادعـاء الكشف وخرق الحجب والاطلاع على ما وراء الحس إلى آخر تلـك (القائمة) التي لا زلت تسمعها حتى من أفـواه العامـة وتجـدها في معتقداتهم)[1]

وهذه الكلمات الشديدة موجهة إلى كـل العلمـاء الـذين اقتنعـوا بمنهج الغـزالي، فراحـوا يجمعـون بين العلم الشـرعي والسـلوك الصوفي، والإبراهيمي بهذه الكلمات الشديدة القاسـية يـرمي كـل أولئـك العلمـاء، وكـل الـتراث الـذي خلفـوه بـالانحراف المقصـود المضاد للدين.

ثم راح يتحدث عن مرحلة ثالثة، وهي المرحلـة الـتي نشـأ فيهـا التصوف العرفاني، فقال: (ثم أَمِرَ أمر هذه الصوفية وتقـوّت على الزمن، والتقت مع الباطنية وغيرها من الجمعيات التي تبني أمرها على التسـتر على طبيعـة دساسـة وعـرق نهـل ومـزاج متحـد. واختلطت تعاليم هذه بتعاليم تلك، وتشـابهت الاصـطلاحات وابتلي المسلمون من هذه النحل بالداء العضال)[2]

والعجيب أن الإبـراهيمي لا ينـاقش هـذه المسـائل الخطـيرة مناقشة علميـة، فيحـدد المـرادين، ويسـتثني غـيرهم، ويفـرق بين الوقوع في الخطأ، وتعمد الخطأ، بل والتآمر على الخطأ.

فهـو في هـذا الحـديث من أولـه إلى آخـره يتحـدث عن عصـابة تتآمر على الدين، وهي تعرف أنهـا تتـآمر عليـه، ولكنهـا تصـر على ذلك رغبة في حربه.

ولم يكتـف بـذلك، بـل راح يعتـبر الصـوفية محلا لكـل انحـراف،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

فقـال: (وقـد اتسـع صـدرها بعـد أن تعـددت مـذاهبها، واختلفت مشـاربها في القـرون الوسـطى والأخـيرة من تـاريخ الإسـلامء فانضوى تحت لوائها كل ذي دخلة سيئة وعقيدة رديئة حـتى أصـبح التصوف حيلة كل محتال، وحلية كل دجال)[1]

ثم تطرق إلى الطرق الصوفية، فجمعها جميعا في سلة واحـدة، ولم يستثن أحدا منها، ولم يعترف لها بأي منقبة، يقول: (وإن هـذه الطـرق المنتشـرة بين المسـلمين، والـتي تربـو على المـذاهب الفقهيـة عـدًّا، كلهـا، على مـا بينهـا من تبـاين الأوضـاع، واختلاف الطباع، وتنافر الأتباع، تنتسـب إلى هـذا التصـوف. ولكنـه انتسـاب صوري اسمي، وشتان ما بين الفرع وأصـله. فمبـنى التصـوف في أغلب مظـاهره- كمـا أسـلفنا- على الانقطـاع والزهـد في الـدنيا، والتجـرد والتقشـف ورياضـة النفس على المشـاق وفطمهـا عن الشـهوات. ومبـنى هـذه الطـرق في ظـاهر أمرهـا وباطنـه على حيوانية شرهة لا تقف عنـد حـدّ في التمتـع بالشـهوات، والانهمـاك في اللذائذ واحتجان الأموال من طريق الحرام والحلال، واصـطياد الجاه وحب الظهور والاختلاط بأهل الجاه وإيثارهم والتزلف إليهم)[2]

وما ذكرناه من تحامله الشديد على المتقدمين والمتـأخرين من غـير اسـتثناء لقي على مـا يبـدو إنكـار ممن يسـميهم الإبـراهيمي (بعض الناس)، فقد ذكروا أنهم يقولون: (إن ما ذكرتمـوه من آثـار الطرق السيئة كله صحيح وهو قليل من كثـير، ولكن هـذه الطـرق لم يعترها الفساد والافساد إلّا في القرون الأخـيرة، وأنتم- معشـر المصـلحين- تـذهبون في إنكـاركم إلى مـا قبـل هـذه القـرون، وتتنـاولون فيمـا تكتبـون ومـا تخطبـون ومـا تدرسـون المحـدثين والقدماء والأصول البعيدة والفروع القريبة. حتى بسطتم ألسنتكم بالسوء إلى مقامات وأسماء كانت قبل اليوم كحمام الحرم. ولعل خصومكم يكونون أدنى للرجوع إلى الحق لو سـكتم لهم عن هـذه

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

الأسماء) [3]

وقد رد الإبراهيمي على هذا التعقيب بما يرد به عادة المتشددين من دعاة الوهابية خصوصا، وهو أن (حجة الإسلام قائمة، وميزانه منصوب، وآدابه متمثلة في سيرة الصحابة والتابعين، واننا لا نعرف في الإسلام بعد قرونه الثلاثة الفاضلة ميزة لقديم على محدث، ولا لميت على حي، وإنما هو الهدى أو الضلال، والاتباع أو الابتداع، وليست التركة التي ورثناها الإسلام عبارة عن أسماء تطفو بالشهرة وترسب بالخمول ويقتتل الناس حولها كالأعلام، أو يفتنون بها كالأصنام. وإنما ورثنا الحكمة الأبدية والأعمال الناشئة عن الإرادة، والعلم المبني على الدليل) [1]

ثم يذكر أن تلك الأسماء التي أجمع المسلمون على احترامها لا يصح احترامها (لأنهم غلوا في تعظيم بعض الأسماء غلوًا منكراً، فأداهم ذلك الغلو إلى نوع غريب من عبادة الأسماء نعاه القرآن على من قبلنا ليعظنا ويحذرنا ما صنعوا)[2]

ثم بين موقفه المتشدد من الطرق الصوفية وخصوصا ما كان منها في الشمال الإفريقي لا يستثني في ذلك أي طريقة، بل يرميها بما يتفق الصديق والعدو على كذبه من كونها كانت بابا للاستعمار مع أنها أول من حاربه، يقول في ذلك: (مع أننا نعلم أن الطرق منتشرة في العالم الإسلامي وأن آثارها فيه متشابهة، وأنها هي السبب الأقوى في كثير مما حل به من الأرزاء والنكبات، وكثيرًا ما كانت مفتاحًا لاستعمار ممالكه، فإن حربنا موجهة أولًا وبالذات إلى طرقية الشمال الافريقي، وبينها من الوشائج ما يجعلها كالشيء الواحد. فعلى مقدار هؤلاء الذين نعرف جنسهم وفصلهم، وفرعهم وأصلهم نفصل القول، وإلى هذا الهدف نسدد السهام)[3]

---

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 169)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 168)

ثم ذكـر الشـيخ المراحـل الـتي مـر بهـا في حربـه لهم – مـع الجمعية- وكيف استطاعوا أن ينتصروا عليهم، فقال: (والأمـر بيننـا وبينهم من يوم شنت الغارة دائر على أحوال وسـائر على مراحـل ينتقلون بنا من إحداها إلى الأخرى ولا نزال نطاردهم وهم يلتجئون من ضيق إلى أضيق إلى الآن.. وذلك أننا لما أنكرنا عليهم بـاطلهم الذي يرتكبونه باسم الـدين، زعمـوا أن الطريـق هي الـدين، ولمـا نقضنا لهم هذه الدعوى تنزلوا فزعمـوا أن لهـا حبلًا واصـلًا بالـدين وسندًا متصلًا بالسلف، ولما بينا لهم أن الحبل مقطـوع وأن السـند منقطـع قـالوا إن هـذه الطرقيـة مـرت عليهـا قـرون ولم ينكرهـا العلماء، فبينا لهم أن عـدم إنكـار العلمـاء الباطـل لا يصـيره حقًـا، ومرور الزمن عليه لا يصيره حقًـا، وقلنـا لهم إذا كـان سـلفكم في الطرقيـة يعملـون مثـل أعمـالكم فهم مبطلـون مثلكم، وإذا كـانوا على المنهاج الشـرعي فليسـوا بطرقـيين، ونحن نعلم من طريـق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصـوف والطـرق كـانوا على اسـتقامة شـرعية وعمـل بالسـنة ووقـوف عنـد حـدود اللـه. فهم صـالحون بـالمعنى الشرعي، ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هــو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء، فنحن نسميهم صالحي المؤمنين وهم يسـمونهم صـوفية وأصحاب طرق، فيا ويلهم إن طريقة الإسـلام واحـدة، فمـا حاجـة المسلمين إلى طرق كثيرة)[1]

ولسنا ندري أين جرت هـذه الحـرب الـتي تحـدث عنهـا، وكيـف خرت الطرق صرعى لحـربهم، والمؤسـف في كـل ذلـك هـو ذلـك التعميم الذي لا علاقة له بالمنهج العلمي، ولكن الرجل – للأسف – غلب عليه البيان الأدبي على البيان العلمي، فلهذا نــراه يبحث عن الألفاظ أكثر من بحثه عن الحقائق، فهـو لم يـورد مثـالا واحـدا ولا دليلا واحدا، وإنمـا خطب خطبـة عصـماء في هجـو الطـرق، يمكن مقارنتها بخطب الحجاج وابن زياد في فصاحتها وفي شدتها، ولكن لا يمكن مقارنتها بأي مقال علمي.

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 174)

وأمـر التشـدد يبلـغ بـالإبراهيمي غايتـه القصـوى حين لا يكتفي بإنكار الطـرق، بـل ينكـر التصـوف أيضـا، وهـو مـا لم يتجـرأ كبـار السلفيين على إنكاره، فهـو يقـول: (ثم مـا هـذا التصـوف الـذي لا عهد للإسلام الفطري النقيّ بـه؟ إننـا لا نقـره مظهـرًا من مظـاهر الـدين أو مرتبـة عليـا من مراتبـه، ولا نعـترف من أسـماء هـذه المراتب إلّا بما في القاموس الديني: النبـوة والصـديقية والصـحبة والاتباع ثم التقوى التي يتفاضل بها المؤمنون، ثم الولاية الـتي هي أثر التقوى، وإن كنا نقره فلسفة روحانيـة جاءتنـا من غـير طريـق الدين ونرغمها على الخضوع للتحليل الديني)[1]

بل إنه يضيق ذرعا حتى بلفظة التصوف، مع أنـه لا مشـاحة في الاصطلاح، يقول في ذلـك: (هـل ضـاقت بنـا الألفـاظ الدينيـة ذات المفهوم الواضح والدقة العجيبة في تحديد المعـاني حـتى نسـتعير من جرامقـة اليونـان أو جرامقـة الفـرس هـذه اللفظـة المبهمـة الغامضة التي يتسع معناها لكل خير ولكل شر؟)[2]

بل إنه يقسم لو أن الأمر كان بيده لحرم هذه الكلمة، يقول في ذلك: (ويمينًا، لو كان للمسلمين يوم اتسـعت الفتوحـات، وتكـونت (المعامـل) الفكريـة ببغـداد ديـوان تفـتيش في العواصـم ودروب الـروم ومنافـذ العـراق العجمي، لكـانت هـذه الكلمـة من (المـواد الأولية) المحرمة الدخول)[3]

ثم بين أن التصـوف لم يضـم في أحضـانه إلا المنحـرفين، فقـد أصبحت هذه الكلمة – كما يذكر –(أمًّا ولودًا تلد الـبر والفـاجر. ثم تمادى بها الزمن فأصبحت قلعـة محصـنة تـؤوي كـل فاسـق وكـل زنديق وكل ممخرق وكل داعر وكـل سـاحر وكـل لص وكـل أفـاك أثيم.. فكل راقص صوفي، وكل ضارب بالطبل صوفي، وكل عابث بأحكام الله صوفي، وكل ماجن خليع صوفي، وكل مسلوب العقـل صوفي، وكل آكل للدنيا بالدين صوفي، وكل ملحـد في آيـات اللـه

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 174)

صوفي، وهلم سحبًا)[4]

بعد هذا الموقف المتشدد من التصوف سلفه وخلفه سنيه وبدعيه تساءل مستنكرا: (أفيجمل بجنود الإصلاح أن يدعوا هذه القلعة تحمي الضلال وتؤويه أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملة. صادقة شعارهم (لا صوفية في الإسلام) حتى يدكوها دكًا وينسفوها نسفًا ويذروها خاوية على عروشها؟)[1]

هذا هو الشعار الذي دعا إليه الإبراهيمي (لا صوفية في الإسلام)، ولم أجد مع اهتمامي بالتصوف من دعا بهذه الدعوة من المتقدمين أو المتأخرين غيره، ما عدا السلفية الحديثة، والتي أعجبت بموقفه هذا أيما إعجاب، ولهذا نرى هذا العنوان منتشرا في النوادي والمواقع، وكأنه آية قرآنية أو حديث نبوي.

والإبراهيمي – للأسف – يشبه رجال الصوفية ومشايخهم باليهود والنصاري من أصحاب الصوامع والأديرة، ولكنه لا يحفظ لهم الحرمة التي تحفظ لهؤلاء، ويعلل ذلك بأن (احترام الصوامع والأديرة- لأن فيها قومًا فحصوا أرؤسهم وحبسوا نفوسهم- مشروط بما إذا لم تكن مأوى للمقاتلة، وإلا زال احترامها)[2]

ثم يختم هذه الجولة القاسية بإخباره أن محركه في هذا ليس إلا الغيرة للدين والإخلاص له، فقال: (إننا لا نحمل لهؤلاء المشائخ ولا لأولادهم ولا لأحفادهم حقدًا ولا نضطغن عليهم شيئًا، ولا ننفس عليهم مالًا من الأمة ابتزوه، ولا جاهًا على حسابها أحرزوه، وليس بيننا وبينهم ترات قديمة، ولا ذحول متوارثة، ولا طوائل مغرومة. وإنما هو الغضب لله ولدينه وحرماته انطقنا فقلنا، وشننا غارة شعواء على الآباء والأبناء)[3]

ونحن لا ننكر عليه إخلاصه – مع أنه لا يكفي في مثل هذه المسائل - بل ننكر عليه تقصيره في البحث العلمي، لأن هذه المسائل الخطيرة، والتي يتعلق بها مصير مئات الملايين من

---

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 177)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

المسـلمين في جميـع الأعصـار لا ينبغي أن نتناولهـا في قـالب إنشائي أدبي، وإنما نتناولها في قالب بحثي علمي يحاول أن يفرق بين المناسب وغير المناسب، والشرعي وغير الشرعي.

والإبـراهيمي – لغلـوه الشـديد في هـذا البـاب – يحمـل حملـة الشديدة على ما اتفق كل الباحثين عليه، وهو الدور العظيم الـذي قامت به الطرق الصوفية وزواياها من الحفاظ على الهوية واللغـة العربية، وما تنشره من العلوم الشرعية واللغوية، والـتي لا علاقـة لها بالتصوف:

ولكن الإبراهيمي لم يرضه هذا، وهو يريد هدمه، كما يريـد هـدم التصـوف سـواء بسـواء، فيقـول: (وزوايـا الطـرق في بـاب العلم كمدارس الحكومات هذه معامل لتخريج الموظفين، وتلـك معامـل لتخريج المسبحين بحمـد الزوايـا والمقدسـين، أمـا العلم وحقيقتـه وصراحته وحريته فلا رائحة لها في هذه ولا في تلك)[1]

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 175)

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ـــ من الأهـداف الكـبرى الـتي تأسسـت جمعيـة العلمـاء المسـلمين الجزائـريين لأجلهـا مواجهـة الطـرق الصـوفية، بـل محاربتهـا، واستئصـالها، بـل تقـديم استئصـالها على استئصـال الاستعمار نفسها، باعتبارها أخطر تأثيرا منه.

2 ـ أنه حصل بين الجمعية والطـرق الصـوفية نـوع من الوفـاق عنـد أول تأسـيس الجمعيـة، وبسـببه تأسسـت الجمعيـة، وانتشـر صيتها، ثم حصل بعد ذلك، وبعد سنة واحدة الانقلاب.

3 ـ أن أعضاء الجمعية لم تقتصر تلمذتهم على مدرسة واحدة، وبالتالي اختلفت مواقفهم شدة ولينا بحسب ما أشربوا من أفكار، ذلـك أن الكثـير منهم إنمـا انتسـب للجمعيـة بنـاء على اقتناعـه بمشـروعها الإصـلاحي أكـثر من اقتناعـه بتوجهـا الفكـري، مثـل الشيخ العيد القادري، الذي حول من زاويته إلى مدرسة للإصلاح.

4 ـ على المستوى الفكري، نجد المتشددين المغـالين يصـمون آذانهم عن سماع ما يطرحه الآخر من أفكار وأدلـة، لأنـه يعتـبر أن كل ما يأتي به المخالف كفرا وضلالا وبدعـة، ويـرى لأجـل هـذا أن منهج التعامل معه هو الاستئصـال والتشـهير لا الإصـلاح والتوجيـه، بينمـا نجـد المعتـدلين أخـف حـدة، وأكـثر إقبـالا على تقبـل الآخـر ومناقشته.

5 ـــ على المسـتوى الشخصـي نـرى المتشـددين يميلـون إلى استعمال العنف اللفظي والأحكام المشددة على خلاف المعتـدلين الذين هم أكثر لينا وسماحة.

6 ـــ أن البعض ممن نعتـــبرهم معتـــدلين يقفـــون في بعض المواقف مواقف المتشددين من حيث عدم سماع الآخـر، أو عـدم احترامه، والعكس صحيح.

7 ـ أن الكثـير من أعضـاء الجمعيـة تغـيرت مـواقفهم لأسـباب مختلفة، وبالتالي يمكن اعتبارهم في مرحلـة من المراحـل ضـمن المتشددين، وفي مرحلة أخرى ضمن المعتدلين، والعكس صحيح.

8 ـ أن ضابط الاعتدال هو قبـول الآخـر، أو التعامـل بلين معـه، ولو في بعض المواقف، ومن خلال استقراء مـا كتبـه ومـا قـام بـه كبار رجال الجمعية وجدنا أن هذا الوصـف ينطبـق أحسـن انطبـاق على شخصيتين من كبار أعضاء الجمعية المؤسسين، وهما الشـيخ

عبد الحميد بن باديس، والشيخ أبو يعلى الزواوي، بالإضافة إلى هذا هناك شخصيات كثيرة كالشيخ العيد، ومبروك التبسي وغيرهما، وهذه الشخصيات – كما ذكرنا – يمكن تصنيفها في إطار آخر، وهو التصوف الإصلاحي، فهم لا يتفقون مع الجمعية إلا في مشروعها الإصلاحي، ويختلفون معها اختلافا جذريا في توجهها الفكري.

9 ــ عند مقارنة المواقف التي وقفها الشيخ عبد الحميد بن باديس مع مواقف أكثر أعضاء من اطلعنا على تراثهم من رجال الجمعية يمكن اعتباره أكثرهم اعتدالا، وأحسنهم أدبا مع المخالف، بل رأينا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس كان معرضا لضغوط من طرف المتشددين من رجال الجمعية الكبار، والذين كان يحرص على إرضائهم، ولذلك كان يظهر أحيانا بصورة المتشدد، فلذلك كانت لغته في الخطاب مع المخالف أكثر لينا بكثير من مثيلاتها من سائر رجال الجمعية.

10 ــ لا يقل الشيخ أبو يعلى سعيد بن محمد الزواوي عن ابن باديس اعتدالا، فهو مع كونه يصرح كثيرا بكونه سلفيا إلا أن السلفية التي يقصدها – على حسب ما أرى – هي سلفية الإصلاح، والوقوف في وجه البدع والانحرافات لا المنهج الاستئصالي الذي كان ينادي المتشددون من أعضاء الجمعية.

11 ــ يظهر من خلال مواقف وكتابات الشيخ الطيب العقبي أنه أكثر علماء الجمعية تشددا، بحيث لا يجاريه في تشدده أحد، بل نرى أنه عدى بتشدده الكثير من أعضاء الجمعية، لما كان يحظى به من قدرات مكنته لا من التسلط على قلوب العوام فقط، بل على قلوب الخواص أيضا، وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

12 ــ رأينا أن الشيخ البشير الإبراهيمي– مع ما يذكر من عقله وحكمته وفقهه- كان شديدا متحاملا غاية التحامل، لا يكاد يقر بمكرمة لا للتصوف ولا للطرق الصوفية، بل فوق ذلك لا يقبل أي هدنة أو صلح، بل ولا مناظرة مع الآخر، بل لا يرضى إلا الاستئصال، لأنه يعتبر التصوف دخيلا منذ بدأ التصوف، ولم يقل مثل ما قال غيره بطروء الانحراف عليه بعد أن كان سليما صالحا.

13 ــ أن هناك أدلة كثيرة يمكن من خلالها اعتبار الشيخ مبارك الميلي من المتشددين من أعضاء الجمعية، بل هو من خلال ما كتبه في رسالة الشرك ومظاهره كان صوت الوهابية في الجزائر،

بل كان له فوق ذلك أتباع يقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثلما كان للشيخ محمد بن عبد الوهاب تماما.

14 ــ أن الشيخ الزاهري كان– في المرحلة الأولى – من حياته من أكثر أعضاء الجمعية تشددا، بل استعمل في تشدده كل ما أوتيه من قدرات أدبية شعرا ونثرا مما لم يؤت مثله الكثير من أعضاء الجمعية.

15 ــ أنه كان في إمكان الجمعية في حال التوافق مع الطرق الصوفية أن تكتسب الكثير من المواقع المهمة والطاقات التي تستطيع من خلالها أن تؤدي رسالتها، وأن تصل إلى أكبر عدد من الجزائريين، لكنها للأسف فرطت فيها بناء على نظرتها الاستئصالية الإقصائية.

16 ــ رأينا أنه يمكن أن يكون للاستعمار عبر عملائه دخل فيما حصل بين الجمعية والطرق الصوفية من خلاف، فقد كانت مصالح المستعمر منوطة بتفرق الجزائريين وصراعهم فيما بينهم، ولهذا انتهجت فرنسا – كما عرفنا سابقا- سياستها المعروفة (فرق تسد)، وقد مارست هذه السياسة مع الجميع، فهي لا يهمها طرقي أو مصلح، المهم عندها كما عند كل مستعمر أن تتنافر النفوس، وأن يجهز بعضهم على بعض، حتى يتمكن من تحقيق أهدافه.

الفصل الثالث
وسائل التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية

مع التضييق الشديد الذي كان يمارسه الاستعمار على الشعب الجزائري بطبقاته جميعا إلا أنا نجده قد وضع كثيرا من الفسحة للجمعية وللطرق الصوفية لنشاطهما، وخاصة ما كان منه داخليا فيما بينهما.

وهذا ما أتاح لكل الطرفين أن يتحرك بحرية أكبر على المستويات المختلفة، والذي تجلي في استعمالهما لكل الوسائل في ذلك الحين.

أما ما قد يتوهمه البعض تضييقا، فلا نراه كذلك، لأن الذي يريد أن يضيق يقطع المدد من أصله، خاصة إن كان جهما غليظا مثل الاستعمار الفرنسي، أما أن يغلق صحيفة في الصباح، ثم تخرج هي نفسها بعنوان مخالف في المساء، فلا نعتبره تضييقا، بل نراه نوعا من الإشهار المجاني، لأن الشعب الجزائري كان يبغض المستعمر، وكان بالتالي يبغض كل من يتوهم أنه يبغض الاستعمار.

ونحن لا نقول هذا تحكما، وإنما نقوله عن دراية وخبرة، فأكثر تلك الصحف وأكثر تلك التنقلات لم تساهم لا في تثقيف الجزائري، ولا في تربيته، ولا في تعليمه، ولا في توعيته، بل الكثير منها ما علمه إلا لغة الإقصاء للآخر، ولغة الغلو والتشدد التي لم ننل من ثمارها بعده الاستقلال سوى الفرقة التي مكنت للعلمانيين واللادينيين ليوجهوا المجتمع.

بناء على هذا، ومحاولة لإثباته، سندرس في هذا الفصل الوسائل التي استعملها كلا الطرفين في التعامل مع الآخر ومواجهته.

وقد قسمنا الفصل – على حسب عنوانه- إلى مبحثين:

المبحث الأول: وسائل تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

المبحث الثاني: وسائل تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

المبحث الأول: وسائل تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

اختلف خبراء الاتصال والعلاقات العامة في تقسيم وسائل

الاتصال، فمنهم من قسمها إلى مجموعتين رئيسيتين[1]:

الأولى: ويسمونها (مجموعة الكلمات المكتوبة)، ويمثلون لها بالصحف والمجلات والنشرات والكتب والملصقات بأنواعها.

الثانية: ويطلقون عليها (مجموعة الكلمات المنطوقة)، وتتضمن الراديو والتلفزيون، والمسرح، والمحاضرة وغيرها.

بينما يقسمها فريق آخر إلى الأقسام التالية:

1 ـ وسائل مقروءة: كالصحف والمجلات، والكتب.

2 ـ وسائل سمعية: كالإذاعة.

3 ـ وسائل بصرية: كاللوحة الفنية.

4 ـ وسائل سمعية بصرية: كالمسرح والسينما والتلفزيون.

5 ـ وسائل شخصية: كالمقابلة الحوارية.

ويصنف المفكر الأمريكي(مارشال ماكلوهان) وسائل الاتصال إلى قسمين[2]:

وسائل باردة: مثل، السينما والتلفزيون، ويعرفها بانها الوسائل التي لا تحافظ على التوازن في استخدام الحواس،بل تركز على حاسة واحدة(السمع،البصر).كما أنها تقدم المضمون الإعلامي جاهزاً الى حد ما مما يقلل من حاجة الإنسان للخيال.

وسائل ساخنة: مثل الصحافة والكتب والإذاعة، ويعرفها بأنها الوسائل التي تحافظ على التوازن بين الحواس،وتحتاج لقدر كبير من الخيال.فالمحاضرة(مثلا) تسمح بمساهمة أقل من الندوة أو الملتقى أو الحوار أو الحديث.

بناء على هذه التقسيمات، وبناء على ما أتيح للجمعية من وسائل في ذلك الحين، فقد آثرنا أن لا نراعي بدقة ما ذكر من هذه التقسيمات، وإنما قسمناها بحسب الوسائل، لا بحسب نوعها، أو نوع تأثيرها، ويمكن للقارئ أن يضم ما شاء لما شاء، فلا مشاحة في التصنيفات.

---

[1]) انظر: مقال بعنوان: وسائل الاتصال والإعلام ودورها في ترقية المجتمع على هذا الرابط: (http://1bac.medharweb.net/modules.php?name=News&file=article&sid=216)

[2]) انظر: مقال بعنوان: تكنولوجية وسائل الأعلام وتأثيرها على المجتمعات (نظرية مارشال ماكلوهان)، على هذا الرابط: (http://kenanaonline.com/users/masscommunication/posts/142661)

وقد رأينا من خلال استقراء وسائل الجمعية التي استعملتها في التعامل مع الطرق الصوفية أنها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هـو حركـات وتنقلات وتجمعـات الجمعيـة لأجـل توعية المجتمع بمواقفها من الطرق الصوفية.

النوع الثاني: هو ما أصدرته الجمعية من صحف سـواء كـانت رسمية، أو كانت تابعة للشخصيات المؤسسة للجمعية، أو التي لها علاقـة بهـا، ولهـذا، فلم نكتـف عنـد الحـديث عن صـحف الجمعيـة بالصـحف الرسـمية، أو الصـحف الـتي تلت التأسـيس، بـل تناولنـا الصحف جميعا، باعتبارها كانت تهدف إلى هدف واحد.

النوع الثالث: هو ما ألفتـه الجمعيـة من كتب ورسـائل ترتبـط بتعاملها مع الطرق الصوفية.

وقد خصصنا كل نوع منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: التنقلات والتجمعات

من أهم الوسائل التي اسـتعملتها الجمعيـة في تحقيـق أهـدافها الإصلاحية، وخاصة هدفها الأكبر مواجهـة الطـرق الصـوفية هـو مـا كان يقوم بـه أعضـاؤها من تنقلات إلى المنـاطق المختلفـة سـواء لأجل إحياء مناسبات معينة، واستثمارها، أو لغير ذلك.

ومنها كذلك إقامة أعضـاء الجمعيـة لتجمعـات حركيـة محـدودة، يمكن أن تعتــبر كنــوع من التنظيمــات الــتي تخــدم الأهــداف الإصلاحية.

وقد كان لكلا الوسيلتين تأثيره الكبير في نشر الدعوة الإصلاحية على ربوع كثـيرة من الجزائـر، خاصـة إذا علمنـا أن نسـبة الأميـة، ونسبة الفقر، المتضخمتين لا تتيحان لأكثر النـاس الاطلاع على مـا تكتبه الجمعية في صحفها أو رسائلها.

بالإضافة إلى ما لهذا النوع من الوسائل، والتي ذكرنا أن المفكر الأمريكي (مارشـال ماكلوهـان) يطلـق عليهـا (الوسـائل البـاردة)، ويذكر أن أهميتها تكمن في تقديم المضمون الإعلامي جـاهزاً الى حد كبير مما يقلل من حاجة الإنسان للخيال، بالإضافة إلى ما فيها من دور تفاعلي يتيح للجماهير فهم الرسائل الإعلاميـة الـتي تريـد الجمعية إرسالها بكل سهولة.

بنـاء على هـذا سـنحاول في هـذا المطلب أن نـذكر اسـتخدام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هاتين الوسيلتين في تعاملهـا مع الطرق الصوفية.

أولا ــ التنقلات:

نريد بـ (التنقلات) تلك الحركة الـتي يقـوم بهـا أعضـاء الجمعيـة داخل الجزائـر أو خارجهـا إذا مـا اقتضـى الحـال لخدمـة الأهـداف الإصلاحية.

ومن خلال دراسة ما قام به أعضاء الجمعية سواء كـانوا فـرادى أو على شـكل جماعـات إلى المنـاطق الجزائريـة المختلفـة، فإنـه يمكن أن نقسمها إلى قسمين:

1 ــ تنقلات عامة، لا علاقة لها بأي مناسبة.

2 ــ تنقلات ترتبط بمناسبات خاصة كالمولد النبوي الشريف، أو غيره.

وسنتحدث عن كلا القسمين في العنوانين التاليين:

1 ــ تنقلات عامة:

لقد كان التنقل سمة بارزة في أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، سواء كان تنقلهم خارج الجزائر للتعلم أو للسياحة، أو داخل الجزائر، لأجل أسباب كثيرة أهمها الدوافع الإصلاحية.

وقد ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطاب لـه ألقـاه في الاجتماع العام الذي عقدته الجمعية في سـبتمبر 1933م النشـاط المرتبط بهذا الجانب[1]، فقال: (أوفدت الجمعية من رجالها للوعظ والإرشاد وفودا لبلـدان القطـر في العمـالات الثلاث، وقـامت تلـك الوفود بمهمتها خير قيـام، وكـانت تتلقى من رجـال الحكومـة كمـا تتلقى من الأمة بكل إكرام)[2]

ولكنه ذكر في نفس الوقت بعض العراقيل التي كانت تصادفها، وهي ذلك التضييق الذي صـدر من الإدارة الفرنسـية بمنـع أعضـاء الجمعية من الوعظ والإرشاد بالمسـاجد، والـذي (كـان شـطر بلاء وعناء على الجمعية ورجـال مجلس إدارتهـا فمن تنمـر وجـره إلى إلصــاق تهم، إلى خلــق عراقيــل إلى اســتثمار ذمم. ومن وعــد وترغيب إلى وعيد وترهيب)[3]

ثم ذكر ثبات رجال الجمعية رغم هذه العراقيل الإدارية، والتي – شـجعها رجـال الطـرق الصـوفية كمـا عرفنـا سـابقا- فقـال: (هـذا

---

[1] الشـهاب: ج 10، م 9، ص 387 -ـ 393 غـرة جمـادى الأولى 1352ه - سـبتمبر 1933م

[2] آثار ابن باديس (3/ 523)

[3] آثار ابن باديس (3/ 523)

والجمعيـة ورجـال مجلس إدارتهـا ثـابتون ثبـوت الجبـال ثقـة من أنفسهم بأنهم دعاة حق وقصـاد خـير وعمـال لصـالح هـذا الـوطن بأمتـه وحكومتـه وجميـع سـاكنيه فانسـلخت هـذه السـنة وأعمـال الجمعية هي هذه؛ ما قام به وفودها من وعظ وإرشـاد - ومـا قـام به رجالها من تعليم في عدة بلدان - وما نشـره كتابهـا في جريـدة الجمعية - جريدة السنة النبوية المحمدية الـتي لقيت - بحمـد اللـه من المسلمين غاية الإقبال - هذا كلـه قـام بـه رجـال الجمعيـة ولا غرابة أن يقوموا به فهم من أهـل العلم ومـا أهـل العلم إلا الـذين ينشرون العلم بدروسهم ومحاضراتهم وخطبهم ومنشوراتهم)[1]

ومثل ذلك ما ذكـره الشـيخ العـربي التبسي – باعتبـاره الكـاتب العام لجمعيـة العلمـاء المسـلمين - في تقريـره الـذي نشـره عن الجلســة العاديــة للمجلس الإداري لجمعيــة العلمــاء المســلمين الجزائـريين في جريـدة البصـائر[2]، فقـد ذكـر أن (المجلس الإداري للجمعية قرر في جلسته الإدارية المنعقـدة في 15/رجب/1355هـ إيفاد وفود إلى البلدان التي ستذكر فيما بعد للقيـام بهمـة الوعـظ والإرشــاد، ولــدعوة الأمــة إلى تعليم أبنائهــا، بإنشــاء المكــاتب والمدارس لمقاومة الأمية، وتبليغ الـدين الإسـلامي تبليغـا علميـا.. وقد جعل يوم 15/اكتوبر/1936م موعد اجتماع أعضاء الوفد ببلدة (برج أم نائـل) لتكـون مبـدأ رحلتهم، ومنهـا يتوجهـون إلى (تـيزي وزو)، ومنها إلى (ميشـلي)، و(ذراع المـيزان)، و(الأربعـاء) وغيرهـا من البلدان)

ثم ختم التقرير بقولـه: (وبمـا أن هـؤلاء المشـايخ موفـدون من جمعيــة العلمــاء، وهم من أعضــائها وقــد ذهبــوا لخدمــة الــدين الإســلامي والمســلمين. فإننــا نرجــو من إخواننــا أهــل البلــدان المذكورة أن يستمعوا إلى نصائحهم، وأن يعملـوا بوصـاياهم الـتي يبلغونها باسم الدين الإسلامي)

بناء على هذا، سـنحاول هنـا، وباختصـار أن نـذكر بعض النمـاذج عن تنقلات أعضاء الجمعيـة، والمواضـيع الـتي كـانت تطـرح فيهـا، وعلاقتها بالطرق الصـوفية، وقـد نعـرف من خلال ذلـك سـر تأييـد

---

[1]) آثار ابن باديس (3/ 523)

[2]) نشــر: جريــدة البصــائر، السلســلة الأولى، الســنة الأولى، عــدد 38، الجمعــة 09/10/1936م الموافق 23/رجب/ 1355هـ، ص 3.

الطرق الصوفية لقرار المنع الذي استهجنه ابن باديس والجمعيــة، واعتبروا الطرق على أساسه موالية للاستعمار.

النموذج الأول:

وهو حول تنقل الشيخ محمد البشير الإبـراهيمي الـذي كـان من أكثر أعضاء الجمعية نشاطا في هـذه الناحيـة، ولكنـا سـنكتفي في هذا النموذج على تنقله في الغرب الجزائري، لنعرف ما كان يـدور في تلك اللقاءات الجماهيرية للجمعية مع المجتمع.

وقد نقلت وصف هذه الحركـة الدعويـة من شـاهد عيـان عـرف نفسه بقوله[1]: (محمد الصغير الشافعي مول السهول، كان عمري 22 سنة، وبإذن من والدي رافقت الشـيخ البشـير الإبـراهيمي في جولته لعمالة وهران سنة 1934 من أجل تأسيس لجـان الجمعيـة ونشر الفكرة الإصلاحية)

ثم تحــدث عن زيــاراتهم إلى ســيدي بلعبــاس، ثم وهــران، ثم المحمدية، ثم غليزان ثم مستغانم، ولم يظفـروا في هـذه المحـال جميعا بأي نتيجة، وهو يـدل على استعصـاء المنـاطق الغربيـة على الجمعية بسبب انتشار الطرق الصوفية.

ثم ذكر تنقلهم إلى غليزان، وهنـاك اسـتطاعوا أن يلتقـوا بـاثنين من التلمسـانيين (محمـد الصـغير بن شـنهو وبوعبـد اللـه، كـاتب الضـبط بالعدالـة)، وقـد اقترحـا على الشـيخ الإبـراهيمي أن يلقي محاضرة في ناديهما، لكن المفاجأة أن النادي كـان ينتمي للزاويـة العلاوية، ومـع ذلـك لم يمنـع هـذا النـادي – رغم انتمائـه للطريقـة العلاوية – الشيخ من إلقاء محاضرته، فحدد موعد المحاضـرة بعـد يـومين على السـاعة العاشـرة صـباحا، وكـان موضـوعه التوسـل، ولأجل ذلك لقي إقبالا من رجال الطرق الصوفية.

ويذكر الشاهد أنه عندما اقترب موعد المحاضرة أمر الشـيخ أن نذهب إلى أحد التجار بغلـيزان اسـمه (ولى المـيزابي) لكي يبعث

---

[1]) ذكـرت هـذه الشـهادة في كتـاب: (مسـيرة الحركـة الإصـلاحية بتلمسـان: آثـار ومواقف) جمع وإعداد: (خالد مرزوق-المختار بن عامر)، نقلا عن : محمد بدر الـدين سيـفي، جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكـريم تعليما- وعملا –ودعوة، دط، ص27.

لنـا عشـرة من الرجـال الأقويـاء الأشـداء يلتفـون حولـه أثنـاء المحاضرة ويكونون سندا له عند الحاجة.

كـان في إمكـان الشـيخ – خاصـة في موضـوع مثـل هـذا - أن يتناوله كما تناوله الشيخ ابن باديس، كما ذكرنا ذلك سابقا، خاصـة في حضور رجال الطرق الصوفية، لكن الشـيخ الإبـراهيمي – كمـا يـذكر الشـاهد - افتتح درسـه بقولـه تعـالى: {وَجَـاءَ مِنْ أَقْصَـى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَـلِينَ (20) اتَّبِعُـوا مَنْ لَا يَسْـأَلُكُمْ أَجْـرًا وَهُمْ مُهْتَـدُونَ (21)} [يس: 20،ـ 21]، ثم بـدأ يشرحها، فقام إليه أحدهم من تلمسان، وأوقفه قال لـه: مـا جئت لأسمع حماقاتك؛ ثم قال: ها هو أحد شيوخنا يطرح عليك سـؤالين فأجبه، فقام هذا الأخـير وسـأله: إن كـان يعـترف بـدور العلـويين؟ وهل يؤمن بالتوسل والوسيلة؟

فأجابـه الإبـراهيمي – كمـا يـذكر الشـاهد- بقولـه: (إن الإنسـان يتوسل إلى الله بعمله الصالح)[1]، وذكـر قصـة النفـر الثلاثـة الـذين أغلق عليهم في الغار[2]، وبدأ كل واحد منهم يتوسل بعمله الصالح،

[1] جهود رجال جمعية العلمـاء المسـلمين الجزائـريين في خدمـة القـرآن الكـريم تعليما- وعملا –ودعوة، ص28.

[2] نص الحديث كما روي في بعض رواياته هو قوله ﷺ: (إن ثلاثة نفر انطلقـوا في سفر، فآواهم الليل إلى غـار، فـوقعت صـخرة على بـاب ذلـك الغـار، فقـال بعضـهم لبعض : لستم على الطريق، وقد بليتم بأمر عظيم لا يمكنكم فيه إلا أن تـدعوا الـذي أبلاكم به أو كلمة نحوها، فلينظر كل رجل منكم أفضل عمل عمله فليذكره ثم ليدعو الله، فقال أحـدهم : اللهم إنـك تعلم أنـه كـانت لي بنت عم لم يكن في الأرض أحـد أحب إلي منها، فأردتها على نفسها وجعلت لها مئة دينار، فلما جلسـت منهـا مجلس الرجل من امرأته، استقبلتها رعدة، وقـالت : إني واللـه مـا عملت خطيئـة قـط ومـا حملـني عليـه إلا الجهـد، فقمت وقلت : هي لـك، اللهم إن كنت تعلم أني إنمـا قمت عنها التماس مرضاتك ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، فانحـط الحجـر حـتى رأوا الضـوء، وقـال الآخـر : اللهم إن كنت تعلم أنـه كـان لي أبـوان، وكـانت لي غنم أرعى قريبا، وإني تباعدت فجئت ذلك ليلة وقد احتبست، فحلبت إناء من لبن، وأتيت أبوي فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أوقظهما من نومهما، فبات الإناء على يدي حـتى استيقظا متى اسـتيقظا اللهم إن كنت تعلم أني إنمـا فعلت ذلـك التمـاس مرضـاتك

وهو في هذا ينقل لهم نفس ما يقوله الاتجاه السلفي المحافظ من قصر التوسل على مثل هذه المعاني.

وقد أثارت إجابته – كما يذكر الشاهد- سخط الحاضرين، حيث (بدأ الغليان والتشويش والهرج والمرج، وكان من بين الحاضرين شرطي يهودي فقام وقال للناس: (من أراد أن يستمع للشيخ فليجلس ومن أراد التشويش فعشرة أيام حبس)

عندها – كما يذكر الشاهد- قام السيد برّاقي (مستشار بلدي من غليزان) وأوقف الحوار وقال للحاضرين: (من لا تهمه المحاضرة فعليه بالخروج)، ثم اتجه إلى الشيخ الإبراهيمي ليشجعه وتلا الآية الكريمة: { وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى } [يس: 20]، ثم قال له: إن هذا الرجل الذي جاء يسعى لمدينة غليزان هو أنت!.. وتتابعت المحاضرة، وبعد نهايتها دعانا السيد قاسم سعادة للعشاء، وسررنا بذلك، ثم ركبنا القطار المتجه نحو تلمسان من العاصمة ليلا)[1]

ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فانقض الحجر حتى رأوا الضوء ورجوا، قال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أني استأجرت رجالا بأجر معلوم، وكان فيهم رجل يعمل عمل رجلين، فلما أعطيتهم أجورهم قال : أعطني عمل رجلين، فقلت : إنما لك عمل رجل، فأبى وتركه عندي وذهب، فلم أزل أعمل له فيه حتى اجتمع ستون من بين ثور وبقرة وعبد وأمة، فجاء بعد حين فقال : يا عبد الله، أما آن لك أن تعطيني أجري ؟ قلت : من أنت ؟ قال : أنا الذي عملت معك عمل رجلين فلم تعطني إلا عمل رجل واحد فتركته، فقلت : هذه ستون من بين ثور وبقرة وعبد وأمة، قال : حبستني ما حبستني وتسخر بي، قلت : هو لك فخذه فأخذه، اللهم إن كنت تعلم أني إنما فعلت ذلك التماس مرضاتك ومخافة سخطك، فافرج عنا هذا الحجر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فزال الحجر وانطلقوا يمشون) (انظر: صحيح البخاري (3/ 119)، صحيح مسلم (8/ـ 89،ـ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، مسند البزار (البحر الزخار)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة : الأولى، (8/ 230))

[1] جهود رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في خدمة القرآن الكريم تعليما- وعملا –ودعوة، ص29.

هذه هي الشهادة، ولسنا ندري السبب الذي من أجله ضيع الإبراهيمي تلك الفرصة التي أتيحت له للقاء أهل غليزان وللقاء من يطلق عليهم الطرقيين بعد ذلك الجهد الذي بذله في مناطق كثيرة من الغرب الجزائري، ومنع منها جميعا.

كان في إمكانه – إن استعمل أسلوب الحكمة – أن يجر الطرقيين وغير الطرقيين إلى الخط الإصلاحي من غير أن يصطدم معهم، خاصة في قضية خلافية، ابن باديس ينتصر للصوفية فيها.

ولسنا ندري فوق ذلك كيف يذكر حديث النفر الثلاثة الذي يورده الاتجاه السلفي المتشدد عند بيان موقفه من التوسل مع عدم صراحة النص فيه، ويترك الحديث الصريح والصحيح في التوسل والذي سبق ذكره.

إن النتيجة التي نخلص إليها من هذا التصرف، وما نتج عنه أنه كان في أعضاء الجمعية رجال كانوا - مع علمهم وفقههم - تنقصهم الحكمة والمقاصدية التي طالما تغنوا بها، وتصوروا أنها حكر عليهم.

النموذج الثاني:

وهو حول تنقل الشيخ العربي التبسي الى خنشلة، ولا نفتقر في هذا النموذج إلى شاهد قد يغفل عن بعض الأحداث، أو قد يدخل في الأحداث بعض تفسيراته وتحليلاته، بل إنا ننقل الشهادة من صاحب القضية نفسه، وهو الشيخ العربي التبسي.

بدأ الشيخ العربي التبسي شهادته بقوله: (شاء الله أن أهبط بلدة خنشلة في صيف هذا العام، وشاء أن أتخذها محل إقامة خمسا وعشرين ليلة، وقدر لي أن اجتمعت أثناء هذه الليالي بأقوام يمثلون أغلب طبقاتها، واستطلعت آراء عقلائها ومفكريها في حالتنا الدينية وما أصابها من تدهور)[1]

هذا ما ذكره الشيخ العربي التبسي حول هؤلاء العقلاء والمفكرين الذين التقى بهم والذين أشاد بهم كل هده الإشادة، وكان من المتوقع أن يتحدث مع هؤلاء في قضايا تهم الأمة جميعا، وتوحد صفها وتجمع كلمتها، لكن الأمر لم يكن كذلك، فقد غلبت

---

[1]) بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 5)

الجزئية في حديثهم وبحثهم على المقاصدية، كما غلبت الطائفية المذهبية على الوحدة الإسلامية.

يقول الشيخ العربي التبسي: (وكانت نتيجة البحث مع العقلاء الذين حفظهم الله من بدعة الطرقيين استحسان الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه سلف الأمة، وإلى ترك ما أحدثه المحدثون، وهذه الظاهرة الدينية من أفهم الأدلة على أن أمتنا سدد الله خطى علمائها والعاملين لخير مفتها من الأمم التي أشربت حث دينها المحفوظ) [1]

ثم ذكر الشيخ بعض ما كان يدور في تلك المجالس من أحاديث، وجله حول التهوين من شأن شيوخ الصوفية، بل اعتبارهم كرجال الدين المسيحي، يقول الشيخ: (وكنت أفضي إلى من أجتمع به بما يتطلبه منا دين لا ببوية ولا قساوسة ولا رهبان ولا كهنوتية فيه، وأجد من فضلائها وأهل الروية والثقافة العلمية بتلك البلدة الإسلامية رجالا يقدرون الدين حق قدره ويعلمون أنه دين رب العالمين، لا صنع رجال يصرفونه كيف شاءوا وشاءت مآربهم) [2]

وقد ذكرنا عند حديثنا عن الشيخ المربي الجهد الكبير الذي بذلته الجمعية للتهوين من شأن مشايخ الصوفية، بل من شأن مشايخ العلم الذين يخالفونها، وقد عرفنا نتيجة ذلك في مستقبل الجزائر القريب من خروج الأمر من أيدي أصحاب العمائم إلى أيدي أصحاب الطرابيش، في الوقت الذي كان يستطيع أي شيخ صوفي أن يجيش الجيوش ليقتحم بهم ما يشاء.

وكشأن أصحاب الاتجاه السلفي لا يمكنهم أن يحلوا محلا دون أن يحدث الشقاق فيه، وهذا ما حصل، وقد قدم له الشيخ العربي التبسي بقوله: (. وقد منيت دعوة رجال الإصلاح الديني كما في كل مبدأ صحيح قبلها بأقوام يناهضون الحق بسلاح الأوهام ويعادون أهله، لا لأنهم شاقوا معصوما أو حاربوا صحيحا بل لأنهم سفهوا عوائد وطرحوا مألوفا تبين أنه لم يأت من طريق التوفيق) [3]

ثم ذكر كيف التقى برجلين من أهل خنشلة من أتباع الطرق

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 5)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[3] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

الصـوفية، فقـال: (وفي بلـدة خنشـلة لسـانان من ألسـنة فلـول الطرائـق وخـزائن الأخبـار المحرفـة والأقاويـل المضـطربة- وقـد حدثت عن هذين الأخـوين في النسـب والجهـل بمـا يأتيـان بـه من تنفـير النـاس من دعـوة المصـلحين والتقـول عليهم بمـا يـذكر بالقصص الإسرائيلي، فحاولت أن أجتمع بهما اجتماعا يمكنـني من مفاوضتهما) [1]

وهكـذا تيسـر الأمـر للشـيخ العـربي التبسي أن يلتقي بهـذين الطرقيين، وهي مناسبة عظيمة لرأب الصدع، وتوحيد الصف، لكن الشيخ العربي – للأسف – كشأن التيار السلفي عموما لا يحلـو لـه الحديث إلا في المختلـف فيـه، فقـد ذكـر الموضـوع الـذي تحـدث معهما فيه، فقال: (فجمع الله بيننا أمـام قهـوة عربيـة، فجاذبتهمـا الحديث في شؤون، منها إعطاء العهود الموجودة بيننا من رؤسـاء الطرائق ،وتحديـد الأذكـار للأمـة على هـذا الوجـه بدعـة لا يعرفهـا السلف، ولا يقبلها الشرع، فزعما أن هذه العهود وما لف لفهـا قـد نقلت عن الحسن البصري) [2]

وصدقا في ذلك، فهناك روايات تدل على هذا يتناقلها الصـوفية، وهي صحيحة عندهم[3]، لكن الشيخ – كالتيار السلفي – لا يـؤمن إلا

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[3] من النصوص التي يستدل بهـا الصـوفية على هـذا مـا رواه يعلى بن شـدّاد قـال: حدّثني أبي شدّاد بن أوس ؛ وعبادة بن الصامت حاضر يصدّقه قال: كنّا عنـد رسـول الله ﷺ فقال:((هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟ يعني من أهل الكتاب. فقلنـا: لا يـا رسـول، فـأمر بغلق الباب. فقال: إرْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ وَقُولُوا: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، فرفعنا أيدينا ساعة وقلنـا: لا إله إلا الله، ثم وضَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يدَه ثم قال: الحَمْدُ للـهِ، اللَّهُمَّ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الكَلِمَةِ، وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَـدْتَنِي عَلَيهَـا الجَنَّةَ، وَإِنَّكَ لَا تُخْلِـفُ المِيعَـادَ. ثم قال: أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللـهَ عَـزَّ وجَـلَّ قَـدْ غَفَـرَ لَكُمْ) الحـديث أخرجـه أحمـد والطـبراني والبزّار. (مسند أحمد بن حنبل (4/ 124)، مسند البزار 18 (7/ 156)، وقد استدل بهذا الصوفية على أنّ في هـذا الحـديث دليلا لمـا يفعلـه الشـيوخ من تلقينهم للـذكر لجماعة معا.

ويستدلون للتلقين الإفرادي بما روي عن عليّ كرَّم الله وجهه أنه سـأل النـبيّ صـلى الله عليه وسلم بقوله: يا رسول اللـه دلّـني على أقـرب الطـرق إلى اللـه، وأسـهلها

بالأحاديث التي تمر على غرباله الخاص، أما ما يورده سائر الأمة من الأحاديث، فهي عنده إما منكرة أو شاذة، لأن راويها لا يتوافق مع هذا التيار الذي لا يريد أن يحتكر الدين فقط، بل يريد أن يحتكر رسول الله ﷺ أيضا.

وقد ذكر الشيخ إجابته لهما، فقال: (فأجبتهما بأن من نقل هذا عنه أراه قد كذب عليه)[1]

هكذا بكل بساطة، ومن غير بحث، ومن غير تعليل حكم بالكذب، وهذا ما ذكرناه من تسرع رجال الجمعية في إطلاق الأحكام، ثم ذكر أن (مسألة كمسألة العهود وتحديد الأذكار ووضع الطرائق للأمم ليس بسر من الأسرار حتى يمتاز بها الحسن، ومحال أن يفعل شيئا لم يتلقه عمن قبله ولو فعله من قبله- والمسألة لها خطرها- لنقلت شائعة ذائعة كما هي الآن وهذه الكتب الصحاح التي غيرت رجالها وفحصت أخبارها لا يوجد فيها ما يصلح أن يكون دليلا أو شبه دليل)[2]

لكي ندرك قيمة هذه المناقشات لابد أن نستحضر دائما ما ذكرناه حول الواقع الجزائري الخطير في عهد الاستعمار، وهل كان يسمح لهذه القضايا الفرعية أن تطرح في ذلك الحين، وهل كان من المقاصدية أن تكمم أفواه أولئك الذاكرين الذين لقنوا المستعمر أروع دروس التضحية والفداء، بفضل ما تحدثه تلك الأوراد في قلوبهم من قوة إيمانية.

ويواصل الشيخ حديثه بما تعودنا سماعه م رجال الجمعية من كونهم دائما هم المنتصرون في مناقشاتهم مع المخالف، فقال:

على عباده، وأفضلها عنده تعالى، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: عليك بمداومة ذكر الله تعالى سرّاً وجهراً، فقال سيّدنا علي: كلُّ الناس ذاكرون. فخصَّني بشيء؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفضل ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلا الله، ولو أنّ السموات والأرضين في كفّة. ولا إله إلا الله في كفة. لرجحت بهم، ولا تقوم القيامة وعلى وجه الأرض من يقول: لا إله إلا الله، ثم قال سيّدنا علي: فكيف أذكر؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: غَمِّضْ عينيكَ. واسمع منّي لا إله إلا الله ثلاث مرّات، ثم قلها ثلاثاً وأنا أسمع، ثم فعل ذلك برفع الصوت. (أخرجه الإمام أحمد، وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" رجاله موثوقون ج1/ص42])

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

[2] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 6)

(فلما سدت في وجوههما مناهج التضليل انقلبا إلى السباب والفضاضة والفحش والإذاية، فأعرضت عنهما ومررت بكلامهما مر الكرام، ووعدت الحاضرين بالكتابة في بدعة الطرائق في الإسلام)[1]

هذا هو النموذج الثاني، وهو يدل على المواضيع التي كان يحلو لأعضاء الجمعية إيرادها، ونحب قبل أن نترك هذا النموذج أن نذكر بأن هذا العملاق من عمالقة جمعية العلماء، ونتيجة ما جبل عليه من تسامح ومحبة وسلام لم يفت بما أفتى به جماهير العلماء – حتى ابن تيمية نفسه – من كفر من سب الله أو سب رسوله، بل اعتذر له وبرر له سلوكه، كما ذكرنا ذلك سابقا.

بل إنه – على حسب ما نعرفه من هذا التيار السلفي- يفضل ذلك الذي سب الله وسب رسوله على ذلك الذي يحمل مسبحة ويأتي بالأوراد، لأن الأول أخطأ، والثاني ابتدع، والمخطئ أهون حالا من المبتدع.. ثم نتساءل بعد هذا: أين ذهب رجال الدين بعد استقلال الجزائر، وقد قتلناهم بأيدينا؟

النموذج الثالث:

وهو حول تنقل الشيخ مبارك الميلي إلى ميلة ونواحيها سنة 1933، والذي نقلته صحيفة (الشريعة النبوية) بتفاصيله[2]، ونحن نتعجب من سر ذكر تلك التفاصيل الكثيرة في صحيفة رسمية قليلة الصفحات، كان يمكن أن تستغل فيما يفيد القارئ، ولكنا نجد فيها مثل هذا الكلام الكثير الذي ينبئ عن نفسية معينة: (حل الأستاذ مبارك الميلي ببلدة القرارم قادما من الميلية بعد صلة الرحم صباح يوم الأربعاء عاشر ربيع الآخر, وبنزوله من السيارة تسابق الناس إلى لقائه فتلقوه بوجوه ضاحكة مستبشرة وقلوب تحمل في سويدائها إيمانا صادقا وعطفا زائدا نحو العلماء العاملين. وقصد الكل محل آل بوزيان المعد لنزول الوافدين, وما إن انتشر خبر قدومه حتى أسرع أهل البلدة للترحيب به وفي مقدمتهم بعض العلماء الذين كانوا هنا منهم الشيخ بلقاسم السوفي المتطوع بجامع الزيتونة)[3]

---

[1] بدعة الطرائق في الإسلام (ص: 7)

[2] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

[3] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

وحتى تكتمل الصورة جيدا، فقد كان الشيخ مبارك الميلي حينها لا يتجاوز عمره 37 سنة، لكن المشايخ من كل حدب وصوب يسرعون إليه كما يحلو للصحيفة أن تصور، حتى أنها وصفت ذلك اليوم بكونه (يوما عزيز الوجود)

بعد هذه الملاحظة التي رأينا ضرورة ذكرها اجتمع الجمع، بعد صلاة العشاء في المسجد الجامع، وبعد الصلاة تحلق الجمع حول هذا الشيخ المصلح الفتي، وكانت فرصة عظيمة له لينشر الفكر الإصلاحي، فانتهز الشيخ الفرصة، وتحدث في وقت كانت الأعين – كما تصف الصحيفة- إليه ناظرة, (فأبان للسامعين قسمه تعالى بما ذكر في هذه السورة وما يستنتجه العقل السليم من بلاغة القرآن العظيم, وأن الله تعالى يقسم بما يريد من مخلوقاته لينبهنا إلى ما في المقسم به من علامات ناطقة بجلال قدرته, هذا بخلاف المخلوق فإنه لا يجوز له شرعا أن يقسم بمخلوق مثله. ومعلوم أن المقسم بالكسر بقسمه قد عظم المقسم به, والتعظيم لا ينبغي أن يكون إلا لله)[1]

إذن الموضوع واضح، وهو الشرك ومظاهر الشرك..

وفي الغد ألقى درسا آخر بعد صلاة الظهر في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الممتحنة: 12] بمثل الأسلوب الذي سار عليه في الدرس الأول.

قد يستغرب القارئ اختياره لهذه الآية في جو هيئ له خصيصا لينشر الفكر الإصلاحي الذي جاءت به الجمعية، خاصة وأن الإقبال عليه كان عظيما كما تذكر الصحيفة.

ولكن الاستغراب يزول إذا علم أنه – كما تذكر الصحيفة- (بين للحاضرين معنى المبايعة ومبايعة رسول الله ﷺ المؤمنات, وأن مبايعة النساء بعد رسول الله ﷺ لا تكون لأحد, فتلقى الحضور هاته النصائح بارتياح عظيم, مما يدل على أن العقول قابلة لتلقي

---

[1]) الشريعة النبوية العدد6، ص5.

النور الإلهي)[1]

وقد يستغرب القارئ الذي لا يعرف معنى المبايعة والعهد عند الصوفية حديثه هذا، ولكن الاستغراب يزول بشرح الصحيفة لما ذكره الشيخ الميلي، وهو (أن هذه الآية خلاف ما يفهمه الجهال من أهل هذا الزمان الذين يستبيحون مبايعة النساء بما يعطونهن من الأوراد, ويستندون في هذا إلى هذه الآية الكريمة. والحقيقة أنهم لم يعرفوا من سنة رسول الله ﷺ شيئا)[2]

وقد مر معنا المراد ببيعة الصوفية وأنها تشمل الأذكار الكثيرة، والالتزام الديني والأخلاقي ونحوها.

ولسنا ندري السر في بذل كل هذه الجهود، وتجنيدها من أجل أن يقول للنساء: لا تعاهدوا المشايخ على الذكر وعلى الالتزام.

ولكن هذا هو منهج السلف كما تفهمه الجمعية، وكما يفهمه التيار السلفي الاستئصالي.

2 ــ تنقلات مناسباتية:

كما حاولنا من خلال النماذج السابقة أن نتعرف على أنواع المواضيع التي كان يتطرق لها أعضاء الجمعية، وصلتها بالطرق الصوفية، فسنذكر هنا التنقلات المرتبطة بالمناسبات الدينية.

وقد كان اهتمام الجمعية بهذه المناسبات وخصوصا مناسبة المولد النبوي الشريف مثار سخط لدى التيار السلفي الحديث، والذي يرى أن إحياء هذه المناسبات بدعة ضلالة.

ولذلك فقد تعامل مع علماء الجمعية بنفس المعاملة التي تعاملوا بها مع الطرق الصوفية، فاتهموهم بالبدعة لأجل هذا.

ولكن السؤال ليس هو عن الإحياء، فقد كان معروفا متعودا عليه من طرف المجتمع الجزائري، وإنما عن كيفية الإحياء وصيغتها الجديدة التي جاءت بها الجمعية، ونحب قبل أن نعرض المنهج الإحيائي الجديد الذي جاءت به الجمعية أن نذكر الطريقة البدعية التي كان يحيي بها أهل عنابة المولد، وقد نشرت الشريعة رسالة تذكر كيف كان أهل عنابة يحيون مناسبة المولد، ونصها: (قد اعتاد الناس في هذا الشهر أن يحتفلوا بذكرى المولد النبوي الشريف تذكارا وموعظة وإحياء لشيء من سند سيدنا محمد ﷺ

---

[1] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

[2] الشريعة النبوية العدد6، ص5.

ومعالمه ومآثره وإظهارا لأخلاقه الكريمة لقصد بعث الناس وحملهم على التأسي والاقتداء بسيرته الفاضلة الحميدة الجميلة.. غير أننا نلاحظ على أكثر هاته الاحتفالات بأنها تقتصر على سرد قصائد في مدحه عليه وآله الصلاة والسلام وسرد قصة مولده وذكر أناشيد بنغمات وأصوات شجية كل بلد على قدر ذوقه ومبلغه في صناعة الألحان والنغمات)[1]

ولسنا ندري ما العيب في هذا، وهل الناس في الاحتفالات يحتاجون إلى الترويح المفرح لهم بمثل هذه الأناشيد، أم يحتاجون إلى الخطب والمحاضرات، والتي يمكن أن يسمعوها في أي وقت آخر.

ولكن مع ذلك قد تكون المحاضرات والخطب أجدى في واقع يسيطر عليه الاستعمار وتوابعه، وهذا ما لاحظته الجمعية، وكان لها أن تنجح فيه لو أنها عرفت كيف تستعمله.

وحتى ندرك مدى نجاحها فيه نحب أن ننقل خطبتين ألقيتا في تلك المناسبة لنعرف ما الذي استبدلت به تلك القصائد في مدح رسول الله ﷺ، وكلا الخطبتين نشرتا في جريدة الشريعة.

الخطبة الأولى:

وهي الخطبة التي ألقاها – كما تذكر صحيفة الشريعة النبوية - الكاتب الأديب السيد حامد الأرقش، وسننقلها كما هي من دون أي تصرف لنعرف محتواها وأسلوبها، ونترك للقارئ بعد ذلك الحكم في أيهما أفضل: قصائد مدح رسول الله ﷺ أم هذه الخطبة العصماء.

قال هذا الكاتب الأديب– يخاطب ابن باديس، والجموع الغفيرة التي حضرت الحفل-: (سيدي الأستاذ، سادتي، باسم الشباب البوني وجمعيتنا دعوناكم وقبلتم ضيافتنا فأشكركم كثيرا من صميم الفؤاد إذ لبيتم دعوتنا تاركين أشغالكم غير مبالين بالتعب ووعثاء السفر ولا ألسنة الوشاة وفي الحقيقة ما هذه التلبية وهذه الأتعاب إلا تنفيذا لبرنامج عملكم الصالح الذي أخذتم على عاتقكم إسداءه لأبناء جنسكم المتخبطين في دياجي الجهالة وتحت سيطرة كهنوت خئون انتفاعي غايته التضليل والغش.. حياتكم أيها الأستاذ كلها جهاد ولكن بسلاح سلمي علمي تحت سماء الصراحة

---

[1]) جريدة الشريعة النبوية المحمدية (2/ 4)

وضوء الهداية، البدع أحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم فقيدتنا، فحطموها ويد الله معكم وعينه ترعاكم, إن بارقة الأمل لاحت رغم المشاغبات ولم تبق إلا عشية أو ضحاها حتى تعم الأمة بكل ما تحويه من سعادة حقيقة.

إن جمعيتنا أسست لمحاربة البدع والأضاليل وما أرى إن شاء الله إلا سعيها مكللا بالنجاح وعنوان ذلك وجود أمثالكم بيننا أرجوكم أن تسعفونا بوصاياكم النيرة فإنكم كالشمس ونحن هلال نقتبس نوركم الذي فيه بذور الحياة.

إن الشباب المتعلم باللغة الفرنسوية سرت فيه الروح التي أنتم ساعون في بثها, فغايتكم وغايتها صارت واحدة وإن الحوادث والحقائق المنطقية وجدت الصفوف بالأمس كان هذا الشباب كغريب عن وسطكم أما الآن فلا وإننا نشاهد هذه الحركة هنا وقد شاهدناها أخيرا في قسنطينة حقيقة تلمس باليد.

إن جو اليوم غير جو الأمس وفكر اليوم غير فكر الأمس وإن لاحت بارقة الحياة في أمة فإنها لا ترد كيفما كانت الحوادث.. وفي الختام أقول لكم: وفقتم وأيدتم آمنين)[1]

الخطبة الثانية:

وهذه الخطبة ألقاها – كما تذكر جريدة الشريعة النبوية - المعلم الناصح الشيخ محمد نمر، وهذا نصها - بعد الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ - من غير تقطيع: (وبعد فمرحبا بك يا أستاذنا المبرور والذائد عن حمى شريعتنا المنصور, ثم ها أنا أقدم لك عبارات الترحيب والتهنية بلسان مجموع الأمة البونية ونشكرك على إجابة دعوتنا ومساعدتك على مرغوبنا كما نعرب عن إخلاص مودتنا لكم وتأييدنا ولا منة لنا عليكم في ذلك إن كان حب العلم والعلماء من واجبات ديننا ويا ليتنا جميعا عرفنا ما للعلماء علينا من واجبات فاتبعناهم وأيدناهم ونصرناهم على ذوي الأغراض السفلة والمشاغبات ولكنا ويا للأسف يجدر بنا أن ينشد في حقنا ما قاله شاعر العراق:

إذا ما رأينا واحدا قام بانيا هناك, رأينا خلفه ألف هادم

أيها السادة إنني أعرفكم بمبدإ جمعيتنا جمعية العلماء

[1]) جريدة الشريعة النبوية المحمدية (4/ 6)

المسلمين الجزائريين وما قدمته من الأعمال الخالصة لأمتنا وللدين والوطن سعيا وراء لم شعث المسلمين وابتغاء وجه الله الكريم.

تكونت حركة الإصلاح فينا على يد علمائنا العاملين المخلصين فألفوا الجمعية السالفة الذكر وعلى رأسها الأستاذ باديس. ما ذا قام المصلحون به, وما الشؤون التي يدعوننا إليها, وما الأعمال التي خدمت الأمة الجمعية بها؟ قام المصلحون من علمائنا في زمان تفرقت فيه أهواؤنا وتشتت آراؤنا وخيم الجهل على ربوعنا وتركنا العمل بما شرعه الله لنا في السنة والكتاب وتعددت المعبودات وإن شئتم فقولوا الأرباب. يدعوننا إلى التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا والعمل بشريعة الإسلام النقية الموجودة في ضمنهما يدعوننا إلى نبذ العوائد والخرافات الملصقة بالدين التي ما أنزل الله بها من سلطان يدعوننا إلى عبادة الله وحده والتمسك بحبله والاعتماد عليه في شؤوننا الدينية والدنيوية, قاموا قومة رجل واحد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوجهون أغراضنا ويلفتوننا نحو تعاليم ديننا الراقية النبيلة يصرخون فينا أن اعتمدوا على الله واستعينوا بالله واسألوا الله وتوكلوا عليه في جلب المصالح ودفع المضار الخ مما يطول شرحه ولا يتسع المقام له, وهنا صاح ذوو الأغراض الشخصية الانتفاعيون من أبناء جنسنا صيحة حمر الوحش وتدرعوا بدروع التمويه وقلب الحقائق وتنوعوا في الاختلاق على العلماء والرمي لهم بما سولت لهم نفوسهم وليت شعري ما حملهم على هذه الأعمال المرذولة التي تهدم الأمة وتبعدها عن الإسلام الصحيح ويبقى الجهل سائدا عليها ولكن لا يخفى على البصير إذا ألقى نظرة على أعمالهم ما يجنون من ورائها وكيف تخفى فائدة استعبادهم للأمة وما يأخذونه منها باسم الزردة والوعدة والزيارة!. أما الجمعية فإن مبدأها إحياء السنة وإماتة البدعة والعمل على الرجوع بالأمة إلى ما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه والاتحاد والإخاء وعدم التفريق في الدين والتخلق بأخلاق خاتم المرسلين، وهي تحارب كل ما ذكرنا من البدع والخرافات وما لم نذكره مما يشوه سمعة الإسلام والمسلمين وأخيرا نسأل الله الكبير المتعال أن يوفقنا وإياكم في

الأقوال والأعمال وينصر العلمـاء العـاملين المخلصـين بجـاه سـيد الأولين والآخرين ﷺ وعلى آله وأصحابه وآخر دعوانا أن الحمد للـه رب العالمين)[1]

هـذه نمـاذج عن الخطب الـتي كـانت تلقى في مناسـبة المولـد النبوي الشريف، وهي المناسـبة الـتي اتفقت الأمـة على اعتبارهـا رمزا للوحدة الإسلامية، ونترك للباحثين النفسـانيين والاجتمـاعيين تحليلهما ليعرفوا من خلالها نوع الشخصـيات الـتي بنتهـا الجمعيـة، ونـوع المجتمـع الـذي سـعت إلى تأسيسـه على أنقـاض المجتمـع الطرقي الذي استطاعت أن تهدمه.

ثانيا ــ التجمعات:

وهي من الوسائل الهامة التي استطاعت الجمعية من خلالها أن تبلغ رسالتها الإصلاحية إلى عدد كبير من الجزائريين، ذلك أن تأثير التجمعات والتنظيمات يجعل من كل فرد من الجمعية طاقة كبرى تتحرك بانتظام لهدف واحد.

وقد ذكر المؤرخون للجمعية ورجالها مدى اهتمام كل فرد منهم بهـذه التجمعـات، فـابن بـاديس - مثلا- كـان يركـز على الشـباب، فيجتمـع بهم ويلقي في أنـديتهم ومراكـز تجمعـاتهم المحاضـرات الدينية التاريخيـة والاجتماعيـة والوطنيـة.. كمـا كـان يـدعوهم إلى تكتيل قواهم ويحثهم على الاسـتقلال بمؤسسـاتهم عن التجمعـات الفرنسية في الميادين الرياضية والفنـون المسـرحية والموسـيقية والكشافة)[2]

وقد استجاب مثلا لـدعوة شـباب جمعيـة بجايـة للرياضـة وألقى في ناديهـا محاضـرة بث فيهـا روح الـوعي، ورغب الحاضـرين في استغلال النوادي الرياضية لخدمة الأمة[3]

كما كان يجتهد في تحصينهم بإنشاء الجمعيات الفنية والرياضية، ومنها (جمعية الشباب الفني) التي تأسست عام (1936) وهـدفها إحياء الفنون الإسلامية والاقتباس من الغرب الفن التمثيلي لخدمة الإصلاح الإسلامي، وقد اختبر رئيسا شرفيا لهـا وكـان من نشـاطها التمثيلي (الدعوة إلى الأخلاق العالية وكبح شـهوات النفس وتجنب

---

[1]) جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (5/ 7)

[2]) محمد المنصوري الغسيري، مرجع سابق،ص122.

[3]) البصائر، ع 116: 04 ربيع الثاني 1337/03 جوان 1938.

الأمراض الفتاكة كالخمر والميسر والقمار والتزوج بالأجنبيات)[4]

وهكـذا نجـد الشـيخ الطيب العقـبي يؤسـس تجمعـات في كـل المناطق التي ينزل فيهـا، وقـد ورد في مكاتبـة نشـرت لأديب في جرائد تـونس ــ جريـدة لسـان الشـعب 1927 ــ قـام برحلـة إلى بسكرة فسجل ما يلي: (في بسـكرة جماعـة إصـلاحية قويـة على رأسها الأستاذ الطيب العقبي ... وأهم ما ترمي إليـه هاتـه الجمعيـة القضاء على الخرافات القديمـة والتنقيص ممـا يعلمـه النـاس عن الطرق والزوايا للقضاء عليهـا بعـد ذلـك بتاتـا، وهـو أمـر تعهـد بـه العقبي الذي لا يترك فرصة تمر بدون أن يكون فيها خطيبا لا فرق عنده أكان ذلك في طريق، أو مقهى، أو حانوت عطار، وقد اشتهر الأستاذ بفكرته وهـو فخـور بهـا يسـمع النـاس يسـبونه ولا يتحـرك ويأتيه البريد بالمكاتيب ـ أي الرسائل ـ المملـوءة بشـتمه فيضـحك منها ويعطيهـا لمن بجانبـه ويقـول: (انظـر في أي شـيء يضـيعون أوقاتهم)، وله في طريق داره ضريح صغير في مقبرة قديمـة رأى الناس يعبدونه فهدمه ثلاث مرات، ولكنهم في كـل مـرة يجـددون بنـاءه بعـد أن يـزودوا الأسـتاذ بجـانب من الـدعاء وأخـيرا تركـوه وصـمموا على عـدم تجديـده إلا إذا انتقم لنفسـه من عـدوه وهم منتظرون.. ولقد التفت حول هذا الرجل المصـلح نخبـة مهمـة من أبناء البلاد كونوا نهضة لا يستهان بها وهي تعمل بكل مجهودها في إنارة الطريق إلى الأفكار القديمة التي اسـتولت عليهـا وأفسـدتها من حيث لا تشعر)[1]

وكتب الزاهـري عن إحـدى جـولات العقـبي رفقـة إخوانـه من العلماء والأدباء في منطقـة بسـكرة تحت عنـوان: (وفـد الشـعراء يزور طولقة، فرفار، البرج) في جريدة البرق يقول: (وبعد الفـراغ من مأدبة الغـداء شـرع الأسـتاذ الطيب العقـبي يـدعو النـاس إلى النجاة ويهديهم إلى سبيل الرشاد ويجاهد الذين يجعلون لله أنـدادا ويدعون مع الله آلهة كثيرة بالقرآن جهـادا كبـيرا، ومضـى العقـبي في هذا الموضوع وتغلغـل فيـه بشـدة كأنـه التيـار الجـارف الـذي

---

[4]) د/ عبـد الـرزاق قسـوم، ابن بـاديس والشـباب، مجلـة الرسـالة (الجزائـر) العـدد 2/3،جمـادى الأولى والثانيـة 1400ه-أفريـل مـاي 1980م نقلا عن مـازن صـلاح مطبقاني.، عبد الحميد بن باديس، ص117..

[1]) محمد الجابري، رحلات جزائرية، ص 84.

جرف طرق القوم وخرافاتهم، أو كأنه إعصار فيه نار تأكل ضلالات المشركين أكلا لما، فلم يبق في مجلسه ذلك أحدا إلى وخضع لكتاب الله وسلم لله ورسوله تسليما ولم يخرجوا من هناك حتى عادوا لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى الله ورسوله) [1]

وقال في مجلس آخر جمعهم بالشيخ السعدوني الذي قال قولا شنيعا: (ولم يتكلم الشيخ السعدوني وجعلنا نتباحث معه في حركة الإصلاح وفي المصلحين وفي أعداء الإصلاح المفسدين فاعترف بأنه قال: (الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ضلال مبين وشقاوة وخسارة سرمدية اليوم وقبل اليوم)، وقال: (إنه لا يزال مصرا على هذا القول وقد بين لنا مراده بتأويل لم نستطع أن نفهمه وقد هجم عليه العقبي هجوم المحق على الباطل فتركه حائرا مبهتا، وكان هذا الموقف الذي وقفه الأستاذ العقبي موقف جد، موقف صراحة، موقف من لا يخاف في الله لومة لائم، موقف من يجاهد الخرافيين بالقرآن جهادا كبيرا، بتلك الفصاحة العربية التي لم تكن لغير العقبي، فإنه أحاط بالسعدوني من كل جانب يحتج بالقرآن، ولم يكن للسعدوني من حجة، وأخيرا عجز عن كل شيء واعترف بأنه لا يستطيع أن ينتصر علينا بلسانه، ولكنه سيكتب في الجرائد، وقد قرعه العقبي على طعنه في ابن تيمية تقريعا حلوا ومرا) [2]

المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة

بالإضافة إلى ما ذكرناه من الحركات والنشاطات التي كانت تقوم بها الجمعية في أداء رسالتها الدعوية على المنهج الذي ارتضته لنفسها، كانت هناك وسيلة أخرى تستعملها لتعبر بها عن فكرها الإصلاحي، وهي وسيلة الصحافة المكتوبة، التي كانت في ذلك الحين تعتبر من أكثر الوسائل تطورا.

ومن خلال دراسة ما وصل إلينا من صحف الجمعية يمكننا بسهولة أن ندرك علاقتها الكبرى بالطرق الصوفية، وكأن الكثير منها لم يوضع إلا لأجل مواجهة ما تسميه بـ (بدعة الطرائق)، وسنرى بعض النماذج عن ذلك.

---

[1] البرق، ماي 1927، ص3..

[2] البرق، ماي 1927، ص3..

ولكنا قبل ذلك نحب أن ننبه إلى أن الكثير من الباحثين عندما يصور إغلاق المستعمر الفرنسي لبعض الصحف يصورها، وكأن تلك الصحف تمس بالسيادة الفرنسية، أو تتعرض لحقوق الجزائريين، والأمر لم يكن كذلك بتاتا للأسف، فقد كانت ممارسات تلك الصحف في محاربة السلم الاجتماعي، يجعلها تتعرض للإغلاق في أي نظام يحترم نفسه.

ونحن لا ندافع عن المستعمر هنا، فقد عرفنا ظلمه وإجحافة، ولكنا نتأسف لبعض تلك الصحف التي تركت قضايا الأمة الكبرى لتنشر بدلها الضغائن والأحقاد، وتناقش في الحرية الدينية التي هي أبسط أنوع الحريات في جميع المجتمعات الإنسانية، وليتها ناقشتها بعلم، إذن لهان الأمر، ولكنها تناقشها بعنف وغلظة وتحريض.

انطلاقا من هذا سنحاول في هذا المطلب أن نذكر الصحف التي أسستها الجمعية أو أسسها أعضاؤها، قبل التأسيس أو بعده، وقد كنا نود تقسيمها إلى صحف رسمية، وصحف شخصية، لكنا وجدنا عدم جدوى هذا من الناحية التي نريد أن نبحث فيها، باعتبار أن بعض الصحف يملكها أفراد متعددون، وصحف أخرى لا ندري أصحابها بالضبط، أو اختلف في أصحابها والمؤسسين لها، والتحقيق في ذلك يبعدنا عن الهدف الذي نهدف إليه من خلال طرح الموضوع في هذا المحل.

بالإضافة إلى ذلك، فإنه يمكن اعتبار الصحف الشخصية نوعا من الصحف الرسمية، لأن المواقف في الجميع واحدة، والخلاف لا يعدو في اسم المؤسسة التي صدرت الصحيفة باسمها.

ولهذا رأينا بدل ذلك أن نقسمها تقسيما آخر يعتمد السرد التاريخي حتى نرى مسيرة هذه الصحف من أجل خدمة أهداف الجمعية، وحتى نتصور الواقع بجميع ملابساته.

بناء على هذا، فسنذكر هنا الصحف الصادرة في ذلك الحين على حسب التسلسل التاريخي، مركزين على ما لها من علاقة بالطرق الصوفية، ولذلك لن نذكر صحف أبي اليقظان[1]، ولا بعض

[1]) يعتبر الشاعر والأستاذ الكبير أبو اليقظان أحد أكبر أعمدة الصحافة الإصلاحية في الجزائر، وهذا سرد مختصر لهذه الصحف:

(وادي ميزاب) 119عددا، من 01/10/1926 إلى 18/01/1929م.

(ميزاب) عدد واحد، 25/01/1930م.

صـحف الأمين العمـودي أو الزاهـري، لأنـا لم نـر لهـا علاقـة بموضوعنا.

1 ــ المنتقد:

أصدرها الشيخ عبد الحميد ابن باديس في 03 جويليـة 1925 م الموافق لـ 11 ذي الحجة سـنة 1343 هــ بمدينـة قسـنطينة تحت شعار (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء)

ولعـل أحسـن من أرخ لهـذه الصـحيفة، وبين الـدوافع لهـا هـو مؤسسها ابن باديس، فقد كتب في (الشهاب) في أفريل 1935م، أي بعد فترة قصيرة من تأسيسها وتعطيها يقول: (في يـوم النحـر من ذي الحجـة خاتمـة شـهور عـام ثلاثـة وأربعين وثلاثمائـة وألـف برزت جريدة (المنتقد) تحمل فكرة الإصلاح الديني) [1]

ثم بين مـراده منـه بقولـه: (بتنزيـه الإسـلام عمـا أحدثـه فيـه المبتدعون وحرفه الجاهلون. وبيانـه كمـا جـاء في القـرآن العظيم والسنة المطهرة وعمل به السلف الصالحون) [2]

وهي بهذا تصب في الهـدف الـذي ذكرنـا، وهـو نصـرة المـذهب السلفي، والرد على من يسميهم الإصلاحيون مبتدعة، وهم ليسـوا سوى أصحاب الطرق الصوفية.

والــذين أشــار إليهم بقولــه في افتتاحيتهــا: (ونحــارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الـدين الـذي هـو قـوام الإخلاص فأفسدته. وعاد وبـال ذلـك الفسـاد علينـا وتأخرنـا من حيث يكـون تقدمنا وسقطنا بما لا نرتفع إلا به، لما شوهناه بإدخال ما هو ضده عليه) [3]

بعد بيانه الأهداف الإصلاحية المحصورة في مقاومة البدعة، بين

(المغرب) 38 عددا، من 29/05/1930 إلى 09/03/1931م.

(النور) 78 عددا، من 15/09/1931 إلى 02/05/1933م.

(البستان) 10 أعداد، من 27/04/1933 إلى 13/07/1933.

(النبراس) 6 أعداد، من 21/07/1933 إلى 22/08/1933.

(الأمة) 170 عددا، من 08/09/1933 إلى 06/06/1938.

(الفرقان) 6 أعداد، من 08/07/1938 إلى 03/08/1938.

[1] آثار ابن باديس (4/ 352)

[2] آثار ابن باديس (4/ 352)

الأهـداف السياسـية، فقـال: (بـرزت جريـدة (المنتقد) تحمـل هـذا وتلفت الجزائريين المسلمين إلى حقيقة وضعيتهم بين الأمم بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، فهي بذلك أمة تامة الأهمية لا ينقصها شيء من مقومات الأمم. وأنهم إلى ذلك مرتبطون بأمة عظيمة ذات تاريخ مجيد ومدنية راقية وحكومة منظمة، وأن عليهم أن يراعوا هـذا كلـه في حيـاتهم فيحـترموا قـوميتم ولغتهم ودينهم وتـاريخهم والأمــة الــتي هم مرتبطــون بهــا والحكومــة الــتي هم مسيرون بقوانينها) [1]

وهذا الذي ذكره ابن باديس هو الـذي نص عليـه في افتتاحيتهـا، وهي أول افتتاحية يكتبها ابن بـاديس، فقـد جـاء فيهـا قولـه: (نحن قــوم مســلمون جزائريــون، في نطــاق مســتعمرات الجمهوريــة الفرنسوية) [2]

ثم بين مســتلزمات كــون الجزائــر مســلمة، فقــال: (فلأننــا مسلمون نعمل على المحافظة على تقاليـد دينـا الـتي تـدعو إلى كـل كمـال إنسـاني، ونحـرص على الأخـوة والسـلام بين شـعوب البشــر وفي المحافظــة على هــذه التقاليــد المحافظــة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سـعادتنا وهنائنـا، لأننـا نعلم أنـه لا يقدر الناس أن يعيشوا بلا دين، وأن الدين قوة عظيمـة لا يسـتهان بها، وأن الحكومة التي تتجاهـل دين الشـعب تسـيء في سياسـته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب.. لا نعني بهذا أننا نخلــط بين الدين والسياسة في جميع شؤوننا، ولا أن يتداخل رجال الدين في سياسـتنا، وإنمـا نعـني اعتبـار الـدين قوامـا لنـا، ومهيعـا شـرعيا لسـلوكنا، ونظامـا محكمـا نعمـل عليـه في حياتنـا، وقـوة معنويـة نلتجيء إليها في تهذيب أخلاقنا) [3]

وبين مستلزمات كونها تابعة لفرنسـا، فقـال: (ولأننـا مسـتعمرة

---

[3] انظر: آثار ابن باديس (3/ 277)، والمنتقد العدد الأول ص 1ع 1ـ 2ـ 3ـ 4ـ 5، الخميس 11 ذي الحجة 1343هـ - 2 جويلية 1625م. وقـد أمضـى هـذا المقـال بمـا يلى (النخبة)

[1] آثار ابن باديس (4/ 352)

[2] آثار ابن باديس (3/ 277)

[3] آثار ابن باديس (3/ 277)

من مستعمرات الجمهورية الفرنسيوية نسعى لربط أواصر المودة بيننا وبين الأمة الفرنسوية وتحسين العلائق بين الأمتين المرتبطتين بروابط المصلحة المشتركة والمنافع المتبادلة من الجانبين، تلك الروابط التي ظهرت دلائلها وثمراتها في غير ما موطن من مواطن الحرب والسلم) [1]

ثم ذكرت ما قدمته الجزائر لفرنسا في مقابل ما قدمته فرنسا للجزائر، فقال: (إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها ويسرها، ومع الأسف لم نر الجزائر نالت على ذلك ما يصلح أن يكون جزاءها، فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية "الحرية والمساواة والأخوة" من رفع مستوانا العلمي والأدبي بتعميم التعليم كل ممت الحديث، وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا في إدارة شؤون وطننا الجزائري، إن لفرنسا ما يناهز القرن في الجزائر ولا أحد ينكر ما لها من الأيادي في نشر الأمن وعمارة الأرض وجميع وجوه الرقي الاقتصادي، غير أنها ويا للأسف ليست لها تلك الأيادي ولا نصفها في تحسين حال الأهالي العلمي والأدبي، مع أن الذي يناسب سمعة فرنسا ومبادئها ويصدق ما ينادي به خطباؤها ويكون أجمع للقلوب عليها هو أن تعنى بالعباد كما تعنى بالبلاد) [2]

بل إن ابن باديس كتب في هذه المقدمة يذكر أن حاجة الجزائريين إلى فرنسا ضرورة حيوية، فقال: (إن الأمة الجزائرية أمة ضعيفة ومتأخرة فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة لترقيها في سلم المدينة والعمران وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد، فنحن نخدم للتفاهم بين الأمتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها ولا نرفع مطالبنا أبدا إلا إليها، ولا نستعين عليها إلا بالمنصفين من أبنائها، وفي جدنا وإخلاصنا وشرف الشعب الفرنسوي وحريته ما يقرب كل أمل بعيد) [3]

هذا ما كتبه ابن باديس في أول افتتاحية كتبها، وإنما ذكرنا نص

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 278)

[2] آثار ابن باديس (3/ 279)

[3] آثار ابن باديس (3/ 279)

كلامه بطوله، لأنا وجدنا للأسف الكثير من الباحثين يقتطع من كلام ابن باديس أو غيره ما يتناسب مع ما يريد أن يفرضه على القارئ من أفكار، ولكنه إن جاء لأصحاب الطرق الصوفية وما يكتبونه ضخم الهزيل، وعظم الحقير.

والتساؤل الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا استعمل ابن باديس – ومثله الجمعية – تلك اللغة الدبلوماسية الذكية مع المستعمر ليحققوا ما يريدون من أهداف، ولم يستعملوا نفس تلك اللغة مع إخوان لهم لم يطلبوا منهم إلا أن يكفوا سبابهم عنهم، وكان في إمكانهم أن يحققوا بذلك من الأهداف أضعاف ما يريدون تحقيقه من المستعمر؟

بعد هذا التوضيح لأهداف الصحيفة من خلال كلام مؤسسها، ذكر ابن باديس كيف بدأت الصحيفة تستقطب الإصلاحيين وتجمعهم، وهو ما يبين أثرها وأثر الصحف في تجميع الإصلاحيين بعد ذلك في مؤسسة الجمعية، فقال: (ثم ما كاد يبرز العدد الثاني منها حتى ظهر في الجزائر كتابه لم يجدوا مجالا لأقلامهم قبلها فانضموا إلى تحريرها وأوجدوا بهيئتهم أول حزب المصلحين)[1]

ثم ذكر ما حصل للجريدة من تعطيل، فقال: مضت الجريدة على خطتها حتى سقطت في الميدان بقرار التعطيل بعد ما برز منها (18) ثمانية عشر عددا كانت في بنيان النهضة ثمانية عشر سندا)[2]

2 ــ الشهاب

بعد تعطيل المنتقد، وفي نفس السنة (أي في سنة 1925م) أصدر الشيخ عبد الحميد بن باديس جريدة (الشهاب) وكانت في أول الأمر أسبوعية، ثم تحولت في فبراير من سنة 1929 م إلى مجلة شهرية، تحتوي افتتاحية، ومقالات وفتاوى وقصصا وأخبارا وطرائف وتراجم وغير ذلك، وكان في السنوات الأولى يكتب معظم مقالاتها بنفسه، ويوزعها أيضا بنفسه، وقد استمرت في الصدور إلى الحرب العالمية الثانية فتوقفت في سبتمبر 1939م[3].

أما علاقتها بالطرق الصوفية، وحربها لها، فلا يحتاج إلى أي

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 279)

[2] الشهاب: ج 1، م 11، ص 1 - 3 محرم 1345ه - أفريل 1935م.

دليـل، ذلـك أن الشـيخ ابن بـاديس نفسـه صـرح بـدورها في هـذا المجال، حيث نشر بعد ما يقرب من عشر سـنوات من تأسيسـها[1] يقول: (وبعـد فـإن مجلـة (الشـهاب) تفخـر بأنهـا أنشـئت للحركـة الإصـلاحية ورافقتهـا في جميـع مراحلهـا وأنهـا هـاجمت البـدع في معاقلهـا وواثبت الخرافـات في أيـام عزهـا واشـتدادها، وسـاورت الأباطيل على احتفالها واستعدادها لم تهن لهـا عزيمـة في موقـف من المواقف التي تخور فيها العـزائم وترجـف الأفئـدة، ولم يكتب لها قلم في ميدان من الميادين الـتي تنعقـد فيهـا الألسـنة وتجبـل القرائح)[2]

وقد ذكر ابن باديس بعض النماذج عن البدع التي كانت تحاربهـا الشهاب في هذا المجال، ونجاحها فيهـا، فقـال: (نشـرنا في جـزء ربيع الثاني من العام الماضي الفتوى التي أصدرها عشرون عالمـا من علماء طرابلس الغرب في وجوب إلغاء ما يسـتعمله أصـحاب الطـــرق من المشـــي على الفحم المصـــهور وابتلاع العقـــارب والأفـاعي والحشـرات السـامة وطعن أجسـادهم وثقبهـا بـالآلات الحادة. وقدموا في ذلك مطلبا لحكومة البلاد وعملت على تنفيذه، ثم اطلعنـا على عريضـة مؤرخـة بربيـع الأول من العـام الماضـي قدمها نحو الثلاثين عالما من علماء المغرب الأقصى من مدرسـين بجامع القرويين وغيرهم إلى جلالة مولانا السلطان (سيدي محمد) أيده الله يشتكون إليه ما كان من مخالفة ما تقدم من أمـره بمنـع بدع كل الطوائف المبتدعة كطائفة العيسـيوية وغـيرهم، ويرغبـون من جلالتـه إصـدار أوامـره بزجـر المجـرمين المخـالفين فصـوت العلمـاء بالإصـلاح الإسـلامي والحمـد للـه قـد ارتفـع من مصـر وطـرابلس والجزائـر والغـرب الأقصـى ومـا بقي سـاكنا إلا جـامع الزيتونة، فلا تسمع له همسا)[3]

---

[3] آثار ابن باديس (1/ـ 59)، والعدد الأخير الذي هو عـدد سـبتمبر لا يوجـد منـه إلا ملزمة واحدة كتب فيها عبد الحميد مقالا عنوانه (أولو الأمر) تعليقا على مقـال كتبـه الشيخ الخضر الحسين شيخ الأزهر وصاحب مجلة الهداية الإسلامية.

[1] الشهاب: ج 9، م 10، ص 370 غرة جمادى الأولى 1353ه - 12 أوت 1934م.

[2] آثار ابن باديس (4/ 351)

[3] انظر: البصائر: السنة الأولى العدد الأول الجزائر في يوم الجمعـة 26 ذي الحجـة 1354هـ الموافق لـ: 20 مارس 1936م، ص1، ع1 و2 و3 ونشر هذا المقال بنفسه

وهو نجاح يستحق الاحترام من زاويتين:

الأول: هو كون ما ذكر من البدع والمنكرات من المتفق عليه بين الأمة جميعا، ولا يخالف فيه أحد، لا صوفي ولا سلفي.

والثاني: هو أن اللغة التي استعملت في المحاربة لغة علمية، وهي فتاوى العلماء.

وهذا ما يريده الصوفية أنفسهم من الجمعية: أن يتحاوروا حوارا علميا، لا حوار سخرية وسباب، وأن يكون الإنكار في حال تحققه في المتفق عليه لا في المختلف فيه.

ولكن الشهاب لم تسر على هذا الخط في جميع القضايا، فقد عرفنا من قبل كيف لم يرض الشيخ العقبي إلا أن يكتب فيها بالطريقة التي يريد، لا بالطريقة التي طلب منه الشيخ ابن باديس.

لكن ابن باديس شعر بأنه وقف بين مفسدتين: مفسدة كف بعض الأقلام المهمة في الكتابة في صحيفته كالشيخ الطيب العقبي، ومفسدة اشتداد الشقاق بينه وبين الطرق الصوفية، فاختار أهون المفسدتين في تصوره، وهو أولئك الكتاب الغلاظ الشداد، وقد سبق ذكر تفاصيل ذلك سابقا.

وقد ذكر الإبراهيمي تأثيرها مقارنا بينها وبين (المنتقد)، فقال: (ورأى المرحوم عبد الحميد بن باديس أنه لا بدّ من جريدة تظاهر الفكرة وتخدمها، فأنشأ جريدة (المنتقد) وهي أول جريدة إصلاحية بالشمال الأفريقي، فكانت أرفع صوتا وأفعل وسيلة لنشر الإصلاح الديني، فارتاع لها الاستعمار الفرنسي وعطّلها في مدة قريبة بما يملك من قوانين، فأصدر المرحوم جريدة أخرى باسم (الشهاب) كانت أسدّ رماية، وأوسع خطى من سابقتها، وسكت عنها الاستعمار فنقلها صاحبها من جريدة إلى مجلة، طال عمرها بضع عشرة سنة ورافقت سنوات الإرهاص بجمعية العلماء، فسجّلت خطوات الحركة، وكانت لها مواقف رائعة في عدة ميادين، فخدمت العلم والدين والسياسة، وتردّد صداها في المغارب الثلاثة، فتركت في كل قطر أثرًا حميدًا في النفوس، وفضحت الاستعمار الفرنسي فضائح لا ينسى خزيها، وبدروس الأستاذ عبد

في الشهاب، ص 1، م 12، ص 4 - 6 بتاريخ غرة محرم 1355هـ - أفريل 1936م.

الحميد بن باديس، ومجلته (الشهاب)، استحقّ لقب (باني النهضة الجزائرية بجميع فروعها)[1]

ولعل أهم ما استطاعت الشهاب أن تقدمه هي كونها البوابة التي فتحت لتأسيس الجمعية، فقد نشر ابن باديس على منبرها سنة 1925م، يدعو إلى ضرورة تشكيل حزب إسلامي إصلاحي يعمل على تطهير الدين مما أدخله عليه الجاهلون من خرافات وضلالات، والعودة به إلى أصوله الصحيحة المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وذلك بعد مرور شهور من احتفال فرنسا بمناسبة مرور قرن كامل على احتلالها الجزائر.

3 ــ الجزائر:

وقد تأسست سنة 1925 من طرف الشيخ السعيد الزاهري، وقد ذكرها ابن باديس في (المنتقد)، وذكر بأنها (جريدة سياسية أدبية أخلاقية اجتماعية تصدر بالجزائر لصاحبها الشاعر الشيخ السعيد الزاهري، جلا علينا العدد الأول منها مقالات بليغة في متانة التعبير وسمو الفكر، ونبالة المقصد، وثقة لبلوغ الغاية، وجدير بها إذا كان السعيد واضعها أن يكون السعد طالعها)[2]

والظاهر أن هذه الصحيفة كانت ذات ميول سياسية أكثر منها دينية، فقد ذكر عنها الدكتور سعد الله، بأنها من أوائل الصحف ذات الاتجاه الوطني الإصلاحي، وقد اتخذت عبارة (الجزائر للجزائريين) شعارا لها[3].

ولهذا، فإن الباحثين يذكرون أنها امتداد لجريدة الإقدام التي كان يصدرها الأمير خالد باللغتين العربية والفرنسية منذ 1919، فقد جاء في هذه الأخيرة إعلان يبشر بصدور جريدة (الجزائر) جاء فيه: (نستطيع اليوم بكل سرور أن نبشر قرائنا الفطناء، بأن صحيفتهم هذه ستطلع عليهم في العهد القريب باللسانين العربي والفرنسي باسم آخر غير اسم (الإقدام)، فقد اخترنا أن يكون (الجزائر) في حجم بقدر هذا مرتين، ثم تأخذ بعد ذلك في النمو بحسب الظروف إلى أن تصير صحيفة كبرى، ويتكفل بالقلم

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 144)

[2]) ابن باديس: الجزائر. المنتقد. ع5، س1، 30/07/ 1925. ص 3.

[3]) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (1830 -ـ 1954) ج5. ط 1. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان. 1998، ص 258.

العربي حضرة صديقنا الشيخ محمد السعيد الزاهري المتطوع بالجامع الأعظم بالزيتونة بتونس، وتكون الجريدة أيضا تحت إشرافه، أما مواضيع الجريدة فستكون مقصورة على ما ينفع الناس)[1]

وقد منعت الصحيفة بعد صدور ثلاثة أعداد منها فقط، ولعل ذلك لما كانت تحمله من حملة المستعمر، فمن جملة ما ورد في العدد الأول قصيدة حارة معبرة منها[2]:

فيا ويح أحرار الجزائر كم وكم يهيج عليهم من هموم بالبال

لقد كسر الناس القيود ونحن بقينا في قيود وأغلال
وحطموا

وفي العدد الثاني نرى الزاهري بكل حماس يهزأ بشعار دولة (المساواة والحرية والعدالة الذي ترفعه فرنسا منذ ثورتها (1789) في قصة بعنوان: (المساواة، فرانسوا الرشيد)، وهي قصة تروي مسيرة طفلين، أحدهما إسباني متجنس بالجنسية الفرنسية، والثاني عربي غير متجنس قد تدرجا في مراحل التعليم تدرجا مماثلا، وأديا نفس الواجبات وعندما أجبرا على الجندية، هناك بدأ يظهر الجور والحيف، حيث درج فرانسوا في المراتب إلى أن أصبح صاحب الأمر والنهي، أما الرشيد فراح ضحية المساواة المزعومة[3].

ومن الذرائع التي استعملتها فرنسا لإيقاف الصحيفة، هو أن المترجم، ترجم عنها كلمة: (نهضة) بكلمة فرنسية معناها: (الثورة) وترجم عنها كلمة (فرنسا الظافرة المنتصرة) بما معناه فرنسا الظالمة الغاصبة[4].

---

[1]) صالح خرفي، الأبعاد التاريخية في الشعر الجزائري الحديث، الثقافة، العدد 01، الجزائر: مارس 1971، ص 33.

[2]) انظر نص القصيدة كاملة في: الزاهري محمد الهادي: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ط1، المطبعة التونسية، 1926، ، ج1، ص 68 وما بعدها.

[3]) محمد ناصر: المقالة الصحفية الجزائرية (نشأتها- تطورها- أعلامها) من 1943 إلى 1931، ص 55 .

[4]) الزاهري: في الموقف الحاضر. الشهاب. مج9. ج 9. ص 405.

ولا نعلم لهذه الصحيفة أي علاقة بالطرق الصـوفية، فلم يتسـن لنا الاطلاع عليها.

4 ــ صدى الصحراء:

وهي من أوائـل الصـحف الـتي أسسـها الشـيخ الطيب العقـبي والشيخ أحمد العابد، وهي – كما وصفها البـاحثون- جريـدة علميـة أدبية واجتماعية انتقادية شعارها (العمل لدرء المفسدة قبـل جلب المصلحة)

والشـعار، والمؤسـس يـدل على مـدى العلاقـة الـتي تربطهـا بالطرق الصوفية، ولهـذا لم تعمـر طـويلا، فقـد أوقفت من طـرف إدارة الاستعمار يوم 26 /ديسمبر/ 1926 م[1].

5 ــ الإصلاح:

وقد حـاولت أن تخلـف (صـدى الصـحراء) بعـد توقفهـا، وكـانت أسبوعية، ولم يصدر منها سوى بضعة أعداد، ثم توقفت[2].

6 ــ البرق

وقـد أنشـأها عبـد المجيـد الرحمـوني في مـارس 1927، وهي صحيفة اجتماعية أدبية انتقادية سياسية اقتصادية فكاهية، شـعارها (خدمة الوطن والمصلحة العامة واستثمار المال)، وقد كتب فــوق عنوانهــا عبــارة: (تســامحوا فيمــا بينكم، فإنــه لا ســبيل للاتحــاد كالتسامح) بإمضاء الزاهري، وكان التحرير موكل إليـه، أمـا الإدارة والامتياز، فكانت للرحموني محمد عبد المجيد[3].

وقد بشرت بها جريدة النجاح، فذكرت أنها (جريدة في الصحافة الأسبوعية تبحث في مسائل الترقي والعمـران والمصـلحة العامـة وتمتاز باشتغالها بشؤون الواردات والصادرات من أنـواع البضـائع. والنتائج الجزائرية)[4]

وكــانت في بدايــة أمرهــا تطبــع في المطبعــة الإســلامية في قسنطينة، لكن خلافا وقع بين الزاهري (صاحب الجريدة الحقيقي)

---

[1] مفدي زكريا، تاريخ الصحافة العربية في الجزائر (الجزائر: مؤسسة مفدي زكريا، 2003)، ص 152.

[2] مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 153.

[3] مفدي زكريا، المصدر نفسه، ص 153.

[4] انظر: النجاح. ع 15.. س1، 40/03/1927، ص 2.

وصاحب المطبعة السيد أحمد بوشمال اضطره إلى نقل الجريدة لتطبع في مطبعة النهضة بتونس ابتداء من العدد السابع عشر[1].

وحسب رواية لمفدي زكريا: أن مديرها حاول طبعها بتونس، وذلك في رسالة مؤرخة بيوم 21 ماي 1927 للأستاذ زين العابدين السنوسي، إلا أنه لم يحصل له الاتفاق على طبعها[2].

أما توجه هذه الجريدة فقد لخصه محررها في أربعة نقاط هي:

- الاشتغال بالتجارة، وبالأسعار والبورصة.
- أن تكون الجريدة لسان حال الأمة المعبر عن آلامها وآمالها.
- ملاحقة الأشخاص البارزين بالنقد أن أضروا بالمصلحة العامة للأهالي.
- الاعتناء بالأدب[3].

وقد التف حول هذه الصحيفة مجموعة من الكتاب البارعين المعروفين بنزعتهم الإصلاحية المتحمسة، وأسلوبهم الناري المقذع، على رأسهم محرر الجريدة نفسه، وكان يمضي مقالاته ب (تأبط شرا، رقيب، الراصد، جساس)، ومحمد الأمين العمودي الذي كان يوقع كتاباته ب (سمهري)، وكان بجانبهما مبارك الميلي الذي كان يوقع ب (ببيضاوي)، والشيخ الطيب العقبي الذي كان يوقع بإمضائه الصريح وأحيانا ب (سلفي)،، وكذلك نجد المولود الحافظي الذي كان يمضي باسمه الصريح كذلك.

وقد كانت مقالات الزاهري ومن معه في البرق حادة الأسلوب يهاجم فيها بعنف وبطريقة فيها قليل من السخرية والتهكم، يخص بها أولئك الأفراد الذي كانوا ضد الحركة الإصلاحية، أو من كان يعمل ضد المصلحة العامة، فكان هذا الاتجاه الحاد من الجريدة من أهم أسباب تعطيلها، إذ رفع الدكتور ابن تهامي والمعمر مورينو النائب بالبرلمان ضدها دعوة قضائية متهمين إياها بثلب الأعراض، وجرح كرامة الأفراد بعد أن تناولهما الزاهري منتقدا

---

[1] عبد المجيد الرحموني: إلى القراء. البرق. ع 17. س 1.

[2] مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر. (جمع وتحقيق). أحمد حمدي. مؤسسة مفدي زكرياء. الجزائر.) . 2003. ص 180.

[3] الزاهري: الفاتحة. البرق. ع 1. ص 1.

سعيهما السياسي ضد مصلحة الأهالي المسلمين [1].

ولما فشل ابن تهامي وقرينه في تعطيل الجريدة قضائيا بهذه الوسيلة فقط استطاع ابن تهامي أن يقنع الحكومة الحامة للمتحنسين أن تعطل البرق، ولم يسحب منها أكثر من 23 عددا[2].

7 ــ السنة المحمدية:

وهي صحيفة أسبوعية كانت تصدر بقسنطينة، وهي أول جريدة ناطقة بلسان جمعية العلماء المسلمين، يديرها الشيخ ابن باديس، ويرأس تحريرها عضوان من إدارة الجمعية، عرفا بعدائهما الشديد للطرق الصوفية، وهما الشيخ الطيب العقبي، والشيخ محمد السعيد الزاهري.

وقد تأسست بعد تأسيس الجمعية بسنتين، وبعد حوالي ثماني سنوات من صدور الشهاب"، وكان أول عدد منها في الثامن من ذي الحجة سنة 1351هـ (1933 م)، وسرعان ما أوقفتها الإدارة الاستعمارية بحيث صدر آخر عدد منها في 10 ربيع الأول سنة 1352 هـ الموافق لـ 03 جويلية 1933 م.

وكان شعارها قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21] والحديث الشريف: (من رغب عن سنتي فليس مني)[3]

وهما يدلان على نهجها المواجه للطرق الصوفية، لأن السنة في ذلك الحين لم يكن يقصد بها إلا هذا المعنى، بدليل أنها سميت بذلك ردا على الجمعية التي أسسها الطرق الصوفية باسم السنة.

وهذا على الرغم من أن ابن باديس عبر في مقالها الافتتاحي بأن القصد من هذه الجريدة هو: (نشر السنة النبوية المحمدية، وحمايتها من كل ما يمسها بأذية، وخطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمد عليهم، ودعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية دون تفريق بينهم وغايتها أن المسلمين مهتدين بهدي نبيهم في القوال والأفعال

---

[1] محمد ناصر: الصحف العربية. مرجع سابق. ص 85،ـ عبد المجيد الرحموني: جريدة البرق والدكتور ابن التهامي! الشهاب. ع 134. ص680.

[2] محمد ناصر: المرجع السابق. ص 85.

[3] صحيح البخاري (7/ 2)، صحيح مسلم (4/ 129)

والسير والأحوال حتى يكونوا للناس كما كان هو ﷺ مثالا أعلى في الكمال)[1]

وقد كان من أبرز كتابها على صفحاتها الأربع[2] الزاهري، ويكفي اسمه لمعرفة المواضيع التي يحسن الكتابة فيها، كما سنرى عند الحديث عن اساليب الجمعية.

وبناء على هذا، فقد أصدر وزير الداخلية قرارا يقضي بتعطيل جريدة السنة بتاريخ 16 فيفري 1933م[3]، بعد صدور 13 عددا منها.

8 ــ الشريعة المحمدية:

لما عطلت السلطات الاستعمارية جريدة السنة أعادت الجمعية إصدارها باسم (الشريعة المحمدية) في 17 جويلية سنة 1933 م، أي بعد توقيف (السنة المحمدية) بأربعة عشر يوما فقط، ولم يتغير فيها شيء عن سابقتها إلا في الشكل فقد جعلت من الآية: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا} [الجاثية: 18] شعارا لها بدلا من الآية: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: 21]

وقد احتفظت بالمواد التي احتوت عليها والخطة التي كانت تتبعها، والكتاب الذين كانوا يحررون فصولها، وبنفس الأسلوب وبالنهج الإصلاحي نفسه، وهي بذلك قد حملت قرار تعطيلها في مقالها الافتتاحي كما عبر عن ذلك الدكتور محمد ناصر[4].

وفعلا كان تعطيل هذه الجريدة بعد أمد قصير، إذ لم يصدر منها سوى 17 عددا، وقد أوقفتها الإدارة الاستعمارية في 28 أوت سنة 1933 م أي أنها لم تستمر في الحياة سوى أربعين يوما.

9 ــ الصراط السوي:

بعد توقيف صحيفة (الشريعة النبوية) أصدرت الجمعية في 11 سبتمبر 1933 م جريدتها الثالثة تحت اسم (الصراط السوي)

---

[1]) ابن باديس: بواعثنا. خطتنا. غايتنا. السنة. ع 1، س1، 03/04/1933، ص 8.

[2]) أعادت دار الغرب الإسلامي طبعها وشقيقاتها: الشريعة والصراط في ثمان صفحات بدل الأربع..

[3]) محمد ناصر: الصحف العربية، ص 132.

[4]) محمد ناصر: الصحف العربية، ص 153.

محتفظة بشعار سابقتها الشريعة، إلا أنها تم توقيفها هي الأخرى من طرف الإدارة بعد ثلاثة أشهر فقط من صدورها وذلك في شهر يناير سنة 1934 م.

وقد نقلت الشريعة في مقالها الافتتاحي لعددها الأول تصريحا للوالي العام الذي تملص من مسؤولية العراقيل الإدارية، ولعله جعل ذلك تحت ضغط برقيات الاحتجاج والتنديد التي وجهتها جمعية العلماء إلى السلطات الحاكمة المسؤولة في كل من الجزائر وفرنسا من مسلكها المتعسف تجاه جمعية دينية تهذيبية[1].

وقد علق ابن باديس على هذا التصريح مؤكدا على تصميم الجمعية على الصمود أمام العواصف الإدارية والمضي على خطتها، وغايتها والثبات على المبادئ مهما يكن الثمن، ولكن ما إن صدر العدد 17 حتى عطل، وكان قد سبقه قرار بهذا الشأن من وزارة الداخلية علقت عليه الصراط بأنه: (سيتخذ ضد كل الصحف الحاملة لهذه النزعة (الإصلاحية) أينما وجدت من التراب الجزائري، ومهما يكن صاحب امتيازها، ومهما تكن المطبعة التي تسحب فيها)[2]

10 ــ الجحيم

وهذه الصحيفة تعبر عن مدى الانحطاط الذي وصلت إليه العلاقة بين الجمعية والطرق الصوفية، وقد صدرت في حدود فترة زمنية قصيرة جدا، أي ما بين مارس وماي سنة 1933، وكانت بداية تأسيسها متزامنة مع صحيفة (السنة)[3]

وكانت تصدر سريا في المطبعة الجزائرية بقسنطينة، وتوزع في الجزائر العاصمة كأنها تصدر هناك[4]، أسندت إدارتها إلى

---

[1] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 181.

[2] محمد ناصر: الصحف العربية، ص 153.

[3] رجعنا فيما يتعلق بهذه الصحيفة إلى مقال جيد للكاتب أحمد حمدي بعنوان: (الجحيم: صحيفة هزلية من نوع خاص) موقع فضاء أحمد حمدي، على هذا الرابط (http://www.ahmedhamdi.net/?p=105

الفرنسي الذي أسلم (محمد شريف جوكلاري)[1]، وكان يحررها رفقة الزاهري، ومحمد الأمين العمودي، وحمزة بوكوشة، ومحمد الصالح خبشاش، وعبد الرحمن غريب[2].

وقد عبرت عن نفسها بأنها: (جريدة مستقلة تدافع عن الشرف والفضيلة)، وكان شعارها (العصا لمن عصى)[3]

ويذكر الباحثون كانت موجهة كرد فعل على هجومات جريدة (المعيار)[4] التي كانت تهاجم الإصلاحيين، وقد كانت هذه الجريدة أقرب إلى الهجاء منها إلى الأخبار والإفادة العامة[5].

وكان كتابها يكتبون تحت إمضاءات مستعارة منها: رئيس الزبانية، وهو كاتب الافتتاحيات ومنها : هامان، مسرور، مراقب، شبيب، الراوي، شاعر الزبانية، الفحل، الكواي، فرعون، بودفرة.

ويذكر السائحي عن الشيخ حمزة بوكوشة: أن محمد السعيد

---

[4]) وقد ذكر السائحي تفاصيل مكان وظروف طباعة، فقال: (إن جريدة الجحيم كانت تطبع في مطبعة بن باديس ليلا بقسنطينة دون علمه. وأن العمال يقومون بذلك خارج أوقات عملهم، وفي سرية تامة لأن الشرط الأساسي بينهم وبين أصحاب الجريدة هو أن لا يعلم الإمام بذلك)

[1]) جوكلاري محمد الشريف: شخصية لها دور بارز في تاريخ الصحافة الوطنية، فهو فرنسي الأصل اعتنق الإسلام في مدينة بسكرة، وصار يسمى بمحمد الشريف، ونظرا لكونه يحمل الجنسية الفرنسية يحق له أن يمنح من قبل السلطات الفرنسية حق امتياز إنشاء الصحف وفقا لمقتضيات القانون الفرنسي، وبهذه الخاصية نجد اسمه في واجهة العديد من الصحف الإسلامية.

[2]) من الذين واكبوا الحركة الإصلاحية من بداياتها له مقالات في الشهاب والمنتقد وغيرهما من الجرائد الإصلاحية كان يمضي أغلب مقالاته ب " ع غ " أو " غ " أو " غريب "..

[3]) سليمان الصيد: محمد السعيد الزاهري. الحلقة الثانية. النصر. ع 4213، 31/05/1987، ص 7.

[4]) المعيار جريدة معبرة عن الاتجاه الطرقي. وهي جريدة نصف شهرية كان يحررها مولود الحافظي بعد انسحابه من الجمعية مع بقية من الطرقيين صدرت في 18/12/1932، واختفت في 23/04/1933، وهي جريدة مناوئة لجمعية العلماء.

[5]) سليمان الصيد: محمد السعيد الزاهري. الحلقة الثانية. النصر. ص 7.

الزاهري ومحمد الأمين العمودي ومحمد الصالح خبشاش وحمزة بوكوشة نفسه هم المؤسسون لصحيفة (الجحيم) وخاصة منهم محمد الأمين العمودي ومحمد السعيد الزاهري، وأن هذا الأخير ـ حسب السائحي دائما ـ هو رئيس الزبانية، وأن الفحل وبودفرة هما شخص واحد ألا وهو الشهيد الصحفي المترجم محمد الأمين العمودي.

وقد نشرت صحيفة (الجحيم) للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشاعر محمد العيد آل خليفة حسب شهادة بوكوشة.

وقد ذكرت في أول أعدادها الدافع الديني لها، فقد كتب (رئيس الزبانية) يقول: (كان سيدنا عبد الله بن عباس ض جالسا في مجلس ينشر العلم، فشتمه أحد الطغمة الرعاع، فسكت عنه ابن عباس، ولم يجبه، ولكن أحد الحاضرين قام إلى هذا الشاتم المعتدي بصفعه وجلد به الأرض، فاستحسن سيدنا عبد الله بن عباس هذا الدفاع وقال : (ليس بعزيز من ليس في قومه سفيه)

ولسنا ندري مدى صحة هذا النص الذي استنتجوا منه الحكم الشرعي بالتعامل البذيء المخالف، ثم ذكروا المصداق الذي ينطبق عليه الحديث الذي رموا به ابن عباس، وقد عبر عنه هذا الرئيس بقوله: (وقد ظهر في هذه الأيام رهط ينتسبون إلى الجنس البشري وهو يتبرأ منهم. هؤلاء الخنازير اتخذوا الشتم وثلب الأعراض حرفة وقذف أهل العلم والفضل بضاعة روجوها رغم الأزمة التي كسدت بسببها البضائع الأخرى.. وقد أسسوا ورقة عفنة سموها (المعهر)[1] وهي حقيقة معهر من أقذر وأنجس المعاهر وكتبوا في تلك الورقة ما أطربوا به بعض السفهاء أمثالهم، وما خوفوا به بعض الجبناء، وأيقنوا أن الجو خلا لهم وأن بلاد الجزائر لم يبق فيها إلا من يناصرهم أو يهابهم، وليس فيها من يحاربهم أو يلعنهم أو ينتقدهم وهكذا شأن اللئيم يزيده سكوت خصمه جراءة ولا يقبل إلا اليد التي تصفعه.. وقد أسسنا هذه الجريدة المباركة الطاهرة النقية العفيفة النزيهة لا لغرض سوى الانتقام للفضيلة والدفاع عن الأعراض البريئة وتطهير قطرنا العزيز من الجراثيم الخبيثة التي انبتها فيها الطمع وحب الرئاسة

---

[1]) يريد بذلك صحيفة (المعيار)

والتكـالب على جمـع الأمـوال الطائلـة وتحصـيل الألقـاب الهائلـة. وسنذيق أهـل الزيـغ والكفـر والعنـاد أضـعاف مـا اعتـدوا بـه على السادة الأبرياء من عباد الله)[1]

11 ــ البــصائر:

وهي رابــع صــحف جمعيّــة العلمــاء المســلمين الجزائــريّين الأسـبوعيّة، وقـد أنشـئت بعـد تعطيـل الإدارة الاسـتعمارية لثلاث جرائد للجمعية في سنة واحدة - السنة المحمديـة (1933-1933) الشــريعة المطهــرة (1933-1933) الصــراط الســوي (1933-1934)

وبعد توقف آخر صحيفة رسمية للجمعية، منعت من إصـدار أيـة صحيفة باسمها، وقد دام هذا المنع قرابة السنتين (من ينـاير سـنة 1934 م إلى سبتمبر سنة 1935 م) إلا أنه بعد جهود كبيرة بذلتها الجمعية لأجل الحصول على رخصة من الحكومة الفرنسية بإصدار صحيفة باسم الجمعية، صدرت في 27 سبتمبر 1935 م.

وهي من الصحف التي لم تتعرض لها الإدارة الاسـتعمارية حيث ظلّت تصدر بانتظام إلى سنة 1939 م، وقد أشرف عليهـا الشّـيخ الطّيّب العقبي من أول عدد لها (27 سـبتمبر 1935م) إلى العـدد 83 الصـــادر في (30 ســـبتمبر 1937 م)، حين تحـــولت إدارة تحريرهـــا من العـــاصمة إلى قســـنطينة، وعين المجلس الإداري لجمعيّـة العلمــاء الشّـيخ مبـارك الميلي مـديرا ومحـررا لهـا خلفـا للشّـيخ العقـبي إلى أن تـوقفت بسـبب الحـرب عنـد العـدد 180 الصادر في 25 أوت 1939 م، حيث قررت الجمعيّـة تعطيلهـا مـع إعلان الحـرب العالميـة الثانيـة، لئلا تتعـرض لضـغوط ومسـاومات الإدارة الاستعمارية الـتي طلبت منهـا أن تعلن باسـمها وتكتب في صفحاتها، تصريحات ومقالات ضد دول المحور.

وعادت إلى الصدور بعد انتهاء الحرب العالميـة الثانيـة من عـام 1947 م إلى غاية 1956م، بإشراف وإدارة رئيس الجمعيّة الثاني الشّيخ محمّد البشير الإبراهيمي، وقد بدأ صدورها يـوم 25 جويليـة 1947 م، ولكنهــا لم تلبث أن تــوقفت عن الصــدور مجــددا من طرف المشرفين عليها سنة 1956 م.

وكـانت تصـدر يـوم الجمعـة قبـل أن تتحـول إلى يـوم الاثـنين، وتحتوي على ثمـاني صـفحات ويكـون العنـوان دائمـا أسـودا وفي

---

[1]) صحيفة (الجحيم) كلمة أولى.. أما بعد، العدد الأول، بتاريخ 30 مارس 1933.

بعض الأحيان أخضرا أو أحمرا، ويكتب فوقه الآية القرآنية: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } [الأنعام: 104] وتحت العنوان نجد هذه العبارة (لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين)، ويزخر كل عدد بمجموعة من الصور.

وهي تعد من أهم الجرائد التي أصدرتها الجمعية باعتبار طول المدة التي أتيحت لها، وباعتبار المواضيع التي كانت تناقشها، فقد كانت تناقش جميع القضايا التي تهم الجزائر والعالمين العربي والإسلامي، بالإضافة إلى صراعها مع الطرق الصوفية.

ولا حاجة بنا إلى نقل الشواهد على ذلك، لأن أكثر ما نقلناه من الاقتباسات من الشيخ ابن باديس والإبراهيمي والعربي التبسي وغيرهم منها.

المطلب الثالث: الكتب والرسائل

لم تهتم الجمعية بالتأليف كما اهتمت بالصحافة، وذلك لانشغال أعضائها الشديد بالعمل الإصلاحي، بالإضافة إلى اعتبارها أن منتوج الصحافة أكثر، وأقرب من منتوج الكتب، ولهذا فإن إنتاجها في هذا الجانب محدود جدا لا يكاد يذكر، وسنذكر هنا باختصار بعض ما ألفه أعضاء الجمعية مما سبق الإشارة إلى أكثره:

جواب سؤال عن سوء مقال:

وهي رسالة ألفها الشيخ عبد الحميد بن باديس ردا على أبيات شعرية للشيخ أحمد بن عليوة المستغانمي صاحب الطريقة العلاوية وهي قوله:

إنْ مُتّ بالشَّـــــــــوْق منكد إن تبـــق في هجـــري زائد

من هـــــو بالملـــــك موحّد عبس بـــــالقول تســـــاعد

مـــــــا عـــــــذر ينجيك للمـــــــولى نـــــــدعيك

ينظـــــــــــــر في أمريك مـــــــا نرجـــــــوه فيك

وقد رُفعتِ هذه الأبياتُ إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس بعد نشرها في ديوان ابن عليوة المطبوع في تونس عام 1920م، فكتب الشيخ ابن باديس للردّ عليها هذه الرسالة في مقدّمة وأربعة فصول وخاتمة، حَشَدَ فيها الأدلة من الكتاب والسنّة وآثار

السلف، وقد فرغ من تحريرها صبيحة الثلاثاء السابع والعشرين من ذي الحجة الحرام عام 1340هـ الموافق لعام 1922م، وأرسل بها إلى كبار مشايخه بتونس وإلى أفاضل العلماء والمفتين بالجزائر والمغرب، فاطّلعوا عليها وقرّظوها[1].

ونص السؤال الذي رفع لابن باديس هو (ما قول ساداتنا العلماء ـ رضي الله تعالى عنهم، وأدام النفع بهم ــ في رجلٍ يزعم أنّه قطب الزمان الفرد، وأنّ الكلّ دونه، وأنّه العارف الْمُسَلَّك.. إلى غير ذلك من أعلى صفات العارفين، وأسمى درجات الكاملين، ثُمَّ يقول مخاطبًا للنبيّ ﷺ بما نصّه: (الأبيات السابقة)، ولَمّا قيل له في هذه الأبيات، قال: أَلسُنُ الْمُحِبِّين أعجمية ! فهل يُعَدُّ خِطابُه هذا سُوء أدب؟ وهل تجوز مخاطبة النبيّ ﷺ بمثله؟ وهل صدور مثله من شأن العارفين الكاملين !؟ وهل يُقبل منه ما اعتذر به من عُجمة ألسن الْمُحبّين ؟ أفيدونا مأجورين)

وقد قال محمد الصالح رمضان في مقدمته على الرسالة المحققة، وهو من تلاميذ ابن باديس: (أبعد الطرق عن الإسلام في بلادنا (الطريقة العليوية) التي تدعو إلى الحلول صراحة وتقول بوحدة الوجود التي لا نعرفها. فقد كان (أحمد بن عليوة) قد آلت إليه مشيخة زاوية (درقاوة) بمستغانم بوصيّة من شيخه محمد بن الحبيب البوزيدي المتوفى عام 1909م ولكن الشيخ ابن عليوة كان طموحًا جدًّا فجدّد الطريقة وأدخل على نظامها وطقوسها ودعايتها تغييرًا شاملاً مِمّا جعلها تنتسب إليه بدلاً من نسبتها إلى (الدرقاوي) أو (الشاذلي)، وخرج بها من مستغانم لتنتشر في الآفاق، ونشطت على يده نشاطًا هائلاً، وامتدّت دعوتها باسمها الجديد: (الطريقة العليوية) في الوطن وخارج الوطن)

وقد قدم لها بقوله: (أما بعد- فقد وقفت على سؤالكم وتأملت من جميع فصوله، وأحطت خبرا إن شاء الله- تعالى- بلفظه ومدلوله، وهممت أن لا أجيبكم عنه بحرف واحد، لما أعلم من تصميم أكثر العامة على العناد فيما اعتقدوه من الباطل، وسكوت

---

[1]) من الذين قرظوا الرسالة العلامة المفكر محمد النخلي القيرواني، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وأبو محمد بلحسن إبن الشيخ المفتي محمد النجار الذي تولى الإفتاء سنة 1342هـ ومحمد الصادق النيفر وسعد العياض السطايفي المصلح المجدد، ومحمد بن القاضي، والبشير صفر المؤرخ المجدد، وغيرهم كثير..

أكثر الخاصة عن التصريح بالإنكـار عليهم، والإرشـاد لهم، وتهـافت بعض الطلبة القاصرين، على تسويد صحفهم وصـحائفهم بشـبهات يسـمونها بـأفواههم دلائـل وأجوبـة عن متبـوعيهم من الجـاهلين، يخشـونها بالأحـاديث الضـعيفة والموضـوعة والتـأويلات الباطلـة الممنوعة، والروايات المدخولة عمن ليس قوله حجـة على النـاس في الدين وإنما غايته إذا ثبت عنه ذلك وحسن بـه الظن أن يـؤول على وجه صحيح يقبله الشـرع. ثم يـردون بمثـل هـذا على الآيـات البينـة والأحـاديث الثابتـة وعمـل السـلف الصـالح المشـهود لهم بالخيرة على لسان المعصوم. أفمـع هـؤلاء ينفـع الكلام أو يحسـن الجواب. لكنني تذكرت ما جـاء في وعيـد الكـاتبين، وفي وعـد من بذل الجهد في نصح إخوانه المسلمين، ورجوت أن لا أعدم أنصـارا على الحق، وإخوانا متكاتفين في نصـرة الـدين، من عـدول حملـة العلم الذين ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويـل الجاهلين، فاستخرت الله- تعـالى- وحـررت لكم هـذا الجـواب في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، غير قاصد- علم اللـه- شـخص أحـد بالتقص، ولا خـارج بعـون اللـه- تعـالى- عن جـادة الفهم من دلالـة الظاهر والنص، والله أسأل أن ينفـع بـه المسترشـدين ويهـدي بـه في المعاندين ويفت به أعضاء المفسدين آمين)[1]

رسالة بدعة الطرائق في الإسلام:

وهي في أصــلها ثلاث مقــالات نشــرت في مجلــة الشــهاب الجزائرية التي أنشأها رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس رحمه الله (مج 4 عـدد 166، 168 و169 سنة 1347 هـ 9281 م)، ثم جمعها بعد وفاته محمــد شايب شريف بالجزائر.

وهي عبارة عن ثلاث مقالات في إبطال بعض ما يتصوره الشيخ العربي التبسي بدعا، وهي ثلاثة أمور:

1- بدعة تحديد الأذكار.

2- بدعة إعطاء العهود للأتباع.

3- وبدعة التصدي للدعوات.

وقـد سـار في هـذه الرسـالة على منهج الشـاطبي والسـلفية المحافظـة في اسـتعمال الـترك كـدليل في الحكم على التعبـدات بالبدعة.

---

[1]) آثار ابن باديس (3/ 154)

وسنناقش ما ذكر في الرسالة من أدلة بتفصيل في محلها من الجزء الثالث من السلسلة.

ونحب أن ننبه هنا إلى أنه أضيف إلى المقالات الثلاث مقالة أخرى بعنوان (إن كنت حاملا فلدي غلاما) نشرتها مجلة الشهاب في عددين (مج 4 عدد 77 1 و78 1 سنة 1347 هـ/92 م) رد فيها على المدعو (ناصر معروف) أحد أنصار الطرقيين الذي كتب مجموعة من المقالات في جريدة البلاغ رد فيها على مقالات الشيخ التبسي (بدعة الطرائق في الإسلام)

وسنعرض لها أيضا في محلها من الباب الرابع بتفصيل.

رسالة الشرك ومظاهره:

وقد ألفها الشيخ مبارك الميلي، وسار فيها – كما ذكرنا سابقا – على منهج الوهابية في الحكم بالشرك الجلي على بعض القضايا المختلف فيها أساسا، أو ما يدخل في ضمن المعاصي والمحرمات، ولا ضمن ما يحكم بكفر فاعله.

ولم يسر في هذه الرسالة - للأسف- على ضوء المنهج العلمي من ذكر أدلة المخالف والرد العلمي عليها، وإنما سار على طريقة الشيخ ابن عبد الوهاب من ذكر بعض النصوص التي نزلت في المشركين ليحملها على المؤمنين، ويضيف إليها بعض الحكايات والقصص التي يتلقاها من العامة.

وبذلك فإن الرسالة رسالة وهابية بامتياز على الرغم من أن الوهابية المعاصرين ينكرون بعض ما فيها، باعتبار الشيخ مبارك الميلي تتلمذ على مشايخ من الأشاعرة، فكان لهم تأثيره فيه، وهو تأثير لا يصل إلى حد إخراجه من المنهج الوهابي في الحكم على مثل تلك القضايا الخطيرة التي حكم بها.

وأخطر ما في الرسالة في تصوري هو إقرار الجمعية لها، لأنها بهذا الإقرار أخرجت الرسالة من كونها آراء شخصية إلى مواقف للجمعية، وهو ما يجعل تصنيفها ضمن الوهابية بسيطا للمخالف، فأفكار الرسالة هي نفس الأفكار التي جاء بها ابن عبد الوهاب، وخالفه فيها غيره من المسلمين.

وقد جاء هذا الإقرار من الجمعية في تقديم الشيخ العربي التبسي لها بتكليف من المجلس الإداري لجمعية العلماء

المسلمين الجزائريين في سنة 1356هـ - 1937م[1] بما يـدل على أنها رسالة رسمية تمثل مواقف الجمعيـة جميعـا على الـرغم ممـا فيهـا من الشـدة والتـأثر بالوهابيـة، فممـا جـاء في تقـديمها قـول الشيخ: (أما بعد فإن الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقـوم بهـا (جمعيـة العلمـاء) في القطـر الجزائـري خاصـة، تتلخص في دعـوة المسـلمين إلى العلم والعمـل بكتـاب ربهم، وسـنة نـبيهم، والسـير على منهـاج سـلفهم الصـالح في أخلاقهم وعبـاداتهم القوليـة والاعتقاديـة والعملية، وتطبيق ما هم عليه اليوم من عقائد وأعمال وآداب على ما كان في عهد السلف الصالح. فما وافقه عـددناه من دين اللـه، فعملنا به واعتبرنا القائم به قائما بـدين اللـه. ومـالم يكن معروفـا في عهد الصحابة عددناه ليس من دين الله. ولا علينا فيمن أحدثـه أو عمل به. فالدين حجة على كل أحد. وليس عمل أحد حجة على الدين)[2]

وقد ذكر أن الرسالة عرضت على مجلس الجمعية، فوافق على كل ما فيها، فقال: (نهض إلى القيام بهذا الفرض الكفائي الأسـتاذ المحقق، مؤرخ الجزائر الشيخ مبـارك الميلي أمين مـال جمعيـة العلماء، وجمع رسالة تحت عنوان (رسالة الشرك ومظاهره) خدم بها الإسلام، ونصر بها السنة، وقاوم بها العوائد الضالة والخرافـات المفسـدة للعقـول. وعـرض هـذه الرسـالة على مجلس إدارة الجمعية، فتصفحها واستقصى مسـائلها، فـإذا هي رسـالة تعـد في أوليات الرسائل، أو الكتب المؤلفة في نصر السنن، وإماتـة البـدع تقر بها عين السنة والسنيين، وينشرح لها صدور المؤمنين، وتكون نكبـة على أولئـك الغاشـين للإسـلام والمسـلمين من جهلـة المسلمين، ومن أحمرة المستعمرين الذين يجدون من هذه البـدع أكـبر عـون لهم على اسـتعباد الأمم، فيتخـذون هـذه البـدع الـتي ينسبها البدعيون إلى الدين الإسـلامي مخـدرا يخـدرون بـه عقـول الجمـاهير. وإذا تخـدرت العقـول وأصـبحت تـروج الأوهـام وجـدت

---

[1] نشر هذا المقال في جريدة الشهاب: جريدة الشهاب، السـنة الثالثـة، عـدد 121، الخميس 01/ 12/1927م الموافق 06/ جمادى الآخرة/1346هـ، ص 10 و11 و12 و13.

[2] رسالة الشرك ومظاهره (ص: 27)

الأجـواء الـتي يرجوهـا غلاة المسـتعمرين للأمم المصـابة برؤسـاء دينـيين أو دنيـويين يغشـون أممهم ويتـاجرون فيهـا.. وإن المجلس الإداري لجمعية العلماء يقرر بإجمـاع أعضـائه أحقيـة مـا اشـتملت عليه هذه الرسالة العلمية المفيدة، ويوافق مؤلفهـا على مـا فيهـا، ويـدعو المسـلمين إلى دراسـتها، والعمـل بمـا فيهـا فإنـه العمـل بالدين) [1]

وقـد سـقنا فيمـا سـبق بعض الأمثلـة على تـأثر هـذه الرسـالة خصوصا بالوهابية، وسنعرض لرد أصحاب الطرق الصوفية على ما جاء فيها في الباب الرابع.

الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير:

وهي رسـالة ألفهـا الشـيخ الزاهـري، وهي عبـارة عن مجموعـة مقالات كان قد نشرها في مجلة ((الفتح) في أواخـر العشـرينات من القرن الماضي، تصدر بعضـها افتتاحيـات هـذه المجلة[2]، ولمـا قابل النـاس هـذه المقـالات بالاستحسـان والرضـى، رأى صـاحب الفتح (محب الدين الخطيب) نشرها في كتيب صدر عن المطبعـة السلفية في القاهرة، وفي مقدمة هـذه الطبعـة كتب الناشـر بـأن (هـذه الفصـول كتبهـا أخي في الـدعوة الأسـتاذ محمـد السـعيد الزاهري الجزائري لتنشر في صـحيفة الفتح، فرأيتهـا مثـالا صـالحا للدعوة للخير، وما يجب أن يكون عليه الداعي من بصيرة وحكمـة لذلك استخرت الله عز وجل في إفرادها بهذا الكتاب...)[3]

وبعد عامين من صـدور هـذه الطبعـة، قـامت مطبعـة الاعتـدال بسوريا بإعادة طبع هذه المقالات ثانية[4]، ثم أعاد الزاهـري طبعهـا في كتيب في الجزائر سنة 1932 مع إضافات.

ولما صدر هذا الكتاب في طبعته الأولى أثنى عليـه أمـير البيـان السيد شـكيب أرسـلان في رسـالة بعث بهـا إلى صـاحبه (مؤلفـه) أبدى له فيها إعجابه بفصول هذا الكتاب، وهو ما جعله يسـتدل بـه على وجود نهضـة أدبيـة وعلميـة في الجزائـر، أعمـدتها: الزاهـري وابن باديس، والعقبي والميلي، كما أثنى عليه بعض محـرري الفتح

---

[1] رسالة الشرك ومظاهره (ص28)

[2] الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية. مصدر سابق. ص 5 وما بعدها.

[3] نفس المصدر. ص 11.

[4] خرفي صالح: الأبعاد التاريخية في الشعر الجزائري الحديث. ص 14

كالأستاذ محمود ياسين الدمشقي، والأستاذة تفيدة علام التي أعجبت كثيرا بفصل (الكتاب الممزق)، واعتبرت مجلة (المجمع العلمي العربي) الكتاب دليلا على وجود نهضة في الأدب العربي، وذكرت مجلة الفتح أن: (فكرة التبشير الإسلامي نشأت مع الفتح الإسلامي جنبا إلى جنب... وجاء اليوم كاتب الجزائر محمد السعيد الزاهري فكساها ثوب العصر الحاضر وخلع عليها أسلوب الرواية الرائع)[1]

وفي الجزائر أثنى عليه الشيخ ابن باديس مبرزا فصوله في شهابه قائلا: (عرفنا الشيخ السعيد الزاهري شاعرا خنذيذا وعرفناه كاتبا رحب البيان، وعرفناه في هذا الكتاب، داعية إسلاميا كبيرا، فقد خاض في مسألة الحجاب والمرأة الجزائرية ومسألة الإسلام والتغريب والشبيبة المتعلمة، فأبان من الحقائق، وأقام من الحجج ما لا يلقاه أشد الخصوم – إذا أنصف – إلا بالإكبار والتسليم، وساق ذلك كله في أسلوب من البلاغة الشبيه بالروائي سهل جذاب، لا تستطيع إذا تناولت أوله أن تتركه قبل أن تأتي على آخره)[2]

المبحث الثاني: وسائل تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

كما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استعملت كل الوسائل المتاحة في ذلك الحين لمواجهة الطرق الصوفية فإن الطرق الصوفية لم تقل عنها في ذلك، وخصوصا الطريقة العلاوية التي يجمع كل من ذكرها أو أرخ لها على أنها طريقة عصرية استعملت كل الوسائل والأساليب العصرية.

وبناء على ما سبق ذكره من وسائل، فإنه يمكن تصنيف الوسائل التي استعملها رجال الطرق الصوفية في نشر أفكارهم أو الرد على المخالف في ثلاثة وسائل:

أولا ــ التنقلات والتجمعات.

ثانيا ــ الصحافة المكتوبة

ثالثا ــ الرسائل والكتب

---

[1]) الزاهري: الإسلام في حاجة إلى دعاية. ص7-11.

[2]) ابن باديس: الإسلام في حاجة إلى دعاية وتبشير. الشهاب. مج7. ج 12. ديسمبر 1931. ص 793.

وقد خصصنا كل وسيلة منها بمطلب خاص.

المطلب الأول: التنقلات والتجمعات

عرفنا فيما سبق اهتمام رجال الطرق الصوفية مشايخ ومريدين بالتنقل في المناطق المختلفة عبر ما يسمونة (سياحة)، والتي لم يكن الغرض منها فقط السير التعبدي والتأملي، وإنما كان الغرض منها كذلك نشر الطريقة في المناطق المختلفة.

ويضاف إلى ذلك ما قامت به الطريقة العلاوية من إنشاء بعض الجمعيات التي ساهمت في التعريف بالطريقة ونشرها، بل إن بعضها لا يزال إلى الآن يؤدي دوره في التعريف بالطريقة العلاوية.

وقد بدأ تاريخ الحركة الجمعوية الموازي للعمل الروحي للطريقة العلاوية، منذ أن أسس الشيخ ابن عليوة طريقته الصوفية خلال العقد الأول من القرن العشرين، وقد حاول الشيخ وخلفاؤه إحداث حركة ثقافية اجتماعية من خلال إنشاء عدة جمعيات، كان الهدف المعلن عنها هو (الحفاظ على قيم الدين الحنيف ومكارم الأخلاق، والنصيحة لجميع خلق الله، وتعليم الناشئة والشباب، وإبراز مظاهر التضامن الاجتماعي من خلال الأعمال الخيرية، وتعليم الشباب الذين لم يسعفهم الحظ بعض الحرف، ولتحقيق ذلك أنشئت عدة أقسام وورشات بمحاذاة الزاوية الكبرى بمستغانم لممارسة هذه النشاطات التي توسعت إلى بقية فروع الجمعية مثل تلمسان وغليزان وتغنيف والمحمدية وغيرها)[1]

وقد تبلورت فكرة تأسيس جمعية السلام في العشرينات وبالضبط سنة 1926 غير أن الشيخ العلاوي استبدلها سنة 1932 بجمعية الوعظ والإرشاد التي توسعت لاستقطاب عدد كبير من العلماء ورجال الدين والأئمة للقيام بدورهم الديني والتوجيهي والإصلاحي، وقد توقف نشاطها بعد وفاة الشيخ سنة 1934م[2].

غير أن خلفاء الشيخ العلاوي استمروا على منهجه الديني التربوي والاجتماعي، ففي سنة 1934 أسس الشيخ عدة بن تونس (جمعية التذكير العلاوية) ثم (جمعية الشبان العلاويين) سنة

---

[1] انظر: موقع جمعية الشيخ العلاوي للتربية والثقافة الصوفية على هذا الرابط: (http://www.asso-alawi.org)

[2] المصدر السابق.

1936 التي توقفت قبيل اندلاع الحرب العالمية سنة 1939.

وبعد نهاية الحرب، ظهرت (جمعية التنوير) سنة 1948، ثم أنشأ الشيخ عدة بن تونس جمعية (أحباب الإسلام) سنة 1950، وكانت لها مجلة تحمل عنوان (مجلة أحباب الإسلام) التي كانت تصدر بمدينة وهران باللغة الفرنسية، دعت في أهم محاورها إلى الحوار بين الأديان، وتحسين صورة الإسلام إلى الرأي العام الغربي على وجه الخصوص ،و أهم مآثر هذه الجمعية أنها استطاعت في فترة وجيزة أن تجعل عددا كبيرا من الفرنسيين والأوروبيين القاطنين بالجزائر وخارجها يعتنق الإسلام، وقد توقف نشاط الجمعية إثر اندلاع حرب التحرير الجزائرية.

وقام خليفته الشيخ محمد المهدي بن تونس، بعد استقلال الجزائر بإنشاء جمعية الشبيبة العلاوية سنة 1963.

وفي سنة 1981 أحيا الشيخ خالد عدلان بن تونس جمعية أحباب الإسلام مرة ثانية بالعاصمة الفرنسية باريس، لتعمل على إحياء الحوار البناء، وبعث مجال التعاون بين الإنسانية.

وتعتبر هذه الجمعية من أهم هذه التجمعات التي أنشأها الشيخ عدة بن تونس وقد ذكر من مقاصدها: (التبشير بالدين الإسلامي وبث تعاليمه بين المسلمين وغيرهم من مختلف الأديان والأجناس، وإعطاء صورة صحيحة عن الإسلام وتاريخه المجيد بعد أن شوهه كتاب مغرضون، ولم شعث الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام على يد الطائفة العلاوية ومدهم بأنواع الإرشاد والتوجيه الديني)[1]

وقد تطورت هذه الجمعية وصارت لها هياكلها ونواديها وإصداراتها لتقوم بعملها الدعوي في الخارج وفي الجزائر أيضا، ولا يزال نشاطها إلى الآن.

المطلب الثاني: الصحافة المكتوبة

كما اهتم الإصلاحيون قبل تأسيس الجمعية وبعده بالصحافة نجد رجال الطرق الصوفية كذلك يهتمون بها، ومن أهم الصحف التي أسست في ذلك الحين، وكان لها بعض التعامل السلبي أو الإيجابي مع جمعية العلماء:

1 ــ جريدة النجاح:

وهي من الجرائد المحسوبة على الطرق الصوفية، باعتبار أن

[1]) انظر: عدة بن تونس: تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء، ج1، ص 147.

مؤسسها هو السيد عبد الحفيظ ابن الهاشمي الذي ينتمي إلى زاوية (سيدي علي بن عمر) الرحمانية المعروفة بالزاوية العثمانية، في طولقة، وهي إحدى أهم الزوايا في الشرق الجزائري[1].

وقد صدرت بمدينة قسنطينة سنة 1919 م، وتعتبر أول محاولة لظهور صحافة عربية بعد الحرب العالمية الأولى[2].

والبعض يعتبر أنها مرت بمرحلتين: مرحلة كانت فيها موالية للإصلاحيين، ومرحلة تغيرت فيها عليهم، ويعتبرونها بذلك، وكأنها غيرت مسارها والأمر ليس كذلك، وإنما يرجع الأمر إلى التشدد الذي بلغه سلوك الجمعية مع المخالفين لها، فلما وصل التشدد إلى غايته القصوى، وسيطر على الجمعية المتشددون وحدهم، ولم يبق في الجمعية أي أطراف أخرى، مالت الجريدة إلى الجهة الأخرى.

وحتى نتأكد من صحة هذا نرى أن الجريدة فتحت أبوابها أول الأمر للجمعية وأعضائها، بل ساهمت مساهمات مهمة في الإشهار بها، خاصة مع انتشارها الواسع، فتحت عنوان (جمعية العلماء منة كبرى يجود بها قرن العشرين على الجزائر)كتب مامي إسماعيل يقول: (إذا جاء موسى وألقى العصا، فقد بطل السحر والساحر)[3] مشبها فيه جمعية العلماء بعصا موسى عليه السلام التي ابتلعت عصي السحرة.

وختم مقاله بدعوة العلماء الى الالتفاف حول المشروع الذي جاء فيه:

1- سن برنامج للتعليم العربي يشمل البنين والبنات.
2- العمل على نشر التعليم الديني والاهتمام بالتربية والإرشاد.
3- طبع وتوزيع الخطب على أئمة المساجد.
4- نشر فتاوى خاصة بالمواد الغذائية حلالها وحرامها ومفيدها ومضرها.

---

[1]) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، ص 128.

[2]) انظر: محمد ناصر: الصحف العربية الجزائرية من1847-1954م، ص 48

[3]) مامي إسماعيل : جمعية العلماء منة كبرى، النجاح، العدد1229 يوم 9 سبتمبر 1931 ،ص 1.

5- القيام بحملة ضد البدع والخرافات وما علق الإسلام من شوائب.

6- تكوين هيئة عليا تقترح إنشاء كلية إسلامية متوسطة بين الزيتونة والقرويين يكون مقرها العاصبة.

وختم مقاله بقوله: (هذا أملنا في الجمعية التي نؤيدها بكل قوانا، ونقول من الآن لكل من أراد أن يناهضنا إن في العرين ليوثا، ومن كذب فليجرب والمستقبل كفيل بصحة ما نقول)[1]

وبقيت الجريدة تنشر لعلماء الجمعية سواء مقالاتهم المختلفة والخاصة بهم أو تلك التي تخص جمعية العلماء وتنقلات أعضائها عبر مختلف مناطق البلاد للشرح والتوعية وجلب الأنصار.

ومن ذلك ما كتبته في الصفحة الأولى تحت عنوان (رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في معسكر) قائلة : (قد أستقبل بحفاوة من طرف أعيان المنطقة إذ أقام فيها عدة أيام مطلعا على أحوال الناس وموجها وواعظا)[2]

وقد نشرت الجريدة وبتفصيل اجتماع نادي الترقي الذي تأسست فيه جمعية العلماء[3].

بل إنها كانت تنادي عبر مديرها ورئيس تحريرها منذ العشرينيات بضرورة تأسيس جمعية وطنية تهتم بشؤون الوطن فكتب عبد الحفيظ بن الهاشمي تحت عنوان (قلة المشاريع الوطنية في بلادنا وعدم تأسيس جمعية وطنية)[4] قائلا: (إن حالة الأمة الجزائرية تستدعي مزيدا من الاهتمام بشؤونها، ولكن أين الرجال الأقوياء؟ حالة الأمة الجزائرية اليوم هي الحالة المؤسف عليها، والتي تهدد بالخطر المبين المقبل، وهي تنبئ بزوال

---

[1] مامي إسماعيل : نفس المرجع والمكان.

[2] قسم التحرير : رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى معسكر، النجاح، العدد 1343،يوم 25 جوان 1932،ص1.

[3] قسم التحرير : القانون الأساسي لجمعية العلماء المطمبن الجزائريين، النجاح، ع 1195 يوم 21 أوت 1931، ص1

[4] عبد الحفيظ بن الهاشمي : قلة المشاريع الوطنية، النجاح العدد 199 يوم 13 مارس 1925،ص1.

الخصائص الجزائرية الذاتية التي كانت في سالف العصور)

ثم ويواصل مناديا: (يا قلوب فلتقشع منك ظلمات الجبن والرعب، ويا ألسن فلتنطقي بما فيه لهذه الأمة صلاح ونجاح، ويا أفئدة القول الصادق، ويا أيدي جودي بالإسعاف في المسائل الوطنية، ويا أيها النواب مالي أراكم مطأطئ الرؤوس أمام الحوادث والمشاكل السياسية)

بل إنها كانت تنشر لرواد الإصلاح قبل تأسيس جمعية العلماء وعلى رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي كان يكتب بانتظام في الجريدة لعدة سنوات تارة باسمه وتارة أخرى باسمه المستعار كالعبسي والقسنطيني.

بل إنها فوق ذلك كانت تقدم خدماتها بالمجان للجمعية، حيث كانت تلعب دور المسكن كلما حصلت القطيعة بين الجمعية والإدارة الاستعمارية، وتأسفت عندما منع الطيب العقبي – مع ما كان من شدته وحدته على الطرق الصوفية- من إلقاء محاضرة بالجامع الجديد يوم 3 مارس 1933م من قبل عامل العمالة، وأشادت بالجمع الغفير من الجزائريين الذين تجمعوا أمام الجامع احتجاجا على تصرفات عامل العمالة وساروا في موكب قدرته الجريدة بأكثر من سبة آلاف شخص، كما دعت إلى الهدوء والحل الذي يرضي الجميع (جمعية العلماء والإدارة الاستعمارية) عندما منع وزير الداخلية الفرنسي جريدة الصراط من الصدور يوم 23 ديسمبر 1933م، إذ نشرت احتجاج جمعية العلماء الذي وجهته إلى الأمة، كما نشرت في الوقت نفسه قرار منع جريدة الصراط من الصدور. ووجهت نداء تدعو فيه نبذ الخلاف بين الطرفين المتنازعين بقولها : (إن فكرنا في جمعية العلماء خاص، ونتمنى لو أنها توفقت الجمعية لطريق المفاهمة مع الإدارة وإيجاد حل مرض فان استمرار سوء المفاهمة بين الطرفين تجني الأمة من ورائه أضرارا علمية وخيمة في زمن نحن أحوج الناس فيه إلى نشر العلوم العربية والدينية)[1]

كان هذا هو سلوكها مع الجمعية كما كان سلوك الطرق الصوفية مع الجمعية، فالطرق بطبيعتها المسالمة لا تبدأ بالحرب،

[1]) مامي : دعوة إلى التوفيق، النجام، العدد 1489 يوم 7 جويلية 1933،ص1.

ولا بالصراع، ولكن إن تجاوز الأمر حـده، فحينـذاك يتغـير الموقـف بالضرورة.

فكيف نتصور بعد تلك الإذية الكبير التي حصلت لرجال الطـرق، واستدعيت الشرطة لأجلهم ورموا من طـرف الجمعيـة في عنابـة بما رموا به، ولم يكن من هم لصحف الجمعية إلا الثلب فيهم وفي أعراضهم، كيف نتصور أن تبقى الجريدة في موقفها؟

ولهذا، فقد كان من الطبيعي أن تغير موقفها، وقد اعتبرنـا ذلـك في الباب الأول خسارة للجمعية، لأنها مع قدرتها الدبلوماسـية في التعامل مـع المسـتعمر لم تسـتعمل تلـك القـدرة في تعاملهـا مـع إخوانها من أصحاب الطرق الصوفية.

والغريب أن محمـد ناصـر وكثـير من البـاحثين لا ينحى باللائمـة على سـلوك الجمعيـة الاسـتفزازي، وإنمـا ينحى باللائمـة على الجريدة، فيقول: (جريدة إصلاحية ثم انتفاعية)[1]

ولست أدري ما المنطق الداعي إلى هذا الطـرح، أي أن محمـد ناصر يعتبرها إصلاحية ما دامت مع الجمعية لكنها إن تحولت لعـدم اقتناعها بمنهجها الإصلاحي تتحول إلى انتفاعية.

وقد نتج عن هذا الموقف الـذي وقفتـه الجريـدة سـجال إعلامي زاد طين الفرقة بين الجمعية والطرق الصوفية بلة، ومن ذلـك مـا كتبـه ابن بـاديس يقـول في مقـال في (الشـهاب) بعنـوان (نحن والنجاح) جاء فيه: (لا نحب أن نعرض لجريدة النجاح فيما اختارتـه لنفسها من خطتها، فذلك شأنها وإنمـا نـرى من الـواجب علينـا أن نعرض لها في أشياء نشرتها تتعلـق بنـا، ولا يخمن ضـررها بنـا بـل يتعدى إلى الحقيقة والوطن)

ومن تلك الأشياء التي نشرتها عنه – كما يذكر – من أنه (حاربـه المسـلمون ورفعـوا من حلقـة الـدرس الشـموع ليصـدوه عن التدريس)[2]

وقد رد عليهم ابن باديس بقوله: (فنقول: أنا أشهد الله وملائكته ان المسلمين لم يحـاربوني، ولم يصـدوني عن التـدريس من يـوم قدمت الى قسنطينة يوما من الايام، بل كانت ومـا زالت دروسـي

---

[1] محمد ناصر ; المقالة الصحفية، المرجع السابق، ص 234.

[2] ابن باديس، نحن والنجاح، الشـهاب، العـدد 2، المجلـد 1 ،ج 1 يـوم 19سـبتمبر 1925 ،ص 344.

معمورة بهم طلبة وعامة، وهي بمد الله في ازدياد عاما بعد عـام، أمـا الـذي حـاربني وصـدني عن التـدريس في الجـامع الكبـير بقسنطينة أول قدومي فهو شخصن واحد فقط لا غـير هـو الشـيخ المولود بن الموهوب)

وقد كانت لهذا تنشر ما يرتبط بالطرق الصوفية من أخبار، كمـا في حديثها عن جمعية علماء السنة، والتي اهتمت بها كثيرا، وممـا كتبتـه عنهـا قولها[1]: (قـام رجـال الغـيرة على العلم والـدين وعلى رأسهم السيد عمر إسماعيل من أهالي العاصمة فبذلوا مسـاعيهم الجدية في تأليف جمعية تهذيبية علمية خيريـة تحت عنـوان علمـاء السنة، فكللت مساعيهم بالنجـاح، وصـادف نـداؤهم إقبـالا عظيمـا من افراد الأمة فجاءوا إليهـا أفواجـا من عناصـر شـتى مكونـة من هيئات دينية من حضرات العلماء ومن رؤساء الزوايا خصوصا)

وكانت تصف علماء السنة بـالفريق العـارف المعتـدل، في حين تصف جمعية العلماء بالفريق الجاهل. وردت عليهـا جريـدة صـدى الصحراء بمقال بعنوان (حول ميكروب النجاح)، جاء فيه: (الـوطن على ما ذكرنا، والنجاح وكتابه يدعون الناس إلى اعتنـاق التصـوف والدخول في زمـرة الطرقـيين)[2]، ثم يقـول: (أمـا تصـوفكم الـذي تدعون الناس إليه فإنا نجيبكم بكل بسـاطة بأنـه مـذهب لا يوافـق العمران، مـذهب كسـل وخمـول، مـذهب يعمـل لفسـاد المجتمـع الإنساني)

2 ــ صحيفة لسان الدين:

وهي من الصحف التابعة للطريقـة العلاويـة، وقـد عـرفت أنهـا: (جريدة دينيـة سياسـية، إخباريـة، أسـبوعية، أسسـت لإعلاء كلمـة الدين)، وقد صدرت بمدينة الجزائـر في أول جـانفي 1923، تحت رعاية جماعة من فضلائها.

وقـد ذكـر محمـد ناصـر أن صـحيفة لسـان الـدين كـانت تمجـد الطريقة العليوية، وتبين مشاريعها الخيرية مؤكدة باتجاهها هذا بأن

---

[1] قسم التحرير : تأسيس جمعية علماء السنة بالجزائر، النجاح، العـدد1380 يـوم 28 سبتمبر 1932، ص1

[2] محمد العزوزي ; حول ميكروب النجاح، صدى الصحراء، العـدد10 يـوم 8 فيفـري 1926،ص2

الذي أنشأها إنما هـو أحمـد بن عليـوة الـذي كـان يطمح إلى ضـم الطرق في الجزائر في طريقة واحدة يتولى هو مشيختها[1].

ويذكر أحمد المجاجي أن أرباب الصحف لم يكونوا يعرفون أنهـا من آثـار العلاويين[2] لكن إدارتهـا العلاويـة ودفاعهـا عن الشـيخ ابن عليـوة كـان مؤشـرا قـوي على مشـربها العلاوي، أمـا غايتهـا كمـا وضحها مقالها الافتتاحي فهي: (أن تمكن هذا الدين الحنيف بصفته الخالصة من الشوائب فيما بين الأجانب فضلا عن أبناء الملة)[3]

وقد عنيت الصحيفة بقضايا الإصلاح الاجتماعي ومقاومة الآفـات الاجتماعية التي لا يختلف عليها المسلمون مثل: الدعارة وتعـاطي الخمور والقمار، ومحاربة ثالوث الفقر والجهـل والمـرض، ولـذلك لم تصرح بانتمائي الطرقي لتصل إلى كل الشرائح الاجتماعية.

لكنها لم تلبث أن توقفت بعد إصدار اثني عشر عددا منها، ولعل ذلك يعود إلى صعوبات الطبع لعدم امتلاكهـا لمطبعـة، حيث كـانت في كل أعدادها تنشر إعلانا تبحث فيه عن مطبعة لشرائها.

ولعله يعود إلى منع الحكومة لصدورها، ولعل ذلـك المنـع يرجـع إلى رسـالة وجههـا الشـيخ ابن عليـوة إلى الـوالي العـام لولايـة الجزائر يشكو فيها عدم الترخيص لأتباعه بفتح زاوية يجتمعون فيها للذكر والذاكرة رغم مساعي الشيخ وأتباعه الحثيثـة لـدى الجهـات المعنية ولمدة تسعة أشهر [4] حتى اضـطر إلى اتخـاذ مقـر الزاويـة غير المرخص لها.

3 ــ صحيفة البلاغ الجزائري:

وهي جريدة أسبوعية صدر عددها الأول في 18 جمـادى الثانيـة 1345 الموافــق ل 24 ديســمبر 1926 بمســتغانم، وقــد تعــدد مديروها وأصحاب امتيازها فحتى العدد 61 (مـارس 1928) كـان حدوني محي الدين هو مديرها وصاحب امتيازها، وفي نفس السنة انتقلت إدارتها لوكيل الزاوية عدة بن تـونس، العـدد: 92 (نوفمـبر 1928). ومنذ عام 1930 خلصت للخضر عمروش وأصبح مقرهـا

---

[1] انظر: محمد ناصر، الصحف العربية، ص 51.

[2] الشهائد والفتاوى، ص 58.

[3] لسان الدين، ع: 1، الجزائر: 2 جانفي 1923.

[4] أحمـد بن مصـطفى العلاوي: أعـذب المناهل، ص 163، نقلا عن: غزالـة بوغـانم، الطريقة العلاوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية 1934 – 1909، ص251.

بمدينة الجزائر العاصمة فكانت تصدر - مثل جريدة المغرب- عشرة آلاف نسخة شهريا في عام 1930 حتى وفاة الشيخ ابن عليوة عام 1934 فوق بجريدته في صف حسن الطرابلسي المنشق على الشيخ الجديد. وقد وصفها المدني بأنها (ذات برنامج ديني إسلامي وطني)[1]

وقد قدمت الصحيفة نفسها في عددها الأول على أنها: (عاملة في خدمة الدين والوطن...غايتها...بذل الجهود في إيضاح المقاصد الدينية، والفوائد الشرعية زيادة على ما ستطرقه من إن شاء الله من الأبحاث الهامة، والنصائح العامة، معتمدة على الله في تحقيق الإنتاج، وتقويم الاعوجاج)[2]

كما قدمت نفسها على أنها صحيفة وسطية ترفض الطعن في أي طبقة من طبقات الأمة وفي أي مذهب من مذاهبها[3].

وترى أنه من صلاح الأمة وإصلاحها في أن لا يتساهل في تنقيص سلفها وأن لا يمس بسوء أي مذهب من مذاهبها ما داموا متفقين على أركان الإسلا م. منكرة على معارضيها وصمها (تارة بصحيفة الحلوليين وتارة بصحيفة المبشرين، وتارة بورقة المضلين)[4]

المطلب الثالث: الكتب والرسائل

اهتم رجال الطرق الصوفية – على عكس الجمعية - بكتابة الكتب والرسائل أكثر من اهتمامهم بالكتابة الصحفية، ولهذا كثرت مؤلفاتهم وتنوعت حتى أن كتب الشيخ ابن عليوة وحده تفوق ما كتب أعضاء الجمعية جميعا، أما كتب الشيخ سكيرج وغيره من شيوخ التيجانية فهي بالمئات، وهكذا الكتب التي ألفت في مواجهة الوهابية عند ظهورها، كما سنرى ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

وسنحاول هنا أن نذكر بعض مؤلفات الطريقة العلاوية باعتبار توجهها الخالص لمناقشة الجمعية، وباعتبار أنها مصدرنا الأول في

---

[1] انظر: أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، ص 372.

[2] أضاميم المد الساري، ج 1، المصدر السابق. ص 56.

[3] أضاميم المد الساري، ج 1، المصدر السابق. ص 61.

[4] إرشاد النبيل إلى مقالات الأستاذ الجليل، المصدر السابق. ص 174.

المناقشات بين الجمعية والطرق الصوفية، وسنذكر الكثير من المؤلفات الأخرى في الفصل الثاني عند ذكر المصادر التي رجعت إليها الطرق الصوفية في الرد على الجمعية.

رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف:

وهي رسالة طبعت على نفقة الفقراء العلاويين، وأشرف على الطبع والتصحيح كل من الحسن بن عبد العزيز، والحاج حسن الطرابلسي، بالمطبعة التونسية عام 1921 في نفس السنة التي كتبت فيها، وكان قد جمعها بمدينة وهران[1].

وغرض الرسالة – كما جاء في مقدمتها- هو الرد على كتاب (المرآة لإظهار الضلالات) للشيخ عثمان بن المكي، المدرس بجامع الزيتونة[2].

ومما جاء في مقدمتها قول الشيخ ابن عليوة: (من كاتبه كثير المساوئ عبد ربّه (أحمد بن مصطفى العلوي) منّ الله عليه بالتوفيق والهمّة والمؤمنين إلى أقوم طريق إلى الفقيه المكّي الشيخ سيدي (عثمان ابن المكي) المدرس بمدينة تونس بجامعها الأعظم زاده الله عمرانا على عمران، وطهّره من كلّ متمرّد شيطان، عليكم سلام الله ما كنتم محترمين لأهل نسبة الله {وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج: 30] إنّي كنت قد عثرت على رسالة نمقتموها بقلمكم تسمى (المرآة إظهار الضلالات)، فتناولتها بيد الاعتبار لنتصفحها بفؤاد الاستبصار، فعرضني ما فيها ألزمني الفشل وأورثني الكلل فتأسفت بقدر ما استبشرت، لما اشتملت عليه مرآتكم من العضّ وتمزيق العرض، فهي ترمي بشرر كالقصر نحو الذاكرين، وتحطّم بالجهر لحم المؤمنين، وبمناسبة ما اشتملت عليه مرآتكم من الزور، وارتكبتموه فيها من الفجور، فطعنتم في أعراض أهل نسبة الله بكلّ لسان وذكرتموهم بكلّ زور وبهتان، فحركتني الغيرة الإلهيّة

---

[1]) أحمد بن مصطفى العلاوي : رسالة القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، المطبعة التونسية، تونس: 1339 ص 76.

[2]) المصدر نفسه. ص 2.

والحميّـة الإسـلاميّة على أن نكـاتبكم احترامـا للمنتسـبين حيث شوهتموهم وانتصارا للذاكرين حيث خذلتموهم)[1]

ثم تناول بتفصيل ما ذكره عثمـان بن مكي في (المـرآة لإظهـار الضلالات) كلمة كلمـة وعقب عليهـا جميعـا، والملاحـظ في ردوده هـو أدبـه مـع المخـالف واحترامـه لـه حـتى أنـه يـدعوه كـل حين (سيدي)، والملاحظ كذلك هو كثرة النقول والاقتباسات.

وقـد رجعنـا إلى هـذه الرسـالة كثـيرا باعتبـار أن القضـايا الـتي طرحها عثمان بن مكي وانتقدها على الطـرق الصـوفية هي نفس ما كان يطرحه رجال الجمعية.

رسالة الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف:

وأصلها مقالات نشرت في مجلة البلاغ الجزائري هـدفها الـدفاع عن التصـوف ضـد مـا نشـره جماعـة من السـلفيين في جريـدة (الشـهاب) هـاجموا فيهـا التصـوف، فقـام العلاوي بـإيراد الأدلـة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة ومن علمـاء يعظمهم السـلفية أنفسهم بمشروعية التصوف وسموه ورفعتـه، وقـد كـان الإمضـاء فيها باسم (الناصر معروف)[2]، وقد جاءت الرسالة في مائة وسـت وعشرين صفحة ثم أضاف لها تقاريظ للعديد من العلماء الشام.

ومما جاء في مقدمتها قول الشـيخ ابن عليـوة: (هـذا أيهـا الأخ إننا وأيم الله لممن يغبطكم لمكانكم ومكانتكم وهذا لا يمنعـني أن نقـول لكم أنـه يجـدر بكم وأنتم أهـل الصـلاح والـدعاة إلى سـبيل الإصلاح أن تكونوا على جانبٍ عظيم من التثبت في النقل ومجانبة أضعف المآخذ، لا سيما وأنتم بصدد إثبات الحجة وتوضـيح المحجـة كما لا يخفاكم أن الحجة لا تثبت فيما تحاولون إثباتـه إلا بـالمتواتر، والأمـر الـبين الظـاهر على أنـك لا تنكـر أن يوجـد بين النـاس من يملــك حــق التميــيز بحيث لا ينخــدع بنحــو خــزف المســكوكات ومموهاتها، وأنتم تعرفون أن الناقـد بصـير خصوصاً في مثـل هـذا الأمـر الخطـير الـذي ركبتم متن الوصـول إليـه بـدون مـا تتخـذون للطريق زاداً ولا لأنفسكم عماداً، وهو الأمـر الـذي دعانـا لتسـطير

---

[1]) أحمـد بن مصـطفى العلاوي : رسـالة القـول المعـروف في الـرد على من أنكـر التصوف، المطبعة التونسية، تونس: 1339 ص 7.

[2]) أحمد بن مصطفى العلوي: الناصر معـروف في الـذب عن مجـد التصـوف، ط 1، مطبعة التوفيق، دمشق: 1931. ص – ص.3.

هاتـه الجمـل.. قـد كنت أيهـا الأخ وقفت على مـا كتبتمـوه بمجلـة الشهاب عدد (174) تلك الكتابة التي أخذت لنا صورة معلوماتكم، والتي لم تكن الغايـة منهـا إلا الحـط من شـرف القـوم الصـوفية والتنكيل بكراماتهم لتظهروهم للعموم بالصفة التي ذكرتموهـا من كون الجنيد وعصابته كانوا أحط مرتبةً عند بعض الأئمـة من مرتبـة الخوارج فضلاً عن حمقهم والخلل الموجودفي أقاويلهم وأعمـالهم هذا ما كنتم تحاولون التعبير عنـه وقـد أسـعفكم الحـظ على ذلـك فلم يبقَ لكم والحالـة هـذه إلا أن تسـمعوا منـا نظـير مـا سـمعناه منكم، أو يسمعه غـيركم حـتى لا يكـون مـا قررتمـوه ضـربة لازب يقضي على مجد التصوف من أصله)[1]

رسالة القـول المعتمـد في مشـروعية الـذكر بالإسـم المفرد :

وهي رسالة جمعهـا محمـد الهاشـمي تلميـذ الشـيخ ابن عليـوة، ونشرها بدمشق عدد صـفحاتها ثلاث وسـتين صـفحة، منهـا خمس وعشرون صفحة عبارة عن مقالات نشرت في البلاغ الجزائـري[2]، وباقي الصفحات تقريظ العلماء للرسالة.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة دافعه إلى كتابة هذه الرسالة، فقال: (أما بعـد أيهـا الأخ المحـترم، فقـد كنتُ تشـرفتُ بزيـارتكم صـحبة صـديق الجميـع حضـرة الشـيخ..... وبمناسـبة مـا دار بيننـا من الحديث، في تلك السويعات الـتي رأيتكم فيهـا مـوغر الصـدر على إخـــوانكم العلاويين، حســبما لاح لي في ذلــك الحين، لا لــذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسـم المفـرد على ألسـنتهم، وهو قولهم: (الله). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقــول العقــاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجــون بــذكر ذلــك الاســم بمناسـبة أو غـير مناسـبة، سـواء عليهم في الأزقـة، أو غيرهـا من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقـول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (اللــه)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلـك ممـا جـرى بـه الحـديث.. ومن جهة أخرى أنكم كنتم ترون أن هذا الاسم، لا يصلح أن يكــون

---

[1]) أحمد بن مصطفى العلوي: الناصر معروف في الذب عن مجد التصوف، ص 3.

[2]) المقالات كانت قد نشرت في صحيفة البلاغ الجزائري، الأعداد: 69.

ذكــرا، ولا هــو من أقســام الكلام المفيــد، جريــا منكم على مــا اشترطه النحويون، من لزوم التركيب، في تعريفهم الكلام المفيد، ولمـا كـان لا يسـعني حملكم في جميـع ذلـك إلا على قصـد طلب التفاهم، والفحص عن الحق والصواب فيما جاءوا به، هل هو جـائز أو لا، ظهر لي أن نواجهكم بهذا المكتوب، عسى أن يحصل بـه مـا هو شفاء للصدور، ودواء للقلوب)[1]

وسنرى الأدلة المذكورة في الرسالة بتفصيل في الفصل الثاني من الباب الرابع.

الشهائد والفتاوى:

وقد جمع هذه الكتـاب ردا على رسـالة الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس (جـواب سـؤال عن سـوء مقـال)، وعلى حملـة صـحيفة (النجاح) على الشيخ ابن عليوة شيخ الطريقة العلاوية.

وهـو عبـارة عن شـهادات بفضـل الشـيخ ابن عليـوة ومكانتـه، بالإضـافة إلى إبرازهـا لمـدى قـدرة الشـيخ ابن عليـوة على تربيـة أتباعه، وعلى حفظ الأمن وصيانة الأخلاق في مناطق نفوذه ببركـة النسـبة، مـع نفي تهمـة البدعـة عن الشـيخ ابن عليـوة وطريقتـه، وكانت تلك الشهادات لأعيان الطريقة الذين أخبر جلهم أنهم كـانوا يبحثون عن شيخ تربية فوجدوا ضالتهم في الشيخ ابن عليوة. فهـو بذلك لم يبث فيهم عقيدة جديدة وإنما حقق لهم ما كانوا يتطلعون له من سلوك للوصول إلى المعرفة المنشودة.

وقد تم جمـع الشـهائد الـتي صـاغ أسـئلتها واختـار الشخصـيات الموجهة لها الأسئلة محمد بن عبـد البـاري التونسي- الـذي تـوفي قبيل إصدار الكتاب- وكـان تسـليم الأسـئلة يتم باليـد، حيث يتلقى حامل الأسئلة الشهادة ليطلع غيره.

وللأسف فإن الكتاب الآن في حكم المفقـود، فلم يتسـن لي أن أجده، حتى أن المواقـع الكثـيرة للطريقـة العلاويـة على الإنـترنت دعت القراء للبحث عنه ووضعه على الشبكة كسائر كتب الطريقة العلاوية.

أعذب المناهل في الأجوبة والرسائل

وهـو للشـيخ (أحمـد بن مصـطفى العلاوي)، وقـد قـام بجمعـه الشيخ (علي بن محمد الغفاري) وقد ذكر في مقدمته بأنّ الدافع

---

[1]) ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

إلى ذلك هو لنشر تـراث الأسـتاذ والعنايـة بـه، (خوفـا من الضـياع وإفادة المنتسـبين من الأتبـاع، وغـيرهم من المسـلمين، إذ تعكس كثيرا من مواقف الشيـــــــــخ (العلاوي) في التربية والتوجيه، ومواجهته للمشاكل المعاصرة، كما وتكشـف من جهـة أخـرى عن سعة معارف الشيخ الدينيّـة، وتفسـيراته العجيبـة الصـحيحة لكثـير من النصـوص والنقـول بأسـلوب رصـين محكم وعبـارات مركـزّة، وأفهام مدعمة بالبراهين والحجج للعديد من أقوال معارضيه الــتي تتسم بالسطحيّة أحيانا وبعدم الموضـوعيّة، حيث إنّ هـذه الأسـئلة وأجوبتها تمثل ثروّة ثقافيّـة متنوعـة، جـديرة بالمطالعـة والـدرس، وبخاصّة لأولئك الـذين يبحثـون عن الحقيقـة للوصـول إلى طريـق الهداية الربانيّة الكفيلـة بتحقيـق النجـاة في الـدنيا والآخـرة، ولقـد أشرف على إصدار هذا الكتـاب سـيدي (رشـيد محمـد الهـادي) مدير المطبعة العلاوية الذي لم يبخل بمجهوداته الماديّة والمعنويّة جزاه الله عن الجميع كلّ الخير)[1]

تنبيه القراء إلى كفاح مجلة المرشد الغراء:

وهو للشيخ عدة بن تونس المستغانمي خليفة الشيخ ابن عليوة على الطريقــة العلاويــة، يضــم الكتــاب بجزئيــه جميــع المقــالات والدراسـات الـتي نشـرها في أعـداد مجلـة (المرشـد) الـتي كـان يصدرها في أواخر الأربعينات، وأوائل الخمسينات باللغتين العربيــة والفرنسية، تجاوز عددها 230 مقالة، عـالج فيهـا مختلـف القضـايا الدينية والاجتماعية والثقافية.

وهو مرجـع يـؤرخ لتلـك الفـترة، ومـا كـان فيهـا من صـراع بين الجمعية والطـرق الصـوفية، بالإضـافة إلى بيـان موقـف الطريقـة العلاوية من القضـايا المختلفـة، وقـد قـام بتحقيقـه وتنظيم مـواده الأسـتاذ يحي الطـاهر برقـة، وجمعـه وأشـرف على طبعـه الحـاج محمد الهادي مدير المطبعة العلاوية بمستغانم.

وقاية الذاكرين من غواية الغافلين

---

[1]) نقل الشيخ الطريقة الدرقاوية في الأردن الشيخ أحمد حسن شحاذة الردايدة في كتابه (صفحات مطويّة في التصوّف الإسلاميّ) جـزءا كبـيرا من هـذا الكتـاب، ابتـداء من صفحة 153.

وهي رسالة صغيرة للشيخ عدة بن تـونس مشـحونة بالنصـوص القرآنية والآثار النبوية على فضل الذكر والذاكرين؛ ومكانـة الـذكر من سائر العبادات الأخرى؛ وقد كتبه ردا على مـا تـورده الجمعيـة من انتقـادات حـول أوراد الطريقـة العلاويـة وغيرهـا من الطـرق الصوفية.

الدرة البهية في أوراد وسند الطريقة العلاوية

ويشتمل على أوراد الطـريـقـة العلاويــة المأخوذة عن الشيــخ محمد بن الحبيب البوزيدي، منها الأوراد العامـة لجميـع المريديــن لكل من داوم عليها صباحا ومساء، ومنها الورد الخاص وهو الاسـم الأعظم بشروط مقـررة؛ ومحـل مخصـوص، وكيفيـة من المرشـد الخاص، وفي ختامـه أرجـوزة للشـيخ العلاوي تتنـاول أسـماء أهـل السلسـلة حـتى رسـول اللـه ﷺ، مذيلـة بمناجـاة للأسـتاذ العلاوي يستغيث بها برجال الطريق.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ــ أنه مع التضييق الشديد الذي كان يمارسه الاستعمار على الشعب الجزائري بطبقاته جميعا إلا أنا نجده قد وضع كثيرا من الفسحة للجمعية وللطرق الصوفية لنشاطهما، وخاصة ما كان منه داخليا فيما بينهما، وهذا ما أتاح لكل الطرفين أن يتحرك بحرية أكبر على المستويات المختلفة، والذي تجلي في استعمالهما لكل الوسائل في ذلك الحين.

2 ــ رأينا من خلال استقراء وسائل الجمعية التي استعملتها في التعامل مع الطرق الصوفية أنها ثلاثة أنواع:

النوع الأول: هو حركات وتنقلات وتجمعات الجمعية لأجل توعية المجتمع بمواقفها من الطرق الصوفية.

النوع الثاني: هو ما أصدرته الجمعية من صحف سواء كانت رسمية، أو كانت تابعة للشخصيات المؤسسة للجمعية، أو التي لها علاقة بها، ولهذا، فلم نكتف عند الحديث عن صحف الجمعية بالصحف الرسمية، أو الصحف التي تلت التأسيس، بل تناولنا الصحف جميعا، باعتبارها كانت تهدف إلى هدف واحد.

النوع الثالث: هو ما ألفته الجمعية من كتب ورسائل ترتبط بتعاملها مع الطرق الصوفية.

3 ــ أن من أهم الوسائل التي استعملتها الجمعية في تحقيق أهدافها الإصلاحية، وخاصة هدفها الأكبر مواجهة الطرق الصوفية هو ما كان يقوم به أعضاؤها من تنقلات إلى المناطق المختلفة سواء لأجل إحياء مناسبات معينة، واستثمارها، أو لغير ذلك، ومنها كذلك إقامة أعضاء الجمعية لتجمعات حركية محدودة، يمكن أن تعتبر كنوع من التنطيمات التي تخدم الأهداف الإصلاحية، وقد كان لكلا الوسيلتين تأثيره الكبير في نشر الدعوة الإصلاحية على ربوع كثيرة من الجزائر، خاصة إذا علمنا أن نسبة الأمية، ونسبة الفقر، المتضخمتين لا تتيحان لأكثر الناس الاطلاع على ما تكتبه الجمعية في صحفها أو رسائلها.

4 ــ من خلال دراسة ما وصل إلينا من صحف الجمعية يمكننا بسهولة أن ندرك علاقتها الكبرى بالطرق الصوفية، وكأن الكثير منها لم يوضع إلا لأجل مواجهة ما تسميه بـ (بدعة الطرائق)، وسنرى بعض النماذج عن ذلك.

5 ــ لم تهتم الجمعية بالتأليف كما اهتمت بالصحافة، وذلك

لانشغال أعضائها الشديد بالعمل الإصلاحي، بالإضافة إلى اعتبارها أن منتوج الصحافة أكثر، وأقرب من منتوج الكتب، ولهذا فإن إنتاجها في هذا الجانب محدود جدا لا يكاد يذكر.

6 ــ كما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استعملت كل الوسائل المتاحة في ذلك الحين لمواجهة الطرق الصوفية فإن الطرق الصوفية لم تقل عنها في ذلك، وخصوصا الطريقة العلاوية التي يجمع كل من ذكرها أو أرخ لها على أنها طريقة عصرية استعملت كل الوسائل والأساليب العصرية.

7 ــ اهتم رجال الطرق الصوفية مشايخ ومريدين بالتنقل في المناطق المختلفة عبر ما يسمونة (سياحة)، والتي لم يكن الغرض منها فقط السير التعبدي والتأملي، وإنما كان الغرض منها كذلك نشر الطريقة في المناطق المختلفة، ويضاف إلى ذلك ما قامت به الطريقة العلاوية من إنشاء بعض الجمعيات التي ساهمت في التعريف بالطريقة ونشرها، بل إن بعضها لا يزال إلى الآن يؤدي دوره في التعريف بالطريقة العلاوية.

8 ــــ كما اهتم الإصلاحيون قبل تأسيس الجمعية وبعده بالصحافة نجد رجال الطرق الصوفية كذلك يهتمون بها.

9 ــ اهتم رجال الطرق الصوفية – على عكس الجمعية - بكتابة الكتب والرسائل أكثر من اهتمامهم بالكتابة الصحفية، ولهذا كثرت مؤلفاتهم وتنوعت حتى أن كتب الشيخ ابن عليوة وحده تفوق ما كتب أعضاء الجمعية جميعا، أما كتب الشيخ سكيرج وغيره من شيوخ التيجانية فهي بالمئات، وهكذا الكتب التي ألفت في مواجهة الوهابية عند ظهورها.

الفصل الرابع
أساليب التعامل بين الجمعية والطرق الصوفية

لا تكفي وسائل الاتصال وحدها في تحقيـق الأهـداف مهمـا تكن قوتها وفاعليتها ما لم تصحبها الأساليب التي يمكنهـا أن تصـل إلى عقل المتلقي وقلبه، وتستطيع بعد ذلـك أن تـؤثر في حياتـه، وفي الوجهة التي تتوجه إليها حياته.

بنـاء على هـذا اهتم كلا الجـانبين: الجمعيـة، والطـرق الصـوفية باستعمال الأساليب الـتي يـرون مـدى تأثيرهـا في المجتمـع الـذي يريد كل طرف منهما أن يجذبه إلى وجهته.

بناء على هـذا كـان لزامـا على من يريـد أن يـدرس بموضـوعية التاريخ الفكري للجمعية أو للطرق الصوفية وعلاقاتهـا أن لا يكتفي بالأفكار التي طرحت، ولا بالمواضيع التي طـرقت، وإنمـا يهتم مـع ذلك وقبله بالأساليب، فالحق إذا عبر عنه بتعبير أهل الباطل، صار باطلا أو كاد.

انطلاقا من هذه الأهمية التي تكتسيها الأسـاليب في المعـاملات المختلفة نحـاول في هـذا المبحث أن نبحث في كيفيـة تعامـل كلا الطرفين مع الآخر.

ولأجل هذا قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين:

المبحث الأول: أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

المبحث الثاني: أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

المبحث الأول: أساليب تعامل الجمعية مع الطرق الصوفية

من خلال استقراء الأساليب التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المواجهة العلمية، ونعني بها الخطاب العلمي، الذي يتضمن أدلة وأحكاما مباشرة، وصريحة، وتستعمل فيه اللغة العملية المجردة والدقيقة.

النوع الثاني: المواجهة الأدبية، ونعني بها الخطاب الأدبي، بمختلف أنواعه وأغراضه وأساليبه، وقد فرقنا بينه وبين الخطاب الأول، باعتبار ما يحمله هذا الخطاب من مبالغات قد لا تكون مقصودة، وبالتالي لا يمكن بناء الأحكام عليها، بالإضافة إلى أن أصحاب الخطاب في هذا القسم لا يشترط أن يكونوا من العلماء، فقد وظفت الجمعية الكثير من الطاقات الفنية والأدبية لخدمة أهدافها.

النوع الثالث: المواجهة العاطفية، ونعني بها استغلال الجمعية لمناسبات أو أحداث معينة، واستثمارها في التحذير من الطرق الصوفية.

وقد خصصنا كل نوع من هذه الأنواع بمطلب خاص.

المطلب الأول: المواجهة العلمية

ربما كان حظ المواجهة العلمية – من خلال ما وصل إلينا من تراث الجمعية من صحفها ورسائلها - كما عرفنا ذلك في الفصل السابق – هو أهون أنواع المواجهات وأقلها، فمع تلك الحملة الشديدة لم نر إلا بعض رسائل قصيرة محدودة المحتوى، وفي لغة لا نستطيع أن نصنفها ضمن اللغات العلمية المنهجية البحتة.

وربما يكون عذر الجمعية في هذا هو ما ذكرناه من قبل من طغيان المتشددين عليها، ورفضهم لأي حوار مع الآخر، بل رفضهم، ولو لذكر أدلة الطرف الآخر، ثم مناقشتها.

والعلة في هذا واضحة، وهي نابعة من صميم المنهج السلفي المحافظ الذي يؤكد كل حين ما ورد عن أئمتهم من تحريم رواية ما يذكره أهل الشبهات حتى لا تقع في ذهن القارئ، ثم يضعف استئصالها منه.

بناء على هذه النتائج المستخلصة، والتي سنرى تفاصيلها

والنماذج الكثيرة عليها في الباب الرابع، نحب أن نركز في هذا الباب الحديث على أمرين يخصان هذا النوع من المواجهة:

الأول: هو المصادر التي تعتمدها الجمعية أثناء مناقشاتها للطرق الصوفية

الثاني: هو خصائص تلك المناقشات.

ونحب أن نبين أننا في هذه المحاكمات التي نجريها لتراث الجمعية العلمي في هذا الباب، لا نريد أن نخضعها للمنهج العلمي الحديث، والذي قد يرى البعض أن الجمعية لم تكن لها ا لفرصة الزمنية للاطلاع عليه، وإنما نخضعها لمنهج البحث العلمي التراثي، وخاصة ما ارتبط منه بالجدل مع المخالف، بل نربطها فوق ذلك بمن يعتبره التيار السلفي من الشخصيات العلمية، بل بمن يعتبر منظرا للتيار السلفي بقسميه التنويري والمحافظ، وهو ابن تيمية.

أولا ــ مصادر الجمعية في الرد على الطرق الصوفية:

يمكن تصنيف المصادر العلمية للجمعية، والتي كانت ترجع إليها في الفتوى والتعليم ونحوها إلى المصادر التالية[1]:

1- **القرآن الكريم**: ويعتبر أكبر مصدر للجمعية في مناقشاتها، بل إن الجمعية تعتبر نفسها داعية للقرآن الكريم في مقابل الطرف الآخر الذي تتصور أنه لا يعرف القرآن الكريم، وقد سبق ذكر الشواهد على ذلك.

2- **تفاسير القرآن**: وهي ترجع إما للتفاسير المرتبطة بالمأثور كتفسير ابن جرير، وتفسير البغوي وتفسير ابن كثير وتفسير الثعالبي، وإما تفاسير فقهية كتفسير القرطبي، تفسير ابن العربي لآيات الأحكام.

بالإضافة إلى تفسير المنار للعلامة الشيخ محمد رشيد رضا: وهو من التفاسير الحديثة التي اهتمت به الجمعية كثيرا، يقول الشيخ أحمد حماني: (وإن تفسير المنار الذي اشتركا في إنتاجه محمد عبده ورشيد رضا، وكان الفضل الأكبر للثاني في إخراجه لم يأت تفسير قبله ولا بعده على مثاله، وقد كان له الأثر الكبير في النهضة الإسلامية واليقظة الشرقية والحركة القومية السياسية المنبنية على الدين الصحيح السليم من البدع

---

[1]) انظر: البعد المقاصدي للفتوى عند الجمعية: ص58.

والخرافات ومن الجحود والجمود[1] .

3- **الحديث النبوي الشريف**: ومن أهم الكتب التي اعتمدت عليها الجمعية: الموطأ، وصحيحي البخاري ومسلم، وكتب السنة المشهورة كسنن أبى داود، وابن ماجه، والترمذي، والنسائي، ومسند أحمد، ومعاجم الطبراني الثلاثة، وسنن الدارقطني، والجامع الصغير للسيوطي، وبلوغ المرام، والمشكاة للتبريزي، والمصابيح للبغوي، ومصنف ابن أبي شيبة وعبد الرزاق، والتلخيص الحبير لابن حجر العسقلاني.

4- **شروح الحديث**: ومن أهمها فتح الباري لابن حجر، وشرح النووي على مسلم، وشرح العيني على البخاري، وشرح عياض على مسلم، وشرح الصنعاني على بلوغ المرام (سبل السلام)، ونيل الأوطار للشوكاني، والمنتقى شرح الموطأ للباجي، شرح الخطابي على أبي داود.

5- **كتب الأصول والمقاصد**: ومن أهمها: الموافقات للشاطبي، وقواطع الأدلة للمعاني، وإرشاد الفحول للشوكاني، وبداية المجهد لابن رشد، وإعلام الموقعين لابن القيم، وكتب القرافي الأصولية.

6- **كتب الردع على البدع**: كالاعتصام للشاطبي، وأصول البدع والسنن محمد العدوي والباعث على إنكار البدع والحوادث أبو شامة المقدسي.

7- **الكتب المختصة بالمذهب المالكي**: مثل المدونة، ومختصر خليل، وشروح خليل وحواشيه كالخرشي والعدوي وعليش وشرح الدردير (أقرب المسالك)، والمقدمات لابن رشد، والجواهر الثمينة لابن شاس، وكتب ابن عرفة، وكتب الأجهري، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني وبعض شروحها وحواشيها، ومتن ابن عاشر وشروحه.

8- **كتب الفتاوى**: وهي المعيار للونشريسي، وفتاوى عليش، وفتاوى بخيت المطيعي في مجلة الإسلام.

9-**كتب العقائد**: كـ (منهاج السنة) لابن تيمية.

---

[1]) أحمد حماني: صراع بين السنة والبدعة،1/52.

بالإضـافة إلى هـذا نحب أن نتعـرف على المراجـع الـتي كـانت الجمعية تهتم بها خصوصا دراسة وتدريسا، ولعـل أحسـن من ذكـر عن هذه المراجع الشيخ عمر بن البسكري العقبي[1] الذي عرف به ابن باديس، وقدمه لمقال كتبه في هذا البـاب بقولـه:: (لنـا أخ في الله ببلدة الفاتح العظيم سيدي عقبة بن نافع ممن يحفظون كتاب الله ويتدبرونه ويهتدون به ويعملون على نشـر هدايتـه ويشـاركون في العلــوم الشــرعية والأدبيــة والعقليــة ويضــربون في اللغــة الفرنسية بسهم هو الشيخ عمر بن البسكري صاحب هذا المقـال، وقد كان الشيخ معلما للصبيان خاملا، فهداه العلم ووفقه لمطالعة كتب السلف، فأصبح من أهل العلم العاملين وعباد الله الصالحين، وقد بين لي في كتاب خاص ما طالعه من الكتب، وأنـا أذكرهـا هـا هنــا متمنيــا لكــل مهتم للعلم أن يكــون طالعهــا أو عازمــا على مطالعتها)[2]

وهذا ما كتبه الشيخ عمـر عن هـذه المراجـع: (وأمـا توغلنـا في العلم الصـحيح السـلفي فهـو ضـالتنا المنشـودة الـتي ظفرنـا بهـا وسعادتنا العظمى التي أرجو بها الفـوز عنـد اللـه والـزلفى والـتي نفثت في روعنا- والحمد لله - توحيدا خالصا من شـوائب الشـرك، وايمانا ناشئا عن نظر صحيح، ومن الكتب الـتي طالعناهـا مطالعـة تحصــيل (الاحكــام) للآمــدي، (بدايــة المجتهــد)، و(الاعتصــام) للشــاطبي، (منهــاج الســنة)، وغــيره من كتب الامــام ابن تيمية، و(اعلام الموقعين) و(اغاثـة اللهفـان)، وغيرهمـا للامـام ابن القيم، و(الـدر النضـيد)، وغـيره من كتب الشـوكاني، وغـير هـذا من كتب العلم الصحيحة بعدما طالعنا (الموطأ)، و(صحيح البخـاري)، وبعض التفاسـير الصــحيحة، ولم يفتنــا من مجلتكم الزاهــرة بمجــالس التذكير عدد واحـد، فكم أفادتنـا من علـوم أدام اللـه حيـاة منشـئه اللاسلام)

---

[1]) عمر بن البسكري العقبي (1898-1986): ولد بسيدي عقبة سنة1898 وحفظ القرآن بها وتعلم على علمائها، انظر: ((مجلة الإصلاح الجزائريـة)) عـدد/14 بتـاريخ: ماي/جوان2009م

[2]) جريدة البصائر: العدد/44.

ونلاحظ من خلال هذه المراجع جميعا ما يلي:

1 ــ افتقارها للدراسات الفقهية المقارنة، والتي لها دور كبير في التعرف على الخلاف الوارد في الأمة، والذي يتيح لها بعد ذلك أن تتعامل بأفق أوسع، ورحابة صدر أكبر.

2 ــ افتقارها لكتب التصوف، مع كونها تتوجه بخطابها للصوفية، ومن المستغرب أن لا يكون (إحياء علوم الدين) من مصادر الجمعية الكبرى مع كونه لا يكاد يخلو منه بيت مسلم.

وهذا واضح، ومن الأمثلة القريبة عليه أن ابن باديس عندما ذكر إعجابه بإشارة القشيري، تصورت أنه اطلع على تفسيره، وتعجبت أنه لم ينكر عليه مثلما أنكر على الطرق الصوفية، لكني وجدت أنه لم يرجع إليه، وإنما وجد إشارته في تفسير ابن العربي المالكي، ورأى أن ابن العربي أقرها، فقلده في إقرارها[1].

3 ــ افتقارها للتراث الصوفي المقارن، والموجه خصوصا للتيار السلفي، والذي سنذكر نمادج عنه في المبحث التالي، وهذا مما يضخم المشكلة بين الطرفين، فالافتقار إلى المصادر، كافتقار المريض إلى دواء من الأدوية، ولا يمكن أن يطمع في الشفاء من لم يحصل الدواء، أو رغب عن الدواء.

4 ــ اعتمادها في الحديث عن التصوف على كتب أعدائه، وخاصة ابن الجوزي، وخاصة ما ذكره في كتابه (تلبيس إبليس)، وهو كتاب لقي الكثير من مقولاته الرفض حتى من ابن تيمية وغيره.

ولهذا نجد الشيخ ابن عليوة في رده على مقال الشهاب في رسالة (الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف) يخاطب رجل الجمعية بقوله: (..فأقول لكم صريحاً يا حضرة الأخ: إن معتمدكم فيما نقلتموه من كتاب ابن الجوزي المسمى بـ (تلبيس إبليس) لا تقوم به حجة ولست أدري هل أنتم على علم من قيمة هذا الكتاب ومنزلته بين العلماء أم كنتم على خلاف ذلك؟ ولهذا أراني مضطراً أن أذكر لكم مقداره عند العلماء فأقول أن للعلماء في ذلك الكتاب كثيراً من الأخذ والرد وفي الأخير اتضح عندهم أنه

---

[1]) انظر: آثار ابن باديس (2/ 34)

مما لا تنهض به الحجة ولا يصح به الاستدلال .. وهـا أنـا أنقـل لكم من أقوالهم حتى تدرك مقدار ما اعتمدتموه في الحط من كرامـة رجـال كـان من واجبـك أن تعتـبرهم في الصـف الأول من رجـال الدين وأئمة المسلمين)[1]

ثانيا ــ خصائص المواجهة العلمية:

من خلال دراسة التراث القليل الذي كتبه رجال الجمعيـة حـول تفاصـيل الخلاف بينهم وبين الطـرق الصـوفية يمكن ملاحظـة الخصائص التالية:

1 ــ عدم الاعتراف بالآخر:

فجمعية العلماء لم تكن ترى في الآخر شخصا اعتباريا يمكن أن تتحاور معه، أو تقبل مناقشته، لأنهـا، ومنـذ أول يـوم قـررت عـدم الحوار، بـل لم تـر من حـل سـوى الاستئصـال الجـذري لا للطـرق الصوفية فقط، بـل لكـل مـا يرتبـط بهـا من معـان، وهي في هـذا ترجع لأشد أنواع السلفية تطرفا، وهي السلفية الوهابية.

ولهذا نرى مشايخ الصوفية في ردودهم على الجمعيـة، وخاصـة الشيخ ابن عليـوة يـذكرهم بمقـالات ابن تيمية وابن القيم والشـيخ محمد عبده وغيرهم من أعلام المدرسة السلفية، كما سنرى ذلـك بتفصيل في الباب الرابع.

وقد ذكر الشيخ ابن عليوة في معـرض رده على المخـالفين لـه الكيفية التي يتعـاملون بهـا معـه فقـال: (..وأيّ معصـية أشـنع من تطبيقـك جميـع مـا ورد في أهـل الزيـغ والضـلالة على جماعـة الصوفيّة ؟ ولم يكفك ذلك حتى جعلتهم فرقة من فرق أهـل النـار مستدلا بما رواه عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ليأتيّن على أمتي ما أتى على بني إسـرائيل حـذو النعـل بالنعل حتى إن كـان منهم من أتى أمّـه علانيـة لكـان في أمتّي من يصـنع ذلك، وإنّ بني إسرائيل تفـرّقت إلى ثنـتين وسـبعين ملّـة وتفـترق أمتّي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النار إلاّ ملّة واحدة، قالوا : ومن هي يا رسول اللـه ؟، قـال : مـا أنـا عليـه وأصـحابي)[2] رواه الترمـذي في سـننه، وهـذا صـريح في أنّـك تعـني أنّ فرقـة أهـل

---

[1] ابن عليوة، الناصر المعروف بالذب عن مجد التصوف، ص7.

[2] سنن الترمذي (5/ 26)

التصـوّف واحـدة من تلـك الفـرق، وإنّي أحكمـك للـه ولرسـوله ولصالح المؤمنين فيما بينك وبين الصوفيّة)[1]

ثم أشـار الشـيخ ابن عليـوة إلى العقليـة الانتقائيـة للجمعيـة وللمنهج السـلفي عمومـا، وهي انتقاؤهـا من النصـوص مـا تـراه مناسبا لها، ثم تفسره بحسب مـا تـراه، فقـال: (وهلا نقلت حـديثا نقله الإمام الغزالي في كتابه المسمّى بـ (فصل التفريقـات)[2] وهو قوله عليه الصـلاة والسـلام :(سـتفترق أمـتي على بضـع وسـبعين فرقة كلّهم في الجنّة إلاّ الزنادقة)[3]

ثم يذكر العلة في هذه الانتقائية، وهي علة نفسية كما يتصـورها

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صـفحات مطويـة في التصوف الإسلامي، ص204.

[2]) يشير به إلى كتاب أبي حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة)، وهو من أهم الكتب في الرد على التكفيريين، وقد قال في هذا: (وظـاهر ظـني ــ والعلم عند الله ـ أن هؤلاء هم المرادون بقوله عليه السلام: (ستفترق أمتي بضـعاً وسـبعين فرقــة، كلهم في الجنــة، إلا الزنادقــة) وهي فرقــة، هــذا لفــظ الحــديث في بعض الروايات، وظاهر الحديث يدل على أنه أراد به (الزنادقة) من أمته، إذ قال (سـتفرق أمـتي) ومن لم يعـترف بنبوتـه فليس من أمتـه) (انظـر: أبـو حامد الغـزالي، فيصـل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ط1، 1993، ص68)

[3]) قال العجلوني في (كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشـتهر من الاحـاديث على ألسنة الناس (1/ـ 150)) بعد عرض الروايات الأخرى المشهورة: (وصـححه الحـاكم بلفظ غريب وهو (ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحـدة)، وفي رواية عند الديلمي (الهالك منها واحدة)، قال العلمـاء هي الزنادقـة انتهى، وفي هامش الميزان المذكور عن أنس عن النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم بلفـظ (تفـترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة)، قال وفي رواية عنه أيضا (تفترق هذه الأمـة على بضـع وسـبعين فرقـه إني أعلم أهـداها الجماعـة) انتهى، ثم رأيت ما في هامش الميزان مذكورا في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر، ولفظه (تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلهـا في الجنـة إلا واحـدة وهي الزنادقـة)، أسـنده عن أنس قـال وأخرجـه أبـو يعلى من وجـه آخـر عن أنس بلفـظ أهداها فرقة الجماعة انتهى، فلينظر مع المشهور ولعل وجه التوفيق أن المراد بأهل الجنة في الرواية الثانية ولو مآلا فتأمل)

الشيخ ابن عليوة، حيث يقول: (ولكن هذا لا يقع عليه بصرك وإنّما يقع على ما يساعدك في الحكم على سائر أفراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شاكلتك لا غير، ولا تجد من يرفع عنك معضلتك إلاّ صوفيّ ومحال أن تتنزل له لأنّ الحسد باب الإنصاف ويقطع لسان الاعتراف)[1]

ويرد الشيخ ابن عليوة على هذا المنهج الإقصائي الذي تمارسه الجمعية مع الطرق الصوفية بالمنهج الذي تمارسه أو تعتقده الطرق الصوفية، فقال – تعقيبا على الكلام السابق-: (وأنا أقول : إنّ الله سبحانه وتعالى عند ظنّ كلّ مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر مهما اجتهد لنفسه بما يقرّبه إلى الله، فإن أصاب فله أجران، وإن لم يصب فله أجر، فهو مأجور على كلّ حال أحببت أم كرهت، لأنّ الخلق ما كلّفوا إصابة الصواب، إنّما كلّفوا الظنّ بأنّه صواب، وجميع ذلك ممّا يقتضيه تسامح الشرع الأحمدي المشار إليه بقوله تعالى: {وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78]

وبعد أن ذكر بعض النصوص الدالة على سعة رحمة الله للجميع، علق عليها بقوله: (فلما لم تصادف هذه الأخبار التي تفيد الوسع وتقضي على الأمّة بالنجاة ؟، ولكنّك تنظر بالعين العوراء، فلهذا أراك إلى الآن لم تترك نصّا يقضي على الذاكرين بالدمار والخروج من سعة رحمة الله التي وسعت كلّ شيء إلاّ وألصقته بجانبهم)[2]

قد يرى البعض بأن استدلالنا بالشيخ ابن عليوة لإثبات هذه الخاصية مناف للمنهج العلمي، وهذا صحيح، ولكنا أردنا أن نذكر فقط بعض شكوى الطرق الصوفية من ذلك التعامل الاستعلائي الذي تمارسه الجمعية معهم، فلا تأذن لهم حتى بالحديث.

وأساس هذا التعامل هو تلك الصورة التي تحملها الجمعية عن نفسها، وهي أنها تمثل الكتاب والسنة، ولا ينبغي لأحد من الناس

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص204.

[2]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص205.

أن يواجه الكتاب والسنة، أو يقف أمام الكتاب والسنة.

والثاني – وهو أخطر- وهو اعتقادها أنها جماعة المسلمين في الجزائر، أو بتعبير آخر، هي من يمثل الإسلام في الجزائر، وهذا للأسف ما ورثته عنها الحركات الإسلامية بعد الاستقلال مما جعلها تستعلي على المجتمع، ثم تتميز عنه، ثم في الأخير تصطدم معه، ولو أنها تعاملت مع المجتمع على أنها طرف فيه، لا باعتباره الطرف الوحيد لما وقعت في الأزمة التي وقعت فيها.

وقد قدم الشيخ العربي التبسي لهذا التقرير الذي يريد من خلاله أن يلغي الآخر بذكره ما ذكر الفقهاء حول الأحكام المرتبطة بعدم الإمام، قال: (قال فقهاء الإسلام في بيان حكم هذه القضية بالنسبة إلى الإمام واستعمال سلطته في نشر العلم : ومعلوم عندنا بالضرورة أن المسلمين عندنا إذا فقدوا الإمام وجب على جماعة المسلمين أن يحلوا محل الإمام في القيام بالدين، يقول أولئك الفقهاء : يجب على الإمام في كل مسافة قصر أن يضع فيها من يعلم الناس أمر دينهم، والدين يقول : يجب على الأمة الجزائرية العديمة الإمام، والحكومة المعترفة بالإسلام وجوبا شرعيا، أن تقوم كأمة بفروض الكفاية والمعالم العامة الشعبية والإجتماعية وهذه الأمة الجزائرية عليها أن تمتثل آية : {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ} [آل عمران: 104]) [1]

وكان في إمكانه بعد هذا الطرح أن يقترح اجتماع جميع من يمثل الأمة من فقهائها وأعيانها ونحوهم بمذاهبهم واتجاهاتهم المختلفة ليشكلوا هذه الجماعة لتكون رمزا لوحدة الأمة، وتكون صوتا عاليا يمكنه أن يؤثر في تحصيل الحقوق أو توجيهها.

لكن الشيخ العربي بدل ذلك قال – بكل برودة، وكأنه يقرر قضية بديهية لا خلاف فيها- : (وتلك الطائفة من الأمة المعبر عنها في هذه الآية بلفظ الأمة، هي جماعة المسلمين، وتتمثل في أمتنا جماعة المسلمين في جمعية العلماء)

ثم بين الدوافع التي جعلته يذهب إلى هذا، فقال: (فهذه الجمعية هي الطائفة التي توفرت فيها أوصاف جماعة المسلمين الشرعية، وإذا كنا ممن ينطق لله، ويغضب لله، ويرضى لله،

---

[1]) جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

ويحكم بما في دين الله، ويسند الأمور إلى أهلها كما أمر الله) [1]

وبناء على هذه الأوصاف التي تغلب عليها لغة العاطفة، أكثر مما يغلب عليها لغة العلم، استنتج الشيخ العربي التبسي هذا الحكم الشرعية الخطير، فقال: (وقد وجب على كل مسلم في الجزائر أن يعترف بأن جماعة المسلمين في الجزائر هي جمعية العلماء) [2]

بل لم يكتف بهذه الألفاظ الشرعية المؤدبة، فأضاف إليها قوله: (لا ينازع في ذلك إلا من أضله الله على علم أو جهل، أو كان من الذين سبقت عليهم الشقوة، فأنساهم الشيطان والهوى وحظوظ أنفسهم القيام بالقسط والشهادة ولو على أنفسهم) [3]

ولسنا ندري المصدر الذي عرف من خلاله الشيخ العربي أن تلك الجموع الغفيرة التي لم تخضع للجمعية أنها ممن (من الذين سبقت عليهم الشقوة)، لأن هذا يستدعي الرجوع إلى مصادر لا توجد في هذه الحياة الدنيا، ولا يمكن لعاقل يحترم قدره أن يدعي أنه تعرف على ما فيها.

ثم بين الأسباب التي جعلت الجمعية لا تعترف بالآخر، والتي عبر عنها بقوله: (اعلموا أنه إذا كانت جماعة المسلمين بالعلم، فأكثر علماء الجزائر في هذه الجمعية، وإذا كانت الدعوة إلى الله فهي الجماعة المخلصة المؤمنة المجاهدة التي عاهدت ربها، وكتبت ميثاقا على نفسها، أنها الداعية بجماعتها وأفرادها إلى دين الله، وإلى كتابه، وسنة نبيه)[4]

ولسنا ندري كذلك كيف حكم على جميع أعضاء الجمعية بكونهم مخلصين مع أنه في ذلك الحين كان من أنشط دعاة الجمعية، وأكثرهم تطرفا الشيخ الزاهري، والذي كتب الشيخ العربي يقول عنه في البصائر بعد ذلك: (رد على معرض أكاذيب الزاهري

---

[1] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[2] جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[3] المصدر السابق، ص 1.

[4] المصدر السابق، ص 1.

وتلامذته الزيتونيين)[1]

بل إن الشيخ العربي التبسي، وخشية أن يستدرك عليه بأن هناك في الجزائر الكثير من العلماء المحترمين الذين لم يدخلوا الجمعية، وأنه مسهم بأحكامه القاسية، عقب على ذلك بقوله: (وإذ وجدنا في الأمة الجزائرية شخصيات علمية أو لها في مجتمعنا مكانة طيبة أو سمعة قديمة، ولم تدخل جمعية العلماء أو دخلت فيها، ثم خرجت منها فإن تلك الشخصية لا تخلو من إحدى الآفتين)

أما **الآفة الأولى** – التي يراها الشيخ العربي- فهي الانتماء إلى الحكومة الاستعمارية سرا أو علنا. مباشرة أو بواسطة، ولا علينا أكان الانتماء حلالا أم حراما.. فأصحاب هذه الآفة يخشون غضب الحكومة عليهم إن هم وقفوا مع جمعية العلماء، وقالوا كما تقول جمعية العلماء : إننا على دين آبائنا وأجدادنا الذين دفنوا في هذه الأرض الجزائرية الطاهرة منذ ألف وثلاث مائة سنة عربا. وتركونا بعدهم ذرية عربا، فكيف تحاول فرنسا قطع بنا سلاسل أنسابنا وتحويلنا من بعدهم إلى فرنسيين لاتينيين.

أما الآفة الثانية – التي يراها الشيخ العربي- فهي (الحزبية وحب الرئاسة، فإن الرئاسة والحزبية لا تبنى على الإسلام وأنظمته

---

[1]) المصدر السابق، ص 3،ـ وقد ذكر الدكتور أحمد عيساوي قصة هذا المكتوب، وهي أن الشيخ العربي نشر هذا الرد التوضيحي في جريدة البصائر اثر التآمر الذي أظهره الأستاذ (محمد السعيد الزاهري) بواسطة بعض الطلبة الموالين له الدارسين بالزيتونة، الذين استغلوا كل أشكال التآمر والكيد من أجل الاستحواذ على أمانة جمعية الطلبة المسلمين الجزائريين الزيتونيين، وكان ذلك في بدايات سنة 1949م 1368هـ بتونس. وكان الشيخ العربي في زيارة لتونس فحرص السيد (محمد مرازقة) عدم حضور الشيخ العربي والوفد المرافق له كي لا تنكشف لعبتهم، ثم حرف حقيقة ما جرى يومها في تونس صاحب (جريدة المغرب العربي 1947-1948م) (محمد السعيد الزاهري)، فرد عليه الأستاذ (العباس بن الشيخ الحسين) في جريدة البصائر بمقال عنونه بـ (معرض الأكاذيب) مذيلا به رسالة الشيخ العربي التبسي، انظر: نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص259.

وتشـــكيلاته، ولا على جماعـــة المســـلمين.. فلا عجب أن يكـــون أصـحاب الرئاسـة من خصـوم جمعيـة العلمـاء الممثلـة لجماعـة المسلمين من الجزائر العربية المسلمة)[1]

وكلا الآفـتين لا تنهضـان أمـام حقيقـة الواقـع الـذي مارسـته الجمعية:

أما الآفة الأولى، فالكل يعلم – كمـا ذكرنـا سـابقا- بـأن الجميـع استعمل الهدنة مع الاستعمار، لأنه لولا استعمال الهدنة لما انتشـر لا للجمعية ولا للطرق الصوفية في ذلك الواقع القمعي.

وأما الآفة الثانيـة، فهي غيب من الغيب، فـالإخلاص والتـبرؤ من حب الرئاسة لا يعلمـه إلا اللـه، بالإضـافة إلى هـذا، فـإن القـوانين والديمقراطية لم نرها تطبق يوما واحدا في الجمعية للأسـف، فلم يحـدث أن حصـلت انتخابـات حـرة ونزيهـة ليغـير على أساسـها الرؤســاء، بــل إن الشــيخ البشــير الإبــراهيمي عنــدما ذهب إلى المشرق ليستقر فيه أخذ الرئاسة معه، ولم يسمح لأحد بأن يخلفه مما هيأ لانحلال الجمعية بعد ذلك وصراعها على السلطة.

لكن الشيخ العربي بنى على ما ذكره من الآفـتين حكمـا قاسـيا لم يوجهـه للعـوام، وإنمـا وجهـه للخـواص من العلمـاء الـذين لم يـدخلوا الجمعيـة، أو لم يقتنعـوا بمنهجهـا، قـال فيـه: (فالمرضـى بهاتين الآفـتين لا يضـر خلافهم جمعيـة العلمـاء في تمثيـل جماعـة المسلمين من الأمة الجزائرية)[2]

ثم عقب على ذلك بهـذا الحكم الخطـير، والـذي يمارسـه عـادة أصـحاب المنهج السـلفي: (وإذا صـدقنا فيمـا وصـفنا بـه جمعيـة العلمـاء من الأوصـاف، وصـدقنا فيمـا نسـبناه إليهـا من الأعمـال الدينية والعلمية والاجتماعية، فهي بحـق جماعـة المسـلمين، ومن خالفها يوليه الله ما تولى إذا مـا شـذ عنهـا إلا من لا يعبـأ اللـه بـه ممن يسـير في هـدي الحكومـة الاسـتعمارية، أو من اتخـذ آلهـة حزبية، وما فيها من مبادىء وعصبيات ورجال)[3]

وهذا نفس ما ذكره الشيخ ابن عليوة عندما قـال: (ولكن هـذا لا يقع عليه بصرك وإنّما يقع على ما يساعدك في الحكم على سـائر

---

[1] المصدر السابق، ، ص 3.

[2] المصدر السابق، ص 1.

[3] المصدر السابق، ص 1.

أفراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شاكلتك لا غير) [1]

وعقب الشيخ العربي كذلك على من يشرط أن تضم جماعات المسلمين جميع أطياف المجتمع، وهذا ما ذكره الفقهاء، بقوله:

(ولو قال قائل إن جماعة المسلمين لا تتحقق ولا نعترف بها البتة، إلا إذا ضمت جميع الطوائف الجزائرية من سياسيين وموالين للحكومة وطلاب الرياسات بالعصبيات. لكان طلبه هذا محالا، وطلب المحال ممنوع قانونا، ومحرم شرعا،، ولكان طلبه هذا أيضا ذريعة لتعطيل جماعة المسلمين) [2]

ثم استدل لهذا بقوله: (وقد قال العلماء في تقرير قاعدة عامة حادثتنا هذه فرع من فروعها، وجزئية من جزئياتها : (إن رأي الأمة يكفي في تمثيله أهل الحل والعقد، قلوا أو كثروا . ولا يشترط في ذلك التمثيل حضور جميع الطوائف، وذكروا لذلك مسألة البيعة للخليفة، فإن من حضر من أفاضل الصحابة في كل من خلافة الخلفاء الأربعة انعقدت بهم الخلافة، ولزمت الأمة على اختلاف ديارها، ومذاهبها، وزعمائها، ومن خرج عن تلك البيعة لم يضرها في نظر الإسلام، والأمة الإسلامية)[3]

وهذا الدليل كما يصح أن تستعمله الجمعية يصح أن يستعمله غيرها، بل إن الطرق الصوفية في المناطق التي كانت تستحوذ عليها كانت تمارس هذا الأسلوب، فقد كان شيخ الطريق هو الأب الروحي والحاكم السياسي والقاضي لمن يرى أهليته للمشيخة، وعلى هذا الأساس استطاعت الطرق أن تحقق بعض نجاحاتها التي أشرنا إليها عند الحديث عن مشروعها الإصلاحي.

ولكني مع البحث الشديد، لم أجد طريقة صوفية تلغي من سواها، جل ما في الأمر أن كل شيخ يطلب من أتباعه الثقة فيه،

---

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص204.

[2]) جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

[3]) جريدة البصائر : جريدة البصائر، السلسة الثانية، عدد 230، الجمعة 11/رمضان/ 1372هـ الموافق 22/ماي/ 1953م، ص 1.

وأن يروا فيه أنـه أهـل للمشـيخة، بـل إنـه أولى من يمثلهـا، وهـذا شيء طبيعي، فلا يمكن للمريض أن يسـتفيد من علاج الطـبيب أو يستعمله وهو يشك فيه، أو يرى أن غيره أولى منه.

وما ذكره الشيخ العربي التبسي من هذه المقاييس طبقـه بكـل دقة الشـيخ البشـير الإبـراهيمي حين خـاطب بكـل عنجهيـة الـذين طلبـوا منـه المنـاظرة في مسـائل فرعيـة محـددة، وبكـل أدب[1]، فأجابهم بقوله: (إن المنـاظرة في الشـيء تسـتدعي نظـيرين، أي مثيلين في المعنى الذي يتناظران فيـه، والمنـاظرة المطلوبـة هنـا في مسائل علمية دينية لَابَسَها تاريخ المسلمين الطويل، وداخلتهـا عوائدهم واجتماعياتهم وأثر فيها هذا وذاك.. وإذا كنا نحن الطــرف الأول في هــذه القضــية، ونحن علمــاء نقــول في الــدين بِدَلِيلــهِ المعتـبر، ونتكلم في التـاريخ بعللـه وأسـبابه، ونقـول في العـادات بمناشئها وآثارها، ونرجع كل شيء إلى أصله، ونرد كـل حادثـة إلى سببها، ونربط بين الدليل ومدلوله والعلة ومعلولها، فإن الطرقيين بالطبع هم الطرف الثاني، وهل بلغ الطرقيون أن يكونـوا نظراءنـا بالعلم والدين والتاريخ والاجتماع؟)[2]

ثم وضح السر الذي جعله لا يعتبر هـؤلاء، فقـال: (نحن نعـرفهم

---

[1]) نص البشير الإبراهيمي على مضمون رسالتهم بطريقتـه التهكميـة، فقـال: تلقينـا صبيحة يوم الاثـنين الماضـي رسـالة مضـمونة متتوجـة باسـم جامعـة اتحـاد الطـرق الصوفية، ومنتعلة باسم كاتبها العام. وبين التاج والنعل سطور جميلـة الخـط (قريبـة الأسـلوب في أسـاليب التوثيـق من المحـاكم) ولكن تحتهـا من المعـاني مـا يضـحك الثكل، ففيها بعد البَسْـمَلة بـالقلم العـريض: تعـالوا إلى المنـاظرة. وفيهـا بعـد اسـم رئيس جمعية العلماء والسلام عليه ورحمة الله ما نصـه بـالحرف: "أمـا بعـد، فـإنكم تعلمون علم اليقين أن ما فكك الأمة المسلمة الجزائرية ومزق وحدتها حتى صـارت متنافرة متخالفة بعد أن كانت متقاربة متألفة هـو مـا أدخلتمـوه عليهـا من التشـكيك في أمر دينها اعتقادًا وعملًا، وأفتيتموها في كل مسـألة خلافيـة بمـا يعـد خروجًـا عن دائـرة الحـق والإنصـاف وولُوجًـا في ورطـة الشـذوذ والاعتسـاف، ولطالمـا انتظرنـا رجوعكم إلى الجادة، ولكن ذهب انتظارنا سدى. وبناءً على هذا فإننا نـدعوكم باسـم الدين إلى "المناظر" في المسائل الآتي ذكرها، ونرجوكم أن لا تتخلفـوا كمـا تخلفتم في المرة الأولى عن موعد المناظرة، ولكم الشكر".

هذا نص الديباجة، وبعـدها سـرد المسـائل، وهي إحـدى عشـرة مسـألة) انظـر: آثـار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 300)

حـق المعرفـة، ونعـرف أنهم جهلاء ويفخـرون بالجهـل، وأنصـاف أمـيين ويتبـاهون بالأميـة، إذ ليس العلم ولا القـراءة شـرطًا في طرقهم ولا في مشيختهم، ونعرف أنهم لا يملكون من أسلحة هـذا الميدان إلا العناد والإصرار على الباطل.. ولو كانوا علماء لمـا بلـغ النزاع بيننا وبينهم إلى هذا الحد، ولرَجَوْنا- إن لم يزَعْهم الدين- أن يزَعَهم العلم)[1]

بل إنه يجاوز الحد في التعالي عليهم عندما يخاطبهم قـائلا: (ولا يبلغ بهم الغرور أن يناظروا علماء من الطـراز الـذي تحتـوي عليـه جمعية العلماء، وإنما يعتمدون في هذه المنـاظرة على موجـودات آلية يسمونها علماء عوَّدوهـا أن تنطـق باسـمهم وتسـبح بحمـدهم وتحـامي عنهم بالباطـل.. ونحن لا نعـترف بـالعلم لهـذا الصـنف المتهـافت على أبـواب الزوايـا المتعيش من فضـلاتها، ويـأبى لنـا شرف العلم أن يكون هؤلاء المسـلوبو الإرادة الفاقـدو الاسـتقلال في العلم نظراءنـا في المنـاظرة، لأننـا بلَوْنَـاهم في العمـل فوجَدناهم جبناء، وبلَوْنَاهُم في العلم فوجَدناهم يحكمون الهوى ولا يحكِّمون الدليل، وبلَوْناهم في الكتابة فوجَدْنا أَمْثَلَهم يسمي البـدع المنكـرة عوائـد دينيـة.. أَمَـعَ هـؤلاء تكـون المنـاظرة؟ لا، وشـرف العلم) [2]

ثم اسقط هذه المناظرة بسبب عدم كفاءة من يناظره، فقـال: (فقد تحقق أن هـذه المنـاظرة الـتي دعـوا إليهـا سـاقطة سـقوط شرطها الأساسي مِن قِبَلهم وهو النظير) [3]

بل إن الشيخ الإبراهيمي يتعمـق إلى أعمـاق نيـاتهم حين يـذكر الـــدافع الحقيقي لهم من وراء المنـــاظرة: (ألا إنهم من إِفْكِهم ليتداهون ويختلون بهـذه الـدعوة إلى المنـاظرة، لنُجِيبَهم فنعـترف لهم بالكفـاءة، أو نسـكت عنهم فيقولـوا عنـا: أَحْجَمـوا وخـافوا، أو نُجيبَهم بالحقيقة (كمـا فعلنـا) فيقولـوا: إن جمعيـة العلمـاء تحتقـر العلماء ويتباكون ويشنعون) [4]

---

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 301)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

[4] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 302)

وما ذكره الشيخ الإبراهيمي يجعلنا نتساءل عن سر هذا الغـرور الـذي يمنـع من تعليم الجاهـل، إذا جـاء يبث مـا لديـه من قضـايا وشـبهات.. ولا بـأس أن يسـمي نفسـه عالمـا أو منـاظرا، لأن دور المربي هو رفع الشبهات، لا الترفع عليها.

ولكن هذا لم يحصل للأسف لأن المدرسة الفكريـة الـتي ينتمي إليها جعلته لا يرى إلا نفسه.

وأحب أن أذكر هنا حادثة شخصية ترتبـط بشـخص يعتـبر نفسـه من العلماء الكبار، وقد سمعته في محاضـرة يحـرض على إحـراق كتب الغزالي، فطلبت الكلام فلم يؤذن لي، وبعد انتهاء المحاضرة التقيت به، وقلت له بأدب: أريد أن أناقشك في مسألة ذكرتها في المحاضرة، فنظر إلي شزرا، وقال: من أنت حتى تناقشـني، لا بـد أن تصير في مستواي حتى تناقشني.

أقول هذا من باب الشـهادة للـه في الـوقت الـذي كـان الشـيخ محمد بلقايد رحمـه اللـه يحضـر إليـه الكثـير من أصـحاب الاتجـاه السلفي سـاخرين منـه، فلم يكن يقـابلهم إلا بـالأدب، ويجيب على أسئلتهم بكل احترام، وهكذا كل من عرفته من مشـايخ الصـوفية، والسر بسيط، وهو أن التصوف بالمفـاهيم العميقـة الـتي يملأ بهـا أصـحابه يجعـل صـدورهم أوسـع من أن تضـيق بـأي خلاف أو أي مخالف.

2 ــ الانتقائية في التعامل مع القضايا العلمية:

المنهج العلمي، وخاصـــة المنهج المقـــارن يســـتدعي البحث الشامل والموضوعي في كل ما يذكره المخالف، والرد عليـه بنـاء على ذلك، ونفس الشيء بالنسبة للمصادر التي يرجـع إليهـا، فـإن المنهج العلمي يقتضي عدم الانتقائية أو التقطيع فيها.

وهذا المنهج لم يقرره المحدثون فقط، بـل هـو منهج مقـرر من قديم في العالم الإسلامي، ونحب هنا أن نأخذ نموذجا من العلمـاء القــدامى لنقارنــه بمنهج علمــاء الجمعيــة، ونــرى مــدى تحقــق الموضوعية العلمية بين الطرفين:

وهذا النموذج هو أبو حامد الغزالي، والطـرف الـذي توجـه إليـه خلاف الغزالي ليس رجـل دين، وإنمـا هم الفلاسـفة، الـذين ينظـر إليهم الاتجاه السلفي نظرته الاستئصـالية، لكن الغـزالي لم يفعـل ذلك، بل إنه أمضى سنين محترمة من عمره يدرس الفلسفة قبـل أن يقدم على الحديث فيها تأييدا أو معارضة، وقد قـال معـبرا عن نفسه: (ثم إني ابتدأت، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم الفلسـفة

وعلمت يقيناً، أنه لا يقف على فساد نـوع من العلـوم، من لا يقـف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلـك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليـه صـاحب العلم من غـور وغائلـه، وإذا ذاك يمكن أن يكـون مـا يدعيـه من فساده حقّاً)[1]

هـذا هـو المنطلـق الـذي ينطلـق منـه كـل من يريـد أن ينـاقش قضية، فلا يمكن أن يناقشها وهو يجهل جميع أبعادهـا، يسـتوي في هذا التصوف والفلسفة واي شيء آخر، وهذا للأسف مـا لم تفعلـه الجمعية في مناقشاتها، فهي تتحدث عن (شـيخ الحلـول) من غـير أن تشرح للمجتمع مرادها بهذا وأدلتها عليها وكلام المخالف عنه.

ثم يـذكر الغـزالي الجهـد الـذي بذلـه في فهم الفلسـفة، وهـو جهدان تحصيلي وتـأملي، فقـال: (فـأطلعني اللـه سـبحانه وتعـالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة، على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم أزل أواظب على التفكر فيه بعد فهمـه قريبـاً من سـنة، أعـاوده وأردده وأتفقـد غوائلـه وأغـواره، حـتى اطّلعت على ما فيه من خداع وتلبيس، وتحقيق وتخييل، اطلاعاً لم أشك فيه) [2]

ثم ذكر بعد ذلك النتيجة التي وصل إليها، وهي تصنيف الفلسـفة إلى ما يمكن اعتباره وقبوله، وإلى ما ينبغي رفضه وطرحه، ثم لم يناقشهم بعد ذلك إلا فيما ينبغي طرحه.

هذا هو المنهج الذي رسمه الغزالي، وعلى خطاه، بل قبله كـان العلماء يناقش بعضهم بعضا، بل إنهم في مناقشـاتهم يـذكرون مـا يقوله المخالف حرفا حرفا، ثم يردون عليه حرفا حرفا.

ولكن الجمعية – للأسف – لم تفعـل هـذا لأنهـا انطلقت - مثلمـا ذكرنا في الخاصـية السـابقة – من الخـوف من تسـرب أي شـبهة للقارئ إن هي ذكرت أدلة الصـوفية، وخاصـة مـا يـذكره الصـوفية من العلماء الذين تتبناهم الجمعية، بل تعتـبرهم مشـايخ لهـا كـابن تيمية وابن القيم والشاطبي ومحمد عبده وغيرهم كما سنرى.

وسنذكر هنا بعض الأمثلة على هذه الانتقائية التي كانت الجمعية تمارسها لتمرر ما تريد تمريره فقط.

---

[1] الغزالي، المنقذ من الضلال، ص13.

[2] المنقذ من الضلال، ص14.

فقد ورد في بعض فتاوى الجمعية جواز اعتبار الأعراف في الإعلان بالبوق على موعد الاجتماع، باعتباره كان عرفا في منطقة الزواوة، وقد أقرته الجمعية وعبرت عن إقراره لذلك بقولها: (فالشارع أحال في الأمور التي تتغير مصلحتها وتتبدل بتغير الأزمان والأماكن والأحوال على العرف، وذلك لكون عرف الناس العام أو الغالب يحقق المصلحة المرجوة من هذه الأحكام)[1]

وهذا الموقف عجيب جدا في جانب موقفها من الأذكار الجماعية التي كان يمارسها الصوفية في بعض المناطق كإعلان عن الوفاة أو نحوها، فقد اعتبروا هذا من أخطر أنواع البدع وأنكروه كما سنرى في الباب الرابع.

ونحسب على فتاواهم تلك أنه لو كان العرف في الزواوة الإعلان بالذكر بدل البوق لاعتبروه بدعة وأفتوا بتحريمه، بل هذا حقيقة ما كانوا يعتقدونه، وقد ذكر الشيخ ابن عليوة كيف أنكر الإصلاحيون على أعراف جزائرية مرتبطة بالذكر، فقال – مخاطبا من زاره من بعض علماء الجمعية-: (و بمناسبة ما دار بيننا من الحديث، في تلك السويعات التي رأيتكم فيها موغر الصدر على إخوانكم العلاويين، حسبما لاح لي في ذلك الحين، لا لذنب ارتكبوه سوى أنهم مولعون بإجراء الاسم المفرد على ألسنتهم، وهو قولهم: (الله). فظهر لكم أن ذلك مما يستحق عليه العتاب، أو نقول العقاب، لأنكم قلتم إنهم يلهجون بذكر ذلك الاسم بمناسبة أو غير مناسبة، سواء عليهم في الأزقة، أو غيرها من الأماكن التي لا تليق للذكر، حتى أن أحدهم إذا طرق الباب يقول: (الله)، وإذا ناداه إنسان يقول: (الله)، وإذا قام يقول: (الله)، وإذا جلس يقول: (الله)، إلى غير ذلك مما جرى به الحديث)[2]

ومن النماذج التي تصلح لهذا ما يذكره الفقهاء حول اعتبار النيات في الأفعال، بل ما عبر عنه رسول الله ﷺ حين قال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) [3]

فقد وقفت الجمعية موقفا سلبيا مما يقوم به رجال الطرق

---

[1] البصائر، ع 173: /07 جويلية 1939.

[2] ابن عليوة، القول المعتمد في مشروعية الذكر بالاسم المفرد ص6.

[3] صحيح البخاري (1/ 2)

الصوفية أو العوام مما تسميه (الـزردة) مـع أن أصـحابها يـذكرون اسـم اللـه على الذبيحـة، ويـأتي للطعـام الفقـراء والمسـاكين، والمقيمون لها يخبرون عن أنفسهم أنهم يفعلونها من باب التكافل والتعاون والتصالح بين الناس، لكن الجمعيـة لم تكن تصـدقهم في هذه النيـات، وقـد عـبر عن مقاصـدهم الشـيخ الميلي فقـال: (قـد يقـول الجامـدون والمغرضـون: إنـا نحكم بـالظواهر واللـه يتـولى السرائر، وقد ظهر من حال الذابح أنـه ذكـر اسـم اللـه، فلا نبحث عن نيته الباطنة! فنقول لهم: أولا: إن المفتي لا يقتصر دائمـا على الظواهر؛ ففي الأيمان والطلاق مسائل تنبني على النيـة والقصـد، ويختلف حكمها بـاختلاف النيـة مـع اتحـاد اللفـظ، بـل تقـدم قريبـا الاستناد إلى النية في حكم الذبائح عن علي وغيره.. وثانيا: إن من السـرائر مـا تحـف بـه قـرائن تجعـل الحكم للنيـة ولا تقبـل معـه الظواهر، وذبائح الزردة من هذا القبيل؛ فإن كل من خالط العامـة يجزم بأن قصدهم بها التقرب من صاحب المزار)[1]

ولسـنا نـدري كيـف عـرف هـذه النيـة، ثم مـا الضـرر فيهـا، إن اعتقـدوا صـلاحه، فهم يحيـون صـلاحه لا ذاتـه، وكـأنهم يقولـون للمجتمع: انظروا لحرمة الصالح حيا وميتا.

لكن الجمعية للأسف في موقف آخر تقبـل النيـات – مـع كونهـا مجهولة- وتعتبرها، بل تلتمس الأعذار لأصحابها، ومع من؟ مـع من سب الدين، بل سب الله ورسوله، مـع أن العلمـاء مجمعـون على كفره، في نفس الـوقت الـذي تشـتد فيـه على من ذكـر اللـه في جماعة أو التزم أورادا يـذكر اللـه بهـا صـباح مسـاء, فقـد اعتـذروا للأول، وتشددوا مع الثاني، ثم بعـد ذلـك نتسـاءل عن السـر الـذي جعل الجزائريين من أكثر أمم الأرض سبا لله ورسوله.

وكيـف لا يكـون الأمـر كـذلك، وقـد ابتليت بمن يبـدع الـذاكر ويكفره، ويعتذر للساب ويدافع عنه.

وحتى لا يكون حـديثنا دعـوى سـننقل الفتـوى بحروفهـا، ونعقب عليهـا بـالفتوى المرتبطـة بالأذكـار الـتي تحـرص عليهـا الطـرق الصوفية.

كان السؤال الموجه للشيخ العربي التبسي باعتباره رئيس لجنة

---

[1]) رسالة الشرك ومظاهره (ص: 380)

الفتوى في الجمعية هو:(ما قول سادتنا العلماء فيمن يسب الـدين من رعاع المسلمين وسفهائهم ؟ هل ذلك السب يخرج به السـاب من الملة ويعتبر به مرتدا داخلا فيمن تشـملهم آيـة {لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65] ؟)[1]

فأجابه الشيخ العربي بأن هـذا الشـخص الـذي ســـب الـدين لا يخلو حاله من أحد احتمالين[2]:

الاحتمال الأول أن يكون مسـتعملا للفظه في معنـاه اللغـوي الشـرعي عالمـا بجريمتـه قاصـدا لسـب الـدين، فاهمـا أنـه سـب الإسلام، أو من جـاء بـه، أو من يعـد سـبه ردة عن الإسـلام. وهـذا الشـخص كـافر داخـل في قولـه تعـالى: {لَئِنْ أَشْـرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر: 65] مستهزئ بالله تعالى وآياته وكفره فوق كفـر من عبد غير الله، لأنه ممن قال اللـه فيـه: {إِنَّ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَأَعَـدَّ لَهُمْ عَـذَابًا مُهِينًـا} [الأحزاب: 57]

والاحتمال الثاني أن يكون هذا الساب ناقلا كلامه من معنـاه اللغوي إلى معنى جديـد متعـارف عنـد من كـان على شـاكلته نقلا ينسخ المعنى اللغوي، وذلك بطرو استعمال جديد عرفي على هـذا اللفظ، كما يطرأ العـرف على اللغـة في كثـير من الألفـاظ طـروا عاما عند الناس كلهم، أو عند فريق منهم.

وبعد أن ميع هذه القضية الخطيرة التي لم يقدم لها بأي مقدمة تبين خطورتهـا، راح يـدافع عن الاحتمـال الثـاني، فيقـول: (.. فـإذا تصورنا هذا الاحتمال، أمكن أن نقـول: إن هـذا السـاب للـدين قـد نقل لفظ الدين من معناه الشرعي اللغوي إلى إهانة من يخاصمه ويتشاجر معه، واستعمل كلامـه البشـع القـبيح في سـب الشـخص الذي تنازع معه، وذلك هو مراده وذلك ما يفهمه خصمه أيضا، وقد يجيب خصمه أيضا منتقما منه بذلك اللفظ نفسه، مريدا هو كـذلك

---

[1]) نقلا عن: منارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص:221.

[2]) المصدر السابق، ص:221.

سب خصمه، وكلاهما لا يفهم ولا يريد بسببه إلا خصمه)[1]

ثم استدل لهذا بالعرف، في مسألة قد بت فيها القرآن وبتت فيها السنة، وليس فيها مجال للخلاف، لكنها عند الشيخ العربي مسألة بسيطة وفرعية، بل يمكن أن يقصى فيها القرآن ليستدل لها بالعرف، قال مقررا لوجه الاستدلال بالعرف: (والدليل على هذا العرف، وهذا النقل أن المقام الذي تستعمل فيه هذه الألفاظ هو مقام كفر وردة، وإذا علمنا من مقاصد المتسابين أنهما لم يريدا الكفر، والردة لم يجز لنا أن نحكم عليهما بالردة والكفر، ذلك أن الأعمال بالنيات. وهذا السب عمل لساني، ليس من مقصد أهله سب الإسلام، أو من يعد سبه ردة)[2]

والشيخ العربي المصلح يذكر أن مثل هذا منتشر في الجزائر بكثرة، وبدل أن يهتم هو وأعضاء الجمعية بالرد عليه باعتباره يمثل جماعة المسلمين واجبة الطاعة نراه يعتذر بالكثرة على ضرورة اللين، ولسنا ندري لم لم يعتذر بكثرة الطرق الصوفية في الجزائر أو كثرة أتباعها على ضرورة اللين معهم، يقول الشيخ العربي: (هذا ما فهمنا من هذه الحادثة الكثيرة الوقوع، التي لو أجرينا الحكم فيها على ظاهر اللفظ، غاضين النظر عن مقاصد الناس التي يجوز غض النظر عنها في الأحكام الشرعية، لحكمنا بردة ما لا يقل عن ثلث الأمة في الشمال الإفريقي. ونحن مع قولنا بعدم ردة أهل الاحتمال الثاني نقول أن عملهم هذا معدود من منكر القول ومن وفحشه، ومن الأقوال التي تحتمل الكفر والتفسيق، وما كان كذلك كان حراما بإجماع المسلمين) [3]

ثم ختم كلامه بهذه التوجيهات الباردة، التي لا تحمل حرارة الألم على ذلك الواقع الجزائري الخطير الذي يتجرأ فيه العبد على سب ربه، قال:(فعلى العلماء المدرسين والواعظين والداعين إلى الله أن يقاوموا هذه الشناعات بكل ما أعطاهم الله من قوة الحجة في باب الترغيب والترهيب، وإن هذا لمن أوكد الواجبات

---

[1] المصدر السابق، ص:222.

[2] المصدر السابق، ص:222.

[3] المصدر السابق، ص:222.

عليهم لأنه حماية للدين وعلماء الدين هم حماته) [1]

هذا نموذج التسامح واللين عند الجمعية، والذي بلغ حدوده في مقابله التشدد في أعلى حدوده مع الذاكرين لله بحجة أنهم مبتدعة، والمبتدع أحيانا أخطر من الكافر، يقول الشيخ العربي في موقفه من الأوضاع الطرقية والتي لم تكن تعني سوى الجلوس في الحلقات للاستغفار أو للتهليل أو للصلاة على رسول الله ﷺ أو لقراءة القرآن ونحوها، فالشيخ –كالجمعية جميعا- اعتبروا هذا من أنكر المنكر، وأن مهمته الإصلاحية لا تتمثل في الرد على من يسب الله، وإنما في الرد على من يذكر الله، يقول الشيخ العربي في هذا: (من البين لجميع من عرف الطرائق التي غضت بها الجزائر؛ أنها اشتركت في أمور وامتازت كل واحدة بخواص تجعلها منفصلة عن البقية تستحق بها اسم: طريقة فلان. وقد وضعوا طرائقهم كالشرع الموضوع المتبع، وبنوا هذه الأذكار على أوضاع وهيآت وألحقوا بها أدعية أحدثها من أسس الطريقة.. ومن الشائع الذائع: أن هذه الأذكار يعطيها رؤساء الطرائق أو من يقيمونه ويسمى بأخذ الورد أو رفع السبحة ويعينون أعدادها وصيغها وأوقاتها وما يرتئونه من آدابها. ونحن نعرض عملهم هذا ونقيسه بالهدي النبوي وعمل السلف فذلك الدين، وما لم يعرف في هذه الأيام بعموم أو خصوص فليس من الدين. وما دام ليس من الدين فإنكاره قربة والاعتراف به بدعة)[2]

بالإضافة إلى هذا، فالشيخ التبسي يمنع المأمومين من رفع الأيدي للدعاء والإمام يخطب معللا ذلك بأنه انفضاض من حول الإمام وإعراض عن الإنصات الواجب وتضييع للخطبة وتفويت لحكمتها والغرض منها[3] مع أنه قد ورد في رفع الأيدي عند الدعاء

---

[1]) المصدر السابق، ص:222.

[2]) العربي التبسي، بدعة الطرائق في الإسلام، ص10.

[3]) نص فتوى الشيخ العربي التبسي في هذا هي قوله: (أما رفع الأيدي في تلك الساعة للدعاء، فأما للمأموم فممنوع، لأنه نوع من الانفضاض حول الإمام، وإعراض عن الإنصات الواجب، وترك له وحده يخطب، وكل ذلك تضييع للخطبة، وتفويت لحكمتها، والغرض منها .. وأما رفع الإمام يديه للدعاء في خطبة الجمعة فقد اختلف

مطلقا الأحاديث المتواترة، بل اتفقت عليه الأمة جميعا، بل إنه من دلائل انفعال المأمومين للإمام، فتأمينهم ورفعهم الأيدي دليل على مدى تجاوبهم معه.

ولكن القصد في هذا واضح، وهو مخالفة الآخر، فقد رأوا حرص الصوفية عند الدعاء على رفع الأيدي – بناء على ما صح عندهم من أحاديث في هذا[1] - فراحوا يقاومونه حتى حدثت الفتن في المساجد أثناء الدعاء ففريق يرفع يديه، وفريق لا يرفعها، وكل طرف يرمي الآخر بالبدعة والضلال.

ثم لسنا ندري ما العلاقة بين الإنصات للخطبة ورفع الأيدي، أم أن الأيدي إذا رفعت سدت الآذان؟

3 ــ ترجيح الفتوى على الحوار العلمي:

وهذا من الخصائص التي حالت بين الجمعية وبين الكتابة العلمية المفصلة المتضمنة للرأي والرأي الآخر، ذلك أن الفتوى في العادة توجه للعوام، ولا تقتضي ذكر الدليل بتفصيل، ولا تقتضي نقل الخلاف، ولا ذكر أدلة المخالف.

ولعل الذي دعا الجمعية إلى هذا هو ما ذكرناه سابقا، وهو ما يعتمده المنهج السلفي عموما، من اعتبار ذكر الخلاف بتفصيل قد يكون نوعا من إشهار المبتدع والدعوة له بالمجان، والجمعية لا تريد هذا، ولهذا تمارس كل أنواع التشدد حتى الحسنات تبرزها

الفقهاء في جوازه وكراهته، وليس مع المجيزين غير أقيسة لا معنى لها (نشرت هذه الفتوى في جريدة البصائر، السلسلة الأولى، السنة الثالثة، عدد 138، الجمعة 04/11/1938م الموافق 11/ رمضان/1357هـ، ص 2، نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص:232)

[1]) من آداب الدعاء العظيمة التي نص عليها الفقهاء رفعَ اليدين في الدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لثبوت ذلك عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة عدَّها بعضُ العلماء في جملة ما تواتر فيه النقلُ عن النبيِّ ﷺ، قال السيوطي في شرحه لتقريب الإمام النووي ممثِّلا لِما تواتر معناه عن النبي ﷺ: (فقد ورد عنه ﷺ نحوُ مائة حديث فيه رفعُ يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء، لكنها في قضايا مختلفة، فكلُّ قضية منها لَم تتواتر، والقدر المشترَك فيه هو الرفعُ عند الدعاء تواتَر باعتبار المجموع) (عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، (2/ 180)

بصورة السيئات حتى تتمكن من استئصال الآخر استئصـالا جـذريا، وقد ذكرنا الكثير من الشواهد على هذا سابقا.

ولأجل هذا نرى الجمعية اهتمت بالفتوى، فأسست لها مجلسا[1]، ولكنها لم تهتم بالنواحي العلمية، ولذلك لم تؤسس لها المجلس.

وهذا الخطأ المنهجي في تصورنا هو الذي جعل الجمعية ضعيفة في إنتاجها العلمي، حتى مع كونهـا اهتمت ببنـاء المـدارس، وعلى أسس رفيعة من العمران، ولكنها لم تهتم بوضع المقررات مـع أن المقررات أهم بكثير من المدارس، بل كانت تعتمـد في مقرراتهـا على كتب بسيطة تقليدية.

والأخطر من ذلك – وهو لا يرتبط بموضـوعنا – هـو أن الجمعيـة لم تؤسس للدولة الجزائريـة الإسـلامية، فلا هي كتبت في النظـام السياسي أو النظـام الاقتصـادي أو غيرهـا من النظم بلغـة علميـة عصرية، بحيث يتسنى للجزائريين بعد الاستقلال أن يجدوا أمـامهم المشـروع الإسـلامي كـاملا لتنفيـذه، أو ليكـون على الأقـل حجـة عليهم.

وفوق ذلك كله أنها - لغرامها باللغة العربية - جعلت كل أهـداف التكوين أن تخـرج جيلا من الـذين يحسـنون اسـتعمال المحسـنات البديعيـة، وجـذب انتبـاه المسـتمع للألفـاظ، وهـذا واضـح جـدا في تلاميـذها الــذين وكلت إليهم أزمــة التــدريس في المســاجد وفي

---

[1]) قررت الجمعية في اجتماعها السادس العـام المنعقـد ابتـداء من: 1937/09/24 والذي دام ثلاثة أيام تقسيم المجلس الإداري الى لجان أربع والتي منها لجنة الإفتاء.
وكانت لجة الفتوى تضم الأعضاء التالية أسماؤهم:
1- العربي التبسي: بصفته رئيس اللجنة. 3- البشير الإبراهيمي: عضو مستشار.
2- مبارك الميلى: عضو مستشار. 4- على الخيار: عضو مستشار.
وكان الاقتراح بتشـكيل اللجنـة للإفتـاء في المجلس العـام للجمعـة المنعقـد في 06 شوال 1354 الموافق ل01 جانفي 1936، وكانت إدارة البصـائر قـد عهـدت بصـفة مؤقتة إلى لجنة تأتمنها على الفتوى في دين الله برئاسـة الشـيخ أبي يعلى الـزواوي إلى حين تعيين جمعية العلماء من ناحيتها لجنة إفتاء بصفة رسمية باتة.
أما بعد استشهاد الشيخ التبسي فقد انتقلت رئاسة لجنة الإفتـاء إلى رئيس الجمعيـة الشيخ البشير الإبراهيمي الذي وسع من دائرة تلك اللجنة بزيادة أعضائها، ويتمثلـون في كل من: أحمد سحنون - مصـطفى الفخـار - عبـد اللطيـف القنطـري - الفضـيل اسكندر - نعيم النعيمي)

القنـوات الإعلاميـة، والـذين كـان يسـتفاد من كلامهم أكـثر ممـا يستفاد من علمهم.

وهذا لا يعـني أن أعضـاء الجمعيـة، وخاصـة الكبـار منهم ليسـوا علماء، فهم يشهدون لأنفسهم بأنهم علماء، بل علمـاء فحـول قـل نظيرهم في التاريخ الإسلامي، فالإبراهيمي يقول عن ابن بـاديس: (وعبد الحميد بن باديس باني النهضـة وإمامهـا، ومـدرب جيوشـها، عـالم ديـني ولكنـه ليس كعلمـاء الـدين الـذين عـرفهم التـاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غـيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقـل اللمـاح، والفهم الغواص على دقائق القرآن، وأسرار التشـريع الإسـلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، ومناشئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العلميات والعمليات من فقـه الإسـلام وأطـوار تاريخه، والإلمام الكـافي بمعـارف العصـر مـع التميـيز بين ضـارها ونافعها)[1]

والعـربي التبسي يقـول عن الإبـراهيمي: (المواقـف العظيمـة البـاهرة لرئيسـنا الشـيخ (محمـد البشـير الإبـراهيمي) وبخطبـه ودروسه ومحاضراته، وأعمالـه الجليلـة العاليـة. فليعلم العـالم في الشرق والغرب أن الإبراهيمي ليس فلتة من فلتات الطبيعة عندنا وليستعد كل واحد منا لأن يقف مواقف الإبراهيمي، وأن يكـون لنـا عمله ونبوغه وفصاحته. فالعار كل العـار أن لا يكـون لنـا إلا بشـير واحد. وليعلم هو وليعلم الناس أن له من يقف حواليـه لشـد أزره، ولـه من يقـف وراءه، ولـه من يسـتعد لحمـل الرايـة في ميـادين الإسلام والعربية والإصلاح)[2]

والإبراهيمي يقول عن التبسي: (والأسـتاذ التبسي عـالم عريـق النسـبة في الإصـلاح، بعيـد الغـور في التفكـير، سـديد النظـر في الحكم على الأشياء، عزوف الهمّة عن المظاهر والسفاسف)[3]

وهكـذا، فكلهم يشـهد لنفسـه ولأخيـه بالاقتـدار العلمي، ولكنـا

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (5/ 137)

[2] جريدة البصائر، السلسلة الثانية، السنة الخامسة، عـدد 204،ـ 20/ـ 10/1952م الموافق 01/صفر/1372هـ، ص2 .

[3] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (2/ 272)

عندما نبحث عن دلائل ذلك الاقتدار لا نجـد إلا مقـالات فيهـا بلاغـة وبيان عريـق، ولكن لا نجـد أبـدا أي تحقيـق علمي، أو إنتـاج علمي يرقى إلى المراتب التي يمكن اعتبارها علميا.

وسـر ذلـك بسـيط، وقـد اسـتفدته من أسـتاذي الـدكتور أحمـد عيساوي، فهو يذكر كل حين حقيقة مهمة، وهي أنه يسـتحيل على من يتبـنى المنهج السـلفي، وخاصـة الوهـابي أن يتعلم أو يصـير عالما، وذلك لأنه يسد أذنه عن الآخر، ومن سـد أذنـه يسـتحيل أن يتعلم.

بالإضافة إلى هذا فـإن المنهج السـلفي يقصـر دارسـته على مـا قاله شاعرهم[1]:

العلم قـال اللـه قـال رسـولُه قـــال الصـــحابةُ ليس بالتمويه

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرســـول وبين رأى فقيه

كلا ولا جحْــد الصــفات ونفيها حــذرا من التمثيــل والتشــبيه

وهو لـذلك لا يـدرس الفلسـفة، ولا العلـوم التجريبيـة ولا أشـياء كثيرة، ولهذا، فإنا لو قارنا إنتاج جمعية العلماء العلمي مـع شـخص واحد من الطرق الصوفية المتهم بالأمية لوجدنا فارقا كبيرا.

نعم نجد في كتب ابن عليوة ركاكة لغوية أحيانا، ولكنا نجد معهـا منهجـا علميـا، وللأسـف حجبت الجمعيـة بالركاكـة اللغويـة عن المعاني العلمية, حتى أن الشيخ العربي التبسي يقـول عن كتابتـه وكتابة غيره من أصحاب الطريقـة العلاويـة: (ولا يفوتـني أن أذكـر إلى كتاب العليويين طالبـا منهم أن يعرضـوا كتابـاتهم على علمـاء المعاجم اللغوية والصناعة النحوية، فإنه أصاب اللغة العربيـة منهم ما لو علمـه سـيبويه في قـبره والأصـمعي في مضـجعه لقامـا من تحت التراب ورفعا قضية في إحدى محـاكم الجنايـات على هـؤلاء الكتاب الذين أفسـدوا لغة العرب والإسلام)[2]

---

[1] محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبـو عبـد اللـه (ابن قيم الجوزية)، الفوائـد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ، 1393 – 1973، ص 105.

[2] العربي بن بلقاسم التبسي، لقد سمعنا باطـلك فأين حقـك؟ جريــدة الشـهاب، السـنة الثالثة، عــدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافق 06/ جمـادى الآخـرة/ 1346هــ، ص 13 ،نقلا عن: منـارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العـربي بن

والـذي رد عليـه الشـيخ ابن عليـوة بقولـه – متحـدثا عن منهج الصوفية-: (.. بل لهم ذلك لكونهم لا يقفـون عنـد ظـاهر الألفـاظ، وإنّما ينظرون إلى المعاني الدالّـة على المـراد، ولا يلتفتـون للحن ولا للإعراب، بل يأخذون المعاني من حيث وجدوها، فهم نـاظرون لإشارة الأرواح، غافلون عما يتلفظ به اللسان، تراهم مع اللـه في كلّ حال وشأن، مع انّه كلّ يوم هـو في شـأن، مـا اتخـذ اللـه وليّـا جاهلا إلاّ علّمه، وابتداء التعليم بـه ثمّ بأحكامـه، وأمّـا بقيّـة العلـوم فليسـت شـرطا في صـحّة الولايـة وإنّمـا هي شـرط كمـال وذلـك كالنحو والصرف، والمعاني والبيان، وعلم اللغة، حيث من لم تغنـه معرفة الله، فذلك هو الشقي)[1]

وينقل عن الفقيـه (ميمـون) قولـه: (أقبح كـلّ قـبيح أن يتعلّم الإنسان نحو اللسان ويعلّمه، ولا يتعلّم نحو القلب ويعلّمه، مـع أنّـه محـلّ نظـر الـربّ، فـإذا كـان نحـو اللسـان مـع نحـو الجنـان كـان صـاحبهما في أمـان، ولا يخشـى عليـه الخسـارة والخـذلان، يـوم وقوفه بين يدي الرحمن، لأنّ الله تبارك وتعالى لا يثيب العباد على إعرابهم، وإنّما يثيبهم على قلوبهم)[2]

4 ــ عدم المناقشة العلمية الهادفة:

لاشك أن من أول شروط المناقشة العلمية الهادفـة مـا يسـميه العلماء (تحرير النزاع)، أو البحث في مواطن الخلاف، وعدم قصر الاهتمام بالنواحي الشكلية أو التعبيرية التي قد تكـون صـدرت من الطرف الآخر، وعـدم الاهتمـام – كـذلك - ببعض الأخطـاء الجزئيـة التي لا تمس صميم الموضوع.

وعكسها أنواع كثـيرة من المناقشـات تضـيع جهـدها في قضـايا شكلية أو فرعية تصرف الذهن عن البحث عن القضـايا الأساسـية

بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص171.

[1]) ابن عليوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصـوفية، ص24.

[2]) ابن عليوة، المنح القدوسـية في شـرح المرشـد المعين على الطريقـة الصـوفية، ص20.

التي طرح البحث فيها.

وبنـاء على هـذا، وعنـد دراسـة الـتراث العلمي القليـل الموجـه للطرق الصوفية، الذي نشرته الجمعية نجـد أن الكثـير منـه يضـيع في مناقشات لا علاقة لها بالموضوع، أو لا تخدم الموضوع.

وكمثال على ذلك مقال علمي كتبه الشيخ العربي التبسي تحت عنوان (قد سمعنا باطـلك فأين حقك؟)[1]، وهو مقال قوي جدا من جهـة اللغـة، بـل يصـلح أن يكـون نموذجـا لـدروس الإنشـاء في المرحلـة الإعداديـة أو الثانويـة، ولكنـه لا يصـلح أن يكـون نموذجـا لمقال علمي هادف.

وقد بدأ الشـيخ مقالـه باسـتهلال يـذكر فيـه مـا كتبـه المخـالف، فقال: (طلع علينا كاتب في جريدة (البـلاغ) عدد (44)[2] يضرب أصدريه، وينفخ مذرويه، يقول: ها أنا ذا فاعرفوني، واسـتمعوا لمـا جئت به. فأصخنا نستمع له، فإذا بـه محمـوم يهـذي، أو ممسـوس يتخبط. ولقد كان في مستودع المعقـول والمنقـول أن لا نعبـأ بـه، ولا نقيم له وزنا، لأنه أهون على الله وعلى عباده مادام يهرف بما لا يعرف، ولكننا أصبحنا في زمان ينعق فيه الناعق بما شاء، فسيجد أنصارا ولا بد. وفي قطر يعد كل لاغط فيه صـاحب حكمـة تقرع له العصى. فوجب علي حفظا لعقول الجمـاهير من الـترامي في متاهات الغلط أن نصـدع إلى الـرأي العـام، وهـو الرشـيد في حكمه بما يفهم حقيقة هذه المهزلة، التي سـودتها يد العارف بالله

---

[1]) نشر هذا المقال في جريدة الشـهاب : جريـدة الشـهاب، السـنة الثالثـة، عـدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافق 06/ جمادى الآخرة/1346هـ، ص 10 و11 و12 و13.

[2]) جريدة البلاغ الصادرة عن الزاويـة العليويـة بمسـتغانم : جريـدة البلاغ، عـدد 44، 19/جمادى أولى/1346هـ الموافق 16/11/1927م.

- كما يسمون أنفسهم - (قـدور بن أحمـد المجـاجي)[1]، كفى اللـه المؤمنين شره)[2]

وأنا أتحدى من قـرأ كـل هـذه التعبـيرات القويـة، وهـذه البلاغـة الجزلة أن يعرف ما الذي حصل، لأنه لا يسـمع إلا صـراخا لا يـدري سببه ولا غايته.

وهـذا مخـالف للمنهج العلمي، فـالمنهج العلمي في مثـل هـذه الأحوال لا ينظر إلا حـزازات النفـوس، ولا مـا يضـيع وقت القـارئ بقراءة ما تفرزه الأحقاد، وإنما يقرأ الحقائق مجردة، وبلغة مؤدبة.

كان يكفيه بدل كل تلـك الجمـل الطويلـة أن يقتصـر على هـذه الجملة: (كتب قدور بن أحمـد المجـاجي في جريـدة البلاغ عـدد (44) يقول:..)

وإذا إن أراد أن يســتعمل اللغــة الدبلوماســية الــتي كــانت تستعملها الجمعية مع فرنسـا أن يقـول: (كتب المحـترم قـدور بن أحمـد المجـاجي في جريـدة البلاغ عـدد (44) بعض الأمـور الـتي تستدعي المناقشة، وهي: ..)

لكن الشـيخ العـربي لم يـرض تينـك العبـارتين العلميـتين الـتي اقترحناهما، بل كتب ما يزيد طينة الخلاف بلة، ولم يكفه ذلك، بـل

---

[1] قدور بن أحمد المجاجي : (1894-1951م): ولد في قرية مجاجـة بـالقرب من مدينة مستغانم، وتلقى تعليما طرقيا أولا في زاويا القادرية بمدينة معسكر، ثم تحول منها إلى زاوية سيدي أحمـد بن عليـوة المسـتغانمي بمسـتغانم، وصـارمن بين أهم شيوخها، ومن أشهر كتاب جريدة البلاغ العليوي. كتب العديد من المقـالات الطرقيـة التي يرد فيهـا على شـيوخ الجمعيـة، وعلى رأسـهم الشـيخ عبـد الحميـد بن بـاديس والعـربي التبسي ومبـارك الميلي.. واتسـم سـلوكه الطـرقي الاسـتغلالي في خدمـة الزاويـة وشـيخه أحمـد بن عليـوة المسـتغانمي، والانتفـاع من كتاباتـه الصـحفية من جريدة البلاغ الجزائري. انظر : منشورات المكتبة الدينية للطريقة الصـوفية العلاويـة بمستغانم، ص 5، بتصرف، نقلا عن نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثار الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي،، ص 168.

[2] العربي التبسي، قد سمعنا باطـلك فأين حقك؟، جريـدة الشهاب، السـنة الثالثة، عــدد 121، الخميس 01/12/1927م الموافـق 06/ جمـادى الآخـرة/1346هــ، ص 10، نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي،، ص267.

أضاف إليها يقول واصفا هذا المجاجي الذي أثـار غضـبه[1]: (.. غلت مراجله، لأني - كما يعلم القراء - من أمد كتبت في مجلة الشهاب فاتحة مقالات حـالت دون نشـرها ظـروف تحت عنـوان (الخلـوة العليويــة هــل هي من الإســلام ؟)، وكنت أظن أن في الرهــط العليـوي بقيـة من حكمـة، وفضـلا من تـدبير. فـإذا رأوا في كلامي جـورا عن الحـق، أو اعوجاجـا عن الهـدى قومـوني بعلم وصـدق وأدب، لأن هذه السنة سنة من يرغب حقا، وهـذه الطريقـة أدخـل في باب النصيحة والوصـول إلى المفاهمـة. ولكن اللـه تعـالى أبى أن تكون هذه الطائفة العليوية أهلا لمثل هذا فما عدوا قـدرهم ولا تجاوزوا الفهم)[2]

وهكذا يمضي المقال لا يذكر أدلة المخالف ليقبلهـا أو ليرفضـها أو ليبين محلها من العلم، وإنما يضيع كـل الجهـد في الحـديث عن شخص المخالف أو عن الطائفة التي ينتمي إليها.

ولا نعلم من خلال المقـال الطويـل إلا شـيئا واحـدا هـو أن هـذا المجاجي كتب مقالا يرد على الشيخ العـربي عارضـه بـه، وعنونـه (الخلـوة في الإسـلام)، وقد عـبر عن هـذه الفائـدة وسـط كم من

---

[1]) يبدو الشيخ العربي التبسي من خلال ما كتب سريع الغضب، وقد ذكرنا ما حصــل بينه وبين مالك بن نبي بسبب هذا، ونضيف إليه هنا ما ذكره الدكتور أحمـد عيسـاوي من أنه زار شيوخ جمعية العلماء مدينة وادي سـوف سـنة 1937م بمناسـبة تدشـين مسجد ومدرسة البلدة، وكان الوفد مكونا من الشيوخ عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي والعربي التبسي، وابتدأ الحفل بآيات بينات من القرآن الكريم، ثم بالكلمات الترحيبية، ثم بكلمة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ثم بكلمة الشيخ البشـير الإبراهيمي، ولما حان وقت كلمة الشيخ العربي التبسي قـام الجمهـور الحاضـر وهمّ بالانصراف، فـانزعج الشـيخ العـربي، ثم خـاطبهم بحـدة، : (أنـا أعلم يـا أهـل وادي سوف أنكم تسمعون لكلام تجاركم عني شيئا من الأباطيل، ولكنـني أقـول لكم : أنـا أشرف منكم نسبا ومن عبد الحميد هذا - وأشار إلى الشيخ عبد الحميـد بن بـاديبس في المنصة -، فعلاقة والدي بالاستعمار كلها علاقة قتل وقمع وتعـذيب، ولكن علاقـة والده كما تعرفون تعاون واتفاق) (انظـر: منـارات من شـهاب البصـائر (آثـار الشـيخ العربي بن بلقاسم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص495)

[2]) نقلا عن: منارات من شهاب البصائر (آثـار الشـيخ العـربي بن بلقاسـم التبسي) للدكتور أحمد عيساوي، ص168.

الألفاظ كان يمكنه أن يستغني عنها، فقد قال:(كتبنا حقا وذدنا عن الدين، ودافعنا عن حياض الصوفية رضي الله عنهم، فكتب حضرة العارف بالله كما يقولون بجهل لم ير الناس مثله، وقال بهتانا آثما صاحبه، ودافع عن شهوات إبليس، كتبنا كما علمت بالعنوان المار أعلاه مقالا، فجاء العارف المجاجي بعنوان (الخلوة في الإسلام)، وكأن هذا المخلوق الشاذ لم ير كلام الناس على اختلاف لغاتهم ونحلهم أن الكلام المقيد غير المطلق وإن نفى المقيد الخاص لا يلزمه نفي المطلق لا لغة ولا عرفا، فإذا نفينا العقل والعلم عن المجاجي، كما هو الواقع، لا يلزم منه نفي العقل والعلم المطلقين، وإلا لنبذت صحيفة البلاغ الجزائري عند العموم. وهذا ما يعرفه الأسود والأحمر قبل ظهور كتاب العليويين..)[1]

إلى آخر مثل هذا الكلام الذي لا مبرر له، وكان يمكنه أن يتجاوزه جميعا ليدخل في الموضوع مباشرة، ويفترض أن قصد محدثه طيب، ثم يناقشه في مقالاته بكل هدوء.

ولكن العربي التبسي لم يكن يمارس وظيفة الحوار العلمي لترشيد المخالف، وإنما كان يستعمل أسلوب المحارب الذي لا يرضيه إلا أن يجهز على خصمه.

ولهذا نجد مثل هذه التعبيرات في هذا المقال الذي اعتبرناه نموذجا على عدم المناقشة العلمية الهادفة: (يا حضرة العارف العليوي ؟ إذا كنت كذوبا فكن ذكورا. أما دريت أن هذا البهت يفضحك. وينزع الثقة بك، وبمن تدافع عنه، إن رضي منك هذا الدفاع عنهم، وعلى ما نعيناه عليهم. أليس هذا الصنيع يجعلك ممقوتا عند العليويين أنفسهم ؟ لو فهموا حقيقتك فإنهم إذا قرأوا كتابك علموا أنك غاش لهم، لم تدفع عنهم تهمة، بل سخرت منهم وخادعتهم) [2]

ومثلها قوله: (.. إما أن تجيب بالمنع عما كتبنا وأنت صادق غير غاش، وتذكر إلينا أن عارفكم الذي قص علي ما كتبت في ملاء من الناس كاذب في خبره، وليس لك بذلك يدان. لأن أخباركم قد سارت بها الركبان في كل مكان، وإنكارها رجوع عن مبادىء

[1] المصدر السابق، ص169.

[2] المصدر السابق، ص170.

طريقتكم) [1]

ومثلها قوله: (ألا ليعلم المجاجي أنه عـّد نفسه ريحا فقد لاقى إعصارا. أما جوابنا على شتائمك وما تتوعدني بـه من إظهـار الأسباب التي لا تود أن تجرح عواطفي بهـا، فبعـد أن أذن لـك في نشرها، وإن تأخرت فأنت الكذاب على وجه الأرض) [2]

وهكذا لـو حللنـا المقـال الطويـل لا نجـد منـه أكـثر من صـفحة واحدة يمكن اعتبارها صفحة علمية بعد تهذيبها من السباب الكثـير الذي يحيط بها.

والحسرة التي يشعر بها أي منصف بعد قراءة هذا المقال ليس على الشيخ العربي وما كتبه، ولا على المجـاجي ومـا صـب عليـه، وإنما الأسف على ذلـك القـارئ الجزائـري الـذي لم يكفـه أن يملأ صدره بالحقد على المستعمر ليضيف إليه الحقد على المجاجي.

5 ــ الرجوع في المناقشات إلى العامة بدل العلماء

من خصـــائص المنهج العلمي الرجـــوع في التحقيـــق إلى المعتمدين لدى الجهة التي يراد الحـديث عنهـا، أو مـا يسـمى في العرف الحديث (الناطق الرسمي)

وإلا فإننا يمكننا إن أردنا أن نصف أي جماعة أو توجـه أو طائفـة بأي وصف أن نختار أي عينة نشاء، ثم نطبـق من خلال مـا تتصـف به على الجماعة جميعا، وبذلك لن يمثل الحقيقة أحد.

وهذا للأسف ما تقوم به مراكز الشر في العالم عنـدما تريـد أن تصـور الإسـلام بصـورة الإرهـابي، فلـذلك تختـار أسـامة بن لادن والظواهري والمدخلي ونحوها كنماذج تعبر عن الإسلام.

وقد أشار الشيخ ابن عليوة إلى أن الجمعية تمـارس هـذا النـوع من الأساليب مع طريقته أو مع الطرق الصوفية عموما، فقال: (.. ولكنّك ظننت أنّ التصوّف عبارة عن جماعة من النـاس يجتمعـون للـرقص، وإنشـاد الأشـعار لا غـير، ومثلـك كمن قصـد راعي الغنم بالليل يطلبه أن يتصدّق عليه بماشـية، فـأذن لـه في ذلـك فـذهب ليأخذ ماشـية، فـوقعت يـده بالليـل على كلب الحراسـة الـذي هـو عادة يكون مختلطا بالمواشي، فلمّا أصبح الصـباح وجـد بيـده كلبـا فأخذ يتهم راعي المواشي، ويلقبّه براعي الكلاب، وهذا ما يقتضيه

---

[1] المصدر السابق، ص170.

[2] المصدر السابق، ص171.

لسان ما جمعتموه لأنّكم أقصرتم التصـوّف على الـرقص ومـا في معناه) [1]

طبعـا ليس من المنهج العلمي أن نعتمـد مـا ذكـره الشـيخ ابن عليوة، فقد يكون مخطئا أو متوهمـا، ولهـذا سـنرجع إلى مـا كتبـه علماء الجمعية، ونرجع خصوصا إلى ما كتبه الشيخ ابن بـاديس من فتواه الخطيرة حول التيجانية، والتي اعتـبرهم فيهـا كفـارا بسـبب مقالاتهم حول صلاة الفاتح[2] مع أنـه كـان في إمكانـه أن يعـود إلى علماء التيجانية، وقد كـانوا كثـيرين في ذلـك الـوقت ليوضـحوا لـه المـراد، ويـبينوا لـه أن مـا يحكى من ذلـك لا صـحة لـه، وبالتـالي يتراجع عن قراره الخطير بتكفير عشـرات بـل مئـات الملايين من المسـلمين، لأن فتـواه لا ترتبـط بـزمن دون زمن، فلا زال أتبـاع السلفية الوهابية ينشرون رسالته تلك في جميع المحـال، ليكفـروا بذلك التيجانية، ثم يهدروا بعدها دماءهم.

ولـو أنـه رجـع في هـذا إلى كثـير من علمـاء التيجانيـة لوجـدهم يردون هذه الشبهة، ويصرحون بأنها لا تمت إلى الواقع بصـلة، بـل لو أنه رجع إلى شيخ الطريقة العلاوية في ذلك الحين، وهو الشـيخ محمد الحافظ المصري الذي زار الجزائر في ذلـك الـوقت لوجـده يتبرأ من تلك الشبهة.

وللأسـف فـإن هـذه الشـبهة لا تـزال تطـرح على الـرغم من المؤلفات الكثـيرة الـتي ألفهـا التيجـانيون في الـرد عليهـا، مـع أن المسـائل المرتبطـة بـالردة يكفي فيهـا مجـرد تصـريح الشـخص بتراجعه أو براءته أو عدم فهم المخالف له لتنفى عنه التهمة.

ولخطورة المسألة لتعلقها بإسلام مئات الملايين من المسلمين نعرض هنا ما ذكره الشيخ محمد الحافظ شـيخ الطريقـة التيجانيـة في ذلك الحين، فقد كتب خطابا نشـرته مجلـة الفتح الصـادرة في القاهرة العـدد 418 بتـاريخ : الخميس 16 رجب 1353، جـاء فيـه

---

[1] ابن عليوة، القول المعروف في الرد على من أنكر التصوف، ص65.

[2] صيغة صلاة الفاتح هي: (اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق بالحق الهادي إلى صراطك المستقيم وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم)، وهي مشهورة متداولة، (انظر: حرازم ابن العربي براده المغـربي، جـواهر المعاني وبلوغ المعاني في فيض سـيدي أبي العبـاس التيجـاني، طبعـة مصـر، سـنه 1901، ص94)

بعد الحمد والصلاة والسلام على رسول الله: (إني أعلن أننا لا نعتقد أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أُمِرَ بتبليغه، ومستحيل أن يُؤمَر بتبليغ ورد أو صلاة الفاتح أو غيرها أو بيانِ فضلها فيكتم شيئاً من ذلك، ومن أعتقد ذلك فهو كافر بالله ورسوله لا يُقبل منه صرف ولا عدل، ولا أدري كيف يعقل أن يكون قد كتم الورد وهو الاستغفار والصلاة عليه ﷺ بأي صيغة ولا إله إلا الله . وصلاة الفاتح موجودة قبل الشيخ (أي أبي العباس التيجاني) مشهورة فلا يصح بحالٍ كونُها ادّخِرَت له، ولم يثبت ذلك عنه)[1]

ورد على شبهة بقاء التشريع بعد رسول الله ﷺ التي يرميهم بها خصومهم، فقال: (ولا نعتقد أن هنالك بعد رسول الله ﷺ تشريعاً بأي وجه من الوجوه، وما جاء به ﷺ مستحيل أن ينسخ شيء منه أو يزاد شيء عليه، ومن زعم ذلك فهو كافر خارج على الإسلام) [2]

وبين المراد من التلقي المباشر من رسول الله ﷺ، فقال: (وإننا وإن قلنا بجواز أن يرى الوليُ رسولَ الله ﷺ في اليقظة إلا أننا نعتبر حكمها حكم رؤية النوم الصحيحة سواء بسواء، ولا يعوّل فيها إلا على ما وافق شرعه صلى الله عليه وسلم، وليست مشاهد الأولياء بحجة وإنما الحجة هي الشريعة المحمدية . أما تلك فمبشرات مقيدة بشرعه الشريف : ما قبِله منها قبلناه وما لم يقبله فمذهبنا فيه حسن الظن فنحكم عليها حكم الرؤيا المؤولة، ولا نشك أن معظم الرؤيا يحتاج إلى التأويل . وإنما رجحنا حسن الظن لأن المؤمن الذي يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وهو شحيح بدينه حريص على متابعته نستبعد عليه أن يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ ـ واليقظة في ذلك كالنوم ـ وهو يقرأ قوله عليه الصلاة والسلام : (من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[3]، ولا نخص واحداً من الصالحين بذلك بل هو عندنا عام في كل ما ينقل عنهم، وكم نقِلَ عن الشيوخ من الموهمات والشطحات سواء في ذلك طريقة مولانا الشيخ عبد القادر وغيرها . وقد اعتذر لهم العلماء وردوا

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، د.ط.د.ت، ص3.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص3.

[3] صحيح البخاري (1/ 38)، صحيح مسلم (1/ 8)

الوجهَ المخالف . ولا تخلـو كتب أي طريقـة من موهمـاتٍ وشـطحٍ كلها مؤول)[1]

وبين حقيقة ما تريده التيجانيـة من تـأثير العلاقـة بين المريـدين والمشايخ، فقـال: (ولا نعتقـد أن مجـرد رؤيـة أحـد من الصـالحين كافية في نجاة المرء وإنمـا ينجيـه الإيمـان والعمـل الصـالح {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَـانِ إِلَّا مَـا سَـعَى} [النجم: 39]، ونـرى أن الاجتمـاع بالصالحين مـع صـدق المحبـة يجـر إلى الصـلاح غالبـاً ولـذلك حث الشرع على صحبتهم وبيّن أنها من أسـباب التوبـة، وحـديث الـذي قتـل تسـعاً وتسـعين نفسـاً ثم طلب التوبـة فدلـه حـبرٌ على بعض الصالحين ليصحبهم فأدركه الموت قبل أن يصل إليهم فرحمه الله وقبِله، ثابتٌ في الصحيح . وحديث الجليس الصالح كذلك) [2]

وبين أن صلاة الفاتح التي قامت عليها كـل تلـك الضـجة، مجـرد أوهام عارية من الصحة، فقال معبرا عن عقائد التيجانية في هـذا: (ونعتقـد أن من أعظم الكفـر أن يعتقـد أحـد أن صـلاة الفـاتح أو غيرهـا من الصـلوات عليـه ﷺ تعـادل في الفضـل أيـة آيـة من القرءان، فكيف تفضلها ؟! فكيف بسورة ؟! فكيف بـه كلـه ؟! ولا نعتقــد أنهــا من القــرءان كمــا زعم من زعم، ولا من الحــديث القدسي ولا من أي قسـم من وحي النبـوة، فـإن ذلـك قـد انقطـع بلحوقه ﷺ بالرفيق الأعلى . والمذكور عندنا أنها من الإلهام الثابت للأولياء، ولا نعتقد أنهـا تسـاوي الكلمـة الشـريفة (لا إلـه إلا اللـه)، وحاشا الشيخ أن يقول بنسخ الذكر بالأسـماء فـذلك باطـل، فنحن ولله الحمد نـذكر اللـه عـز وجـل بأسـمائه ونحافـظ على التسـبيح والتحميد وقيام الليل وسائر النوافل والأذكار الواردة في الشـريعة ونحث عليها) [3]

وبين التصــور التيجــاني للــورد، وعــدم تعارضــه مــع الإلــتزام الشرعي، فقال: (ولا نعتقد أن مجرد أخذ الورد يُـدخلُ أحـداً الجنـة بحسـابٍ أو بغـير حسـابٍ فـإن شـرطَه المحافظـة على الأوامـر الشرعية كلها علماً وعملاً . وما هـو الـورد : اسـتغفار وصـلاة على النبي ﷺ ولا إله إلا اللـه بعـد القيـام بالواجبـات الـتي أوجبهـا اللـه

---

[1]) محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص4.

[2]) محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص4.

[3]) محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص5.

تبارك وتعالى) [1]

ورد على الشبهة التي ترفع الشيخ التيجاني أو أتباعه إلى مقامات عالية فوق جميع الصالحين، فقال: (.. ولا أن الشيخ التيجاني ولا أحداً من غير أصحاب رسول الله ﷺ يبلغ مرتبة أصحابه ﷺ . فكيف بالأنبياء عليهم السلام فكيف بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم، والولي مهما سمت رتبته مستحيل أن يبلغ في العلوم الإلهية مبلغَ أي نبي، ومن زعم ذلك فهو ضال مضل . ونعتقد أن من الضلال أن يأمن العبد مكر الله تبارك وتعالى مهما توالت عليه المبشرات، ومن اتكل على عمله أو نسبته إلى أي شخص وترك العمل فذلك ءاية الخسران المبين والعياذ بالله تعالى) [2]

ورد على الشبهة المرتبطة باعتقاد تصرف الأولياء، فقال: (ونعتقد أن من أشنع الشرك أن يعتقد أحد أن لأي أحدٍ كان مع الله تصرفاً، أو من دونه سبحانه وتعالى . وإنما نقول أن العبد قد يصل إلى مكانة من المحبوبية لدى ربه عز وجل بحيث يتصرف الحقُ فيه فيربط على قلبه فلا يسأله إلا ما سبقت به إرادته الأزلية سبحانه، وهذا الذي نفهمه في قوله ﷺ : (إن من عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه)[3] وفي الحديث القدسي (وإن سألني لأعطينه) [4] وهذا غالباً، وإلا فقد يسأل ربَه عز وجل ولا يعطيه لأن ما شاء الله كان لا ما شاء غيره) [5]

ورد على تهمة الحلول والاتحاد التي يرمي بها السلفيون ومن

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص5.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص6.

[3] صحيح البخاري (3/ 243)، وصحيح مسلم (5/ 105)

[4] نص الحديث كما في البخاري: (إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته) (صحيح البخاري (8/ 131)

[5] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص6.

بينهم جميعة العلماء الطرق الصوفية، فقال: (وإن من اعتقد في الله عز وجل حلولاً أو اتحاداً أو اعتقد أن مخلوقاً هو ذات الله أو فيه صفة من صفاته أو شبهه بخلقه أو شبّه خلقه به أو أنكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة أو أوّله إلى صورة تخالفه كمن يقول بتناسخ الأرواح ويزعم أنه البعث، أو اتبع رأياً من ءاراء المبتدعة فهو ضال مضل) [1]

ثم ذكر خلاصة عقيدة التيجانية، والتي تنسجم مع سائر عقائد المسلمين، فقال: (وخلاصة عقيدتنا في الأصول ما عليه السلف الصالح والخلف من أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والصوفية وما عليه الأئمة الأربعة مالك والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وأصحابهم في الفروع . ونسلم للسادة الصوفية قاطبة مع وزن أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم بالشريعة، فما وافقها أقررناه وما كان يحتمل الموافقة والمخالفة حسّنّا للظن فيهم وحملنا حالهم على الوجه الموافق ووكلنا أمرهم إلى الله العليم بما في القلوب، وقد نُقلت عنهم شطحات لا يتابَعون عليها ولا يُقتدى بهم فيها . وما لا يحتمل رددناه فإنه لا نبوة بعد رسول الله ﷺ ولا تشريع)[2]

وهكذا يستمر الشيخ الذي هو مرجع التيجانية الأكبر في بيان عقائد التيجانية، وأنها لا تختلف عن سائر عقائد المسلمين، وكان في إمكان الشيخ ابن باديس وغيره من أعضاء الجمعية، ومن بعدهم من المكفرة أن يقرؤوا مثل هذه النصوص الصادرة من الناطقين الرسميين باسم الطريقة، ويتراجعوا عن تلك الأحكام الخطيرة التي أصدروها، ولكن ذلك للأسف لم يحصل، لسبب بسيط وهو الافتقار إلى المنهج العلمي، وإلى بعض الأمراض النفسية التي تجعل من الشخص لا يحب أن يدخل الجنة إلا وحده أو مع طائفته.

ولو أنهم رجعوا إلى مصادر التيجانية لعلموا أن الشيخ التيجاني يخبر أنه سيكذب عليه كما كذب على غيره، وأنه في هذه الحالة ينبغي العودة إلى المصادر الشرعية، فقد روي أنه سئل: هل يُكذَب عليك؟ قال : نعم، إذا سمعتم عني شيئاً فزنوه بميزان الشرع فما وافق فاعملوا به وما خالف فاتركوه)

---

[1] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

وبنـاء على هـذا يخـير الشـيخ محمـد الحافظ، وهـو مرجـع من مراجع التيجانية الكبار في عهد الجمعية وبعـدها أنـه (مـا من فـرد في هذه الطريقة كبيراً كان أو صغيراً إلا وهو يعلن براءته من تلـك الأباطيل . وقد تلقينا عن مشايخ هـذه الطريـق ــ وهـو المنصـوص عليه عن صاحبها نفسه ـ أن كل ما ينسب إلى الشيخ بفرض صحة نسبته إليه سواء وُجد في كتبه أو لم يوجـد وكـان ظـاهره مخالفـاً لنص الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة المحمدية فهو مؤول ويحــرم الأخذ بظاهره، ويجب حمله على وجه يلتئم مع الشريعة . وقد قام علماء الطريق ببيان تأويله الموافـق للشـريعة حـتى لا يضـل أحـد بحمله على الوجه المخـالف . ومـا لم تصـح نسـبته إليـه فلا يعـول على شيء منه بحال . وقـد بلغنـا أن بعض خلفـاء الطريـق أحـرق بعض مـا ينسـب للشـيخ من الفضـائل المختلفـة الـتي تتنـافى مـع السنة المحمدية وأمر بإحراقهـا حيثمـا وجـدت . وهـل من منصـف يستطيع أن يبين لنا معنى لتتبع تلك الموهمـات ــ حـتى كأنـه ليس في الطريــق غيرهـا مـع أنـه لا خلاف بين أهـل الطريــق في أنهـا مؤولة ـ وترك الصريح البيّن من الدعوة إلى الله عز وجل والعمـل بالكتاب والسنة والتمسـك الشـديد بهمـا وهـو الـذي عليـه العمـل وحـده عنـد كـل فـرد من أهـل الطريقـة ؟ وحيث أن تلـك العقائـد المخالفة بحذافيرها لا خلاف بيننا في بطلانهـا ونحن متفقـون على البراءة من كل من يعتقدها كلها أو بعضـها، فلم تبـق إلا الخلافـات الشخصية وليست خلافاً جوهرياً .. فإن كان هذا النكـير غـيرةً على الدين حقيقة فلا يوجد أحد ــ فيمـا نعلم ــ يعتقـد تلـك العقائـد من التيجـانيين فهـو جهـاد في غـير عـدو . ومن نسـب إلى الطريقـة التيجانية أي عقيدة من تلك العقائد أو غيرهـا ممـا ينـافي العقيـدة الإسلامية فهو كاذب . وصح عنه ﷺ : (ما أكفـر رجـلٌ رجلاً إلا بـاء أحدهما بها إن كان كافراً وإلا يكفر بتكفيره)[1] [2]

المطلب الثاني: المواجهة الأدبية

نريد بالمواجهـة الأدبيـة مـا كـانت تقـوم بـه جمعيـة العلمـاء من اسـتعمالها للأشـكال والأسـاليب الأدبيـة المختلفـة في الـرد على الطرق الصـوفية، وتشـويه صـورتها في عين الجمهـور الـذي يثـق

---

[1] نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، مـوارد الظمـآن إلى زوائـد ابن حبان، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، دار الكتب العلمية، (ص: 44)

[2] محمد الحافظ، براءة الطريقة التيجانية من كل ما يخالف الشريعة، ص7.

فيها، بغية صده عن تلك الثقة.

ويظهر – من خلال دراسة تـراث الجمعيـة المكتـوب – أن هـذا الأسلوب من المواجهة كان أهم الأساليب وأكثرها استعمالا، ولعل ذلك يرجع إلى ما يلي:

1 ـــ أن الجمعيـة عاصـرت في ذلـك الـوقت أدبـاء كبـار كطـه حسين والرافعي والزيات وغيرهم، وقد كانت تحصـل بينهم أحيانـا سجالات في ميادين مختلفة، وكانت أداتهم في مواجهاتهم هي مـا عرفه العرب من أساليب في هذا المجال.

2 ـ أن هذه الأداة كانت كأنهـا من الأسـلحة الـتي لا توجـد عنـد خصـمهم، فلم يكن في الطـرق الصـوفية من الأدبـاء من لـه قـوة لسانهم وحدته، بل كان الكثير منهم – على ما يظهر – ضـعيفا في النواحي اللغوية، وخاصة النحو.

3 ـ أن معظم علماء الجمعيـة أتيح لهم الدراسـة في تـونس أو مصر، وأتيح لبعضهم السياحة في كثـير من بلاد العـالم الإسـلامي، وقد رأوا في تلـك المحـال مـا للكلمـة القويـة من التـأثير، ولـذلك راحـوا يسـتعملون في مواجهـة من تصـوروا أنهم الخصـم الأكـبر للجزائر، وهم الطرق الصوفية.

هذه في تصورنا الأسباب الكـبرى في كـون الجمعيـة غـالت في اسـتعمال هـذا الأسـلوب دون غـيره، وقـد كنـا نحب أن نعتـبر من الأسباب ضعف باع الجمعية في بعض العلوم الشرعية، وخاصة مـا تعلق منها بأصول الفقه، والمقاصد، والتصـوف، والعلـوم العقليـة، ولكنا لم نؤثر أن نصـف الجمعيـة بهـذا الوصـف، وإن كـانت الأدلـة الكثيرة تدل عليه، وهو ليس بدعة في الجمعيـة، بـل لعلهـا تعتـبره منقبة تفخر بها، فهي صافية خالصة لم تتكـدر بعلـوم التصـوف ولا العلوم العقلية، ولا الكثير من الجـدل الأصـولي والمقاصـدي الـذي يتجنبه عادة أصحاب التوجه السلفي المحافظ.

بناء على هذا، نحب أن نتحدث هنا عن أهم الأشكال الأدبية التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطـرق الصـوفية من البـاب الـذي يتعلـق بمقصـودنا، فلا نبحث فيمـا يتطلبـه النقـد الفـني والأدبي والمحض، وإنما نتحدث عن المعاني والأغـراض، ولا يهمنـا الشـكل الذي طرحت بـه لكـون البحث فيـه خـاص بالمختصـين في الأدب، وقد كتبت بعض الدراسات المرتبطة بالنواحي الأدبية عند الجمعية أو عند بعض أعضائها، ونظنها كافية في الوفاء بتلك الجوانب الـتي

نقصر في ذكرها هنا.

أولا ــ الخطابة:

تعتبر الخطابة من أهم ما كان يستعمله علماء الجمعية من أساليب في إيصال رسالتهم الإصلاحية.

والعلة في ذلك – كما يذكر الإبراهيمي- هو التأثير القوي للخطابة في التغيير والإصلاح، وقد قارن بينها وبين التمثيل معتبرا دور الخطيب كدور الممثل في إيصال الحقائق بأبسط أسلوب وبأبلغ تأثير، فقال: (التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان، وأخوان شقيقان. وأن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وأن مكانتهما من بين مقوّمات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقوّمات الجسدية. وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى.. وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة. فإنما الخطيب والممثل شيء واحد- الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخّص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد، وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس. والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقصّ الخبر وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر)[1]

وقد انتهجت الجمعية في تكوينها للنشء الإصلاحي على هذا الأساس، لذلك حاولت أن تنشئ فيهم القدرة على الكلام والخطابة، وقد صرح الإبراهيمي عند بيانه للإصلاح التعليمي الذي تريد الجمعية تحقيقه في مدارسها، فذكر من السبل لذلك سبيلان[2]:

الأول: مؤتمر سنوي تعقده الجمعية بقسنطينة يحضره كل القائمين بالتعليم من أعضائها العاملين، فتتبادل الآراء وتتلاقح الأفكار وتستفيض المباحث عن أصول التربية والتعليم وأقوم طرائقهما، وعن الأساليب والكتب التي تجمع بين العلم والعمل، وسيكون من نتائج هذا المؤتمر توحيد التعليم.

---

[1]) الشهاب، الجزء الثالث، المجلد السادس، أبريل 1930. مقتطفة من خطاب مرتجل، نقلا عن الآثار: 1/67.

[2]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 145)

والثـاني: سـماه الإبـراهيمي (عكـاظ علمي سـنوي) تقيمـه الجمعية في مدينة الجزائر على أثر اجتماعهـا العـام، وتمتـد أيامـه إلى مـا فـوق الأسـبوع، ويلقي كـل أعضـائها العـاملين محاضـرات ليتمرّنوا على الخطابة في مواضيع الدعوة والإرشاد.

وبالإضافة إلى هذا نرى الجمعية في صحفها تصف الخطب التي يقدمها أعضاؤها، وتفاعل الجمهور معها، بأوصاف كثيرة تـدل على مبلغ قيمة هذا الجانب عنـدهم، وخاصـة أن الجـانب الآخـر ضـعيف فيه إلى الغاية التي تجعل علماء الجمعية يضحكون منهم.

وهذا ما نراه في الاتجاه السلفي الوهابي عموما، فهم يركـزون على الخطابة وتخريج الخطباء وذوي المقدرة على الكلام، ولـو لم يكن في كلامهم ما يسمن أو يغني من جوع.

ثانيا ــ الشعر:

من الأشكال الأدبية التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية (الشعر)، وقد برزت فيه إلى درجة كبـيرة، بحيث أنـه قـد تحول ما كتب من قصائد في هذا الجانب إلى زاد لا تزال تسـتعين به السلفية الحديثة في مواجهة التصوف والطرق الصوفية.

وسنحاول هنا باختصار أن نذكر بعض من كتب الشعر من علماء الجمعية فيما له علاقة بالطرق الصوفية، سواء اشتهر كشـاعر، أو لم يشتهر، ولهذا استبعدنا الشاعر الكبير محمد العيد آل خليفة مع كونه شاعر الجمعية الأكبر، لأنا بعد البحث فيما كتبـه لم نجـد منـه ما يسـتحق أن يضـم لأجلـه إلى من نـذكرهم، بالإضـافة إلى ذلـك، فقد كان للشيخ ميول صوفية، بل إن التيجانيـة تعتـبره من رجالهـا المخلصين:

1 ــ الزاهري:

اشتهر الزاهري كما عرفنا في كل المجالات الأدبيـة من القصـة والشعر ونحوها، وقد سخرها جميعا – في الفترة الأولى من حياتـه – لخدمة الجمعية، وخدمة أهدافها، وخدمة أهم هدف من أهـدافها، وهو مواجهة الطرق الصوفية.

ومن قصائده في هذا المجال، قصـيدة بعنـوان (تحيـة الإصـلاح) كتب يحذر من شيوخ الطـرق الصـوفية الـذين يرشـدون مريـديهم إلى الضلالة، فيقول[1]:

ويريـد آخـر للجزائـر أن تضل ل الرشـــد في طـــرق وفي

[1]) الزاهري: تحية الإصلاح. الشهاب. ع 161. س 1928، ص237.

أبـــــــــــــــــــــــــــواب

تلقي زمــام عقولهــا جهلا إلى من كــان متكلا على الأنســاب

من كــل ذي نســب يسلســله جـــــــد لـــــــه متحنث أواب إلى

أو كـل ذي دجـل يمت بـه إلى شـــيخ لـــه متصـــوف كـــذاب

يـــا ويحنـــا من أمـــة لم تتبع في الدين غـير مشـائخ وذئـاب

قســـموا عبـــاد اللـــه أغناما لهم فالجـــــــــاهلون لهم من الأذنـــــــــــــــــــــــــاب

ملكـــوا على البســـطاء من جهالنا مـا كـان من مهج ومن أسـلاب

وهو ينتقل من الحـديث عن مشـايخ الصـوفية إلى الزوايـا الـتي ساهمت في نشـر العلم والتربيـة ليتهمهـا بأنهـا تحـولت إلى حانـة يتعاطى فيها الشيوخ ومريدوهم الخمر، ولسنا ندري المصدر الـذي اعتمد عليه في هذه المعلومة، وربما يكـون مـا ذكرنـاه سـابقا من تعبير شـعراء الصـوفية عن الحالـة الوجدانيـة الـتي يشـعرون بهـا، وبأنها كنشوة الخمرة، يقول في ذلك[1]:

يـــا رب زاويـــة بهـــا لم يكن في حانـة من خمـرة وشـراب

يســـقي الشـــيوخ الصـــالحون بالكأس أو بالطـأس والأكـواب ضـــــــــــــــــــــــــيوفهم

فتجنـــوا على الـــدين الحـــنيف مـــا فيـــه من خلـــق ومن آداب وأفســـــــــــــــــــــــــدوا

وفي قصيدة أخرى لـه بعنـوان (إلى زعيم المصـلحين)، ويعـني ابن باديس، وقد عرج فيها إلى اتهام الطرق الصـوفية بتهم كثـيرة

[1]) الزاهري: تحية الإصلاح. الشهاب. ع 161. س 1928، ص237.

كالخمول وحب الذات، ونحوها، ومما جاء فيها قوله[1]:

مارســت أخلاق الشــيوخ فلم أجد غــير الخمــول – وغــير – حب الـــــــــــــــــــــــــذات

ووجدت منهم من يعد أخا العبا دة وهــو في لهــو وفي لــذات

طلبوا صلاح المسلمين ففرقوا الإ سـلام في طـرق لهم أشـتات

ومن قصائده في هذا المجال قوله – وهـو يرسـم العلاقـة الـتي تربط المريد بشيخه[2] -

كانوا طوائف شتى كــل طائفة زعما تطيـع شـيخا لهـا في كـل مـا

إن قـال إني ولي صـدقوه وإن الحكما هــو ادعى الغيب قــالوا أحكم

وإن تعلم بعض الشــيء تهجية قليلــة هتفــوا يــا أعلم العلما

وإن هـــو ارتكب الفحشـــاء فاضـــــــــــــــــــــحة فلا محالــة معــذور وقــد أثما

أو احتسـى الخمـر قـالوا إنهـا عسل ولا غرابـــة في هـــذا ولا جرما

أو ادعى أن خير الخلـق يخدمه فمــا اعتــدى عنــدهم ولا ظلما

(أو لم يصـــل رأوه حســـبما زعمـــــــــــــــــــــــوا يقيمها إذ يـزور الـبيت والحرما

---

[1]) الزاهري: إلى (زيارة سيدي عابد) الصراط. ص 4.

[2]) الزاهري، التحية الصادقة. الشهاب. مج10، ج9، 12 أوت 1933. ص 454.

وفي قصدة أخرى يوبخ المجتمع الجزائري الذي وكل نفسه إلى هؤلاء الذين يعتبرهم غواة، فيقول[1]:

أمـــة تتبـــع الغـــوي وتعصي كـــل هـــاد إلى الرشـــاد حكيم

إن دعاهـــا الـــدعاة إلى الخـــير يوما شـــردت منهم شـــروط الظليم

هي للمفســـدين جنـــات عـــدن وعلى المصـــلحين نـــار الجحيم

أمة لا تـــرى لـــذي الفضـــل فض لا، ولا تعتـــــــــــني بعلم عليم

ومن يكن صـــوفيا كـــذوبا خبيثا فـــاز منهم بكـــل خـــير عميم

وحبتـــه بغـــير حـــق من التك ريم كـــل الإكبـــار والتكـــريم

أنت لـــو كنت صـــوفيا لتلقت كـــل مـــا تفتريـــه بالتســـليم

وإن كنت مصـــلحا فلـــك الويل ملومـــا وأنت غـــير ملـــوم

2 ــ الطيب العقبي:

وهو بالإضافة إلى قدراته الخطابية العالية التي تحدثنا عنها كـان شاعرا فحلا، وقد وجه شـعره لمواجهـة الطـرق الصـوفية، بـل إن قصائده في هذا المجال لا تزال تنشر على مستوى واسع، وخاصة في النوادي السلفية.

وقد شهد له بالقدرة الشعرية الشـيخ ابن بـاديس الـذي تحـدث عن هذا الجانب فيه بقوله: (يعرف الناس العقـبي واعظـا مرشـدا يلين القلوب القاسية، ويهـد البـدع والضـلالات العاتيـة بقـوة بيانـه وشدة عارضته، ولكن العقبي الشـاعر لا يعرفـه كثـير من النـاس، فلمـا تـرنحت السـفينة على الأمـواج وهب النسـيم العليـل هب العقبي الشاعر من رقدته وأخذ يشنف أسماعنا بأشـعاره ويطربنـا بنغمته الحجازيـة مـرة والنجديـة أخـرى، ويرتجـل البيـتين والثلاثـة والأربعة في المناسبات، وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز فلو ملـك قيـادة البـاخرة لمـا سـار بهـا إلا إلى جـدة دون أن يعـرج على

[1]) الزاهري، ليتني ما قرأت حرفا. الشهاب. مج7، ج1، 1931. ص 927.

مارساي، وإن رجلا يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصب على بلاء الجزائـر وويلاتهـا ومظالمهـا لرجـل ضـحى في سـبيل الجزائر تضحية أي تضحية) [1]

ولعل أهم ما كتب من شـعر في هـذا المجـال قصـيدته الكـبرى (إلى الدين الخالص) التي وصـفها ووصـف صـاحبها الشـيخ مبـارك الميلي بقوله: (ولكن أتى الوادي فطم على القرى، إذ حمل العـدد الثامن في نحره المشـرق قصـيدة (إلى الـدين الخـالص) للأخ في الله وداعية الإصـلاح وخطيب المصـلحين الشـيخ الطيب العقـبي ـ أمد الله في أنفاسه ـ فكانت تلك القصيدة أول المعول المؤثر في هيكل المقدسات الطرقية، ولا يعلم مبلغ ما تحمله هـذه القصـيدة من الجـراءة ومبلـغ مـا حـدث عنهـا من انفعـال الطرقيـة، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه وحالته في الجمود والتقـديس لكـل خرافة في الوجود)[2]

وقـد قـدّمت (المنتقد) للقصـيدة بهـذه المقدمـة الاسـتفزازية: (تحت هـذا العنـوان جاءتنـا هـذه المنظومـة الإصـلاحية للعلاّمـة المرشد صاحب التوقيع، فحلّينا بها صدر هذا العدد تبصـرة وذكـرى لقوم يؤمنـون ؛ و(المنتقد) يتحـدّى بهـا كـلّ ذي علم تحدّثـه نفسـه بمعارضتها إلى معارضتنا بصحيح الأدلّـة من الكتـاب والسـنّة وكلام سلف الأمّة، ويتكفّل بنشرما يَرِدُ عليه من جميع المعارضـين، ومن لم يفعل منهم وبقي يلغو في المجالس والحوانيت، فإنّه يكون من الجبناء الكاذبين المفسدين)[3]

ونحب أن ننبه هنا - قبل أن نـذكر الجـوانب الـتي تحـدثت عنهـا القصـيدة - إلى أن الطـرق الصـوفية واجهت التحـدي، وعارضـت القصيدة، ولكنها للأسف لم تنشر، بل لعله لم يبق لها وجود[4].

---

[1] آثار ابن باديس (3/ 334)

[2] رسالة الشرك ومظاهرة، ص 283.

[3] المنتقد، العـدد: 8، يـوم الخميس 30 محـرّم 1344هـ الموافـق لِـ 20 أوت 1925م، ص3.

[4] والقصيدة كتبها رجل (من أهل وادي سوف) وعنوانها (إرشاد الضالّين إلى سبيل أهل الحقّ المبين) ضمنها (64 بيتًا) ومن أبياتها قوله:

يا رجال الدين يا أهل الرشاد =يـا ذوي التحقيق أهل الاعتقاد

ياذوي التمكين يا أهل النهى =يا ذوي التصريف في كلّ البلاد

تبدأ القصيدة بأسف العقبي على حال الجزائر، ويركز بوجه خاص على ما يركز عليه الاتجاه السلفي الذي يختصر الدين في بعض المظاهر والسلوكات، بل إنه من خلال ذلك يحكم على الشعب الجزائري بخروجه من الملة، وهو المعتقد التكفيري الذي اعتبرناه من الثمرات الخبيثة التي جنتها الجمعية من تأثرها بالوهابية يقول في ذلك بعد الاستهلال السابق، وبلهجة تقريرية[1]:

ماتت السنة في هذي البلاد قبر العلم وساد الجهل ساد

وفشا داء اعتقاد باطل في سهول القطر طرا والنجاد

عبد الكل هواء شيخه حده ضل، فضل الإعتقاد

حكموا عاداتهم في دينهم دون شرع الله إذ عم الفساد

بل إنه يتبرأ منهم، ويحكم عليهم كما يحكم الوهابية عادة على خصومهم بكونهم من أهل النار لا يستثنون في ذلك مشيئة الله ولا إرادته، بل يجزمون بأحكامهم جزما، يقول في ذلك[2]:

لست منهم لا، ولامني همو ويلهم يا ويلهم يوم المعاد

يوم يأتي الخلق في الحشر نشروا نشر فراش وجراد وقد

بلغتنا في حماكم سَبَّةً =حالها زعزع ركن كلّ ناد

وقد بذلت جهدي في البحث عنها لكني لم أجدها، بل لم أجد الإشارة إليها إلا في موقع (راية الإصلاح) أو من نقل عنه، وهو على هذا الرابط: (http://www.rayatalislah.com/article.php?id=10).

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، دت، دط، ص3.

[2] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص4.

يـــــوم لا تنفعهم معـــــذرة ولظى مــأواهم بئس المهــاد

يصــهر الســاكن في أطباقها كلمـا أحـرق منـه الجلـد عـاد

وكـــل اللـــه بمن حـــل بها جمـــع أملاك غلاظ وشـــداد

أكلهم فيهــا ضــريع، شــربهم من حميم لبسـهم فيهـا سـواد

كلمـــا فكـــرت في أمـــرهم طال حـزني وتغشـاني الهسـاد

ثم يتحدث – كشأن التيار الوهابي – عن نفسه – جازمـا قاطعـا- بأنه ملتزم التزاما حقيقيا بالدين الصحيح الذي لا دين صحيح غيره، وبالتالي فهو - في مقابل ذلك الشعب الجزائـري المسـكين الـذي حكم عليـه بجهنم – من الفرقـة الناجيـة المحفوظـة المعصـومة، يقول في ذلك على عادة شعراء الفخر[1]:

أيهـــا الســـائل عن معتقـــدي يبغي مـني مـا يحـوي الفـؤاد

إنـــني لســـت ببـــدعي ولا خـــارجي دأبـــه طـــول العنـــاد

يحـــدث البدعـــة في أقوامه فتعم الأرض نجـــدا ووهـــاد

لســت ممن يرتضــي في دينه مـا يقـول النـاس زيـد أو زيـاد

ليس يرضى اللـه من ذي بدعة عملا إلا إذا تـــاب وهـــاد

بـــل أنـــا متبـــع نهج الألى صـــدعوا بـــالحق في طـــرق الرشـــــــــــــــــــــاد

[1]) الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص5.

حجـــتي القـــرآن فيمـــا قلته ليس لي إلا على ذاك اســـتناد

وكـذا مـا سـنه خـير الـورى عـدتي وهـو سـلاحي والعتـاد

وبـــذا أدعـــو إلى اللـــه ولي أجر مشـكور على ذاك الجهـاد

منكم لا أســـأل الأجـــر ولا أبتغي شـــكركم بلـــه الـــوداد

مذهبي شرع النبي المصـطفى واعتقـادي سـلفي ذو سـداد

خطـــتي علم وفكـــر ونظر في شـــؤون الكـــون بحث واجتهـــــــــــــــــــاد

وطريـــق الحـــق عنـــدي واحد مشربي مشرب قرب لا ابتعـاد

ثم يخـرج من الجملـة إلى التفصـيل ليتحـدث عن المعتقـدات الصوفية وآدابهم على حسب ما تتصورها الوهابية، فيقول[1]:

لا أرى الأشـــياخ في قبضـــتهم كل شيء بل همو مثـل العبـاد

وعلى من يـدعي غـير الـذي قلتـه إثبـات دعـوى الإتحـاد

قـال قـوم: سـلم الأمـر لهم تكن السـابق في يـوم الطـراد

تنـل المقصـود، تحظى بـالمنى وترى خيلك في الخيل الجيـاد"

قلت:" إني مســلم يــاويحكم ليس لي إلا إلى الشرع انقيـاد

قـــولكم هـــذا هـــراء أصـــله ما روت هند ومـا قـالت سـعاد

---

[1]) الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص6.

أنـــا لا أســـلم نفســـي لهم لا، ولا ألقي إليهم بالقيـــــــاد

لسـت أدعـوهم كمـا قلتم وقد عجـزوا عن طـرد بـقٍّ أو قـراد

وهو كالتيار الوهابي يعتبر الأضـرحة والقبـاب ونحوهـا أصـناما لا تختلف عن اللات والعزى، وبالتالي، فإن الزائر لها له حكم من زار اللات والعزى وعبدها، فيقول[1]:

لســـت من قـــوم على أصـــنامهم قـــد يـــــــدعونها في كـــــــل نـــــاد عكفـــــــــوا

كلمـــــا أنشـــــد شـــــاد فيهم قـــول شـــرك ذهبـــوا في كـــل واد

كم بنـــوا قـــبرا، وشـــادوا هيكلا وصـــروح الغي بالجهـــل تشـــاد

غـــــرهم من داهنـــــوا في دينهم وارتضـــوا في ســـيرهم ذر الرمـــاد

ثم يذكر شدة عداوته لهم، بل إنه يلعنهم هكـذا إجمـالا من دون استثناء، فيقول[2]:

إنـــــني ألعنهم ممـــــا بـــــدا حاضـــر في إفكـــه منهم وبـــاد

---

[1] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص6.

[2] الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

وأنـــا خصـــم لهم أنكـــرهم كيفمـا كـانوا جميعـا أو فـراد

علمونـــا طـــرق العجـــز وما منهم من لسـوى الشـر أفـاد

طالما جـدَّ الـورى في سـيرهم وهم كم صـدهم طـول الرقـاد

ثم يعـود إلى تفصـيل مـا يحفظـه الوهـابيون عمومـا من معـنى التوحيد والشرك وقصره على القباب والقبور ونحوها، فيقول[1]:

لســـت أدعـــو غـــير ربي أحـــدا وهـــو ســـؤلي وملاذي والعمـــاد

ولـــه الحمـــد فقـــد صـــيرنا بالهـــدى فـــوق نـــزار وإيـــاد

فاعبـــدوا مـــا شـــئتم من دونه مـــا عنـــاني منكم ذاك العنـــاد

لســـت منقـــادا إلى طـــاغوتكم بظـبي الـبيض والسـمر الصـعاد

لم أطـــف قـــط بقـــبر لا ،ولا أرتجي مـا كـان من نـوع الجمـاد

---

[1]) الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

لســـت أكســـو بحريـــر جـــدثا نخـــرت أعظمـــه من عهـــد عـــاد

لا أشـــــد الرحـــــل أبغي حجه قربـــة تنفعـــني يـــوم التنـــاد

حالفـــــــا كـــــــل يمين أنه سـوف يقضـي حـاجتي ذاك الجـواد

لا أســـوق الهـــدي قربانـــا له زردة يـــــدعونها أهـــــل البلاد

ويضم إلى هـذه المظـاهر الـتي يعتبرهـا شـركا جليـا مكفـرا مـا يقرره الصوفية من التوسـل والاسـتغاثة ونحوهـا، فيعتبرهـا شـركا كما يعتبرها أساتذته الوهابية، فيقول[1]:

لا أنــادي صــاحب القــبر أغث أنت قطب، أنت غـوث وسـناد

قائمـــا أو قاعـــدا أدعـــو به إن ذا عنـدي شـرك وارتـداد

لا أناديـــه، ولا أدعـــو ســـوى خـــالق الخلـــق رؤوف بالعبـــاد

من له أسـماؤه الحسـنى وهل أحـــد يـــدفع مـــا اللـــه أراد؟

[1]) الطيب العقبي، إلى الدين الخالص، ص7.

مخلصـــا ديـــني لـــه ممتثلا أمـــره لا أمـــر من زاغ وحـــاد

3 ــ الإبراهيمي

وهو بالإضافة إلى قدراته البيانية المختلفة لديه قدرة كبـيرة في صـياغة الشـعر الفصـيح المـتين[1]، وقـد وجـه جـزءا محترمـا منـه لمواجهة الطرق الصـوفية، ومن ذلـك مـا كتبـه في قصـدية يقـول فيها[2]:

فــإن شــئتموا أن تســمعوني أحاضـركم عن حضـرة الغـوث محاضـــــــــــــــــــرا والقطب

هنالك يدري الجاهلون حقيقتي ويهتز ناديكم ويعرف ما خطبي

وان سكوتي مسحة مسـتعارة من المدفع الصـخاب والصـارم الشـــــــــــــــــــطب

---

[1] للإبـراهيمي ملحمـة رجزيـة في سـتة وثلاثين ألـف بيت - مفقـودة - أشـار إليهـا المترجم لـه نفسـه، وهي عـرض تـاريخي تحليلي للتـاريخ الإسـلامي وتقلبـات الأمـة الإسـلامية - نظمهـا إبّـان إبعـاده في صـحراء وهـران الجزائريـة، وروايـة الثلاثـة - مسرحية شعرية في 877 بيتًا من الرجز - نظمها إبّان تحديد إقامته في «آفلو» الـتزم شـعره الـوزن والقافيـة، ويتنـوع بين التعبـير عن المناسـبات الاجتماعيـة، والإخوانيات، ووصف بعض منجـزات العصـر: كالطـائرة، ورصـد الأحـداث السياسـية التي مرت بها الجزائر، والتعبير عن تجربة نفيه وسجنه، وبخاصة في المدة (1939 - 1946)، والتعبير عن القضية الجزائرية. مسرحيته الشـعرية تقـع في 877 بيتًـا عـبر ثلاث جلسات، تناول فيها أوضاع التعليم من خلال مدرسة وشخصيات محوريـة يـدور بينها صراع.

[2] جريدة البصـائر، السـنة الأولى، العـدد 43، الجمعـة 28 شـعبان 1355هـ / 13 نوفمبر 1936م، وانظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 288)

أنا المرء لا أعطي إلى القطب مقـــــــــــــــــــودي ولــو دفعتــني الحادثــات إلى القطب

ومن ذلـك أرجوزتـه الـتي وجههـا إلى بعض الوهابيـة من نجد[1]، وهي وإن لم يكن فيهـا مواجهـة مباشـرة للطـرق الصـوفية إلا في بعض المسائل المتعلقة بما يتصوره الوهابية شركا، إلا أنا نـرى أن في أصل القصيدة مضادة ومواجهـة حـادة للطـرق الصـوفية ذلـك أنهم في ذلك الحين خصوصا كانوا يعتبرون مـا ورد من الأحـاديث[2] عن اعتبار نجد هي رأس الفتن ومنطلقهـا متعلقـا بالمنطقـة الـتي ولد فيها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وانطلقت منها دعوته.

لكن الإبراهيمي – على عكس ما ورد في تلك الأحـاديث – كتب قصـيدته يثـني على علمـاء نجـد، بـل يعتـبرهم من القلائـل الـذين حافظوا على توحيدهم في الـوقت الـذي انتشـر فيـه الشـرك في جميع البلاد الإسلامية.

ومن الذين أثنى عليهم الشيخ صديقه الشيخ محمـد بن إبـراهيم آل الشــيخ وعمــر بن حســن آل الشــيخ - رئيس هيئــات الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر آنذاك-، ومما جاء فيها قوله[3]:

إنَّا إذا مــا ليــلُ نجــدٍ عسعسا وغــربت هــذا الجــواري خُنَّسا

والصـــبح عن ضـــيائه لتنفسا قمنـا نـؤدِّي الـواجب المقدسا

ونقطـع اليـوم ننـاجي الطُّرُسا وننتحي بعـــد العشـــاء مجلسا

موطَّداً على التقى مؤسَّسا في شِيخةٍ حــديثهم يجلوالأسى

---

[1]) آثار الإبراهيمي: 4 / 126 - 130 وأبياتها 73 بيتاً

[2]) من ذلك ما ورد في الحديث عن ابن عمر قال : ذكر النبي ﷺ فقال : اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : وفي نجدنا، قال : اللهم بـارك لنـا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا، قالوا : يا رسول الله وفي نجدنا فأظنه قال الثالثـة : هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان) صحيح البخاري، (9/ 67)

[3]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 127)

وعلمهم غيث يغـــادي الجُلسا خلائـــقٌ زهـــرٌ تنـــير الغلسا

وهمم غُـــــرٌّ تعـــــاف الدَّنسا وذممٌ طهـــر تجـــافي النَّجَسا

يُحْيُـــون فينـــا مالكـــاً وأنسا والأحمـــدين والإمـــام المؤتسا

ثم يخاطب نجد، ويعتبرها بلاد التوحيد ويقصره عليها في الوقت الذي يعتبر فيه جميع بلاد الإسلامي بلادا للشرك، وهذا للأسـف مـا يتفوه به التيار الوهابي كل حين[1]:

بوركتِ يا أرضٌ بها الـدين رسا وَأَمِنَتْ آثـــــــــاره أن تُدْرُسا

والشـرك في كـلِّ البلاد عرَّسا جـــذلان يتلـــو كُتْبَـــه مُدرِّسا

مصـــــاولاً مواثبـــــاً مفترسا حتى إذا مـا جـاء جَلْسـاً جَلَسَـا

منكمشـــاً مُنخـــذلاً نفْعَنسسا مُبَصْبصاً قيـل لـه اخْسأْ فخسا

شـــيطانه بعـــد العُـــرَام خنسا لمـــا رأى إبليســـه قـــد أبلسا

ونُكِّســـــتْ راياتـــــه فانتكسا وقـــــام في أتباعـــــه مبتئسا

مُخَافِتـــاً مِنْ صـــوته محترسا وقـــال إنَّ شـــيخكم قـــد يئسا

من بلـد فيهـا الهـدى قـد رأسا ومعْلَمُ الشـرك بهـا قـد طُمِسا

ومعهـــدُ العلم بهـــا قـــد أسسا ومنهـــلُ التوحيـــد فيهـــا انبجسا

ثالثا ــ القصة:

وإنتاج الجمعيـة فيهـا محـدود جـدا، ولعلهـا مقصـورة على بعض القصص التي كتبها الشيخ الزاهري، ومنها قصته المعروفـة الـتي أخرجهـا بعض الوهابيـة المعاصـرين على شـكل رسـالة صـغيرة، وسماها (اعترافات طرقي قديم)

وفي القصة حملة شديدة على الطـرق الصـوفية هكـذا مجملـة عامة لينصرف ذهن القارئ إلى جميع الطرق، ويركز فيهـا بشـكل

---

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (4/ 127)

خاص على دورها في التفرقة الاجتماعية، وكأنه يواجه بذلك ما كانت تنشره الطرق من أن الجمعية تريد أن تخترق صف الأمة ووحدتها.

فالولاء الطرقي – كما يذكر الزاهري – مرتبط بالطريقة أكثر من ارتباطه بالإسلام، حتى أن هذا الطرقي التائب الذي يتحدث عنه (حينما كان طرقيا كان لا يفرح بانتشار الإسلام كما يفرح بانتشار الطرقية التي ينتسب إليها، فإذا سمع برجل دخل دين الله، سأل عنه هل اعتنق طريقته أم لا؟ فإذا لم يعتنقها تعامى وتصامم، وإذا سمع أن مسلما اعتنق الطريقة التي يعتنقها هو اهتز طرباً، وكاد يطير من شدة الفرح والسرور، وإذا نزل بالإسلام أي مكروه تصامم صاحبنا كأن الأمر لا يعنيه ولا يعني دينه، أما إذا أصابتطريقته مصيبة ما اغتم لها واهتم)[1]

وفي اعتراف آخر يقول: (لا أكتمكم، أنه قد يكون بيني وبين الرجل صلة القربى، وقد تجمعني به الروابط والصلات، وقد يكون مهذباً ولكني لم أكن أثق به ولا أطمئن إليه، لا لشيء سوى أنه لا يرافقني في الطريق!!وقد يكون الرجل لا قرابة بيني وبينه، وليس بيننا أية صلة أخرى، ولكني أثق به وأطمئن إليه، وأشعر نحوه بحب شديد لا لشيء سوى أنه أخي من الشيخ، هذا هو ما كان يوصينا به أسيادنا ورؤساء طريقتنا جميعاً)[2]

وينقل الحديث عن تائب آخر تحول – في تصوره- من الطرقية إلى الإصلاح، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجاهلية إلى الإسلام قوله: (وكان من كراهيتنا لأتباع الطرق الأخرى، أننا لا ننزل ضيوفاً إلا على من تبع ديننا(طريقتنا)، ولا نكرم ضيوفاً لا يكونون على طريقتنا، ولا نجتمع معهم في حلقة ذكر، وأذكر أن رجلا كان أخانا من الشيخ، له مكانة بيننا وكنا نحبه ونحترمه، وما هي إلا أن أخبرنا أحدنا بأنه رآه في بلدة أخرى، في حلقة ذكر لطائفة أخرى، حتى كرهناه وهجرناه، وأخبرنا سيدنا به وبما فعلنا، فقال، نعم ما فعلتم، لا تتساهلوا فيمن يخل بشيء من آداب الطريق، ولا

---

[1]) الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد7، ص 2.

[2]) الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العدد7، ص 3.

تخـالطوا من يفسـد عليكم نيتكم في الشـيخ، ولا تصـلوا وراءهم، وكل من صلى منكم وراء إمام ليس على طريقتنا، ولا يجتمع معنا على محبة الشيخ، فصلاته باطلة تجب عليه إعادتها!!)[1]

ويصـور الزاهـري تـأثير مشـايخ الطـرق في مريـديهم حـتى في المسائل المرتبطة بالحياة الشخصية لكل مريـد، بـل حـتى الحيـاة الشخصية لأفراد أسرته، فقـد ورد في القصـة من اعترافـات هـذا الطـرقي التـائب: (وسـأل رجـل وقـال:يـا سـيدنا إني أريـد أن أستشيرك في أمر يهمـني، قـال ومـا هـو؟قـال:إن ابـني قـد كـبر، وأردنا أن نزوجه، وخطبنا له كريمة فلان إلى أبيهـا، فوعـدنا خـيراً، ولكنها من بنات طريقة أخرى لا من بنـات طريقتنـا،وهي فتـاة من الفتيات الصـالحات،فقـال لـه سـيده: وكيـف تكـون صـالحة، وهي ليست من بنات طريقتنا؟ ولم تدخل زاويتنا قـط!!،فقـال الرجـل: عسى الله أن يهديها فتعتنق طريقتنا، وتزور زاوية سيدنا، فقال له سيده: اشترطوا عليها أن تترك طريقتها إلى طريقتنا، فإذا رضـيت بهذا الشـرط فـذلك مـا كنـا نبغي، وإلا فلا تعزمـوا عقـدة النكـاح.. وتكلم له رجل وقال:يا سيدي،إن الآنسـة فلانـة، الـتي تـوفي عنهـا أبوها أخيراً، وكانت من بنات طريقتنا، قد أعجب بها فتى ليس منا، فـأبت أن تقبلـه لهـا بعلاً حـتى يـترك طريقتـه إلى طريقتنـا، وقـد تزوجهـا على هـذا الشـرط وأصـبح أخـاً لنـا في الشـيخ، فقـال سيدنا:أحسنت هذه الآنسة، وهي محبة في الشيخ، وإن عملها هـذا هو من الصالحات، ومن أفضل ما يقربهـا إلى اللـه زلفى، ففرحنـا نحن بها، وصرنا نسميها"سـكينة"تشـبيهاً لهـا بسـيدتنا سـكينة بنت زين العابدين رضي الله عنها)[2]

ويذكر الزاهري كيف كانت تنتشر العداوة بين الطرق الصـوفية بسبب خلافات بسيطة، فيقـول: (على أن الطـرق الأخـرى يحمـل أتباعها لنا من الضغينة والحقد أكبر مما يحمل أتباع طريقتنـا، فقـد جربت ذات يوم أن أتودد إلى أهل طريقة، فرفضـوا ودادي، وذلـك أن جلست معهم في حلقة لهم عقدوها لتلاوة أورادهم، وكـان من عادتهم أن يغمضوا أعينهم عند تلاوة هذه الأوراد، وكان من عادتنـا

---

[1] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 3.

[2] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 3.

نحن أن نفتح أعيننا، وأن لا نغمضها عند قراءة الأوراد، ومـا هي إلا أن عرفـوا أنـني لا أغمض عيـني حـتى طـردوني، وقـالوا لي:أنت لست من طريقتنا!!) [1]

وهو يحاول عن طريق اعترافـات هـذا الطـرقي أن ينسـب كـل الرذائـل والآفـات إلى مشـايخ الطـرق بطريقـة سـردية بسـيطة، فيذكر أنه قد في بعض الطلبة لتصوره أنه من الإصلاحيين لكنه مـا إن زار زاوية من الزوايا فوجده فيها حتى تغـير موقفـه منـه، وقـد جرى في سر هذا التغير هذا الحوار الـذي ذكـره الزاهـري، فقـال: (وقـال لي: لقـد حضـرت أنـا نفسـي على هـذا الشـيخ درساً في التوحيد يلقيه على أسيادنا، فظننت أن الإمـام الأشـعري هـو الـذي يلقي هـذا الـدرس علينـا، فقلت: لقـد أصـبح الطـالب في نظـرك شـيخاً نظـير الإمـام الأشـعري، ولكن في أي مسـألة من مسـائل التوحيد كان درس هـذا الشـيخ؟ قـال: كـان في مسـألة "كرامـات الأولياء"، وقد ذكـر من كرامـات شـيخنا أكـثر من مائـة وخمسـين كرامة، فقلت له: يا فلان، هـل نسـيت مـا كنت تقولـه يـوم لقيت هذا الطالب أنه قليـل العلم مـدمن علي التـدخين، فقـال: أمـا مـا قلته عنه من قلة العلم فقد كنت مخطئاً فيه، واليوم تـبين لي أنـه غزيـر العلم، وحسـبك أنـه أسـتاذ لأسـيادنا، وأمـا أنـه مـدمن على شـرب الـدخان، فهـذا أمـر لا بـأس بـه، لأن أسـيادنا هم أنفسـهم يدخنون ويـدمنون على التـدخين، ويـدمنون على مـا هـو أكـثر من الدخان أيضـا، من غـير أن يقـدح ذلـك في مـروءتهم أو في دينهم، فقلت: إن المدمنين على هـذه الآفـات هم ممن لا مـروءة لهم ولا دين، قال: لا يقـول كلامـك هـذا إلا من كـان مسـلوباً من الإيمـان، قلت: ويحك، فهل تعتقـد أن تعـاطي هـذه الآفـات هـو أمـر مبـاح؟ قال: لا، ولكني أعتقد أن الإنكار على أسيادنا، لا يجوز مهما ارتكبوا من الكبـائر والموبقـات، قلت: وهـل أسـيادك هم فـوق الشـرع الشريف حتى لا تنالهم أحكامه؟ قال: دعنا من هذا الكلام) [2]

بل إن الزاهري يذكر أن من أتباع الطـرق الصـوفية يهـود ظلـوا على يهوديتهم، وأن العلاقة التي تربط مريـدي الطريقـة بهم أكـثر

[1] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 4.

[2] الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 2.

من العلاقة التي تـربطهم بالمسـلمين، فيقـول – على لسـان هـذا الطرقي التـائب - : (كـان اليهـود في بعض نـواحي الصـحراء، قـد دخلـوا هم أيضـاً في الطـرق الصـوفية، من غـير أن يـدخلوا في الإسلام، وكـان قـد اعتنـق طريقتنـا منهم عـدد غـير قليـل، فجعـل سيدنا عليهم(مقدما) يهودياً منهم.. ولا أكتمكم، أننـا كنـا نحب هـذا المقدم اليهودي، ونحب هؤلاء اليهود الذين هم إخواننـا من الشـيخ أكثر ممـا نحب أي مسـلم من المسـلمين، الـذين يتبعـون الطـرق الأخرى، وكما أن اليهود يسمون غيرهم-[الكوييم]- فإننا نحن أيضـاً نسمي غيرنا من المسلمين باسم القراميـط.. وبالجملـة، فلم نكن نعرف الحب في الله والبغض في الله، وإنما كنا نعـرف الحب في الشيخ والبغض في الشيخ)[1]

وهكذا تستمر القصة – وبلغة بسيطة –تجمع جميع ما تـرمي بـه الجمعية الطرق الصوفية في محـل واحـد، لتعتبرهـا جميعـا ضـلالا وشركا، ثم تعلن انتصار الجمعية عليها بتوبة الطرقي، وتحولـه إلى مصلح بمجرد توبته.

والملاحظـة الـتي يمكن أن نـدلي بهـا هنـا هي أن هـذه القصـة ليسـت سـوى نـوع من القـذف غـير العلمي وغـير الأخلاقي وغـير الشرعي، لأن قـارئ القصـة البسـيط يتصـور أنهـا حقيقـة واقعـة، ويتصور أن ما فيهـا من أحـداث ومواقـف مرتبـط بجميـع الطـرق، ولذلك جميع الطرق – كمـا تـذكر القصـة – يمارسـون الكبـائر بـل يدمنون عليها مع أشياخهم، وهذا كله وإن صدق في محـل لا يمكن أن يصدق في جميع المحال.

وهذا أكبر ما يشكو منه رجال الطرق من الجمعية، وهو التعميم المنافي للمنهج العلمي الصحيح، فالمنهج العلمي يقتضـي الـتريث في إطلاق الأحكام قبل التحقيق.

رابعا ـ المقالة الأدبية:

تعتبر المقالة الأدبية هي أكثر ما وردنا من تـراث الجمعيـة، وقـد وظفت خصوصا في مجال النقد بأنواعه المختلفـة، وخاصـة النقـد

---

[1]) الزاهري، اعترافات طرقي قديم، جريدة الشريعة النبوية المحمدية، العـدد7، ص 4.

الاجتماعي.

وربما تكون الجمعية في توظيفها للمقالة الأدبية النقدية في مواجهة الطرق الصوفية مقلدة للتيار الأدبي النقدي في ذلك الوقت، والذي مثله أحمد أمين وإبراهيم المازني وعباس محمود العقاد والرافعي وطه حسين وغيرهم من الأدباء، ولهذا نجد انسجاما بين طرق التعبير وأساليبه بين ما كتبته الجمعية وما كان يكتبه هؤلاء.

وربما يكون اختيار الجمعية لهذا الأسلوب في الكتابة هو بساطته وسرعة وصوله للقارئ وعدم حاجات صاحبه إلى إمكانات علمية كبيرة، بالإضافة إلى الحرية التي يشعر بها الكاتب، خاصة إن كانت له قدرة على التعبير، فهو يخوض فيما شاء، وكيف شاء بعلم أو بغير علم.

وهذا ما يفرق المقالة العلمية عن المقالة الأدبية، فكاتب المقالة العلمية يحتاج عند ذكر كل عبارة إلى التوثيق والتحقيق والبرهان، فهو دائم محاصر برقيب يردد عليه قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} [الإسراء: 36]

انطلاقا من هذا وظفت الجمعية المقالة الأدبية خير توظيف في أداء رسالتها المتعلقة بمواجهة الطرق الصوفية.

وبما أن أكثر هذا المقالات إن لم نقل كلها يمكن اعتبارها من المقالات النقدية، فإنها استعملت – بالإضافة إلى الطريقة الوصفية- أساليب كثيرة لعلها أهمها أسلوب (التهكم والسخرية) من هذا الواقع لتصوره بصورة مستهجنة ينفر منها القارئ.

ولعل أشهر من اشتهر بهذا الأسلوب، وكان له القدرة الفائقة فيه بما أوتي من قوة بيان، الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي لا يذكر الطرق ولا الصوفية أو مشايخها وعلماءها إلا ويصب عليهم من التهكم والسخرية ما يتصور أنه يذلهم به.

وكمثال على ذلك مقالين كتبهما عن العلامة المحدث الكبير عبد الحي الكتاني[1]، الذي لا يزال إلى الآن مرجعا من مراجع علماء الحديث، ولكنه – في منطق الإبراهيمي، وفي منطق المقالة

---

[1]) نشرت في العدد 31 من جريدة «البصائر»، 12 أفريل سنة 1948، والثانية نشرت في العدد 33 من جريدة «البصائر»، 26 أفريل سنة 1948

الأدبية – ليس كذلك، وكيف يكون كذلك، هـو يعتقـد بمـا يعتقـد بـه رجال الطرق الصوفية.

ولعـل الـداعي إلى سـخرية الإبـراهيمي من الشـيخ عبـد الحي الكتاني هو استقواء الطرق الصوفية به، وكيف لا وهو الـذي يجلب إليهم ما يحتاجون إليه من المصادر والنصوص التي تحفـظ كيـانهم في مواجهة الغزو الإصلاحي الموجه ضدهم.

وقد كانت الحادثـة المؤلمـة الـتي جعلت الإبـراهيمي يعلن على الشيخ حربه هو ما قام بـه من تجميـع الزوايـا في مـؤتمر دعـا من خلالـه إلى الإصـلاح الـتربوي والتعليمي، بـل دعـا من خلالـه إلى الإصلاح الشامل للزوايا ومن يمثلها من الطرق الصوفية[1].

وكان يمكن للجمعية أن تفـرح بهـذا، ولكنهـا للأسـف لم تفعـل، لأنهـا كـانت تتصـور أن في إصـلاح الزوايـا تقويـة لهـا، وفي قوتهـا يـذهب نشـاط الجمعيـة هـدرا، فهـل يمكن للطـبيب أن يمـارس وظيفته إن شفي جميع المرضى؟

وبناء على هذه النظرة التي لم يفصح عنهـا الإبـراهيمي، ولكنهـا تفوح بقوة من خلال كلماته صب جام غضبته وسخريته عليـه، ولم يجد من وسيلة سوى المقالة الأدبية التي رآها خير وسيلة لتحطيم عنفوان الرجل وقوته، لأن المقالة العلميـة تسـتدعي أدلـة كثـيرة، ووقتا طويلا، ولم يكن لدى الشـيخ الإبـراهيمي – وهـو المسـتغرق في الإصلاح وما يتطلبه من جهد- هذا الوقت ليضيعه في نقده.

وتبدأ سخرية الإبراهيمي من الرجل من عنوان المقالـة نفسـها،

---

[1]) مما يدل على هذا ما ذكره الإبـراهيمي نفسـه عنـدما قـال: (.. بلغنـا مـا وقـع في المؤتمر الثاني (مؤتمر الزوايا) بالتفصيل أيضا، حتى أسماء الحاضرين والخطباء ومـا خطبوا، وأنهم تواردوا على معان متقاربة في غايـات الاجتمـاع الظاهريـة وهي جمـع الشمل وتجديد العهد وخدمة العلم بالتعليم) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 20)

ولكنه كعادته – في استخدام منطق المؤامرة – يعتبر أن هناك أهدافا مبيتة غير هذه الأهداف، فقال: (وكان من كياسة الرئيسين الدائم والهائم (كان هـذا الاجتمـاع تحت رئاسة اثنين: الدائم مصـطفى القاسـمي، والهـائم عبـد الحي الكتـاني) أن بالغـا في إخفاء الغاية الحقيقية، حتى قام طالب مأجور يعدونه من أتباع الأتباع، فـذكر جمعيـة العلماء بوصفها القديم الذي كانوا ينبزونها به، وهو أنها جمعيـة وهابيـة) (انظـر: آثـار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 394)

فقد عنونها بـ (أفي كل حي... عبد الحي؟)[1]، وعنوان المقالة الثانية (عبد الحي الكتاني: ما هو؟ وما شأنه؟)[2]، وقد تعرض فيها لشخص الشيخ عبد الحي أكثر مما تعرض فيها لفكره ومنهجه ودعوته، وهذا كشأن التيار الوهابي عموما من تغليبه نقد الأشخاص على نقد الأفكار.

وقد قال جوابا عن سؤال طرحه (ما هو عبد الحي؟): (هو مكيدة مدبرة، وفتنة محضرة؛ ولو قال قائل في وصفه:

شعوذة تخطر في حجلين وفتنة تمشي على رجلين

لأراح البيان والتحليل، كما يقول شوقي؛ ولعفى على أصحاب التراجم، من أعاريب وأعاجم، ولأتى بالإعجاز، في باب الإيجاز؛ إذ أتى بترجمة تحمل ببرقية، إلى الأقطار الغربية والشرقية، فيعم العلم، وتنتشر الإفادة، وتذيع الشهرة)[3]

ويعتبر أنه (مجموعة من العناصر منها العلم ومنها الظلم، ومنها الحق ومنها الباطل؛ وأكثرها الشر والفساد في الأرض) [4]

بل حتى اسمه يسخر منه، ويحوله عن المراد منه إلى مراد آخر يزيد من تهكمه به، فيقول: (إن اسم صاحبنا لم يصدق فيه إلا جزؤه الأول، فهو عبد لعدة أشياء جاءت بها الآثار وجرت على ألسنة الناس، ولكن أملكها به الاستعمار؛ أما جزؤه الثاني فليس هو من أسماء الله الحسنى، ولا يخطر هذا ببال مؤمن يعرف الرجل، ويعرف صفات عباد الرحمان، المذكورة في خواتيم سورة الفرقان، وإنما هو بمعنى القبيلة، كما يقال كاهن الحي وعراف الحي وعير الحي، وقبح الله الاشتراك اللفظي، فلو علم العرب أنه يأتي بمثل هذا الالتباس لطهروا منه لغتهم، وتحاموه فيما تحاموا من المستهجنات)[5]

وهكذا يتلاعب الإبراهيمي بالألفاظ، ويستخدمها خير استخدام

---

[1] نشرت في العدد 31 من جريدة «البصائر»، 12 أفريل سنة 1948، وانظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 391)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 395)

[3] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 539)

[4] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 540)

[5] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 540)

في التهوين من شأن الرجل حتى فيما اشتهر من ذاكرة قوية وحفظ متين للحديث، أهله لأن يعتبر محدثا، لكن الإبراهيمي لم يكن ينظر إلى حفظه بتلك الصورة، فهو يقول عنه: (وعبد الحي محدث بمعنى آخر، فهو راوية بكل ما لهذه الكلمة من معنى. تتصل أسانيده بالجن والحن.. وبكل من هب ودب. وفيه من صفات المحدثين أنه جاب الآفاق، ولقي الرجال، واستوعب ما عندهم من الإجازات بالروايات، ثم غلبت عليه نزعة التجديد فأتى من صفات المحدثين (بالتخفيف) بكل عجيبة، فهو محدث محدث في آن واحد؛ وهمه وهم أمثاله من مجانين الرواية حفظ الأسانيد، وتحصيل الإجازات، ومكاتبة علماء الهند والسند للاستجازة، وأن يرحل أحدهم فيلقى رجلا من أهل الرواية في مثل فواق الحالب، فيقول له: أجزتك بكل مروياتي ومؤلفاتي.. فإذا عجز عن الرحلة كتب مستجيزا فيأتيه علم الحديث بل علوم الدين والدنيا كلها في بطاقة.. أهذا هو العلم؟ لا والله. وإنما هو شيء اسمه جنون الرواية)[1]

والإبراهيمي بحكم توجهه السلفي، وتغلب النزعة الوهابية خصوصا عليه ينفي عن الكتاني كونه محدثا، لأن من شروط المحدث في تصوره أن يكون سلفيا، فيقول: (ولقد كان من مقتضى كون الرجل محدثا أن يكون سلفي العقيدة وقافا عند حدود الكتاب والسنة.. لكن المعروف عن هذا المحدث أنه قضى عمره في نصر الطرقية وضلالات الطرقيين ومحدثاتهم بالقول والفعل والسكوت، وأنه خصم لدود للسلفيين، وحرب عوان على السلفية، وهل يرجى ممن نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه على ما فيها من مال وجاه وشهوات ميسرة ومخايل من الملك، أن يكون سلفيا ولو سلسل الدنيا كلها بمسلسلاته؟)[2]

وهكذا يستمر الإبراهيمي في التهكم والسخرية إلى نهاية مقاله الطريل، بل إنه يهدده بأنه إن استمر في دعم الطرق الصوفية في الجزائر، فإن سيروي الروايات في مثالبه وينشرها ويفضحه بها، فيقول: (..فإن عاد بالتوبة، عدنا بالصفح؛ وان زاد في الحوبة، عدنا على هذا المتن بالشرح، ولعل هذا الأسبوع هو أبرك الأسابيع على الشيخ، فقد أملينا فيه مجالس في مناقبه جاءت في كتيب،

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 545)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 544)

سميناه- بعد الوضع- "نشر الطي، من أعمال عبد الحي"، فإن تاب وأدناه، ووفينا له بما وعدناه، وإلا عممناه بالرواية، وأذنا لعبد الحي في روايته عنا للتبرك واتصال السند، وهو أعلم الناس بجواز رواية الأكابر عن الأصاغر) [1]

ولعل أهم ملاحظة نخرج بها من مطالعة هذه المقالة الطويلة هو أنها من الناحية الأدبية في منتهى الروعة والجمال، وكم تمنينا لو أنه كتبها أو كتب مثلها عن رجال الاستعمار الطغاة، لا عن رجل من المحدثين الثقاة.

وتمنينا – كذلك – لو خلطها ببعض العلم والأدلة، فلا يمكن للألفاظ مهما حسنت، ولا للتعابير مهما قويت أن تقنع عاقلا ما لم تتوج بالأدلة الكافية.

ولكن عذر الإبراهيمي هو كون كلامه موجها للعامة لا للخاصة، والعامة يفضلون السخرية والسباب على العلم والدليل.

هذا نموذج عن الإبراهيمي وهو قليل من كثير، ومثله في الجمعية الشيخ الزاهري الذي كانت سخريته تصل إلى حد السباب، وقد شهد له بالقوة في هذا الباب والريادة فيه زميله وصديقه الشيخ الإبراهيمي الذي كتب يقول عنه بعد أن انشق عن الجمعية: (لقد كنتم تسبوننا بألسنتكم في المقاهي ومجالس السوء، وتلقّنون صبيانكم سبّنا، حتى أصبحت أفواههم مستنقعات... فلم يُقنعكم ذلك لأنه سبٌّ بالمجان، فارتقيتم إلى سبّنا بالكتابة لتّتخذوا منها سلعةً للبيع، ووسيلة لجمع المال. وتضيفوا إلى الهلال الأحمر هلالًا أسود... ومن الغريب المضحك أنكم تعتمدون في بيع السب على السب، فقد شهد العقلاء أن تسعة أعشار جريدتكم لا تُباع إلا بالسب والتخويف والتهديد وما يُشبه الإكراه، وأن العشر العاشر فقط يباع بالتغليط والتضليل.. إن هذه لحقيقة لا تستطيعون إنكارها وتكذيبها إلا بالعمل. ولو فعلتم وتركتم بيعها للرغبة والاختيار- كما تباع الجرائد- لأفلست في أسبوع، فجرّبوا إن كنتم منصفين)[2]

وهو ينتقده في هذا المنهج مع كونه كان يحبذه منه قبل ذلك عندما كان متوجها بسبه إلى الطرق الصوفية، فيقول: (أيها القوم: إن الوطن الذي تتوقّف خدمته على بيع السب والكذب لوطن

[1] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 547)

[2] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 561)

مخـذول سـلفًا؛ وإن الحـزب الـذي يريـد أن يكمـلَ بتنقيص غـيره لحزب ناقص أبدًا، وإن السياسة التي تغـذّى بمثـل هـذه المطـاعم لسياسة ميتة... بالجوع.)[1]

بل إنه يسخر حتى من جرائده التي كان ينشر فيها ما ينشر من سباب يرتبط بالطرق الصوفية، فيقول: (أتذكر- يـا شـيخ- ماضـيك الصحافي، وصحائفك الماضية التي تهـاوت في مثـل عمـر الزهـر، من الجزائـر، إلى الـبرق، إلى الوفـاق، وقـد مـاتت كلهـا بـالهزال والتسمّم، ولو كانت مما ينفع النـاس لمكثت في الأرض، فاحتفـظ بما بقي من أعدادها، فسيحتاج الناس إلى ما فيها يوم ينكس اللـه طباعهم، ويطمس على بصائرهم، فيصبح السـب والكـذب عنـدهم من الفنون الجميلة، فيشيدون المعاهد العالية لتعلّمها، ويقتبسـون النماذج الرفيعة من تلك الجرائد)[2]

وليت هذا الموقف الذي وقفه الإبراهيمي ضد الزاهـري اسـتفاد منه هـو قبلـه، ليعلم أنـه لا يمكن أن يتحقـق الإصـلاح إلا بالصـلاح، ففاقد الشيئ لا يعطيه.

ولا يتحقق الصلاح إلا بالتواضع مع الآخـر وعـدم السـخرية منـه، كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ} [الحجرات: 11]

المطلب الثالث: المواجهة العاطفية

نريـد بالمواجهـة العاطفيـة مـا كـانت تسـتعمله الجمعيـة لإثـارة عواطف الجماهير ضد الطرق الصوفية، وهي مواجهـة كالمواجهـة الأدبية تتسم بالبساطة، وبعدم الحاجة إلى الإقناع العقلي المعتمـد على الدليل، بل كـل اعتمادهـا على مـا عنـد المسـتقبل من ثـروة عاطفية، وهي من أكثر الثروات توفرا خاصة في الزمن الذي يكثر فيه الظلم والاضطهاد.

بناء على هذا نحاول هنا أن نذكر ثلاثة نماذج عن هـذا النـوع من المواجهة، وقـد ذكرنـا – سـابقا – أنـا لا نتعامـل مـع الجمعيـة على أسـاس وجودهـا التـاريخي الرسـمي، وإنمـا على أسـاس وجودهـا الـواقعي المتمثـل في أولئـك المصـلحين الـذين اتفقـوا على كـل شيء، ولكن تأخر فقط تأسيسهم الرسمي للجمعية إلى أن وجدوا

---

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 561)

[2] انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (3/ 562)

الظرف المناسب، ولهذا فإن بعض الأحداث التي سنذكرها حصلت قبل التأسيس الرسمي للجمعية، بل لعله كان من الأسباب المؤثرة بعد ذلك في تأسيسها.

النموذج الأول: الاعتداء على ابن باديس

ذكرنا سابقا قصة هذا الاعتداء، وبساطته، وتعلقه بفرد واحد لم ينطلق في ذلك إلا من بعض الغضب على إهانة شيخه، بل إن صورة الحادثة تدل على أنه لم يرد أن يغتال، وإنما أراد أن يعاقب فقط، ولهذا لم تحدث كبير أثر في الشيخ ابن باديس، ولو أنه أراد اغتياله لطعنه بالسكين مباشرة، ولكان ذلك أسهل، بل ربما لو أراد ذلك لخطط له ولنجح في تخطيطه، فما أسهل القيام بمثل هذه العمليات في واقع كالواقع الذي حصلت فيه.

ولكن مع كل هذا نجد تضخيما كبيرا للحادثة، واتهاما لكل الطرق الصوفية بها، وكأن الطرق الصوفية جميعا اجتمعوا في اجتماع طارئ، ثم قرروا اغتيال ابن باديس، ولم يجدوا للتنفيذ إلا هذا الرجل الضعيف الهزيل الذي استطاع ابن باديس مع نحافته أن يلببه بثيابه، ويتغلب عليه بكل سهولة.

وقد كتب الإبراهيمي حينها يصف الحادثة وأسبابها وملابساتها بهذه الطريقة المثيرة للعواطف: (وإذا نسي الناس فإنهم لم ينسوا حادثة الاعتداء على الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي هو رئيس هذه الجمعية منذ تأسست إلى اليوم، فقد تآمر العليويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولا زال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ- وهو أعزل- فأمسك خصمه الفاتك المسلّح ولبّبه بثيابه، ثم تجلّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال- وجرحه يثعب دمًا- للجمهور المتألّب المتعطّش لدم الجاني: إياكم أن يمسّه أحد منكم بسوء" حتى تسلموه للمحافظة، ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إربًا إربًا))[1]

فالإبراهيمي يبدأ مقاله بأن الناس، وإن نسوا كل شيء، فإنهم لن ينسوا هذه الحادثة، وكأنه يحرضهم أن لا ينسوها، ثم يتحدث –

[1]) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1/ 268)

كعادته – على التـآمر من غـير أي دليـل، ثم يصـف المشـهد الـذي (تطيش فيه الألباب) ليملأ القلوب حقـدا على الجـاني ومن خلفـه، ثم يذكر الموقف البطولي لابن باديس (المطمئن بالرحمة)

هكـذا يصـور الإبـراهيمي الحادثـة ليسـتثمرها في ملء القلـوب بالأحقاد على الطريقة العلاوية أولا، وعلى الطرق الصوفية جميعـا ثانيا.

وليت الأمر توقف عند الإبراهيمي، بـل تعـداه إلى غـيره، إن مـا كتب في هذا المجال يمكن جمعه في مصنف خاص، بل فعل ذلـك الشيخ أحمد حماني حين صـور الحادثـة، وكأنهـا صـراع بين السـنة والبدعة، لا بين شخص بسيط انفعـل لموقـف من المواقـف، فمـد يده معبرا عن ذلك الموقف.

وقد ذكرنا سابقا أن الشيخ أحمد حماني، وفي موقف مماثل لم يقفه عامي، وإنما وقفه عضو بارز من أهم أعضاء جمعية العلمـاء، مـع علم من أهم أعلام الطـرق الصـوفية، وكـانت الواقعـة أفـدح، والألم المنجر عنها أشد، ومع ذلك وقـف حمـاني مـع الجـاني ضـد المجني عليه.

ولا بأس من إعادة ذكر ما ذكره الشيخ أحمد حمـاني هنـا لـنرى الأخلاق التي كانت تحكم الكثير من أعضاء الجمعية في مـواقفهم، فقد قال: (وبلغ بالسيد مامي — عفا الله عنـه — أن صـار يسـخر بالشـيخ ابن بـاديس ويخـترع على لسـانه محـاورات، فبلـغ السـيل الزبا، واشتد غيض الشـهيد أحمـد بوشـمال ولم يملـك نفسـه ذات يوم في 1938م، أن ارتمى عليه في نهج تجاري مـزدحم وأعطـاه (طريحـة); أي ضـربة كـانت كافيـة لكفـه النهـائي عن التعـرض لشخصية الشيخ ابن باديس بسوء حتى مات رحمه الله)[1]

بعـد هـذا نحب أن نشـير هنـا باختصـار لبعض مـا كتب في ذلـك الحين بهذه المناسبة من باب تهييج العواطف وإثارتها:

فممن كتب في ذلك الشيخ العربي التبسي، وقد كان حينهـا في القاهرة، فأرسل منها مقالا بعنوان (أريـد حيـاتـه ويريـد قـتلـي)[2]، ومما جاء فيه قوله: (.. فمن ذا الذي لا ينفلق كبده أسفا وغما لمـا

---

[1] أحمد حماني ; صراع بين السنة والبدعة، ص131.

[2] نشر هذا المقال في جريدة الشهاب : جريدة الشهاب، السنة الثالثـة، عـدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10

أتـاه هـذا الأفـاك الأثيم العليـوي ممـا يغضـب الرحمـان، ويثـير الأشجان. ألا فليعلم العليـوي السـفاك ولي إبليس أن فعلتـه الـتي فعل لم تكن مسددة إلى الأسـتاذ العظيم ابن بـاديس، وإنمـا رمى بسهمه في نحر الإسلام، وأنه إنما أراد هو وشـيعته أن يـأتوا بـدين مزيج من معتقدات الآباء الكاثوليك والرسـل البروتسـتانت، فليس له أن يـزغم علمـاء الإسـلام على قبـول بدعتـه باسـم دينهم، وأن يكمم أفواههم حذر أن يبينوا للناس ما آتيتهم به ممـا ينقض هيكـل الإسـلام، ويحطمـه لبنـة لبنـة، فـدون وصـولكم إلى غـايتكم واللـه لمس السماء، ودك الشناخب أتـرم أنـوفكم أن جـاءكم بالحسـنى يجادل بها رسول الله أعـداء الإسـلام، فهـالكم الأمـر، وسـدت في وجوهكم مدارج الحق، فركنتم إلى الإجرام، وعمدتم إلى قتـل من شهد له رسول الله بأنه عدل هذا الخلق، وأنه يحل محـل نـبي في بني إسرائيل)[1]

وهكذا يستمر الشيخ العربي في إثارة العواطف وتبيين القضـية لا تتوقف عند اعتـداء بسـيط، وإنمـا هي حـرب معلنـة على الأمـة، وعلى رسولها وعلى من شهد له رسولها بأنه يحل محـل نـبي في بني إسرائيل.

والشيخ العربي لا يكتفي بهذا، بل يقرر بإثـارة عجيبـة أن أعـدى أعداء المسلمين ليست فرنسا، وليس الإلحـاد ولا التبشـير، وإنمـا أولئك الذين جعلوا من الزوايـا أوكـار للجريمـة المنظمـة في حـق العلمـاء، فيقـول: (ألا إن أعـدى المسـلمين للإسـلام أولئـك النفـر الذين يظنون من قبل أنفسهم أنهم هم أوليـاء الرحمـان وأحبـاؤه، وقد ملؤوا أنفسهم ومن يتبعهم بأماني هي ضـلال، ومـا أرادوا بهـا صوابا. فاستباحوا من الله المحارم، وتعدوا لـه الحـدود، وأعرضـوا عما فيه من الهدى، فاغتر بهم الجهال، وانقاد لهم الأغرار، ودخلـوا على الناس في عقائدهم، ولبسوا عليهم أمر دينهم، وزهدوا الملـة الإسـلامية في علمائهـا الـذين أمـر اللـه أن يـرد إليهم الأمـر في التشـغيب، ونعتهم أجـل نعت. وحث على سـؤالهم عنـد حلـول أي حادث. بما تحدث بـه هـؤلاء المضـللون إلى طغـام الأحلام، من أن بين الصـالحين وبين العلمـاء خلافـا عظيمـا قـديما، وضـربوا لهم

[1]) جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

الأمثال، وساقوا عليها الشواهد، وقصوا عليهم من الأغاليط ما جنوا به جنونا، حتى ذهبوا بهذه الأمة في متاهات لا نجاة لها) [1]

وبعد أن يملأ الشيخ العربي جماهيره بهذا الشحن الممتلئ بالأحقاد يعبئهم للمواجهة الحادة الشديدة التي ترفض التنازل أو الصلح أو الاستسلام، فيقول: (اتئدوا أيها المضللون، فإن الذي نعلمه ويعلمه كل أحد أن طريقة القوم لا تتنازل عن حصاة من أرض السنة، وفي سبيل السنة تبيع العلماء الأرواح بيع السماح)[2]

ثم يستغل الحادثة لبيان ضلال الطرق الصوفية وانحرافها وشركها وغير ذلك من المقولات التي رأينا الصياغات المختلفة لها، فيقول: (.. ركب منكم الشيطان كل مركب، واستنكفتم عن قبول الحق الأبلج، ووضعتم أصابعكم في آذانكم، وأصررتم على عنادكم إصرارا، شأن من سبقكم في الجاهلية الثانية.. هاأنتم استطعتم أن تفتنوا الأمة في دينها، وتحيدوا بها عن أوليات الدين الذي جعلتم أهله شيعا وأحزابا وأضرابا)[3]

ومما كتب في ذلك من شعر الزاهري، فقد قال في قصيدة له بهذه المناسبة ينوه بشخصية الإمام بن باديس، ويستنكر ما فعل أعداؤه[4]:

لا تبلغ العلياء دون ثبات هيهات دون المجد كل أداة

يا وقفة لك في سبيل الله لم نرهان لغيرك من ذوي الوقفات

---

[1] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[2] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[3] جريدة الشهاب، السنة الثالثة، عدد 83، 10/02/1927م الموافق 07/شعبان/1345هـ، ص 10.

[4] عبد الناصر : الشيخ عبد الحميد بن باديس في يوم حرية التعبير.. أول صحافي في التاريخ يتعرض لمحاولة اغتيال، جريدة الشروق اليومي، العدد 1676 الصادرة يوم الأربعاء 04 ربيع الثاني 1427 هـ الموافق لـ 03 ماي 2006 م، ص : 8.

بعثـوا إليـك منومـا يعـدو على ما فيـك من جـد ومن عزمـات

قطع الطريق عليك في غسـق تكن التّيوس لتقطع الطرقـات ولم

نهضوا لحرب المصلحين لعلهم يقفـون دون طريقـة عشـرات

أذوك حين دعوت من ضلوا ال دين النـــير بحكمـــة وعظـــات

ونلاحـظ هنـا كيـف يعمم الشـيخ الزاهـري حكمـه على الطـرق الصوفية، وكونها تآمرت عليه وعلى المصلحين، ولا نجد هذا الأمـر عند الشيخ محمد العيد آل خليفة الذي ذكرنا سابقا أنه أكثر أعضاء الجمعية اعتـدالا، بـل ذكرنـا تبعيتـه للطريقـة التيجانيـة، كمـا يـذكر التيجانيون، فقد عبر عن الحادثة بما تقتضيه دون أن يتجـاوز ذلـك، فقال في في قصيدة بعنوان (حمتك يد المولي) [1] :

حَمتْـك يَـدُ المَـوْلَى وكُنْتَ بِهَـا أولَى فيَالـكَ مِنْ شَـيخَ حَمَتْـهُ يَـدُ المَـــــــــــــــــــوْلَى

وأخطاك الموت الزؤام يقـوده أملي إليـك أمـرؤ أملي لـه الغي مـا

وأهـوى إلى نصـل بكـف لئمة تعود أن ينضي بهـا ذلـك النصلا

فأوسعها وهنا، وأوسـعتها قـوة وأجهـدتها عقـدا، وأجهـدها حلا

وكـادت يـد الجـاني السـخّر تعتلي يد الشيخ لولا اللـه أدركـه لـولا

فَيَـا لـو ضِـيع النّفْسِ كَيـفَ تَطـــــــــــــــاولتْ بِهِ نَفْسُه حتَّى أسـرّ لَـكَ القَتلاَ

فَوَافَتكَ بالنَّصْـر العَزِيـزِ طَلائـعٌ مُبَاركـةٌ تَتْـرى من الْملأ الأعْلَى

---

[1] محمد العيد آل خليفة : ديوان محمد العيد، المؤسسة الوطنيـة للكتـاب، الجزائـر، ص : 122

وإنْ أنْسَ لا أنْسَـــى الـــذينَ تَظَـــــــــــــــــافَرُوا عَلى الفَتْكِ بالجَاني فقلتَ لَهُم مَهْلاَ

أليس من الآيـــات أنـــك بيننا العـــــــــــــــــــــــدلا تعامـل بالعـدل الـذي أغضـب

فـدُم يـا بن بـاديس كمـا كنت راشـــــــــــــــــــدًا فـإني رأيت الرشـد يستأصـل الـــــــــــــــــــــدجلا

النموذج الثاني: الاعتداء على الزاهري

وهذا أيضا من الأحداث التي استثمرتها الجمعية أخطـر اسـتثمار في إلهاب العواطف، وتوجيهها نحو الطرق الصـوفية، وقـد أخـذت حيزا محترما من صحيفة الشريعة التي انهالت عليهـا الأقلام تـدين الحادثة، كمـا انهـالت من قبـل الأقلام على الشـهاب تـدين حادثـة الاعتداء على ابن باديس.

وقد ذكر الشيخ الزاهري الحادثة وتأثيرها في مقال له كتبه بعـد خمسـة عشـر يومـا من الحادثـة بعنـوان (من الزاهـري إلى سـائر الأصدقاء والإخوان)، ومما استهل به مقاله ذكره لتأثير الحادثة في المجتمع، فقـال:(مضـى اليـوم على حـادث الاعتـداء علي خمسـة عشر يوما ولا يزال الحادث كما هـو جديـدا في أذهـان النـاس هنـا في وهران يستنكرونه ويستفظعونه ويلعنون المعتدين الآثمين لعنا كثيرا)[1]

ثم ذكر الحادثـة وأسـبابها وصـلتها ببعض المشـايخ، ولم يـذكر – كعادتـه في التعميم- لأي طريقـة ينتمي هـذا الشـيخ حـتى يحصـر الأمر في محله، وتتلبس التهمة بأصحابها، فقال: (لقد كان الجـاني الحقيقي الذي أغرى على هذه الجناية بعض أتباعـه الأخلاف شـيخا من أشياخ السـوء في وهـران وكـان كثـير العيـال لا يكـاد يحصـى عدتهم إلا بعداد (!) وكـان هـو وعيالـه جميعـا يعيشـون عالـة على المسلمين (الغافلين). يتظاهر بالولاية والصلاح ليحتـال بـذلك على ما في أيـدي النـاس, ولا نصـيب لـه من الولايـة والصـلاح إلا سـب العلماء والوقوع في أعراضهم والافتراء عليهم وأكل لحوم النـاس, وكـان في رغـد من العيش بمـا كـان يتنـاول من صـدقات النـاس. وكـان النـاس يحسـنون إليـه, ولكنـه اليـوم أصـبح يعـاني العسـر

[1]) جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

والضيق, وانفض عنه أكثر من كان حوله من المتصدقين)[1]

ويبدو من خلال هذا الوصف أن الشيخ لم يكن يصف شيخا له علاقة بالطرق الصوفية، وإنما كان يصف من يسميهم الناس مشايخ البركة، وهم الذين يقصدونهم لطلب الدعاء، أو لقراءة الغيب ونحوه[2]، وهؤلاء لا علاقة لهم بالتصوف، ولا بالطرق الصوفية، بل إن الطرق الصوفية تتبرأ منهم، ولكن الجمعية للأسف تجمعهم في سلة واحدة، لتطبق أخطاء هؤلاء على هؤلاء وتمحوهم جميعا.

ثم ذكر العلة التي دفعت هذا الشيخ إلى الاعتداء عليه، فقال: (ورأى أن الناس أصبحوا يلهجون بذكر جمعية العلماء المسلمين ويتعلقون بها, ويذكرون رئيسها الأستاذ ابن باديس كما يذكرون أكبر إمام من أئمة هذا الدين, فوقع في نفسه أنه من هنا جاءه البلاء (!) وأنه من هنا انقطعت عنه الصدقات والنذور التي كانت تجبى إليه. فجعل دأبه أن يسب جمعية العلماء وأن يختص بالسب والقذف رئيسها الأستاذ عبد الحميد بن باديس وهذا الضعيف العاجز (الزاهري) الذي يمثل الجمعية في وهران وكان سبق لهذا التيس أن أغرى جروا له (ابنه) فشتمني في الطريق العام لولا أن الشاب المفضال المهذب السيد بلقاسم بن الشراب عطف عليه وكان من رفقائي فأدبه وجازاه بما يستحق.. وثار الرأي العام الإسلامي في وهران يومئذ على هذا الجرو وعلى والده الذي أغراه)[3]

وإلى هنا فإن المنصف لا يرى في كل هذا شيئا، بل إننا لو حللنا ما حصل لوجدنا أن الجاني فيها هو الزاهري وأصحابه، ذلك أن هذا الولد الذي يسميه جروا ما فعل غير ما يسميه (شتيمة)، ونحن لا ندري ما قال له بالضبط في هذه الشتيمة، ولعلنا إن طبقنا ما

---

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

[2] ويدل لهذا ما كتبه العقبي في إدانة الحادثة، فقد جاء في مقاله: (إذن ما ذا يفعل (سيدي المرابط) أو الدجال المحتال الذي وقف له المصلحون في الطريق التي كان يجمع الناس لها ويحشرهم من كل ناحية إليها, وما هي إلا طريق ابتزازه الأموال من هذه الأمة واعتصاره آخر قطرة من دم بقيت في جسمها وقد قطعوا رزقه كما قيل وحالوا بينه وبين ما يشتهيه في هذه الأمة ومنها؟)

[3] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

يذكر من شتائم الطـرق الصـوفية، فإنهـا لا تعـدو رميـه بالوهابيـة، وكان يمكن للشيخ – باعتباره مصـلحا وداعيـة ومربيـا- أن يخاطبـه بالتي هي أحسـن، ويوجهـه إلى الـتي هي أحسـن، لكن الشـيخ لم يفعل ذلك، بل استعان بتابعه الـذي (أدبـه وجـازاه بمـا يسـتحق)، ولم يكتف بذلك، بل راح يثير (الـرأي العـام الإسـلامي في وهـران يومئذ على هذا الجرو وعلى والده الذي أغراه)، وكان يمكنـه بـدل ذلـك أن يهـدئ الأوضـاع ويطيب النفـوس، ولكن الزاهـري وجـد فرصته في هذا، فأراد أن يحيي تلك الفتنة العظيمـة الـتي حصـلت بسبب الاعتداء على ابن باديس، وأراد أن يكون له هو الآخـر حـظ منها ومن شهرتها ومن المقالات والأشعار النابعة منها.

ويواصل الشيخ الزاهري وصف ما حدث فيقـول: (كـانت قبضـة الشـرطة السـرية على شـخص من أتبـاع شـيخ السـوء هـذا ومن مريديه بتهمة أنه هو الجاني, ولكن بعدما حققوا معه لم يجدوا بينة على إدانته ولكنه لا يزال مسجونا بتهمة أنه هـرب من منفـاه قبـل أن يستكمل المدة المحكوم عليه بها, ولما تـرك سـبيله من تهمـة الاعتداء فإن الأعوان لم يقبضوا على شـخص آخـر بـدعوى أنهم لا يجـدون بينـة على أحـد تخـول لهم أن يقبضـوا عليـه, ويظهـر أن التحقيق في هذا الاعتـداء بينمـا كـان جاريـا بغايـة الجـد والاجتهـاد وقف فجأة ولم يتقدم قيد شعرة, وهنا سر يجب أن يفهمه القارئ وحده (!!) أمـا الـرأي العـام فلا يـزال هائجـا منفعلا ضـد المعتـدي الأثيم, والناس يعلمـون كـل شـيء عن هـذا الحـادث ويعلمـون أن أصل الجناية إنما هـو شـيخ السـوء ويعلمـون أن هـذه الجنايـة قـد دبرت في مسجد بناه لله أحد المحسنين)[1]

وإلى هنا فإن كل ما ذكر مجرد اتهامات لا دليل عليهـا، ولا صـلة للشيخ المذكور بها، ولكن مع ذلك نـرى الأقلام المسـتعدة للإبحـار في طوفان الفتن تسـتثمر الحادثـة أبشـع اسـتثمار لتهيج المجتمـع على أولئك البسطاء أصحاب الحضرات والخلوات الـذين يزعمـون أنهم منشغلون بربهم عمن سواه.

ولن نحتـاج لكشـف هـذه الحقيقـة إلى كبـير معانـاة، فمـع أن الحادثة لم تعرف ملابساتها بدقة إلا أن الشيخ العقـبي، ومـع كونـه من أصحاب الاتجاه السـلفي الـذي يـراعي التحـري والتـدقيق في الأسانيد لكنه في هذه الناحية لم يراع هـذا الأمـر، بـل كتب يقـول

---

[1]) جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص2)

في مقال تحت عنوان (نحن والطرقيون أو حادث الاعتداء على الأستاذ الزاهري): (وقد كنا نحسب أن مثل هذا الاعتداء ينتهي بعد حادثة ذلك العليوي الجاني على الأستاذ الشيخ (عبد الحميد بن باديس) واقتصاص يد العدالة منه بما صيره عبرة لغيره وموعظة للمعتدين، فإذا به يتجدد مرة ثانية, فقد جاءتنا أنباء اليوم بفاجعة جديدة وجناية فظيعة تضاف إلى جنايات رجال الطرق السابقة حيث اعتدى بعض الطرقيين على (الأستاذ الزاهري) في هذه الأيام بمدينة (وهران) العضو الإداري بجمعية ((العلماء المسلمين)) وصاحب الكتابات الكثيرة ضد الضالين المضلين بما ذكرته جريدة ((الشريعة)) التي له اليد الأولى في تحريرها)[1]

ثم ذكر التأثير العاطفي للحادثة فيه وفي الجماهير، فقال: (تالله لقد هالنا هذا النبأ العظيم وأحزننا تجدد مثل هذه الحوادث من حين لآخر بهذا القطر البائس المسكين, وعز علينا ما نزل بأخينا الأستاذ الزاهري)[2]

وهو مع إقراره بأن الحادثة لم تعلم أسبابها ولا ملابساتها بدقة، يقول: (هذا وإننا لم ندر إلى ساعتنا هذه من هو المباشر لهذا الاعتداء والمنفذ لعملية أيسرها اعتداء على حرمة مسلم ذي شرف ودم معصوم مصون, وأعظمها لو تم للمعتدي ما أراد قتل عالم من علماء المسلمين يقول: ربنا الله, لا يؤمن بعقيدة الحلول ويكفر بها وبمن يقول: كل ما في الكون هو الله حتى الشيخ والكلب وحمار العزيز وخنزير جاره الذي يرعاه)[3]

ولكنه مع ذلك يظل مصرا على أن مرتكب الجريمة ينتمي للطرق الصوفية، يقول في ذلك: (وقد جاءتنا الأخبار الأخيرة عن هذا الحادث الفظيع أن الحكومة بوهران ألقت القبض على الجاني وأنه رهن السجن والتحقيق. ولكنا لم نعلم اسمه ولا هويته في طريقته ونحلته, ولا اسم (الشيخ) أو (المقدم) الذي سول له ارتكاب هذه الخطيئة وجرأه عليها بل أغراه بها وأشلاه, فلهذا لا نقدر أن نقول أنه من فقراء الطريقة العليوية أو أفرادها وما أكثر الأفراد في كل طريقة؟... غير أن الأمر المحقق عندنا هو أن الجاني طرقي وأنه مدفوع إلى هذه الجناية من طرقي ضال,

[1] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

[2] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

[3] جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية (ع 6/ ص3)

وأفاك دجال ستظهره الأيام وسيلقى جزاء جريمته وما اكتسبت يداه, وإن غدا لناظره قريب, وقريب جدا ما يوعدون)[1]

لكن الأيام خلفت للأسف ما جزم به العقبي، فلم تعرف الطريقة ولا شيخها الذي استطاع بدهائه أن يدبر هذه الحادثة من غير أن يفطن له أحد.

ونحب في هذا المقام أن نذكر بما قاله مالك بن نبي من ممارسات الاستعمار لتفكيك المجتمع الجزائري، وإثارة النعرات العرقية أو الطائفية فيه، فقد ذكر من الأمثلة على ذلك (أن يغتال - المستعمر- رجلاً واحداً حتى يبث الفوضى والاضطراب، أو أن يشتري ضمير أحد الزعماء السياسيين، الذين تتجسد فيهم في فترة معينة، طاقة البلاد الحيوية وفكرة نضالها)[2]

وبناء على هذا لا نستبعد أن تكون الحادثة تدبيرا استعماريا لإثارة المنطقة الغربية الجزائرية ضد الطرق الصوفية، كما أثيرت من قبلها في المنطقة الشرقية، خاصة إذا علمنا أن الزاهري اتهم بعد ذلك من الجمعية بكونه عميلا للاستعمار، بل نفذت فيه الثورة الجزائرية حكمها بالإعدام، وبذلك قتل الزاهري بيد الثورة لا بيد المساكين من أبناء الطرق الصوفية الذين هم أعجز الناس عن تدبير محاولات الاغتيال.

النموذج الثالث: طلب المباهلة

يهتم أصحاب المنهج السلفي عادة بالمباهلة[3]، فهم يعوضون بها المناظرة والمناقشة والحوار، ولهذا يختارون هذا المنهج في التعامل مع مخالفيهم، والسر في استعمالهم لهذا الأسلوب يعود

---

[1] الشريعة النبوية، (6/4)

[2] مالك بن نبي، ميلاد مجتمع : ص77.

[3] المباهلة في اللغة : من باهله مباهلة لعن كل منهما الآخر وابتهل إلى الله : ضرع إليه، وبهله بهلا : لعنه ومنه قول أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئا فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله أي لعنته، وباهل بعضهم بعضا : اجتمعوا فتداعوا فاستنزلوا لعنة الله على الظالم منهم وفي أثر ابن عباس : من شاء باهلته أنه ليس للأمة ظهار، ولا يخرج معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي (انظر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، الموسوعة الفقهية الكويتية، دار السلاسل، الكويت، الطبعة الثانية، (36/ 57)

إلى أمرين:

الأول: ثقتهم الزائدة في أنفسهم، والتي تصل أحيانا إلى حد الغرور، فهم يعتبرون أنفسهم أصحاب الفرقة الناجية، وأنهم على الحق المطلق كما أن غيرهم على الضلال المطلق.

والثاني: هو ضعف خصومهم في هذه الناحية، فهم مع اعتقادهم أنهم مع الحق، إلا أنهم لا يعتقدون أن خصومهم على الباطل، لأن الحق متعدد الصور عندهم، ولهذا لا يجرؤون أن يتفوهوا باللعن على الآخر مهما كان، وسنلاحظ هذا عند الحديث عن أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية.

وبناء على هذا، فقد حصل في تاريخ الجمعية حادثة من هذا النوع استثمرت أبشع استثمار، وكان الداعي لها في البداية الشيخ سكيرج وهو مغربي من الطريقة التيجانية، ولعل قصده من ذلك هو تحذير الجمعية من مغبة التكفير ونحوه، ثم تراجع عن ذلك، لكن الجمعية بقيت مصرة عليه، تلح عليه كل حين.

فقد كتب العقبي ردا على طلب المباهلة تحت عنوان (بل نجيب.. ولعنة الله على الكاذبين)[1]

ثم ذكر مباهلته في مقاله بقوله: (اللهم إن كنت تعلم أن سكيرج وجماعة الطرقيين فيما هم عليه اليوم وما يدعون الناس إليه ويقرونهم على فعله في طرقهم محقون، وأن ذلك هو دينك الذي ارتضيته وشرعته لعبادك بواسطة محمد ـ ﷺ ـ فالعني ومن معي لعنا كثيرا، وإن كنت ـ يا الله، يا ربنا ورب كل شيء ــ تعلم أن ما عليه الطرقيون اليوم فيما هم فيه من أمرهم ودعايتهم الناس إلى طرقهم هو من الحدث في دينك والباطل الذي لا يرضيك ولا يرضي نبيك، فالعن سكيرج ــ قاضي الجديدة ــ ومن معه لعنا كبيرا، واجعل مقتك الأبدي ولعنتك الدائمة على الكاذبين، ـ (آمين آمين آمين)[2]

ثم علق عليها بقوله: (هكذا أباهلك وألاعنك يا سكيرج فلاعني بمثلها وإياك أن تتأخر أو تنهزم يوم اللقاء)[3]

ولكن الشيخ سكيرج مع هذا الاستفزاز الذي استفزه به العقبي لم يستجب له، فما أصعب على الصوفي أن يتفوه بلفظ اللعنة

---

[1] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

[2] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

[3] الشِّهاب»، السنة الثانية، العدد (97)، 17 ذي القعدة 1345ه، ص8.

على نفسه أو على شخص يعتقد إسلامه، ويعتقد في نفس الوقت خطأه المبني على الاجتهاد، خاصة وأن العقبي دعا في مباهلته باللعنة الأبدية.

ونرى أن الشيخ سكيرج في هذا الموقف الحرج وقف بين أمرين: بين أن يستجيب لذلك الاستفزاز الذي استفز به، فينطق بتلك الألفاظ الخطيرة، وبين أن ينسحب ولو اتهم بما اتهم به، فاختار لورعه الثاني، وهو موقف في غاية الشرف والنبل والإيمان.

ولكن الجمعية لم تفهم هذا للأسف، فقد علقت الشهاب على نفور الشيخ سكيرج من المباهلة بهذا التعليق: (سكت سكيرج ولم يجب عن مقال العقبي ببنت شفة، وكان واجبه أن يجيب بصراحة ويقول: (إني قبلت تعيين الزمان والمكان)، وهكذا انهزم سكيرج، ولكن أصحابه عمدوا إلى التمويه والمغالطة والكذب فأعرض العقبي عنهم، وقطع الكلام معهم لأنهم كما قال: (هم قوم بُهتٌ)[1]

وقد كانت هذه الحادثة من الحوادث التي استثمرت في إثارة عواطف المجتمع ضد الطرق الصوفية، فقد كتب ابن باديس تحت عنوان (سيهزم الجمع ويولون الدبر) يقول: مخاطبا الشيخ العقبي: (حياك الله وأيدك ــ يا سيف السنة وعلم الموحدين ـ وجزاك الله أحسن جزاء عن نفسك وعن دينك وعن إخوانك السلفيين المصلحين، ها نحن كلنا معك في موقفك صفا واحدا ندعوا دعوتك ونباهل مباهلتك ونؤازرك لله وبالله.. فليقدم إلينا الحلوليون وشيخهم ومن لف لفهم وكثر سوادهم في اليوم الموعود والمكان المعين لهم، وليبادروا بإعلان ذلك في جريدتهم، إن كانوا صادقين،فإن لم يفعلوا ـ وأحسب أنهم لن يفعلوا ــ فقد حقت عليهم كلمة العذاب وكانوا من الظالمين والحمد لله رب العالمين) [2]

المبحث الثاني: أساليب تعامل الطرق الصوفية مع الجمعية

لقد حاولنا - قبل إنجاز هذا المبحث - أن ننظر في مصادر الطرق الصوفية عن رد فعل الطرق الصوفية عن أنواع

[1] الشهاب العدد 112 / ص8 ـ 14

[2] الشِّهاب»، السنة الثّانية، العدد(97)، 17 ذي القعدة 1345هـ، (ص: 7)

المواجهات التي سبق ذكرها حتى تكون المقارنة تامة بين الطرفين، لكنا للأسف لم نجد إلا نوعا واحدا فقط يصلح للحديث عنه عند الطرق الصوفية، وهو ما أطلقنا عليه المواجهة العلمية.

ذلك أن المواجهتين الأخريين: الأدبية والعاطفية تقتضيان وجود أدباء وخطباء وذوي قدرات بيانية، ولم نجد هذا عند الطرق الصوفية، وفي حال وجوده، فإن الأدب الصوفي متوجه عموما للسلوك والعرفان، ولا يتوجه للجدل والخصومات.

ولهذا، فإنا لم نجد في دواوين الشيخ ابن عليوة، والشيخ عدة بن تونس وغيرهما ما يمكن أن نواجه به ما كتبه الزاهري أو العقبي، فأشعار ابن عليوة وغيره أشعار صوفية، بعيدة تماما عن البيئة التي كتبت فيها، قد يصح مقارنتها بأشعار ابن الفارض أو الششتري أو غيرهما من الصوفية، ولكنه لا يصح بأي حال من الأحوال مقارنتها بأشعار رجال الجمعية.

وهكذا في كل المجالات الأخرى، ولهذا اكتفينا في هذا المبحث بذكر خصائص المواجهة العلمية، والتي رأينا أنها تتمثل في ثلاث خصائص:

أولا ــ الاعتماد على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية.

ثانيا ــ ضعفها في علوم الحديث

ثالثا ــ تسامحها مع المخالف

وسنتحدث عن هذه الخصائص في هذا المبحث.

أولا ــ الاعتماد على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية:

منذ بداية تأسيس الحركة السلفية على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب لقيت معارضة شديدة من طرف أكثر الطرق الصوفية، وألفت في ذلك الكتب والرسائل الكثيرة، وما أسرع ما انتشرت في العالم الإسلامي تلك الكتب والرسائل لتوسع الهوة بين كلا التيارين: السلفي والصوفي.

وقد ساعد على انتشار هذه الرسائل والكتب ما ووجهت به الدعوة السلفية الوهابية من معارضة سياسية واجتماعية في جميع بلاد العالم الإسلامي.

وكان من تلك الرسائل والكتب ما لبس لباس العلم والحوار العلمي بآدابه الشرعية، وهو قليل لا يكاد يذكر، وكان منها وهو الأكثر ما لبس لباس الشدة والعنف بجميع أشكاله.

وقد نهلت الطرق الصوفية الجزائرية من تلك المصادر جميعا،

واستعانت بها في مواجهتها لجمعية العلماء المسلمين.

ولهذا نرى لزاما علينا أن نذكر هنا باختصار بعض ما ألف في مواجهة المدرسة السلفية من طرف رجال الطرق الصوفية، أو الفقهاء المنتسبين لهم، باعتبار أن هذه الكتب والرسائل كانت هي المصادر التي اعتمدت عليها الطرق الصوفية الجزائرية بعد ذلك في مواقفها من جمعية العلماء، ودليل ذلك - كما سنرى - أن التهم التي وجهها المحاربون للمدرسة السلفية هي نفسها التي وجهها رجال الطرق الصوفية في الجزائر لجمعية العلماء.

ونحب أن نذكر هنا ــ بأسف ــ أن معظم الكتب والرسائل التي سنذكرها، والتي راجت أول ظهور الدعوة الوهابية، وكان لها دور في الحد من تأثيرها وانتشارها، هي الآن في حكم النادر، وبعضها لا يزال مخطوطا في مراكز أجنبية، ولم يمكنا الحصول عليه، ولهذا رجعنا في التعريف بها وبمؤلفيها إلى كتاب (دعاوى المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عرض ونقض) للشيخ عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف.

ونرى أن ما حصل للمخالفين للشيخ محمد بن عبد الوهاب من التعتيم هو نفسه ما حصل للمخالفين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فلا تزال كتب المخالفين ورسائلهم إما نادرة أو مخطوطة أو مطبوعة طبعة رديئة مقارنة بكتب ورسائل الجمعية.

بعد هذه الملاحظات المنهجية، نذكر أهم ما ألف في الرد على الوهابية، واستندت إليه الطرق الصوفية في مواجهتها للمخالفين لها:

1 ــ رسالة (**الدرر السنية في الرد على الوهابية**)، وهي من أشهر ما كتب في هذا الباب، وهي من الكتب القليلة المطبوعة، وقد ألفها الشيخ أحمد بن زيني دحلان : ولعله أشهر من واجه السلفية (الوهابية) في ذلك الحين.

وقد أتاحت له مكانته العلمية، فقد كان مفتي الشافعية، وأتاح له كذلك وجوده في الحجاز، وبالضبط في مكة المكرمة، أن ينشر أفكاره التحذيرية من الدعوة الوهابية على جميع بلاد العالم الإسلامي، وأن تؤتي تحذيراته أكلها.

وقد ذكر محمد منظور النعماني ما كان ينشره (أحمد بن زيني دحلان) من أفكار، مبيناً مدى انتشارها بعد سقوط الدرعية 1234هـ: (صادرت أرض الحجاز مركز دعاية ضد الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجماعته بعدما أقصت الوهابيين قوات محمد علي

باشا حاكم مصر آنذاك على إيعاز من الحكومة العثمانية.. وأضحت تنتشر في الحجاز – فيما يتصل بالشيخ – أمور مستهجنة إن سمعها مسلم فإنه لا يكره شخصه فحسب.. بل يعتبره أكفر الكافرين في العالم كله.. وبما أن الحرمين الشريفين هما مركز المسلمين الروحي والديني ومهد الدعوة الإسلامية ومنتجع الحجيج من المسلمين في العالم كله، يختلف إليها المسلمون ولا سيما في مناسبة الموسم فساعد كل ذلك على انتشار كل ما يحاك فيهما ضد الوهابيين أو يدور حولهم في المحافل والنوادي أو يقال ويكتب في المؤلفات ساعده على انتشار في طول العالم وعرضه)

وقد لقي لأجل هذا معارضة شديدة من طرف التيار السلفي بنوعيه التنويري والمحافظ:

فالشيخ محمد رشيد رضا ينفي عنه صفة العلمية بالرغم من كونه مفتي مكة المكرمة، فيقول: (إن دحلان غير محدث ولا مؤرخ ولا متكلم وإنما هو مقلد للمقلدين ونقال من كتب المتأخرين)

والتيار المحافظ يرميه بكل شيء حتى بالرفض كعادته في رمي المخالفين، يقول فوزان السابق:(قد قال بعض الفضلاء من علماء مكة : تصانيف دحلان كالميتة لا يأكلها إلا المضطر. وقد رد عليه كثير من علماء الهند والعراق ونجد وغيرهم ففضحوه وبينوا ضلاله. وقد سمعت غير واحد ممن يوثق بهم من أهل العلم يقولون : أن دحلان هذا رافضي لكنه أخفى مذهبه وتسمى بتقليد أحد الأئمة الأربعة ستراً لمقاصده الخبيثة، ولنيل المناصب التي يأكل منها. ومن أدل الدليل على رفضه الخبيث، تأليفه لكتاب (أسنى المطالب في نجاة أبي طالب) الذي ردّ فيه بهواه نصوص الكتاب والسنة الصحيحة المتواترة)

2 ـ **لفحات الوجد من فعلات أهل نجد**: وقد ألفه الشيخ محسن بن عبد الكريم بن إسحاق الحسني، وهو عبارة عن أبيات شعرية كتبها ضد الوهابية ثم شرحها في هذا الكتاب، وقد ذكر في آخر الرسالة بعض المسائل الفقهية التي يعارض فيها الوهابية.

3 ـ **فصل الخطاب في رد ضلالات ابن عبد الوهاب**: وقد ألفه الشيخ أحمد بن علي البصري الشهير بالقباني، وقد كان حيّا سنة 1157هـ، وهو مجلد ضخم كتبه جوابا على رسالة ابن سحيم التي بعثها إلى علماء الدول الإسلامية يحذرهم فيها من

الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته.

4 ـ **الصواعق والرعود في الرد على ابن سعود** : وقد ألفه عبد الله بن داود الزبيري (ت 1225هـ)، وقد لقي هذا الكتاب حينها اهتماما كبيرا من طرف المخالفين للدعوة الوهابية، وأثنى عليه الكثير من مشايخ الصوفية أو من ارتبط بهم، يقول الشيخ محمد بن محمد القادري واصفا للكتاب: (وهو كتاب مخزون بالعجائب، ومشحون بالغرائب، عظيم النفع، جليل الشأن، واضح البرهان، لا نعرف كتاباً في هذا النمط أشرف منه وأعظم، ولا أنفس منه وأتم، من شأنه أن يكتب سطوره بالنور على خدود الحور ... ومن أراد أن يعرف دسائس الشيطان التي ألقاها إلى ابن سعود، فعليه بمطالعة (الصواعق والرعود)، فإنه كتاب غريب في صنعه عجيب، وكان التصدي لإبطالها فرض كفاية على علماء المسلمين، لئلا يغتر بها عوام المؤمنين، ويصير الوزر عليهم أجمعين، فجزا الله حضرة الشيخ عبد الله بن داود حيث أبطلها في (الصواعق والرعود) أحسن الجزاء حيث رفع الوزر عنه وعنهم في دار الجزاء)

وذكره الشيخ (علوي الحداد)، فقال: (وقد سمعت بكتاب مبسوط في عشرين كراساً سماه (الصواعق والرعود رداً على الشقي عبد العزيز بن سعود)، وقد قرظ عليه أئمة من علماء البصرة وبغداد وحلب والإحساء وغيرهم، تأييداً لكلام مؤلفه وثناء منهم عليه، وقد أجادوا وبينوا)

5 ـ **مصباح الأنام وجلاء الظلام في رد شبه البدعي النجدي التي أضل بها العوام**: ألفه الشيخ علوي بن أحمد الحداد (ت 1232هـ)، وهو يتكون من سبعة عشر فصلاً، ذكر فيها مسائل الخلاف بين الطرق الصوفية والوهابية كجواز الاستغاثة بالأموات وتعظيم الأولياء، وجواز البناء على القبور وتشييد المشاهد والمزارات لقبور الصالحين..

6 ـ **الرد على بعض المبتدعين من الطائفة الوهابية** : وهي رسالة من تأليف الشيخ محمد بن عبد المجيد بن عبد السلام بن كيران الفاسي (ت 1227هـ) وهو أحد علماء فاس بالمغرب، وكان سبب تأليف كتابه هو وصول رسالتين من الأمير سعود بن عبد العزيز (ت 1229هـ) إلى تلك البلاد فكتب هذا الرد على تلك الرسالتين.

بالإضافة إلى هذه الردود المبكرة، والمرتبطة بأصل الدعوة

الوهابيـة، نجـد الكثـير من الكتب والرسـائل الـتي ألفت بعـد ذلـك حول مسائل الخلاف الكثيرة بين الوهـابيين والصـوفية، وهي كلهـا مطبوعة ومنتشرة بكثرة خاصة بين الزوايا والطرق الصوفية نذكر منها باختصار:

1 - **الأجوبــة النعمانيــة عن الأسـئلة الهـــندية في العقائد**: لنعمـان بن محمـود خـير الـدين الشهـير بـابن الألوسي البغدادي، الحنفي (ت1317 هـ)

2- **إحيـاء المقبـور من أدلـة اسـتحباب بنـاء المسـاجد والقبــاب على القبــور**: للشـيخ الحافـظ أحمـد بن الصـديق الغماري (ت 1380هـ)، وهو مطبوع طبعات كثيرة.

3 ـ **الأصول الأربعـة في ترديـد الوهّابية**: لمحمـد حسـن صاحب السرهـندي المجددي (ت 1346)

4- **الأقوال السنية في الرد على مدعي نصرة السـنة المحمدية**: جمعهـا إبـراهيم شـحاتة الصـديقي من كلام المحـدث عبد الله الغماري.

5 ـ **الأوراق البغداديــة في الجوابــات النجدية**: للشــيخ إبـراهيم الـراوي البغـدادي، الرفـاعي، رئيس الطريقـة الرفاعيـة ببغداد.

6 ـ **البراءة من الاختلاف في الرد على أهـل الشــقاق والنفاق والرد على الفرقة الوهّابية الضـالّة**: للشـيخ علي زين العابدين السوداني.

7 - **تحذير الخلف من مخـازي أدعيـاء السـلف**: للشـيخ محمد زاهـد الكوثري .

8 ـ **التحفة الوهـبية في الردّ على الوهّابية**: للشيخ داود بن سليمان البغدادي، النقشبندي الحنفي، المتوفى سنة 1299

9 ـ **تطهــير الفــؤاد من دنس الاعتقــاد**: للشـيخ محمـد بخيت المطيعي الحنفي، من علماء الأزهـر الشريف.

10 ـ **جلال الحــقّ في كشــف أحــوال أشــرار الخلق**: للشيخ إبراهيم حلمي القادري الاسكندري.

11 ـ **الردّ على ابن عبد الوهـاب**: لشـيخ الإسـلام بتـونس إسماعيل التميمي المالكي، المتوفى سنة 1248هـ.

12 ـ **الرد على الوهّابية**: للشـيخ صـالح الكـوا ش التونسي، وهـي رسالة مسجعة نقض بهـا رسالة لابن عبد الوهاب.

13 ـ **الــردّ على الوهّابية**: لإبراهـــيم بن عبـــد القـــادر

الطرابلسي الرياحي التونسي المـالكي من مدينـة تسـتور، تـوفي سنة 1266هـ.

14 ـ **سـعادة الـداربن في الـردّ على الفرقـتين: الوهّابية، ومقلّدة الظاهـرية**: لإبراهـيم بن عثمـان بن محمّـد السمنودي المنصوري المصري، مطبوع في مصر سنة 1320 هـ، في مجلدين.

15 ـ **صـلح الإخـوان في الـردّ على من قـال على المسـلمين بالشـرك والكفـران**: في الـردّ على الوهّابيـة لتكفيرهـم المسـلمين. للشـيخ داود بن سـليمان النقشـبندي البغدادي الحنفي، المتوفى سنة 1299هـ.

16 ـ **قمع أهـل الزيـغ والإلحـاد عن الطعن في تقليـد أئمة الاجتهـاد**: لمفتي المدينة المنـورة المحـدث الشـيخ محمـد الخضر الشنقيطي المتوفى سنة 1353 هـ.

ثانيا ـ ضعفها في علوم الحديث:

من الخصائص التي يكتشـفها البـاحث في الصـوفية عمومـا هـو عدم اهتمامهم الشديد بالتوثيق، وخصوصا في علم الحديث، ولعل سر ذلك يعود إلى اهتمامهم بالمعنى أكثر من اهتمامهم بالمصادر، فـإذا صـح المعـنى عنـدهم قبلـوه، بغض النظـر عن مصـدره، وإذا ضعف رفضوه، من غير مبالاة كثيرة بمصدره.

ولهـذا نـراهم يصـححون مـا اتفـق المحـدثون على تضـعيفه أو تكذيبه، كحديث جابر المشهور: يارسـول اللـه : (بـأبي أنت، وأمي أخبرني عن أول شـيء خلقـه اللـه قبـل الأشـياء، قـال : (إن اللـه تعالى خلق قبل الأشياء نور نبيك يا جابر، ثم خلـق منـه كـل خـير، وخلق بعده كل شـيء)[1]، فقـد حكم المحـدثون على هـذا الحـديث بالوضع[2]، ومع ذلك فإنا نرى الصوفية يستدلون به، بل يقرونه بنـاء

---

[1] انظر كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر على ألسنة النـاس، للعجلـونى ص 263.

[2] حتى أن المنـافحين عن الصـوفية كالعلامـة عبـد اللـه بن الصـديق الغمـاري يـرى ضعفه، فيقول: (وعـزْوه إلى روايـة عبـد الـرزاق خطـأ لأنـه لا يوجـد في مصـنفه ولا جامعه ولا تفسيره، وقال الحافظ السيوطي في الحاوي في الفتاوى، ج1 ص 325 : (ليس له إسناد يعتمد عليه)ـ، وهو حديث موضوع جزمًا .. وبالجملـة فالحـديث منكـر موضوع لا أصل له في شىء من كتب السُّنّة)(انظر: مرشد الحائر لبيان وضع حديث

على التي اتفاقه مع الكشف.

فقد أقر العلامة الدردير المالكي– مع فقهه وعلمه بل ومالكيته المتشددة- معنى الحديث فقال : (ونوره) ﷺ (أصل الأنوار) والأجسام كما قال ﷺ لجابر رضي الله عنه : (أول ما خلق الله نور نبيك من نوره) الحديث فهو الواسطة في جميع المخلوقات)[1]

وذلك لكونه صوفيا، والصوفية متفقون على الأقل على معنى الحديث.

وهكذا نراهم ينكرون الأحاديث التي وردت في البخاري ومسلم إذا كان معناها مخالفا لما يؤمنون به، يقول ابن عربي - عند ذكره لبعض الأحاديث -: (ولقد ورد في حديث نبوي عند أهل الكشف صحيح وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي)[2]

ويقول عن أولياء الصوفية: (ما وهبهم الحق تعالى في طاعته حين أطاعوه، وبما صح عندهم من أحاديث الأحكام ما أتفق على ضعفه وتجريح نقلته (من علماء الحديث)، وهم (الصوفية) أخذوه عن الكشف عن قائله ﷺ صحيحاً، فتعبدوا به أنفسهم على غير ما تقرر عند علماء الرسوم .. ورب حديث قد صححوه واتفقوا عليه (علماء الرسوم)، وليس بصحيح عندهم (الصوفية) من طريق الكشف، ويتركون العمل به)[3]

ولهذا نراهم - مثلا - ينكرون كون أبوي رسول الله ﷺ في النار مع أن الحديث الوارد في ذلك ورد في البخاري، بل إن السيوطي عدة رسائل في ذلك[4].

جابر، للعلامة: عبد الله بن الصديق الغماري، ص2.

ولقد حكم بوضعه أكثر المحدثين كالحافظ الصغاني (الموضوعات، للصغاني، ص 25)، وأقره الحافظ العجلوني على ذلك (كشف الخفاء، للعجلوني، ج2 ص 232)

[1] الشرح الصغير، للدردير، ومعه حاشية الصاوي المسماة ببلغة السالك، ج4 ص 778، 779.

[2] الفتوحات المكية: جـ 3 صـ 16 .

[3] رسائل ابن عربي، ص30 .

[4] هذه الرسائل هي:

1) مسالك الحنفا فى أبوى المصطفى .

2) التعظيم والمنة فى أن أبوى الرسول فى الجنة .

بـل إن السـيوطى فى رسـالته (التعظيم والمنـة في أن أبـوي الرسول في الجنـة) يقـدم الحـديث الـوارد في إحيـاء أم النـبي ﷺ وهو باتفاق المحدثين من قسم الضعيف على الحـديث الـوارد في البخاري، وقد علل ذلك بأنه من (الضـعيف الـذى يتسـامح بروايتـه في الفضائل خصوصا في مثل هذا الموطن)[1]

ومن عجيب ما استدل به السيوطي في هذه الرسالة أنـه تأمـل بالاسـتقراء فوجـد جميـع أمهـات الأنبيـاء عليهم الصـلاة والسـلام مؤمنات فلا بد أن يكون أم النبي ﷺ كذلك، كأم إسحاق وإسماعيل ويعقوب وموسى وهارون وعيسى[2].

بل إن السيوطي – كالصوفية جميعا- يذهب إلى أخطر من ذلـك حين يقرر في رسالة (الدرج المنيفة في الآبـاء الشـريفة) على أن جميع أجداد النبي ﷺ مؤمنون وفي الجنة، ويسـتدل لـذلك بمـا ورد في الحديث من أن النبي ﷺ قال: (رأيت عمرو بن لحى الخـزاعي يجر قصبه في النار، وكان أول سيب السوائب)، وهو أول من غـير دين إبراهيم[3].

---

3) الدرج المنيفة فى الآباء الشريفة .

4) نشر العلمين المنيفين فى إحياء الأبوين الشريفين .

5) المقامة السندسية فى النسبة المصطفوية .

6) السبل الجلية فى الآباء العلية

وقد طبعت جميعا - عدا الخامسة - تحت عنوان (رسائل الإمام الحافـظ جلال الـدين السيوطى فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صـلى اللـه عليـه وسـلم وأنهم من أهـل الجنة فى الآخرة)، تحقيق العلامة الشيخ حسنين مخلوف، رحمـه اللـه، أمـا الرسـالة الخامسة فمن الواضح أنها مقامة أديبة فى المسألة، فاقتصر على الرسائل الأخرى، فقال العلامة المحقق: (اكتفينا بطبع الرسائل الخمس عن طبع المقامة السندسـية، وذيلناهـا برسـالة إنبـاه الأذكيـاء فى حيـاة الأنبيـاء عليهم السـلام)، القـاهرة: مطبعة المدنى، ط 2، 1396هـ/1976 م)

[1]) التعظيم والمنة، ضمن مجموعة الرسائل فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم، (ص 78)

[2]) التعظيم والمنة، ضمن مجموعة الرسائل فى تحقيق نجاة أبوى المصطفى صلى الله عليه وسلم (ص 99- 100)

[3]) صحيح البخارـ (2/ 82)، صحيح مسلم (8/ 155)

قـال السـيوطي معقبـا على الحـديث: (فثبت بهـذا التقريـر أن أجداده ﷺ من إبراهيم عليه السلام إلى كعب بن لؤي وولـده مـرة منصوص على إيمانهم ولم يختلف فى ذلـك اثنـان، وبقى بين مـرة بن كعب وعبـد المطلب أربعـة آبـاء هم : كلاب – وقصـى – وعبـد مناف – وهاشم، ولم أظفر فيهم بنقل لا بهذا ولا بهذا)[1]

بل إن الأمر لم يقتصر على أبوي رسول الله ﷺ حتى عمه الذي يتفق المحدثون على صحة الأحـاديث الـواردة في شـأنه، وأنـه لم يمت على الإيمان، ولكن الصـوفية مـع ذلـك كتبـوا الكتب الكثـيرة يصححون إيمانه[2].

وهكذا في المسائل الكثـيرة.. والـتي جعلت المحـدثين ينفـرون منهم، ويعتبرونهم جهـالا بعلم الحـديث، وقـد سـبق أن ذكرنـا نقـد الشيخ العربي التبسي لمحاوره حـول اسـتدلاله بالحسـن البصـري في العهود، وهو ما ينفيه المحدثون.

والأخطر من ذلك كله هو تصحيح الحـديث بالكشـف، ومن ذلـك ما أورده الشعراني عن أبي المواهب الشاذلي قال: قابلت رسول الله ﷺ فسألته عن الحـديث المشـهور (اذكـروا اللـه حـتى يقولـوا مجنون)[3]، وفي صحيح بن حبان (أكثروا من ذكر اللـه حـتى يقولـوا مجنون)، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق ابن حبـان في روايتـه, وصدق راوي (اذكروا الله) فاني قلتهما معاً, مرة قلت هـذا, ومـرة قلت هذا)[4]

ومن ذلك ما ورد في (جواهر المعاني): (وسئل سـيدنا – رضـي

---

[1] السيوطي، الدرج المنيفة، ضمن مجموعة الرسائل السابقة، (ص 144 – 145)

[2] من الكتب المتداولة في الزوايا حول إيمانه كتاب (أسنى المطالب في نجـاة أبي طالب) للعلامة أحمد زيني دحلان، الفقيه الخطيب مفتي الشافعية (1232 ـ 1304 هـ)، وقد اختصر فيـه كتـاب (بغيـة الطـالب لإيمـان أبي طـالب) للعلامـة محمـد بن رسول البر زنجي، وأضاف عليه مطالب مهمة، طبع بمصر سنة (1305 هـ)، وبعـدها مكررا.

[3] الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (2/93) حديث رقم (814) وأخرجه الحاكم في (المسـتدرك) 499/1 والإمـام أحمـد في (المسـند) 3/68 وابن عـدي في الكامـل (3/980)

[4] الشعراني، الطبقات الكبرى: (2/68)

الله عنه – عن مسائل منها قوله عليه الصلاة والسلام : (علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل)[1]؟ فقال : الجواب – والله الموفق بمنه وكرمه للصواب - أما ما ذكرت من الحديث وهو علماء أمتي ... الخ فليس بحديث, نص عليه السيوطي في (الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة) وسأل صاحب (الإبريز) شيخه – رضي الله عنه – فقال له: ليس بحديث, وذكره من جهة الكشف لأنه لا دراية له بعلم الحديث، وقوله حجة على غيره لأنه قطب – رضي الله تعالى عنه – كما صرح به صاحب الإبريز المذكور)[2]

بل إن المحدث الكبير العجلوني مع كونه مرجعا من مراجع التيار السلفي في الحديث– نتيجة تأثره بالتصوف – يصحح هذا، ويحاول أن يستدل له، وقد قال في مقدمة كتابه (كشف الخفاء): (والحكم على الحديث بالوضع والصحة أو غيرهما، إنما بحسب الظاهرِ للمحدثين، باعتبار الإسناد أو غيرِه، لا باعتبار نفس الأمرِ والقطعِ، لجواز أن يكون الصحيح مثلاً باعتبار نظر المحدث: موضوعاً أو ضعيفاً في نفس الأمر، وبالعكس. نعم المتواتر مطلقاً قطعي النسبة لرسول الله ﷺ اتفاقاً.. ومع كون الحديث يحتمل ذلك، فيعمل بمقتضى ما يثبت عند المحدثين، ويترتب عليه الحكم الشرعي المستفاد منه للمستنبطين. وفي (الفتوحات المكية) للشيخ الأكبر قدس سره الأنور، ما حاصله: فرب حديث يكون صحيحاً من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف أنه غير صحيح لسؤاله لرسول الله ﷺ فيعَلم وضعه، ويترك العمل به وإن عمل به أهل النقل لصحة طريقه. ورب حديثٍ تـرِك العمل به لضعف طريقه، من أجل وضاع في رواته، يكون صحيحاً في نفس الأمر، لسماع المكاشف له من الروح حين إلقائه على رسول الله صلى الله عليه وسلم)[3]

وإلى مثل هذا ذهب كل المحدثين من الصوفية، فهذا ابن حجر

---

[1]) قال السخاوي: قال شيخنا – أي الحافظ ابن حجر ــ ومن قبله الدميري والزركشي: أنه لا أصل له، زاد بعضهم: ولا يعرف في كتاب معتبر (انظر: المقاصد الحسنة (ص 286)

[2]) جواهر المعاني: (2/71)

الهيثمي عندما سئل عن رأيه في استخدام الكشف الصوفي للحكم على الأحاديث وافق ذلك، ثم ذكر حكاية (عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثاً فقال له الولي : هذا الحديث باطل، قال : ومن أين لك هذا ؟ قال هذا النبي ﷺ واقف على رأسك يقول: إنى لم أقل هذا الحديث وكُشف للفقيه فرآه)[1]

بل إن الأمر عند الصوفية أخطر من أن ينحصر في ذلك، فهم يرون الرجوع إلى رسول الله ﷺ في كل محل، وقد نقل النبهاني عن كتاب (العهود المحمدية) للشعراني قوله نصيحة لمن رغب في المجاورة في أحد الحرمين: (فإن كان من أهل الصفاء فليشاوره ﷺ في كل مسألة فيها رأي أو قياس ويفعل ما أشار به ﷺ بشرط أن يسمع لفظه ﷺ صريحا يقظة، كما كان عليه الشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله قال : وقد صححت منه ﷺ عدة أحاديث قال بعض الحفاظ بضعفها فأخذت بقوله ﷺ فيها، ولم يبق عندي شك فيما قاله وصار ذلك عندي من شرعه الصحيح أعمل به وإن لم يطعني عليه العلماء بناء على قواعدهم)[2]

ثالثا ــ تسامحها مع المخالف:

من الأمور المتفق عليها، والتي لقيت إنكارا شديدا خاصة من التيار السلفي، موقف الصوفية المتسامح من الآخر، حتى لو كان ذلك الآخر غير مسلم، ولهذا يرمونهم بالقول بوحدة الأديان، ويكفرونهم على أساس ذلك.

وبناء على هذا، فإن أسلوب الطرق الصوفية في تعاملها مع الجمعية كان ألين بكثير من أسلوب الجمعية مع الطرق الصوفية، وقد سبق ذكر الأمثلة الكثيرة على ذلك، بل سبق أن ذكرنا كيف وصف الشيخ ابن باديس تعامل الشيخ ابن عليوة معه، وكيف أشاد بتلك المعاملة.

وأبسط مقارنة في هذا بين التوجه الصوفي والتوجه السلفي هو الموقف من قوله ﷺ: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين

---

[3]) العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي، كشف الخفاء ومزيل الالباس عما اشتهر من الاحاديث على ألسنة الناس، دار إحياء التراث العربي، (1/ 9)

[1]) الفتاوى الحديثية صـ 217.

[2]) النبهاني، سعادة الدارين، صـ 440.

فرقة، وتفرقت أمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلّها في النار إلاّ واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي)[1] ،والذي يتعلق به الاتجاه السلفي كثيرا، بل على أساسه يحكم على سائر الطوائف والفرق.

بينما نجد الشيخ ابن عليوة والصوفية عموما ينظرون إليه نظرة مغايرة، فقد سئل الشيخ ابن عليوة عن الحديث، فقال: (إنّ هذا الحديث ممّا يقضي على الأمّة المحمديّة بالهلاك، مهما فهمناه حسبما فهمه أغلب المفسرين، لأنّه صريح في نجاة جزء من ثلاث وسبعين جزءا من الأمّة المحمديّة، وعليه فالمرجو من الله والموافق لرأفة رسول الله ﷺ بالمؤمنين، أن نحمل ذكر الأمّة في الحديث على أمّة الدعوة، لا على أمّة الإجابة، لقوله ﷺ: (أنا رسول من أدركته حيّا، ومن لم يولد بعدي)[2]، ويتضح لك المعنى من أنّ الأمّة هنا المراد بها أمّة الدعوة، لقوله ﷺ: (من كان آخر كلامه في الدنيا لا إله إلاّ الله دخل الجنّة)[3]، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ } [النساء: 48] وغير هذا، ومن المعلوم أنّ أمّة الإجابة لم تعدم حظها من توحيد الله، والإقرار برسالة رسول الله ﷺ وإن تفرّقت من حيث الفروع فأصلها ثابت، وشفاعته ﷺ محيطة بمن انتسب إليه، كيفما كان، والظنّ في الله حسن .. ومن المحتمل أنّ الملل كانت قبل بعثة موسى عليه السلام، بالغة إلى حد السبعين فرقة والملّة التي جاء بها موسى عليه السلام هي تمام الإحدى والسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه موسى عليه السلام وأتباعه، ولمّا بعث الله عيسى عليه السلام، كانت ملته هي تمام الاثنين والسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه عيسى وأتباعه، ولمّا بعث الله سبحانه وتعالى سيدنا (محمدا ﷺ) بشريعة سمحة عادت الفرق مع ما سبق ثلاثا وسبعين فرقة، والجميع في النار إلاّ ما كان عليه (محمد ﷺ وأتباعه)، والجميع أمتّه من جهة الدعوة حسبما سبق، والظنّ في الله جميل، وهو

---

[1] ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجة، مكتبة أبي المعاطي، (5/ 128)

[2] مع اجتهادي في البحث عن تخريج الحديث إلا أني لم أجده.

[3] مسند أحمد بن حنبل (5/ 233)

حسبنا ونعم الوكيل)[1]

وفي موضع آخر، وفي رده على الشيخ عثمان بن مكي، يقول: (وأيّ معصية أشنع من تطبيقك جميع ما ورد في أهل الزيغ والضلالة على جماعة الصوفيّة ؟، ولم يكفك ذلك حتى جعلتهم فرقة من فرق أهل النار مستدلا بقوله، فعن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ليأتيّن على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمّه علانية لكان في أمتّي من يصنع ذلك، وإنّ بني إسرائيل تفرّقت إلى ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتّي على ثلاث وسبعين ملّة كلّهم في النار إلاّ ملّة واحدة، قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟، قال : ما أنا عليه وأصحابي)[2] رواه الترمذي في سننه، وهذا صريح في أنّك تعني أنّ فرقة أهل التصوّف واحدة من تلك الفرق، وإنّي أحكمك لله ولرسوله ولصالح المؤمنين فيما بينك وبين الصوفيّة، وهلا نقلت حديثا نقله الإمام الغزالي في كتابه المسمّى بـ (فصل التفريقات) [3] وهو قوله عليه الصلاة والسلام :(ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلّهم في الجنّة إلاّ الزنادقة)[4]، ولكن هذا لا يقع عليه بصرك وإنّما يقع على ما يساعدك في الحكم على سائر أفراد المسلمين بالنار حتى تخلو لك الجنّة أنت ومن هو على شاكلتك لا غير، ولا تجد من يرفع عنك معضلتك إلاّ صوفيّ ومحال أن تتنزل له لأنّ الحسد باب الإنصاف ويقطع لسان الاعتراف) [5]

وعلى أساس ذلك يحكم على كل المخالفين بأنهم ناجون ما دام طلبهم الحقيقة، فيقول: (وأنا أقول : إنّ الله سبحانه وتعالى عند ظنّ كلّ مؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر مهما اجتهد لنفسه

---

[1]) أحمد بن مصطفى العلاوي: أعذب المناهل، ص 58، ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص147.

[2]) سنن الترمذي (5/ 26)

[3]) يشير به إلى كتاب أبي حامد الغزالي (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) الذي سبقت الإشارة إليه.

[4]) سبق تخريجه مفصلا.

[5]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صفحات مطوية في التصوف الإسلامي، ص204.

بما يقرّبه إلى الله، فإن أصاب فله أجران، وإن لم يصب فله أجر، فهو مأجور على كلّ حال أحببت أم كـرهت، لأنّ الخلـق مـا كلّفـوا إصابة الصواب، إنّمـا كلّفـوا الظنّ بأنّـه صـواب، وجميـع ذلـك ممّـا يقتضيه تسامح الشرع الأحمدي المشار إليـه بقولـه تعـالى: {وَمَـا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78] .. فلمـا لم تصـادف هذه الأخبار التي تفيد الوسع وتقضي على الأمّة بالنجاة ؟، ولكنّـك تنظر بـالعين العـوراء، فلهـذا أراك إلى الآن لم تـترك نصّـا يقضـي على الذاكرين بالدمار والخروج من سعة رحمة الله الـتي وسـعت كلّ شيء إلاّ وألصقته بجانبهم) [1]

[1]) ابن عليوة، أعذب المناهل في الأجوبة والمسائل، نقلا عن: صـفحات مطويـة في التصوف الإسلامي، ص205.

خاتمة الفصل

من النتائج المهمة التي يمكننا استخلاصها من هذا الفصل:

1 ــ رأينا أنه يمكن تقسيم الأساليب التي استعملتها الجمعية في مواجهة الطرق الصوفية إلى ثلاثة أنواع: المواجهة العلمية، والمواجهة الأدبية، والمواجهة العاطفية.

2 ــ ربما كان حظ المواجهة العلمية – من خلال ما وصل إلينا من تراث الجمعية من صحفها ورسائلها هو أهون أنواع المواجهات وأقلها، فمع تلك الحملة الشديدة لم نر إلا بعض رسائل قصيرة محدودة المحتوى، وفي لغة لا نستطيع أن نصنفها ضمن اللغات العلمية المنهجية البحتة، وربما يكون عذر الجمعية في هذا هو طغيان المتشددين عليها، ورفضهم لأي حوار مع الآخر، بل رفضهم، ولو لذكر أدلة الطرف الآخر، ثم مناقشتها.

3 ــ من خلال دراسة التراث القليل الذي كتبه رجال الجمعية حول تفاصيل الخلاف بينهم وبين الطرق الصوفية يمكن ملاحظة أن جمعية العلماء لم تكن ترى في الآخر شخصا اعتباريا يمكن أن تتحاور معه، أو تقبل مناقشته، لأنها، ومنذ أول يوم قررت عدم الحوار، بل لم تر من حل سوى الاستئصال الجذري لا للطرق الصوفية فقط، بل لكل ما يرتبط بها من معان، وهي في هذا ترجع لأشد أنواع السلفية تطرفا، وهي السلفية الوهابية.

4 ــ من الأمور التي حالت بين الجمعية وبين الكتابة العلمية المفصلة المتضمنة للرأي والرأي الآخر، ذلك أن الفتوى في العادة توجه للعوام، ولا تقتضي ذكر الدليل بتفصيل، ولا تقتضي نقل الخلاف، ولا ذكر أدلة المخالف، ولعل الذي دعا الجمعية إلى هذا هو ما يعتمده المنهج السلفي عموما، من اعتبار ذكر الخلاف بتفصيل قد يكون نوعا من إشهار المبتدع والدعوة له بالمجان، والجمعية لا تريد هذا، ولهذا تمارس كل أنواع التشدد حتى الحسنات تبرزها بصورة السيئات حتى تتمكن من استئصال الآخر استئصالا جذريا.

5 ــ ويظهر – من خلال دراسة تراث الجمعية المكتوب – أن المواجهة الأدبية كانت أهم الأساليب وأكثرها استعمالا، ولعل ذلك يرجع أن الجمعية عاصرت في ذلك الوقت أدباء كبار كطه حسين والرافعي والزيات وغيرهم، وقد كانت تحصل بينهم أحيانا سجالات في ميادين مختلفة، وكانت أداتهم في مواجهاتهم هي ما عرفه

العرب من أساليب في هذا المجـال، بالإضـافة إلى أن هـذه الأداة كانت كأنها من الأسلحة التي لا توجـد عنـد خصـمهم، فلم يكن في الطرق الصوفية من الأدباء من له قـوة لسـانهم وحدتـه، بـل كـان الكثير منهم – على ما يظهر – ضعيفا في النواحي اللغوية، وخاصة النحو.

6 ــ تعتبر الخطابة من أهم ما كان يستعمله علماء الجمعية من أسـاليب في إيصـال رسـالتهم الإصـلاحية، والعلـة في ذلـك – كمـا يذكر الإبراهيمي- هو التأثير القوي للخطابة في التغيير والإصلاح.

7 ــ من الأشكال الأدبية الـتي اسـتعملتها الجمعيـة في مواجهـة الطرق الصوفية (الشعر)، وقد برزت فيه إلى درجـة كبـيرة، بحيث أنه قد تحول ما كتب من قصائد في هـذا الجـانب إلى زاد لا تـزال تسـتعين بـه السـلفية الحديثـة في مواجهـة التصـوف والطـرق الصوفية.

8 ــ اسـتعملت الجمعيـة المواجهـة العاطفيـة لإثـارة عواطـف الجماهير ضد الطـرق الصـوفية، وهي مواجهـة كالمواجهـة الأدبيـة تتسم بالبساطة، وبعدم الحاجـة إلى الإقنـاع العقلي المعتمـد على الدليل، بل كل اعتمادها على ما عند المستقبل من ثروة عاطفيـة، وهي من أكثر الـثروات تـوفرا خاصـة في الـزمن الـذي يكـثر فيـه الظلم والاضطهاد.

9 ــ لم نجد لدى الطرق الصوفية من أنواع المواجهات إلا نوعـا واحدا فقط يصلح للحديث عنـه ، وهـو مـا أطلقنـا عليـه المواجهـة العلمية، ذلك أن المواجهتين الأخريين: الأدبية والعاطفية تقتضـيان وجود أدباء وخطباء وذوي قدرات بيانية، ولم نجد هذا عنـد الطـرق الصوفية، وفي حـال وجـوده، فـإن الأدب الصـوفي متوجـه عمومـا للسلوك والعرفان، ولا يتوجه للجدل والخصومات.

10 ــ من خصـائص المواجهـة العلميـة لـدى الطـرق الصـوفية: اعتمادها على المصادر التي ألفت في الرد على الوهابية، وضعفها في علوم الحديث، وتسامحها مع المخالف.